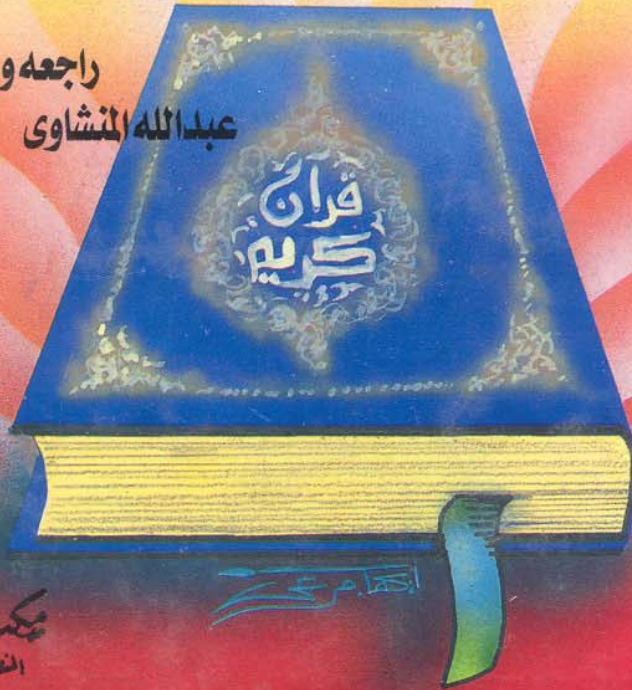


تاريخ آداب العرب

(الجزء B)

تأليف
مصطفى صادق الرافعي

راجعه وضبطه
عبدالله المنشاوي مهدي البحقيري



مكتبة الأريستان
المنشور: أمام جامعة القاهرة
٢٥٧٨٨٢

تاريخ أَداب العرب

تأليف

مصطفى صادق الرافعي

راجعه وضبطه

عبد الله المنشاوي مهدي البحقيري

(الجزء الثاني)

مكتبة الأريستان
المنصور - أمام جامعة الأزهر
ت : ٢٥٧٨٨٢

حقوق الطبع محفوظة للناسر

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع

المنصورة - أمام جامعة الأزهر

تليفون: ٣٧٨٨٢

مَقْدَمَةُ الطَّبَعَةِ الْأُولَى

بِقَلَمِ مُحَمَّدٍ سَعِيدِ الْعَرِيَّانُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قلت عن طريقة الرافعى فى الكتابة ما وسعنى أن أعرفه بنفسى حين كنت أكتب له، فقد أملى على أكثر من مائة مقالة كنتُ شاهده فيها إذ يُلقَى الوحى، ويهذب الفكرة، ويرتب المعانى، ويتألف الألفاظ، حتى تفصل عنه المقالة إلى نفس قارئها كما هى فى نفسه^(١).

وأحسب أن طريقته العامة فى كل ما كتب من المقالات هى ما وصفت عن عيان وملاحظة، ولكن لم يتهاى لى أن أشهده حين يؤلف فى موضوع من موضوعات العلم، مما يقوم على التتبع، والاستقراء، وتقليب الصحائف، وبعث الدفائن، والارتفاق إلى الكتب، والاستعانة بما انتهى إليه السابقون من حقائق العلم ونتائج البحث والروية، ثم التهدى من ذلك إلى رأى ينتهى بمقدماته إلى نتيجة.

وأنا قد قرأت الجزء الأول من كتاب (تاريخ آداب العرب) منذ بضع عشرة سنة، وألمت منه بما ألمت، واهتديت به ما اهتديت؛ ثم عدت إلى نفسى أسألها: أين ومتى اجتمع لمؤلفه هذا القدر من المعارف فى شئون العرب والعربية فألف بين أشتاتها فى هذا الكتاب؟

وظل هذا السؤال قائماً فى نفسى زمناً وما أزال من مطالعاتى فى الأدب القديم أقع على شىء بعد شىء فى صفحات متفرقة من كتب عدة يُنسَى آخرها أولها من تباعد الزمان بينها، وكلها مما اجتمع للرافعى فى كتابه. وكان ذلك يزيدنى عجباً وحيرة... وهممت أن أسأل الرافعى مرة، ولكنى لم أفعل؛

(١) حياة الرافعى ص ١٨٠ - ١٨٦.

وهممت أن أعرف بنفسى فلم أبلغ؛ ثم عزوت ذلك إلى ذاكرة الرافعى وسرعة حفظه؛ وقلت: متفرقاتٌ قد عرفها فى سنين متباعدة فوعتها حافظته، فلما هم أن يؤلف كتابه أمدته الذاكرة بما وعت منها، وكان مستحيلاً عليه أن يجمعها لو لم تجتمع له من ذات نفسها. واطمأننت إلى هذا الاستنتاج ونسبتُ إليه عدم ذكر الرافعى للمراجع التى استعان بها فى ذلك الكتاب؛ لأنه يروى عن ذاكرته! ثم قرأت له بحثه فى (الرواية والرواة)؛ فإذا هو يتحدث عن أثر الحفظ فى مؤلفات العلماء، وينادى بإحياء هذه السنّة، سنّة حفظ العلم واستظهار كتبه؛ فتأكد لى ما رأيت، وكان وهماً من الوهم عرفت حقيقته فيما بعد...

يعرف قراء العربية أن كل كتب المراجع فى لغتنا ليس لها فهارس تعين الباحث على التماس ما يريده منها فى أقصر وقت، إلا بضع كتب من المطبوعات الحديثة؛ فالأغانى، والعقد الفريد، والكامل، والعمدة، والخزانة، والحيوان، والبيان والتبيين، وكتب الطبقات، وحتى كتب الفهارس والتراجم، ليس لها فهارس يمكن الاعتماد عليها عند البحث؛ فمن أصاب منها غرضاً فعن طريق المصادفة والاتفاق، أو بعد المطاولة وضياح الزمن؛ وحسبى أن أذكر أننى ذات مرة أنفقت ليلة كاملة فى البحث عن كلمة فى البيان والتبيين ثم لم أعثر بها فطويته على سأم^(١) وملالة؛ فلما كنت بعد أيام وقد فات على الغرض الذى كنت أقصد فتحت الكتاب عرضاً، فإذا الكلمة التى كنت أريدها أمامى...

هذه الحقيقة يعرفها كل من عانى مشقة البحث فى هذه الكتب، فهى كتب للقراءة المجردة لا للبحث والتنقيب العلمى. عرف الرافعى ذلك فاتخذ له طريقاً...

منهج البحث
فكان أول ما يصنع أن ينتخب كل الكتب التى يعنيه أمرها فيما يمهّد له من البحث فيقرأها كلها قراءة درس؛ أعنى ينفضها نفضاً بحيث لا يفوته منها معنى يتصل بموضوعه. ثم يشرع بعد ذلك فى العمل، فيكتب لكل كتاب مما قرأ

(١) قلت: سأم: بمعنى مل كما فى القاموس.

ملخصاً يضم المجلدات الكثيرة فى كراسة أو كراسات يرجو أن تغنيه عن أصولها المطولة. ثم يعود إلى هذه الملخصات فيرتب أجزائها ترتيباً يضم القريب إلى القريب بحيث يجد طلبته عند النظرة الأولى من غير أن يتعب فى تقليب الأوراق. ثم تكون الخطوة الرابعة، فيزواج بين ملخصات الكتب المختلفة يضم الأشباه منها إلى الأشباه. ثم يكتب...

ثم يعود إلى ذلك المكتوب فيقرؤه قراءة الباحث: يزواج بين رأى ورأى ليخرج منهما إلى رأى ثالث.. وتجتمع له من ذلك المقدمات التى تبلغ به النتيجة...

ثم تأتى المرحلة الأخيرة، وهى التهذيب والصقل الفنى، من صناعة البيان وتحكيك الألفاظ وتجميل المعانى وتزيين الأسلوب.

سبع مراحل بين البدء والنهاية.. ثم يخرج الكتاب لقارئه ليسائل نفسه فى عجب: أين ومتى اجتمع لمؤلفه ذلك القدر من المعارف فى شئون العرب والعربية فألف بين أشباتها فى هذا الكتاب؟

سؤال كنت أسأله نفسى قبل أن أرى وأعرف وأضع يدى على تلك الأوراق التى خلفها فى درج مكتبه لأؤلف من أشباتها هذا الكتاب.

قلت: كانت المرحلة الأولى فى مؤلفات الرافعى العلمية أن يختار طائفة من الكتب يرجو أن تعينه على البحث... وأقول إن أول ما كان يختار من ذلك، كتب التراجم. وطريقته فى التحصيل من هذه الكتب، أن يقرأ الكتاب ما بين دفتيه، ثم يكتب له ملخصاً يشمل أسماء أهل الفنون الأدبية وامتياز كل منهم، مثل الشعراء، والخطباء، والكتاب، والرواة؛ ثم أسماء الكتب، وموضوعها، وفنون العلم، ومعارضات العلماء بعضهم لبعض؛ ثم الطرائف الأدبية التى تشير إلى معنى يتصل بشيء من موضوعه. وفى كتب التراجم من هذه الطرائف ما ليس فى كتاب.

وأستطيع أن أقول جازماً: إن الرافعى اعتمد على كتب الطبقات والتراجم فى الجمع لهذا الكتاب أكثر مما اعتمد على الكتب الخالصة للأدب، وكان اتجاهه إلى

ذلك سبباً في توفيقه إلى ما لم يوفق إليه غيره في موضوعه .

* * *

قدّمت في الجزء الأول من هذا الكتاب ذكر السبب الذي حفز الرافعي للتأليف في تاريخ آداب العرب، قلت: إنه انقطع لذلك في منتصف سنة ١٩٠٩ ثم أخرج الجزءين الأول والثاني في سنتي ١٩١١ و ١٩١٢ ولم يظهر له بعد ذلك شيء حتى وافاه أجله!

وكنت سمعت منه رحمه الله أنه أتم الجزء الثالث ورأيت موضعه من خزانة كتبه، ولكني لم أقرأ منه شيئاً ولم أعرف موضوع بحثه، ثم قرأت على غلاف بعض مؤلفاته المطبوعة إعلاناً عن الجزء الثالث وموضوعه «تاريخ الخطابة والأمثال والشعر» فأيقنت أنه كتاب تام التأليف والتصنيف .

فلما كان الشتاء الماضي واتفقت «المكتبة التجارية» على نشر مكتبة الرافعي، ذكرتُ فيما ذكرتُ هذا الكتاب وعرضتُ أمره؛ فرغبت المكتبة في نشره ووكّلتُ إليّ أن أقوم بترتيب مواده وتنظيم أبوابه وتحقيق أصوله وإعداده للطبع، وضربتُ لذلك أجلاً قريباً، فرضيتُ؛ كل ذلك ولم أقرأ الكتاب، ولم أستيقن موضوعه، ولم أطلع عليه، وكلُّ مبلغى من العلم به أننى أعرف موضعه من خزانة كتب مؤلفه...

وأخذت أهبتي للعمل، وزرت المكتبة التى خلفها صاحبها أوراقاً مكرومة وكتباً تستند إلى الجدران؛ وبحثت عن الكتاب حتى عثرت به، وكشفت عنه، فعرفت...

هذا كتاب مطبوع بين يدي قارئه، لا يكاد يخطر بباله حين رآه أن يسأل نفسه: ما كان هذا الكتاب وماذا صار؟ ولكنى محدّثه بخبره، لعله - إن عرف - يجد لى عذراً مما قد يراه فيه موضعاً للعتب أو المؤاخذة:

لقد كنت مخطئاً حين حسبت في أول أمرى أنى سأجد حين أجد كتاباً تام التأليف والتصنيف، ليس علىّ منه إلا أن أهينه للطبع ثم أصحح تجاربه في المطبعة؛ فإننى ما كدت أحلّ الرباط عن الأضابير التى تضخمه حتى وجدت أوراقاً

بالية حائلة اللون من تقادم السنين، وقصاصات مبعثرة على غير نظام لا يكاد يُعرَف أين مكانها من موضوعات البحث...

... ثم جهدت أن أعرف موضوعات الكتاب، ونهجه، وتبويه؛ فلم أهتدِ إلى شيء، ولم أجد بين يديّ إلا ورقات قد اجتمعت على غير ترتيب ولا نظام، في كل صفحة منها حديث عن موضوع، ليس لها بما قبلها ولا بما بعدها سبب...

... وحاولت أن أقرأ صحيفة مما بين يديّ، فأعيانى ذلك إعياءً أياسنى من الاستمرار.. فإن خط الرافعى كما قلت فى بعض ما كتبتُ عنه: هو أردأ خط قرأتُ فى العربية؛ حتى لقد كان يعيا هو نفسه أحياناً عن قراءة بعض ما يكتبه بخطه بعد مضيّ ساعات...!

... وحملتُ على نفسى ما حملت، ومضيت فى القراءة متكلماً ما لا قبل لى به؛ فإذا الحديث ينقطع بعد أسطر، وإذا هو يحيل على مراجع مختلفة يريد أن ينقل منها نصّاً، أو خبراً، أو رأياً، ومنها ما لا أملك ولا يتيسر لى، وقد يذكر رقم الصفحة المنقول عنها وقد لا يذكره، وحيناً يذكر رقم الصفحة ويُغفل اسم الكتاب... وأحياناً كثيرة يقول: «ص كذا كتاب كذا إلى العلامة» وهو يعنى علامة وضعها على الصفحة المشار إليها فى نسخته الخاصة. وأين منى نسخته الخاصة وبينى وبينها من الزمان ربع قرن أو يزيد وبينى وبين كتبه ما بين القاهرة وطنطا؟

تلك صعوبات لم أكن أتوقعها حين رضيت القيام على نشر هذا الجزء، ولكنى لم أستطع أن أنكص. وحاولت أن ينسأ الناشرُ الأجلَ المضروب لتقديم الكتاب إلى المطبعة حتى أفرغ منه على وجه تطمئن إليه نفسى؛ ولكن ضرورات تجارية كانت تحدّد له مواعيده.. فطأطأت رأسى وقلت: ذلك على أىّ أحواله خير من إهمال الكتاب حتى يأتى عليه الزمن. وأخذت فى طريقى...

أما ترتيب الكتاب فقد استهديت فيه بما ذكر المؤلف عن نمط الكتاب وأبوابه فى الجزء الأول ومقتضى هذا الترتيب أن يكون أول هذا الجزء - الباب الرابع فى

تاريخ الخطابة والأمثال، ولكنى لم أجد فيما بين يديّ من المخطوط حديثاً عن هذا الباب، إلا فهارس وجُزأت وأرقام صفحات فى مراجع مختلفة؛ فتركت هذا الباب إلى ما بعده، وجعلت أول الكتاب الباب الخامس فى تاريخ الشعر ومذاهبه وفنونه؛ ثم رتبت فصول هذا الباب على ما بدا لى، وكذلك فعلت فى البابين السادس والسابع، ثم تجاوزت البابين الثامن والتاسع، إذ كان شأنهما شأن الباب الرابع؛ ثم أثبت فى الباب العاشر فصلين كنت أحسبهما مما يشملهما موضوعه، ثم بان لى من بعد أنه أعدهما ليكونا تماماً للباب الخامس وموضوعه (تاريخ الشعر العربى ومذاهبه) كما ذكرت، ولكنى كنت قد فرغت من طبع ما قبلهما فلم أستطع تدارك ما فات. وكان شأن الباب الثانى عشر شأن الأبواب المغفلة مما سبق.

*

وإذا كان خط المؤلف على ما وصفت، وعلى ما يدل النموذج المصور مع هذه المقدمة، فإن أشق ما عانيت كان فى قراءة الأعلام؛ ولم تنهياً لى الفرصة لمراجعة كل هذه الأعلام وتصحيحها؛ فصححت ما صححت منها وتركت سائرهما على ما هو؛ إذ كان فى التعجيل بنشر الكتاب حفظ له من الضياع وكان تحقيق الأعلام شيئاً يمكن استدراكه. على أنى أحسب أن المؤلف رحمه الله لم يكن قد فرغ من تأليف الكتاب والبلوغ به إلى المرحلة الأخيرة من مراحلها فى التأليف على ما وصفت فى أول هذا البحث؛ فنقل كثيراً من الأعلام كما هى فى مراجعتها ولم يفرغ من تحقيقها، وكذلك جاءت فى هذا المطبوع. فهذه معاذيرى أقدمها لعلها تكون شفيعاً عند الناقد المتصفح.

ولا يفوتنى وأنا أكتب هذه المقدمة، أن أنوّه بالمساعدة المشكورة التى أساءها إلىّ (أحمد ممدوح دسوقي أفندى) المدرس بوزارة المعارف فقد قام بنسخ الكتاب عن أصله المكتوب بخط المؤلف، وهو عناء فوق ما أصف، احتمله راضياً لوجه العلم ووفاء بحق الرافعى على أهل الأدب وتقديراً لأيديه.

* * *

ولا أختتم هذا الحديث قبل أن أذكر ما وقفت عليه من تأليف هذا الكتاب، فقد كنت أحسب أن ذلك كان بعد سنة ١٩١٢، أى بعد الفراغ من إصدار الجزء الثانى، ولكنى رأيت إشارات فى بعض الفصول من هذا الجزء تدل

على أن تأليفها كان قبل ذلك التاريخ (انظر التعليق في بحث «الشعر الحكى» وبحث «الشعر الأخلاقي») ولعله بدأ به مع الجزء الأول في منتصف سنة ١٩٠٩ ثم رتب أجزاءً وأبواباً فنشر منه ما نشر وطوى ما طوى. وما يرجح عندي هذا الظن، أن جُزْأَتِ مما كتب عليها بعض مباحثه، هي (استمارات) استعارة كتب من المكتبة الخديوية وعليها تاريخ الاستعارة، ولا يكون ذلك إلا أن يكون تاريخ التأليف هو تاريخ الاستعارة. وما يلد أن أذكره هنا أن جزاة من هذه الجزاءات هي تذكرة دعوة إلى عرس عليها تاريخها، قد اتخذ ظهرها للكتابة...

أما بعد، فهذا كتاب جديد قديم... أحسب أن قراء العربية كانوا في شوق إليه، فلعلهم إذ يقرءون يجدونه فيه - على قدمه - جديداً كانوا يتشوقون إليه؛ فيذكرون مؤلفه بما بذل للعربية حياً وميتاً؛ فيدعون له دعوة ترطب ثراه، وتكون له شفاعة عند الله.

محمد سعيد العريان

٢٠ من ربيع الآخر سنة ١٣٥٩

٢٧ من مايو سنة ١٩٤٠

ابواب ناقصه من المجلد

تاريخ الخطاب والامثال

البابُ الخامس
تاريخ الشعر العربي
ومذاهبه وفنونه
المستحدثة منه
وما يلحق به

يا معين الأقوال فى أولية الشعر العربى

إذا ذهبنا نتبع الشعر العربى إلى أوليته، رأينا لدينا من أحوال الجاهلية تاريخاً سقيم التركيب متفكك الأجزاء مضطرب الجهات، لا يكشف منه التعب ولا يبلغ فيه النصب^(١)؛ وإذا كان ما ورد فى كتب اليونان والروم عن جزيرة العرب، وما كشفوه من الآثار فى هذا العهد، مما يستأنس به فى تأريخ بعض أول الجاهلية، فليس للشعر من مثل ذلك شىء؛ لأنه لا يعنى غير أهله، وهم عرب أميون، ولم يكن للشعر فى جاهليتهم الأولى ما كان له من الشأن فى جاهليتهم الأخيرة؛ نعرف ذلك من تتبع أحوالهم الاجتماعية كما سنشير إليه.

وقد تصفحنا التواريخ العربية وراجعنا ما نقلوه عن أهل الرواية وهم مصدر آداب الجاهلية وأخبارها، فرأينا أن ما كتبوه من ذلك إذا صلح أن ينقل فهو لا يصلح أن يعقل، وهذا المسعودى يروى فى (مروج الذهب) أشعاراً عربية للقبائل البائدة: كعاد وثمرود وطسم وجديس، وهى روايات لا يقيد بها تاريخ ولا يحدها بزمن؛ فيمكن على ذلك أن تدخل فى غمار المفتريات والأقاصيص.

ولكننا رأينا يذكر ممن كان فى الفترة، أسعد أبا كرب الحميرى أول من كسا الكعبة الأنطاع والبرود، قال: وكان مؤمناً، وآمن بالنبى ﷺ قبل أن يبعث بسبعمائة سنة، ثم استدل على ذلك بشعر نسبه إليه، وهذا منتهى العجب^(٢).

ويقول الجاحظ فى كتاب (البيان) عن هذه القبائل: وقد ذكرت العرب هذه الأمم البائدة والقرون السالفة، ولبعضهم بقايا قليلة وهم أشلاء^(٣) فى العرب متفرقون مغمورون: مثل جرهم وجاسم ووبار وعملاق وأميم وطسم وجديس ولقمان والهس ماس وبنى الناصور، وقيل بن عثر^(٤) وذى جدن، ويقال فى بنى

(١) قلت: النَّصَب: نصب الأمر فلاناً أى: أتعبه وأعباه، وَنَصَبَ: أعباه وَتَعَبَ.

(٢) مروج الذهب: ٣٢/١.

(٣) قلت: أشلاء: مفرداً (شَلُو) أى عضو كما فى الوسيط.

(٤) قلت: فى تفسير الطبرى: عثر.

الناصر أن أصلهم من الروم.

فجعل لهذه القبائل بقايا مغمورين في العرب، ولعل ذلك كان مستفيضاً بين الرواة ليرجحوا به صحة ما نقلوه، إذ الخلف مستودع أخبار السلف؛ ولكنهم إنما أثبتوا هذه البقايا لما جاء في القرآن عن ثمود من قوله تعالى: ﴿وَأَبْقَى﴾^(١) وقوله: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾^(٢) فأخذوا من ذلك أن غير ثمود لهم بقية في العرب، وغفلوا عما يعطيه لفظ الآية ويدل عليه السياق.

وقد بالغنا في تتبع أخبار الوقائع والأيام التي ورد فيها للعرب شعر؛ لأن مثل هذه الوقائع لا يسوقها الرواة نفيًا لدليل ثابت ولا إثباتًا لحجة مقتضية، فهي بعيدة بطبيعتها عن اختلاف الشعر؛ ثم جهدنا أن نثبت تاريخ أقدم تلك الأيام؛ ولا سبيل إلى ذلك إلا بقرينة الأعلام التي ترد فيها، فرأينا في أخبار يوم الرحرهان أن زهير ابن جذيمة بن رواحة سيد قيس بن عيلان تزوج إليه النعمان بن امرئ القيس ملك الحيرة، ولزهير هذا شعر جيد، فحسبنا شعره قيل في أوائل القرن الخامس للميلاد؛ لأن النعمان بن امرئ القيس توفي سنة ٤٣١، ولكننا رأينا في أخبار داحس والغبراء أن عنترة بن شداد رثى مالك بن قيس المعروف بقيس الرأى. وهو ابن زهير الذي ذكرناه، وقالوا إنه أنشد أباه وقومه القصيدة؛ وعنترة توفي في القرن السابع للميلاد. فلم نظفر مع هذا الخلط بشيء.

وروى الجاحظ في كتاب الحيوان عن الهيثم وابن الكلبي وأبي عبيدة، أن كل أمة تعتمد في استبقاء مآثرها وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وشكل من الأشكال، وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى وهو ديوانها... قال: ثم إن العرب أحبت أن تشارك العجم في البناء وتنفرد بالشعر فبنوا غمدان وكعبة نجران إلخ.

وذلك يدل على أن العرب اقتصروا في تخليد مآثرهم على الشعر أولاً ثم شاركوا العجم في تخليدها بالبناء، ولكن الهمداني وياقوت ذكرا أن الذي بنى غمدان، هو لَيْشَرَحُ بْنُ يَحْصَب، وهو من ملوك حمير، كان حوالى تاريخ الميلاد،

(٢) سورة الحاقة: ٨.

(١) سورة النجم: ٥١.

وقد بقي غمدان إلى زمن عثمان بن عفان وهو الذى هدمه^(١)، ووقف الهمداني على بقاياها فى القرن الرابع للهجرة. وعلى ذلك يكون الشعر العربى فخر حمير من قبل الميلاد، ويقول الجاحظ: إذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فماتى عام؛ وهذا هو الذى نذهب إليه.

وقد ترجح لدينا أن سبب هذا الخلط فى كلام الرواة، غفلتهم عن تأريخ الوقائع المعروفة، وجهلهم بما أثبتته الفرس والروم فى تواريخهم عن ملوك العرب التابعين لهم من المناذرة والغسانيين؛ فابن قتيبة يقول فى طبقاته عن زهير بن جناب: إنه جاهلى قديم، ثم يقول: ولما قدمت الحبشة تريد هدم الكعبة بعثه ملكهم إلى أرض العراق ليدعو من هناك إلى طاعته. وإنما كانت حادثة الحبشة فى القرن السادس للميلاد، ونسب ابن قتيبة لزهير هذا البيت المشهور:

من كل ما نال الفتى قد نلته إلا التحية

وهذا البيت نسبه غيره للجيم بن صعب، وعدّه صاحب المزهري فى قدماء الشعراء؛ وكل ما وقفنا عليه من أقوالهم فى قدم الشعر يمكننا أن نورده أمثلة على ذلك الخلط؛ وقد بالغ بعضهم فعّد آباء القبائل فى الشعراء، كربيعة ومضر، وكمنبه - أبى باهلة - وغنى، والطفافة، وغيرهم من الأسماء التى لا دليل عليها من خبر أو زمان وكل ما فيها تسلسل النسب وقدم العهد.

تحقيق هذه الأوليّة :

والذى عندنا أن أولية الشعر العربى لا ترتفع عن مائتى سنة قبل الهجرة، ولا يذهب عنك أننا لا نريد بالشعر التصورات والمعانى، فهذه فطرية فى الإنسان، ولا بد أن تكون قد استقلت طريقتهما فى العرب من أقدم أزمانهم إلى ما وراء ألفى سنة قبل الميلاد، وكذلك لا نريد بالشعر مطلق ما اصطالحوا على وصفه من ذلك، فهذا قد يكون منه شئ فى العدنانية قبل الميلاد أو حواليه، ولكنه بغير اللغة المضرية طبعاً، وإنما نريد بالشعر هذا الموزون المقفى، باللغة التى وصلت إلينا،

(١) الحيوان للجاحظ : ج ١

وكل بحث فيما وراء ذلك لا يتعلق بهذه اللغة نفسها.

كانت منازل العدنانيين شمالي بلاد اليمن فى تهامة والحجاز ونجد وما وراءها شمالاً إلى مشارف الشام والعراق، ويقال إن لغتهم واللغة الحميرية التى هى لغة عرب الجنوب فى اليمن، من أصل واحد، على الاختلاف بينهما فى الإعراب والضمائر والاشتقاق والتصريف، وهم ينتسبون إلى إسماعيل، فىكون بدء تاريخهم فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد إذا صح ذلك النسب، وآخر ما ذكرته منهم التوراة يرجع إلى القرن السادس قبل الميلاد، وذلك زمن بختنصر الذى غزا قبيلة معد، وهى أحد فرعى العدنانية: عك، ومعد. ثم ظل العرب خاملين حتى نبه اسمهم قبيل الميلاد، وذلك أن عقب عدنان إنما هو من قبيلة معد، وقد انقسمت إلى فرعين: نزار، وقنص، والكثرة والنسل فى نزار، وهم فروع، أشهرها خمسة: قضاة، ومضر، وربيعة، وإياد، وأنمار؛ وقد ذكر البكرى أن مساكن قضاة ومراعى أنعامهم كانت جدة من شاطئ البحر فما دونها شرقاً إلى منتهى ذات عرق، وهى الحد بين نجد وتهامة، إلى حيز الحرم من السهل والجبل. وقبائل مضر أقامت فى حيز الحرم إلى السروات وما دونها من الغور وما والاها من البلاد، وأقامت ربيعة فى مهبط الجبل من غمر ذى كندة وبطن ذات عرق وما صاقبها من بلاد نجد إلى الغور من تهامة. وأقامت إياد وأنمار معاً ما بين حد أرض مضر إلى حد نجران وما والاها وصاقبها، وصار لقنص وغيره من ولد معد أرض مكة وأوديتها وشعابها وجبالها وما صاقبها من البلاد^(١).

فاستقرت هذه القبائل فى منازلها حتى وقعت بينهم الفتن وفرقتهم الحروب، فتباينت مساكنهم، وكانت قضاة أول من نزح منهم حوالى تاريخ الميلاد، فنزلت بطونها فى مساكن مختلفة، ثم نزحت أنمار، ثم إياد، ثم ربيعة، ثم مضر؛ ولذلك تاريخ لا محل له هنا، فملأوا الجزيرة وابتدأ تاريخهم الاجتماعى الحديث؛ لأن بأسهم أصبح بينهم، فنشأت فيهم يومئذ مقتضيات الشعر ومثلت لهم أغراضه.

(١) تاريخ العرب : ص ١٧٠ .

نشأة الشعر

ليس شعر الجاهلية مطلق الكلام الموزون، ولكنه مع وزنه ينبغي أن يكون ممتازاً في تركيبه وتأليف ألفاظه، فإذا عارضته بالمشهور من كلامهم رجح برونق العبارة والاختصار في الدلالة واستجماع الغرض من الكلام، حتى يصح أن يقال فيه إنه إحساس ناطق. وهذه الأمة من أمم الفطرة، فليس لديها من أسباب التعلم والأخذ عن الأمم الأخرى شيء، فلا بد أن يكون شعرها كملاً في اللغة، فلم ينطقوا به حتى هذبت وصفيت وصارت إلى المطاوعة في تصوير الإحساس وتأديته على وجهه الأتم؛ وهذا شأن لا يكون في لغة من اللغات إلا بعد أن تستقل طريقة تصريفها واشتقاقها ثم يتناولها التنقيح^(١)، ثم يُجمع عليها في الاستعمال؛ وقد جرت على ذلك لغة العرب العدنانية؛ فإنها انفصلت عن اللغة السامية التي تفرعت منها، ثم استقلت طريقتهما بالوضع^(٢) والارتجال، ثم أخذوا في تهذيبها وتصفيتها حتى خرجت منها لغة مضر؛ ومن هذه اللغة خرج الشعر، ولا يتجاوز ذلك مائتي سنة قبل الهجرة على التحقيق.

اعتبر ذلك بما قاله أبو عبيدة من أن العرب لا تروى شعر أبي دؤاد وعدى بن زيد؛ لأن ألفاظهما ليست بنجدية، فلا بد أن يكون أساس الشعر عندهم على صميم العربية من لسان مضر، وما عدا ذلك فهو مما تبعث عليه فطرة صاحبه، ولكن العرب لا يبالون به ولا يروونه، وعلى هذا مشى المتأخرون في الاحتجاج بالشعر العربي، فالعلماء لا يرون شعر عدى بن زيد حجة (٣٤ - الطبقات^(٣))؛ لأنه كان يسكن بالحيرة ويدخل الأرياف، فثقل لسانه؛ وهذا الاعتبار يحدد لنا منشأ الشعر، فإن عرب الجنوب وعرب الشمال كانوا يرتضخون لكنة^(٤) حميرية أو أرامية أو نبطية أو عريية مشوبة بإحداها، وإن أكثر قبائل مضر هي التي نزلت نجداً وماحولته إلى تهامة والحجاز، فهي صميم العربية، وهنا منشأ الشعر على ما نرجح.

(١) قلت: نَقَّح: بالغ في التنقيح، وتنقيح الكلام أو الكتاب: تهذيبه وإصلاحه كما في الوسيط.

(٢) قلت: الوضع: وَضَعَ الكلام وَضْعاً: اختلقه.

(٣) قلت: يقصد المؤلف الشعر والشعراء لابن قتيبة.

(٤) قلت: لكنة بالضم: مالا يقيم العربية لعجمة لسانه كما في القاموس.

ومن الأدلة على حداثة الشعر ما روه من أن كل قبيلة ادعت لشاعرها أنه الأول، ولم يدعوا ذلك لقائل البيتين والثلاثة، لأنهم لا يسمون ذلك شعراً، فادعت اليمانية لامرئ القيس، وبنو أسد لعبيد بن الأبرص، وتغلب لمهلhel، وبكر لعمر بن قميئة والمرقش الأكبر، وإباد لأبى دؤاد^(١) وأقدم هؤلاء فى القرن الرابع للميلاد، وليس يدل ذلك على أنهم تنازعوا فى أول من قال الشعر، ولكن فى أول من أطاله وتصرف فيه، ولولا أن مبدأه قريب من هؤلاء لوقع إليهم من الشعر المروى ما يحسم مادة النزاع.

ودليل آخر، وهو أن لعبيد بن الأبرص قصيدته التى مطلعها:

* أقفر من أهله ملحوب^(٢) *

وهى مما لا يستقيم على وزن معروف من أوزانهم، ولا يطرد الموزون منها على وزنه، وهم مع ذلك يروونها وتُعدُّ من مفردات قائلها، وقد أسقطوا غيرها كثيراً، فلولا أن أوزان الشعر كان يومئذ لم يمر عليها جيل بحيث لم تكن ألفتها الطبائع بعد لأنكروا قصيدة عبيد، ولالتوت دونها ألسنتهم؛ ولم يبلغنا من ذلك شىء على كثرة اهتمام الرواة بالتجريح والتعديل.

الباعث على اختراع الشعر :

الشعر قديم فى فطرة العرب كما قلنا، ولكننا إنما نبحت فى هذا الكلام المقفى الموزون، فهو بهذا القيد لا يكون شعراً حتى يكون قد استوفى صفة اللفظ، ولا يستوفىها حتى تكون الألفاظ قد مرت بها اللغة فى أدوار كثيرة كما أشرنا إلى ذلك، وقد بقى أن نعرف كيف نطقوا بهذا الكلام، وما الذى نبههم إليه وأجراه على ألسنتهم، وهو معلوم أن ذلك لا يمكن أن يكون احتذاءً لشعر أمة أخرى، فإن السريانيين والعبرانيين لا يشترطون فى شعرهم التقفية، والعبرانيون قد يشترطون القافية دون الوزن، فيكون الشعر شبيهاً بالسجع عند العرب؛ فضلاً عن أن هذه الأوزان العربية ليست لأمة من الأمم؛ قال ابن رشيق فى ذلك: كان الكلام كله

(١) المزهر : ٢٣٨/٢.

(٢) قلت: ملحوب: حب الطريق لحوباً، وضَح. فهو لاجِبٌ.

مشوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة، وفرسانها الأنجاد، وسمحاتها الأجواد، لتهز نفوسها إلى الكرم، وتدل أبنائها على حسن الشيم، فتوهموا أعاريض^(١) فعملوها موازين للكلام؛ فلما تم لهم وزنه سموه شعراً؛ لأنهم قد شعروا به، أى فطنوا له.

وهو كلام يعطيك من ظاهره ما شئت أن تتأول ولا باطن له؛ ولكن الذى عندنا من ذلك أن الوزن نفسه مر فى العرب على أدوار، فكانوا يحدون^(٢) الإبل من أقدم أزمانهم بكلام وأصوات تشبه التوقيع؛ لأنه من المعلوم بالضرورة أنه لا ينفس من التعب ولا يبعث على النشاط غير الأصوات الموقعة على وزن ما؛ وقد نقل ابن رشيق فى العمدة أن أصل الحداء عندهم من النصب، وهو غناء الركبان والفتيان، اشتقه رجل من كلب يقال له جناب بن عبد الله بن هبل، فسمى لذلك: الغناء الجنابى، وكله يخرج من أصل الطويل فى العروض. وهو لا يريد إلا الحداء المنظم الموزون الذى جروا عليه أخيراً صنعة لا فطرة فيها. وقال فى موضع آخر: ويقال إن أول من أخذ فى ترجيع الحداء، مضر بن نزار؛ فإن سقط عن جمل فانكسرت يده، فحملوه وهو يقول: وايداه وايداه! وكان أحسن خلق الله جرماً وصوتاً، فأصغت الإبل إليه وجدّت فى السير، فجعلت العرب مثلاً لقوله «هايدا هايدا» يحدون به الإبل. وقالوا فى أصل الحداء غير ذلك^(٣) ولكنهم لم يرجعوه إلى ما قبل زمن مضر، وهى أقوال لا دليل عليها، وإنما جاءوا بها تأويلاً للفظ الحداء عند العرب.

ثم خرجوا عن هذا الوزن فى الحداء إلى وزن الأصوات فى الحروب، إذ كانوا فى ذلك لا يجرون على نظام كنظام الأمم المتحضرة، ومن أجل ذلك كان طبيعياً أن تكون تلك الأصوات القوية مما تشدّ به القلوب على القلوب، وهم لا يمدحون شيئاً كجهازة الصوت وسعة الجرم^(٤)، ولهم فى ذلك أخبار عريضة ذكر الجاحظ

(١) قلت: أعاريض: مفردا (العروض)، وهو علم موازين الشعر.

(٢) قلت: يحدون: حدا الإبل: ساقها وحثها على السير بالحذاء أى بالغناء للإبل.

(٣) العمدة: ٢/٢٤١.

(٤) قلت: الجرم: جرم الصوت: جهارته.

منها طرفاً فى كتابه «البيان»؛ ثم إنهم كانوا يخرجون تلك الأصوات فى مواقفهم للضرب والطعن والصراع والجلاد، وتارة مقاطيع من الحروف تكون صيحات، وتارة كلمات، كقولهم مثلاً عند الطعن: خذها وأنا فلان! ونحو ذلك، وهو مما تبعث عليه فطرتهم وأحوالهم من الأخلاق والاجتماع، فلا بد أن يكون ذلك منشأ انتباههم إلى الوزن؛ إذ لا يبعد أن يكون قد صاح بعضهم بكلمات قذفها القلب غضباً وحدة، فجاءت كما يجىء قسيم بيت، ثم خرجت على أثرها كلمات أخرى وكانت أشد من تلك، فانتهت بحركة مفرعة هى حركة القافية، ثم انتبه الصائح إلى تتابع هذه الحركات، ووافق ذلك رفيف قلبه واهتزاز نفسه وتحريك الحمية والإعجاب، فقفى على البيت بآخر؛ وكان هذا سبب الانتباه إليه والشعور به، ثم شاع بينهم بعد ذلك وقصدوا إليه قصداً فى أغراضهم التى مثلت لهم بعد ذلك، من المقارضة والمماتنة والمفاتنة حين بعثتهم على ذلك طبيعة التفرق وأحوال الاجتماع البدوى، بعد أن طارت بهم الفتن ومزقتهم الحروب على ما نعرفه من التاريخ؛ فتبعوا الوزن وبنوا عليه ورتبوا فيه المحاسن التى يقع الاضطراب بوزنها وتهش النفوس إليها، ثم خصوه بعد ذلك بما ينصرف إليه القول من وجوه التفاصيل، فكان ذلك سبباً فى إطالته وإحكامه.

وأنت إذا تدبرت حركات الأبحر التى شاع فيها نظم العرب، رأيتها من الحركات الحماسية، ولذلك بنى أكثر شعرهم على الحماسة، خصوصاً ما وقع إلينا من الشعر القديم، فإن لم تكن تفاعيل الوزن من الحركات الحماسية كانت موسيقية مما تتحرك به العواطف؛ من أجل ذلك قلّت فى شعرهم القوافى الضعيفة إلى حد الندرة، لأن القافية قرار المعنى، وهى الصوت الطبيعى الذى ينزل من الشعر منزلة الإشارة التى تصحب كلام المتكلم؛ وتلك العناية منهم بها مما يرجح عندنا أن أصل الاهتمام إلى الوزن إنما كان بالقافية وما فيها من الرنين وما وافق من ذلك حمية الجاهلية كما سلفت الإشارة إليه.

وعلى هذا كان لابد فى الأوزان التى نظموا بها من موافقة المعنى فى حركاته النفسية، للوزن فى حركاته اللفظية، حتى يكون هذا قالب ذاك؛ وإذا أنت اعترضت شعر الجاهلية فإنك ترى كل بحر من البحور مخصوصاً بنوع من

المعاني، فالطويل وهو أكثر الأوزان شيوعاً بينهم، إنما اتسع لتُفرَّغ فيه العواطف جملة، فهو يتناول الغزل الممزوج بالحسرة، والحماسة التي يخالطها شيء من الإنسانية، والرثاء الذي يُتوسَّع فيه بقصِّ الأعمال مبالغة في الأسف والحزن؛ ويتصل بذلك سائر ما يدل على التأمل المستخرج من أعماق النفس، كالتشبيهات والأوصاف ونحوها؛ وبالجمله فإن حركات هذا الوزن إنما تجرى على نغمة واحدة في سائر المعاني، وهذه النغمة تشبه أن تكون حركة الوقار في نفس الإنسان، بخلاف الكامل؛ فإن كل ما يحمل من المعاني لا يدل إلا على حركة من حركات النزق^(١) في هذه النفوس، فإن كان حماسة كان شديداً، وإن كان غزلاً كان أدخل في باب العتاب والارتفاع إلى الشكوى، وإن كان رثاء كان أقرب إلى التذمر والسخط، وإن كان وصفاً كان نظراً سريعاً لا سكون فيه ولا إبطاء؛ وقس على ذلك سائر الأوزان، وهذه الأسرار الدقيقة هي التي امتاز بها الشعر العربي على كل ما سواه من أشعار الأمم، وهي هي التي يتفاضل بها الشعراء على مقدار رعايتها وعلى حساب ما يلهمون منها فيما ينظمون.

أول من قصد القصائد :

قال محمد بن سلام الجمحي - في طبقات الشعراء - : لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حاجته، وإنما قصّدت القصائد وطول الشعر على عهد عبد المطلب أو هاشم بن عبد مناف، وهاشم هذا هو الجد الثاني للنبي ﷺ، فيكون ذلك قبل الهجرة بمائة سنة على الأكثر، وهو العهد الذي نبغ فيه عدي بن ربيعة التغلبي الملقب بالملهل، خال امرئ القيس. وقال الأصمعي: إنه أول من يروى له كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً من الشعر. نقول: ولعل هذه الكلمة هي التي قام بها على قبر أخيه كليب ومطلعها:

* أهاج قذاة عيني الادرار *

وإذا كان الشعر العربي طبيعياً كما أسلفنا، فإن العوامل في نموه لابد أن تكون طبيعية، وعلى ذلك فنحن نرجح ما قالوه من أن عدياً هذا هو أول من قصد

(١) قلت: النزق: الخفة والطيش في كل أمر.

القصاص و ذكر الوقائع فى شعره؛ لانه كان غزلاً على همته، زير نساء على شجاعته، وكان أخوه كليب بن وائل الفارس المشهور أحد الثلاثة الذين اجتمعت عليهم معد، وهم عامر بن الظرب، وربيعه بن الحارث وكليب هذا^(١)، فلما قتل فى الخبر المعروف، وكان قتله سبب الأيام بين بكر وتغلب، سير فيه عدى قصائد عدة، أرق بها الشعر وهلكه؛ وبهذا السبب لزمه لقب المهلهل، فكان طبيعياً بعد أن كان أخوه يعيره بأنه زير نساء، أن يعلن همته فى القيام بثأره وحميته لذلك، وأن يشير بهذه الفجيرة ليعرف العرب منزلته من أخيه فى الهمة، ومنزلة أخيه من نفسه فى الحمية والجاهلية؛ وسنأتى على وصف هذه المراثى فى ترجمته.

فكان الشعر قبل مهلهل رجزاً وقطعاً، فقصد مهلهل، ثم جاء امرؤ القيس فافتن به، وظل الرجز على قصره بمقدار ما تمتح الدلاء^(٢)، أو يتنفس المنشد فى الحداء، حتى كان الأغلب العجلى وهو على عهد النبى ﷺ، فطوله شيئاً يسيراً وجعله كالقصيد، وجاء بعده العجاج وهو ابنه رؤبة أشهر أهل الرجز، ففعل به ما فعل امرؤ القيس بالشعر بعد المهلهل.

الرجز والقصيد :

وما نقله ابن رشيق أن الراجز قلما يقصد، فإن جمعهما كان نهاية، نحو أبى النجم؛ فإنه كان يقصد، وأما غيلان - ذو الرمة - فإنه كان راجزاً، ثم صار إلى التقصيد، وسئل عن ذلك فقال: رأيتنى لا أقع بين هذين الرجلين على شيء، يعنى العجاج وابنه رؤبة؛ وكان جرير والفرزدق يرجزان، وكذلك عمر بن لجأ كان راجزاً مقصداً، ومثله حميد الأرقط والعماني أيضاً، وأقلهم رجزاً الفرزدق^(٣). والرجز كثير عند العرب لسهولة الحمل عليه، حتى سماه المتأخرون حمار الشعر، وقد وقع إلى الرواة من ذلك شيء كثير، فكان الأصمعى يحفظ ستة عشر ألف أرجوزة على ما قيل، وعندنا أن ذلك ليس بكثير إذا علمت ما نقله الجاحظ عن أبى عبيدة، قال: اجتمع ثلاثة من بنى سعد يراجزون بنى جعدة، فقيل لشيوخ من

(١) ابن الأثير : ٢٣٧/١ .

(٢) قلت : تمتح الدلاء : تضرب رشاءها، والمتوح : القوى فى نزع الدلو.

(٣) العمدة : ١٢٤/١ .

بنى سعد: ما عندك؟ قال: أرجز بهم يوماً إلى الليل لا أُنْفِج^(١)؛ وقيل لآخر: ما عندك؟ قال: أرجز بهم يوماً إلى الليل لا أُنْكَفُ^(٢)؛ فقليل للآخر الثالث: ما عندك؟ قال: أرجز بهم يوماً إلى الليل لا أُنْكَشُ^(٣). فلما سمعت بنو جعدة كلامهم انصرفوا وخلوهم^(٤). وكانوا يُروون صبيانهم الأرجاز ويعلمونهم المناقلات ويأمرونهم برفع الصوت وتحقيق الإعراب؛ لأن ذلك يفتق المهارة ويفتح الجرم، واللسان إذا أكثر تحريكه رق ولان، وإذا قللت تقلبيه وأطلت إسكاته جساً وغلظ^(٥). وليس كالرجز ما يهت الأَشْدَاق^(٦) ويوطئ للشعر ويأخذ النفس بهذه الملكة الموسيقية، ويكاد يكون منفصلاً عن الشعر من حيث الارتباط بين وزنه ومعناه، فهم يرسلونه كلاماً كالكلام، ولكنه أخص ما يكون فيما يؤلف بين حركات البدن وحركات النفس؛ فكانوا يتراجزون على أفواه القلب، وفي بطون الطرق، وعند مجاثاة الخصم، وساعة المشاورة، وفي نفس المجادلة ونحو ذلك^(٧).

-
- (١) لا أعيأ. (٢) لا أنقطع.
(٣) لا أنرف. (٤) البيان: جـ ٢.
(٥) البيان: جـ ١.
(٦) قلت: الأَشْدَاق: مفردا (الشَّدَق): جانب الفم مما تحت الحد.
(٧) البيان: جـ ٢.

الشعرُ في القبائل

كان الشعر إلى مائة سنة قبل الهجرة في أول عهذه بالافتنان والتصرف، ولم يكن تم تهذيب اللغة على نحو ما صارت إليه لعهد القرآن، فكان طبيعياً أن لا ينصرف العرب إلى المباهاة به والمفاخرة بقائله منهم؛ ولكن لما جعل الشعراء يحتفلون ويتصرفون في اللغة ويتناولون أعذب ألفاظها ثم يأتون مكة في موسم الحج فيعرضون أشعارهم على أندية قريش، فما استحسّوه منها روى وكان فخراً لقائله في القبائل كلها؛ إذ يحضرون الموسم جميعاً لأن كل قبيلة كان لها صنم في الكعبة تأتي لزيارته حتى زادت عدة الأصنام فيها على ثلاثمائة صنم - أصبح العرب بعد ذلك يفاخرون بشعرائهم، وصار الشاعر أيضاً يباهى بقبيلته ويغض من غيرها، فذلك دينه السياسي وديده، حتى لا يصدق الرواة أن شاعراً يمدح قبيلة بينها وبين حيه عداوة؛ وكان أبو عبيدة إذا أنشدوه أبيات العرنس^(١) وهو أحد بني بكر بن كلاب التي يقال إنه مدح بها بني يدر الغنوين، ومنها البيت المشهور:

من تلق منهم تقل لا قيتُ سيدهم مثل النجوم التي يسرى بها السارى

يقول: هذا والله محال، كلابي يمدح غنويّاً؟ يعني عداوة الحيين^(٢) كان من ذلك أن انصرفوا إلى المنافرات وهي تزيد مادة الحرص في الطباع، وتمكن غريزة الفخر في النفوس، فصاروا من حاجتهم للشعراء إلى حال كانوا إذا نبغ الشاعر في قبيلة أتت القبائل فهنأتها بذلك وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأعراس وتتباشر الرجال والولدان، لأن حماية لأعراضهم وذبح عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم وإشادة لذكورهم؛ وكانوا لا يهتئون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج؛ وسنلم بشيء من أدلة ذلك في باب الهجاء.

ولا عجب بعد ما مر بك أن يكون الشعر عصبية في القبائل، ومن ذلك ما يقولون إن الشعر كان في الجاهلية في ربيعة، فكان منهم مهلهل والمرقشان،

(١) قلت: العرنس : من الإبل الشديد والسل الكثير والأسد كما في القاموس .

(٢) سرح العيون: ص ٢٩٦ .

والأكبر منهما عم الأصغر، والأصغر عم طرفة بن العبد، واسم الأكبر عوف بن سعد، واسم الأصغر عمرو بن حرملة، وقيل ريعة بن سفيان؛ ثم كان منهم أيضاً سعد بن مالك، وطرفة بن العبد، وعمرو بن قمئة، والحارث بن حلزة، والمتلمس، والأعشى، وخاله المسيب بن علس. ثم تحول الشعر إلى قيس، فمنهم النابغتان، وزهير بن أبي سلمى وابنه كعب، ولبيد، والحطيئة، والشماع وأخوه مُزرد، وخداش بن زهير؛ ثم استقر الشعر في تميم، ومنهم كان أوس بن حجر شاعر مضر في الجاهلية، لم يتقدمه أحد منهم حتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه وبقي شاعر تميم في الجاهلية غير مدافع.

وقال الأصمعي: قال أبو عمرو بن العلاء: أفصح الشعراء لساناً وأعذبهم، أهل السروات، وهن ثلاث - وهى الجبال المطلة على تهامة مما يلي اليمن - فأولها هذيل، وهى تلى السهل من تهامة؛ ثم بجيلة السراة الوسطى وقد شاركتهم ثقيف فى ناحية منها؛ ثم سراة الأزد أزد شنوءة، وهم بنو الحارث كعب بن الحارث بن نضر بن الأزد. وقوم يرون مقدمة الشعر لليمن فى الجاهلية بامرئ القيس، وفى الإسلام بحسان بن ثابت، وفى المولدين بالحسن بن هانئ وأصحابه: مسلم بن الوليد، وأبى الشيص، ودعبل، وفى الطبقة التى تليهم بالطائيين حبيب والبحترى^(١) على أنه ليس من الممكن أن يحاط بالشعراء المعروفين فى قبائلهم وعشائرتهم فى الجاهلية والإسلام، ولم يقع لأحد من العلماء أنه استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته منها شاعر إلا عرفه، وأشهر من يعرفون أكثر شعرائهم قبائل هذيل، فقد رووا منها لأربعين شاعراً فى الجاهلية والإسلام، وجمع بعض شعرهم فى ديوان شرحه العسكرى (وطبع الجزء الأول منه فى أوروبا)؛ وقد ترجم منهم ابن قتيبة فى طبقاته طائفة قليلة، وكان منهم بنو مرة، وهم عشر رهط كلهم دُهاة شعراء، وهم أبو خراش وأبو جندب والأبج والأسود وأبو الأسود وعمرو وزهير وجناد وسفيان وعروة. ومرة أبوهم هو أحد بنى قرد بن معاوية بن تميم بن سعد ابن هذيل. وأمهم أم سفيان لبني وهى امرأة من بنى حنيفة. وذلك لم يتفق فى العرب لغير هذيل. ومن شعراء هذه القبيلة، جنوب المشهورة أخت عمروذى

(١) العمدة : ٥٥/١.

الكلب وأختها عمرة، وأول من عرف من شعرائها خويلد ابن وائلة بن مطحل من بنى سهم بن معاوية وهو أبو معقل بن خويلد الشاعر المعدود - وكان معقل زمن أبي يكسوم ملك الحبشة صاحب الفيل - ولكن أشهرهم جميعاً وأشعرهم أبو ذؤيب الذي كان في زمن عبد الله بن الزبير وخرج معه في مغزى نحو المغرب فمات.

ومن عجيب أمر الشعر في القبائل ما ذكره الجاحظ أن عبد القيس بعد محاربة إياد، تفرقوا فرقتين؛ فرقة وقعت بعمان وشق عمان وفيهم خطباء العرب، وفرقة وقعت إلى البحرين وشق البحرين وهم من أشعر قبيلة في العرب، قال: ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرّة البادية، وفي معدن الفصاحة^(١)، وهذا يصح دليلاً على ما قدمناه من أن الشعر لم ينشأ في العرب حين كانوا قبائل مجتمعين، وإنما نشأ بعد تفرقهم وتمزيق الحروب لهم، إذ مثلت لهم أغراضه واتفقت البواعث عليه.

وقال يونس بن حبيب الضبي: ليس في بني أسد إلا خطيب أو شاعر أو قائف أو زاجر أو كاهن أو فارس، وليس في هذيل إلا شاعر أو رام أو شديد العدو^(٢) وقد يظن بعضهم أنه لم تخل قبيلة من قبائل العرب بعد الإسلام أن ينبغ فيها شاعر أو شعراء، ولكن ذلك غير مطرد، فقد ذكر صاحب الأغاني أن قبيلة قيس لم يكن بها في الإسلام شعر قبل أشجع السلمي وهو من شعراء الرشيد، وإنما كان الشعر في ربيعة واليمن، فلما نجم أشجع وقال الشعر انتهضت به قيس وافتخرت على العرب^(٣).

بيوتات الشعر والمعرقون فيه جاهلية وإسلاماً :

تلك وراثّة الشعر في القبائل، وأما وراثته في البيوتات فهم قد عدوا من ذلك أشياء، لقرب بعضها من الإسلام ولظهور بعضها معه وبعده، ولكنهم لم يذكروها

(١) البيان: ج ١.

(٢) البيان: ج ١.

(٣) الأغاني: ٣٠ / ١٧.

فى المفاخرات كما ذكروا بيوتات المجد الغلاية فى عرب الجاهلية؁ وهم بيت تميم
بنو عبد الله بن دارم ومركزه بنو زرار؁ وبيت قيس بنو فزار؁ ومركزه بنو بدر؁
وبيت بكر بن وائل بنو شيان ومركزه بنو ذى الجدين^(١).
ومن بيوتات الشعر فى الجاهلية بيت أبى سلمى... إلخ^(٢).

(١) الكامل للمبرد : ٣٥/١.

(٢) العمدة : ٢٣٥/٢.

سِيَمَا الشَّعْرَاءِ

لابد لكل متميز من شكل ومنظر يلقي في الأنفس عنوان حقيقته؛ ومرجع التميز في الأشكال من اللباس والحلية وهيئة الحالة ونحوها إنما يكون إلى مطابقة إحساس الشخص أو موافقة إحساس المجتمع الذي هو مناط العادات ومبنى الصفة القومية، فليس زى الشاعر في بيته وهيئته فيما ينشد لنفسه كزيه في يوم الحفل وبين السماطين، ولا كهيتته فيما ينشد للناس يومئذ. وقد اصطلاح أهل الأدب والمناصب العلمية وغيرها من رتب الملك في الاجتماع الإسلامي على أزياء يرون فيها أنفسهم أجزل اعتباراً وأكمل وقاراً وأفخم أقداراً، وكذلك تحشو هذه الآلات صدور الناس من إفراط التعظيم، وتغلاً قلوبهم من سكون المهابة؛ وقد شاع ذلك في الحضارة الإسلامية منذ أمر أبو جعفر المنصور رجاله سنة ١٥٣ أن يتخذوا القلانس^(١) الفارسية الطويلة تدعم بعيدان من داخلها، بدل العمائم التي كانت إلى ذلك العهد من مميزات العرب، وأن يعلقوا السيوف في أوساطهم وأن يكون شعارهم السواد كما كان البياض شعار الأمويين؛ ثم تنوعت الأزياء، فكان للقضاة زى ولأصحابهم زى وللشرط زى، وللكتاب زى، ولكتاب الخبر زى؛ وأصحاب السلطان ومن دخل داره على مراتب، فمنهم من يلبسُ المبطنة، ومنهم من يلبس الدراعة، ومنهم من يلبس القباء. وهكذا مما لا محل لاستيفائه وتفصيله هنا.

وفي علم الفراسة نوع من قيافة الآثار النفسية يمتاز به الناس، وربما وجدت من الشعراء مثلاً من يكون منظر وجهه وحالة تركيبه أشعر عند التأمل من شعره؛ وكان العرب يعرفون هذه القيافة ولكنهم يستعملونها في تحقيق الأنساب وتميز القبائل، وفي الحديث: أن قوماً يزعمون أنهم من قريش أتوا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكان قائفاً ليثبتهم في قريش. فقال: اخرجوا بنا إلى البقيع، فنظر في أكفهم ثم قال: اطحوا العطف (جمع عطف) ثم أمرهم فأقبلوا وأدبروا، ثم أقبل عليهم فقال: ليست بأكف قريش ولا شمائلها، فأعطاهم فيمن هم منه^(٢).

(١) قلت : القلانس : مفرداها (الْقَلَنْسُوَّة) : لباس للرأس مختلف الأنواع والأشكال.

(٢) الكامل للمبرد : ١٣/١.

ولسنا بسبيل ما يكون من هذه القيافة فى الشعراء، ولكننا نذكر ما وقفنا عليه من تمييز الهيئة دلالة السيماء بعد مطاولة التعب فى البحث والتنقيب.

ذكر المرتضى فى أماليه فى خبر وفود العامريين على النعمان بن المنذر وكانوا ثلاثين رجلاً فيهم ليبد بن ربيعة وهو يومئذ غلام له ذؤابة، وكان القيسيون قد صدوا وجه النعمان عنهم فأرادوا تقديم ليبد ليرجز بالربيع بن زياد رجلاً مؤملاً ممضاً، وكان هو الذى صرف الملك بالطعن فيهم وذكر معانيهم، فحلّقوا رأسه وتركوا له ذؤابتين وألبسوه حلة وغدوا به معهم فدخلوا على النعمان. فقام وقد دهن أحد شقى رأسه وأرخصى إزاره وانتعل نعلًا واحدة، قال: وكذلك كانت الشعراء تفعل فى الجاهلية إذا أرادت الهجاء^(١). وكانت لشعراء الأعراب هيئة فى الإنشاد إلى ما بعد الإسلام، فقد دخل العماني الراجز على الرشيد ينشده شعراً وعليه قلنسوة طويلة على الزى العباسى وخف ساذج، فقال له الرشيد: إياك أن تشدنى إلا وعليك عمامة عظيمة الكور (الطى) وخفان دملقان فبكر عليه من الغد وقد تزيا بزى الأعراب فأنشده...^(٢). وكان الشاعر العربى ينشد فى يوم الحفل وقد أخذ المخصرة بيده أو اتكأ على سية قوسه؛ وإذا فآخر جائى خصمه والناس حولهما؛ وكذلك كان للخطيب زى خاص سنذكره فى بحث الخطابة.

وكان زى حسان بن ثابت فى خضابه، فكان يلوث شاربيه وعنفقته^(٣) بالحناء دون سائر لحيته، فيبدو لأول وهلة كأنه أسد والغ فى الدم^(٤). ومن أزياء الجاهلية وإن كانت فى غير ما نحن بسبيله، أن فرسان العرب كانوا فى أيام المواسم والجموع وأسواق العرب كعكاظ وذى المجاز وما أشبه ذلك، يتقنعون، وذلك زيهم، إلا ما كان من أبى سليط طريف بن تميم أحد بنى عمرو بن جندب، فإنه كان لا يتقنع ولا يبالى أن يثبت عينه جميع فرسان العرب، وكانوا يكرهون أن يعرفوا، وربما أعلم الفارس نفسه بسيما، كريشة نعامة أو عمامة مصبغة^(٥).

(١) أمالى المرتضى : ١٣٥/١.

(٢) البيان: ج١.

(٣) قلت: العنفقة: شعيرات بين الشفة السفلى والذقن لحفة شعرها.

(٤) الأغاني : ٣/٤.

(٥) البيان: ج٢.

وكان من زى الكاهن أن لا يلبس المصبغ، والعرّاف لا يدع تذييل قميصه
وسحب رداءه، والحكم لا يفارق الوبر^(١).

وكان الشعراء فى أوائل الدولة العباسية يلبسون الوشى والمقطعات والأردية
السود وكل ثوب مشهر، قال الجاحظ: وكان عندنا منذ نحو خمسين سنة شاعر
يتزيا بزى الماضين وكان له برد أسود يلبسه فى الصيف والشتاء^(٢) وهذا يدل على
أن ذلك الزى بطل فى زمنه.

وقد اخترعوا فى تلك الدولة أثواب المنادمة وهى خاصة بالشعراء والأدباء ولا
تقييد لها بشكل خاص إلا ما يكون من الأصباغ والخلوق ونحو ذلك مما يستعان به
على زيادة التبسط والانشراح، ولا يزال مثل ذلك فى جهات العراق إلى اليوم؛
ومن هذه الثياب رداء يسمونه رداء الشرب، ويظهر أنه كان خاصاً بالشعراء فى
منادمة الملوك والأمراء، وقد وصفه ابن الحجاج من شعراء المهلبى بقوله:
أبيض الغزل فيه خط سواد مثل خط الرئيس فى القرطاس^(٣)

(١) البيان: جـ ٢.

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) يتيمة الدهر: ٢/٢٣٧.

علوم الأدب وكتبه

كان الأدب - كما أسلفنا - مجموعَ علوم المؤدِّين، فلا جرم حدُّوه كما رأيت فيما نقلناه عن ابن خلدون، وهو حدُّ يطابق أمرهم كل المطابقة، فلما أرادوا تعيينَ هذه العلوم، نظروا في غرض الأدب فجعلوا له غرضين: أحدهما يقال له الغرض الأدنى، والثاني الغرض الأعلى، فالأول أن يحصل للمتأدِّب بالنظر في الأدب والتمهر فيه قوةٌ يقدر بها على النظم والنثر، والغرض الأعلى أن يحصل للمتأدِّب قوةٌ على فهم كتاب الله تعالى وكلام رسوله ﷺ وصحابته، ويعلم كيف تُبنى الألفاظ الواردة في القرآن والحديث بعضها على بعض حتى تستنبط منها الأحكام وتُفرَّع الفروع وتنتج النتائج وتقرن القرائن على ما تقتضيه معاني كلام العرب ومجازاتها.

قال البَطْلِيُّوسى - وهو الذى ننقل عنه هذه الكلمات من شرح أدب الكاتب -: والشعر عند العلماء أدنى مراتب الأدب. ثم نظروا في تعيين العلوم التى تُقضى إلى هذه المقاصد، فاختلَفوا فيها، ولكنها فى الجملة كانت علومَ العربية، ولم يعيَّنْها أحدٌ إلى أواخر القرن الخامس. فلما أُنشئت المدرسة النظامية ببغداد، أنشأها نظام الملك - وزير ملك شاه السلجوقى - المتوفى سنة ٤٨٥، اختياراً لتدريس الأدب فيها أبو زكرياء الخطيب التبريزى المتوفى سنة ٥٠٢ وهو من أئمة اللغة والنحو، ثم درَّسه بعده علىُّ بن أبى زيد الفصيحى، وكان نحوياً، ثم عزل «لتهمة التشيع» بأبى منصور الجواليقى. وتعاقب هؤلاء المدرِّسين جعل للأدب موضعاً معيناً كان لا يزال مقرراً عند العلماء إلى آخر القرن السادس، على ما ذكره ابن الأنبارى المتوفى سنة ٥٧٧ فى «طبقاته»، فإنه لما ترجم هشام بن محمد بن السائب الكلبى قال: «إنه كان عالماً بالنسب، وهو أحد علوم الأدب؛ فلذلك ذكرناه فى جملة الأدباء، فإن علوم الأدب ثمانية: النحو واللغة والتصريف والعروض والقوافى وصناعة الشعر وأخبار العرب، وأنسابهم...» ثم قال: «والحقنا بالعلوم الثمانية علمين وضعناهما وهما: علم الجدل فى النحو وعلم أصول النحو»^(١).

(١) لذلك تفصيل سيأتى فى موضعه عند الكلام على النحو.

إلا أن الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ أراد أن يجعل للأدب حداً علمياً من الحدود - الجامعة المانعة - على طريقة المتكلمين، فعرف علوم الأدب بأنه علوم يُحترز بها عن الخلل في كلام العرب لفظاً وكتابةً، وجعلها اثني عشر، منها أصول لأنها العمدة في ذلك الاحتراز، وهي: اللغة، والصرف، والاشتقاق، والنحو، والمعاني، والبيان، والبديع «وجعلوه ذيلًا لعلمى المعانى والبيان داخلاً تحتها» والعروض، والقوافي.

ومنها فروع، وهي: الخط - أى الإملاء - وقرض الشعر، والإنشاء، والمحاضرات، ومنه التواريخ.

وهذا التقسيم هو المعروف عند العلماء إلى اليوم.

وقال صاحب نفح الطيب: «إن علم الأدب في الأندلس كان مقصوراً على ما يحفظ من التاريخ والنظم والنثر ومستظرفات الحكايات، قال: وهو أنبل علم عندهم، ومن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفل مستثقل».

أما كتب الأدب فهي على الحقيقة كتب العلوم التي مرت، بيد أن أهل اللغة كانوا يتحلون لفظة الأدب في تسمية كتبهم الخاصة بأوضاع اللغة وشواهدا، لأن اللغة أصل المادة، فمن ذلك: ديوان الأدب، وكتاب ديوان العرب وميدان الأدب، وروض الآداب، ومفتاح الأدب، وسر الأدب، ومقدمة الأدب، وعنوان الأدب، وكلها في اللغة ذكرَ صاحب «كشف الظنون» وغيره، وبعضها موجود، كديوان الأدب للفارابي، ومقدمة الأدب للزمخشري، ومن هذا القبيل «أدب الكاتب» لابن قتيبة ولابن دريد ولابن النحاس وغيرهم.

أما الكتب التي هي من شرط الأدب فكثيرة، وأصولها كما قال ابن خلدون: أربعة دواوين، وهي: أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبى على القالى البغدادي^(١) وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفرع عنها.

(١) كل هذه الكتب مطبوع مشهور، وقد شرحت كلها شروحاً مختلفة، ما عدا البيان والتبيين؛ ولولا التفادي من الملل لاتينا على تاريخ كل كتاب منها.

القَابُ الشعراء

كان العرب ربما أخذوا الكلمة يصيبنها فى بيت من الشعر فيطلقونها لقباً على قائله بحيث تغلب على اسمه وكنيته فلا يعرف إلا بها، كشأس بن نهار العبدى؛ وفى البيان للجاحظ: سالم؛ لقب بالممزق لقوله:

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكل وإلا فأدركنى ولما أمزق

والممزق هذا بالفتح، قال الأمدى: وهو جاهلى، وأما الممزق الحضرمى فبكسر الزاى متأخر وابنه عباد ولقبه «الممزق» وهو القائل:

إنى الممزق أعراض الكرام كما كان الممزق أعراض اللثام أبى

وقد نقل السيوطى فى المزهرة عن الوشاح لابن دريد وغيره، وأورد الجاحظ فى الجزء الأول من البيان، وابن رشيق فى كتابه العمدة - زهاء ستين لقباً لشعراء من الجاهلية والإسلام.

قال ابن رشيق فى سبب هذه التسمية: وإنما هذا لمكان الشعر من قلوب العرب وسرعة ولوجه فى آذانهم وتعلقه بأنفسهم.

وليس ذلك بشيء وإلا لزم أن يطرد ذلك فى مشاهير الشعراء، ولم يقل به أحد، والذى عندنا أنه لا يصح كل ما نقلوه من ذلك، وأن بعضه من وضع الرواة والنقلة، وإلا فما وجه تسمية منبه بن سعد بأعصر لقوله:

أعمير إن أباك غير لونه مرُّ الليالى واختلاف الأعصر

إلا أن تكون الكلمة قد ارتجلها منبه هذا ولم تكن معروفة قبله فى لغات العرب بحيث تستغرب منه فيكون السبب فى التسمية وجه الغرابة، وهو ما لا سبيل إلى تحقيقه وتصديقه.

والذى تغلب عليه الصحة من ذلك ما يكون سبب التسمية به صفة يحكيها الشاعر عن نفسه ويمكن أن يكون فى إطلاقها عليه نوع من الغرابة كالمرقش الذى لقب بذلك لقوله:

الدار قفر والرسوم كما رقص^(١) في ظهر الأديم قلم

فهذه صفة غريبة من شاعر أمي يمكن أن ينيز بها تهكماً أو مزحاً، كما يمكن أن تطلق عليه تحبباً أو مدحاً أو تكون الصفة المسمى بها من الصفات التي تدل على عمل يصح أن ينعت به، كالجواب الذي سمي بذلك لقوله:

لا تسقني بيديك إن لم تأتني رقص المطية، إنني جواب

أو تكون الكلمة التي تطلق على الشاعر مما يصح أن تشق منه صفة ذلك سييلها، كجابر الكلبي المسمى المرني لقوله:

إذا ما مشى يتبعه عند خطوه عيوناً مراضاً طرفهن روانياً^(٢)

ولابد من هذا القياس لأن الألقاب إنما تشعر بمدح أو ذم، والأسماء لم توضع إلا للامتيار في التعريف، فأما أن نجيء الكلمة لا هي مما يمتاز بمثله عادة، وليست موضع مدح أو ذم ولو من طريق العتب، ثم يقال إنها اسم أو لقب - فهذا ما لا يصدق. ولو أجزنا ذلك لاستغرق جميع الشعراء إلى اليوم، وذلك شيء لم يكن، وقد ذكر الجاحظ أن الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة - وكان خطيباً من وجوه قریش ورجالهم سمي القَبَّاع - قال: وإنما سمي القَبَّاع لأنه أتى بمكتل لأهل المدينة فقال: إن هذا المكتل لقَبَّاع، فسمى به. والقَبَّاع الواسع الرأس القصير^(٣) فهذا سبب يدلك على أنهم لم يكونوا يجازفون بالتلقب والتسمية، ولابد من معنى لذلك، وهو أمر شائع في كل زمن؛ ومن هذا القبيل - وإن كنا نورده استجماماً وفكاهة - ما ذكره الجاحظ أيضاً في سبب تسمية علي بن إسحاق ابن يحيى المجنون المسمى بمَقْوَم الأعضاء، أنه جلس مع بعض متعاقلي فتيان العسكر وجاءهم النخاس بجوار، فقال: ليس نحن في تقويم الأبدان، إنما نحن في تقويم الأعضاء، ثمن أنف هذه خمسة وعشرون ديناراً، وثمان أذنيها ثمانية عشر، وثمان عينيها ستة وسبعون، وثمان رأسها بلا شيء من حواسها مائة دينار. فقال صاحبه

(١) قلت: رقص رَقَشَه (رَقَشًا): نقشه وزخرفه وزينه.

(٢) قلت: روانيا: الرواني: حلوى تتخذ من البيض والدقيق والسكر.

(٣) البيان: ج ١.

المتعاقل: ها هنا باب هو أدخل في الحكمة من هذا؛ كان ينبغي لقدم هذه أن تكون لساق تلك، وأصابع تلك أن تكون لقدم هذه؛ وكان ينبغي لشفتي تيك أن تكونا لفك تيك، وأن يكون حاجبا تيك لجين هذه. فسُمي مقوم الأعضاء^(١) والشرط في التلقيب بالكلمات أن تسير الكلمة؛ فإذا قرنت بالاسم زادته معنى، وإذا كانت مفردة أغنت عنه؛ وهذا ما لا يتفق إلا بمثل الأسباب التي ذكرنا، فتنبه له.

(١) البيان: ج٢.

المقلّون والمُكثِّرون

من الشعراء شاعرٌ نفسه الذى يقول على مؤاتاة السجية^(١) والطبع دون أن يستكره على الشعر أو يرهق بالأغراض المتنوعة، وهذا إنما جهده أن يصيب حظ نفسه أقلّ أو أكثر؛ ولكن منهم شاعر الناس الذى يحرث حياته الأرضية على أفقيتهم، فهم إن تركوه أو تركهم مات، ومثل هذا لا يصيب حظ روحه من القول إلا بعد أن يصيب حظ جسمه منه، فهو مكثّر أبداً من الشعر، يقلّبه على أغراض الناس ليأخذ به مكاناً على الأفواه ينزل فيه بضاعته من سوق الكلام، ولا يعرف المقل من المكثّر فى شعراء الجاهلية إلا بهذا التقسيم؛ لأنهم قد استوتوا فى ضياع كثير من شعرهم وسقوطه من أيدي الرواة المصححين، بحيث لو اعتبرت شهرة أحدهم بقيمة ما يصح له من الشعر لنبا^(٢) به موضعه حيث وُضع من الشهرة والتقدم. فقد عدوا من المقلين طرفة بن العبد، وعبيد بن الأبرص، وعلقمة بن عبدة الفحل، وعدى بن زيد، وسلامة بن جندل، وحصين بن الحمام المرى، والمتلمس، والمسيب بن علس؛ وهؤلاء الثلاثة فيما روي عن أبي عبيدة أشهر المقلين فى الجاهلية باتفاق، وعدوا منهم عنترة، والحارث بن حلزة، وعمرو ابن كلثوم، وعمرو بن معديكرب، والأشعر بن حمران الجعفى، وسهيل بن أبى كاهل، والأسود بن يعفر؛ ومن أولئك من يعرف بالقصيدة الواحدة كطرفة، ومنهم من يعرف بثلاث قصائد كعلقمة، ومنهم من يعرف بالأربع كعدى بن زيد، ومنهم من يعرف بالأبيات المتفرقة ولا عبرة بما ينسب إليهم عند غير المصححين وأهل التحقيق، فإن الحمل على شعراء الجاهلية كثير، وهو يتفاوت فى هذه الكثرة بحسب صنعة الشاعر المحمول عليه وتلاحم كلماته وامتلاء أعطافها، ولذلك قالوا: إن عدى بن زيد لقربه من الريف وسكنائه الحيرة فى جيرة النعمان بن المنذر لانت ألفاظه فحمل عليه كثير، وقد ذكر ابن رشيق بعض مطالع القصائد المشهورة فى أيدي الناس التى صحت نسبتها لبعض هؤلاء المقلين^(٣).

(١) قلت: السَّجِيَّة: الطبيعة والخلُق (جمعها) سَجَايَا.

(٢) قلت: نبا: قبح فلم تقبلها العين كما فى القاموس.

(٣) العملة: ٦٦/١.

ولا يبعد أن يشتهر الشاعر الجاهلي بالقصيدة الواحدة، بل بالآيات القليلة، بل بالبيت المفرد؛ لأنهم يزنون الكلمة بمقدار ما تحرك من ميزانها الطبيعي الذي هو القلب، وكانوا يسمون البيت الواحد يتيماً، فإذا بلغ البيتين والثلاثة، فهي نتفة، وإلى العشرة تسمى قطعة، وإذا بلغ العشرين استحسن أن يسمى قصيداً؛ قال ثعلب: وذلك مأخوذ من المخ القصيد، وهو المتراكم بعضه على بعض، وهو ضدّ الراد، ومثله الرئيد^(١)؛ وهذا أصح مما ذهب إليه المتأخرون من أن أدنى حدّ القصيدة سبعة أبيات، لأنه لا يلتئم مع وجه الاشتقاق الذي رواه ثعلب كما ترى. وكانوا يستحبون الإطالة عند الإعذار والإنذار والترهيب والترغيب والإصلاح بين القبائل، كما فعل زهير والحارث بن حنظلة وغيرهما، والقطع أطير في بعض المواضع كالمحاضرات. والمنازعات والتمثيل والملح وغيرها مما ليس من المواقف المشهورات.

وكان العرب يعرفون للإكثار من الشعر صفة طبيعية، وهي قرع روثة^(٢) الأنف بطرف اللسان، كأن اللسان إذا طال كان ذلك أدعى إلى رقته ولينه ومؤاتاته على التغليب فيبعث من الصغر على الارتياض للكلام والحمل في شعابه وفنونه؛ ولا نعرف أصل هذه الصفة ولا تاريخها فيهم، ولكن ذكر الجاحظ في البيان أن النبي ﷺ قال لحسان بن ثابت: ما بقى من لسانك؟ فأخرج لسانه حتى قرع بطرفه طرف أنفه، ثم قال: والله إني لو وضعته على صخر لفلقه، أو على شعر لحلقه، وما يسرنى به مقول من معدّ! فهذا يدل على أن الصفة كانت معروفة فيهم، وإلا فلا أسقط من هذا الكلام. قال الجاحظ: وأبو الصمت مروان بن أبي الجنوب بن مروان بن أبي حفصة وأبوه وابنه في نسق واحد: يقرعون بأطراف ألسنتهم أطراف أنوفهم^(٣). والعجيب في أمر الإقلال والإكثار أنك تجد شعراء من المطبوعين لا يُقدّر على جمع شعرهم لكثرة^(٤) وقد عدوا من هؤلاء بشار العقيلي، والسيد الحميري، وأبا العتاهية، وابن أبي عيينة؛ وكان بشار يقول: إن له اثني عشر ألف

(١) إعجاز القرآن: ص ١١٩.

(٢) قلت: روثة طرف اللسان حيث يَفْطُر الرُعَانُ.

(٣) البيان: ج ١.

(٤) سرح العيون: ص ٣٢٠.

قصيدة؛ قال الجاحظ: وقد ذكر الناس في هذا الباب يحيى بن نوفل، وسلمة الخاسر، وخلف بن خليفة، قال: وأبان بن عبد الحميد اللاحقى أولى بالطبع من هؤلاء، ويشار أطبعهم كلهم^(١).

وتجد شعراء آخرين لا يزيدون في شعرهم الجيد عن البيتين والثلاثة إلى القطع الصغيرة، وقد يتعمدون ذلك في أغراض معلومة، كعقيل بن علفة الذى كان يقصر هجاءه ويقول في الاحتجاج لذلك: يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق؛ وأبى المهوس أيضاً وكان يقول محتجاً: لم أجد المثل النادر إلا بيتاً واحداً، ولم أجد الشعر السائر إلا بيتاً واحداً^(٢).

وكان ابن الزهرى يقصر أشعاره ويقول: إن القصار أولج^(٣) فى المسامع، وأجول فى المحافل، ويكفيك من الشعر غرة لائحة، وسبة فاضحة، وقد يكون الإقلال فى بعض أولئك عاماً فى جميع الجيد من شعرهم كالجماز، وقال له بعض المحدثين وقد أنشده بيتين: ما تزيد على البيت والبيتين؟ فقال أردت أن أنشدك مذارعة! وهو القائل:

أقول بيتاً واحداً أكتفى بذكره من دون أبيات^(٤)

وكابن لنكك البصرى «من شعراء القرن الرابع» قال الثعالبي فى اليتيمة: وما أشبه شعره فى الملاحه وقلة مجاورة البيتين والثلاثة إلا بشعر كنية أبى الحسن بن فارس، وأقدر أنه فى الجبال كهو فى العراق؛ وكان يقال فى منصور الفقيه: إذا رمح بزوجه قتل^(٥)! وكذلك ابن لنكك: إذا قال البيت والبيتين والثلاثة أغرب بما جلب وأبدع فيما صنع، فأما إذا قصد القصيد فقلما يفلح^(٦). واشتهر بجودة القطع من المولدين قبل هؤلاء، بشار بن برد، وعباس ابن الأحنف، والحسين بن الضحاك، وأبو نواس، وأبو على البصير، وعلى بن الجهم، وابن المدل، وابن

(١)، (٢) البيان: ج١.

(٣) قلت: أولج: دخل فيه.

(٤) العمدة: ١/١٧٥.

(٥) فى العمدة: كانوا يقولون: إياكم ومنصوراً إذا رمح بالزوج، وكان ربما هجا بالبيت الواحد. وفى بعض

النسخ: إذا رمى، وهو خطأ.

(٦) اليتيمة: ٢/١١٧.

المعتز، وإن كان بعضهم يحسن في الإطالة، كبشار وأبى نواس وابن الجهم؛ ومن الإسلاميين قبلهم الفرزدق، حتى قال الجاحظ: إن أحببت أن تروى من قصار القصائد شعراً لم يسمع بمثله فالتمس ذلك في قصار قصائد الفرزدق، فإنك لم تَرَ شاعراً قط يجمع التجويد في القصار والطوال غيره. وقد قيل للكميت: الناس يزعمون أنك لا تقدر على القصار، قال: من قدر على الطوال فهو على القصار أقدر. وهذا الكلام يخرج في ظاهر الرأي والظن، ولم نجد ذلك عند التحصيل على ما قال^(١).

أما المعروفون بالإطالة فهم كثير، وأشهرهم ابن الرومي، وهو على إطالته محسن، وربما تجاوز حتى يسرف.

(١) الحيوان : ٣ / ٣١.

الارتجال والبديهة والروية

قد يكون لفظ الارتجال مأخوذاً من الانصباب والسهولة، ومنه قيل: شعرَ رجلٌ إذا كان سبّطاً مسترسلاً غير جعد، أو من ارتجال البثر، وذلك أن ينزلها الرجل برجليه من غير حبل؛ لأن الشعر لا يسمى مرتجلاً إلا إذا كان انهمازاً واندفاقاً لا تعمل فيه ولا تروثة، وكانت هذه سنة العرب في جاهليتهم، إذ هم لم يحتذوا الشعر على مثال، بل كان ذلك نوعاً من كلامهم متى بُعث أحدهم عليه انبعث، ولما كانت أسبابه الطبيعية فيهم ترجع إلى جملة النفس، كان هذا الكلام كامناً فيها، لا يهيجه إلا اضطرابها فكان من أسباب ذلك ما تجد النفس في لذة المغالبة والمدافعة، كالماتنة والمقارضة ونحوها، وما يرفه عليها ويحسم عنها كالخداء وما في حكمه مما ينشدونه على أفواه القلب وعند الانكفاء من الغارات وأمثال ذلك، ومما يغمر النفس فتكون فيه طافية راسبة؛ ومن هذا النوع شعر العواطف، كالغزل والرثاء والاستغاثة والتحريض وما إليها، ومن أجل ذلك ابتدأ الشعر عند العرب بالبيتين والأبيات يقولها الرجل في حاجته، حتى وجد فيهم من جعل تلك الأسباب همه وهو الشاعر، فتركوا ذلك له وصار من عدا الشعراء منهم كما كان العرب في أوليتهم: لا يكاد الرجل يجد سبب الأبيات حتى ينتزعها من نفسه وينبعث بها طبعه، ثم فعلت الوراثة في ذلك فعلها فعظم الشعر وصار في الارتجال شيء من الصنعة يكفى له تقليب العين وخطرة الوهم، فيجىء الشاعر بالقصيدة فيها من بديع الشبيه وبارع الاستعارة وكرم الديباجة وحسن الرونق، لا يتعاون عليها إلا طبعه ومادته من الأسباب التي قدمناها، فإذا اعترض النفس ما يصرفها عن تلك الأسباب، تبلد الطبع ونضبت المادة، وربما استحالت البديهة بعد الارتجال، وربما استحالت الروية بعد البديهة، كما وقع لعبيد بن الأبرص وهو من أقدم شعراء الجاهلية وأقواهم غريزة، إذ يقول له النعمان في يوم بؤسه: أنشدني، فقال حال الجريض دون القريض! قال: أنشدني قولك:

أفقر من أهله ملحوب فالتقطيت فالدنوب!

فقال: لا، ولكن:

أقفر من أهله عبيد فالיום لا يبدى ولا يعيد!

فبلغت به حال الجزع إلى مثل هذا القول بعد روية ومراجعة. وقد عدوا نفرأ من الشعراء في عصور مختلفة كانوا في هذه الحال كما يكونون في غيرها من أحوال الأمن والدعة، وذلك لقدرتهم وسكون جأشهم وقوة غريزتهم، كهذبة بن الخشرم والعذري، وطرفة بن العبد البكري، ومرة بن محكان السعدي، وعبد يغوث بن صلاء، وشمس بن جميل، وعلى بن الجهم وغيرهم. قال الجاحظ: وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إحالة فكرة ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام، وإلى رجز يوم الخصام، أو حين يمتح على رأس بثر، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة والمناقلة، أو عند صراع أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالاً، وتثال عليه الألفاظ انشياً^(١).

واستمر ذلك شأنهم حتى نشأ الذين تكسبوا بالشعر والتمسوا به الصلات والجوائز، وجعلوه للسمطين وأيام الحفل، كالنابغة وزهير والأعشى وغيرهم فلم يجدوا من السبب ما وجد الذين قبلهم، لأن الشاعر إذا مدح اليد وأشاد بالصنيعة لم يكن له بدٌّ من التكلف والاستكراه، إذ يعلم أنه لا يقبل منه عفو الكلام، ولأن ذلك المقام لا تجدى فيه غير المبالغة التي تكون من استعراض الصفات وتخير المعاني والتغلغل والإغراق وأشباهها، فكان من ذلك القيام على الشعر ومعاودة النظر فيه وتتبع الشاعر على نفسه حتى يخرج شعره مستويًا في الجودة، لأن الطبع في مثل تلك المعاني يندفع ويتبدل، ويضعف ويتجدد؛ فإذا لم تجذب الألفاظ ولم تجتلب المعاني جاء الشعر جديداً مرقعاً أو ليساً ممزقاً، فلا يصلح أن يكون حلة الفخر التي لا تبلى على الدهر؛ وقد يكون من أسباب ذلك أيضاً أن الشعر لما فشا فيهم بعد نبوغ امرئ القيس ومن في طبقتهم، وكان الشعراء يستعينون عليه بالروية استجماعاً لمحاسنه - خشى آخرهم أن يقصر عن أولهم إذا هو لم يجار سنة النمو والارتقاء، فكان يبيت المعاني يلتمس لها وجوه الصنعة، ويدع القصيدة تمكث عنده

(١) البيان والتبيين: ج ٢.

زمناً طويلاً يردّد فيها نظره ويقلب رأيه ويرصد أوقات نشاطه، فيجعل عقله زماناً على رأيه، ورأيه عياراً على شعره؛ وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات، ليصير قائلها فحلاً خنذيلاً^(١) وشاعراً مقلقاً^(٢).

وأول من ذهب لذلك منهم طفيل الغنوى؛ وكان يسمى محبراً لحسن شعره «العمدة» وكلا السبيين قد اجتمعا في زهير، لأنه كان يروى شعر ثلاثة من الفحول منهم طفيل، وكان مذهب شعره المديح كما ستراه في الكلام عنه؛ ولذلك كان أول من اشتهر بالثابت المحكك^(٣) من الشعر، وهو الذي كان يسمى كبار قصائد الحوليات، لأنه ينظم القصيدة منها في شهر ثم لا يزال ينقحها ويهذبها حتى يمر عليها الحول؛ غير أن مثل زهير من أهل السيادة والورع لا يمدح لرغبة ولا يكذب في مديح، فكان بديهيّاً أن يكون من بعض بواعثه على الرواية مغالبة الأنفة ومدافعة الطبع والتماس عذر النفس الأبية في صدق المديح، وهذا كله مما لا يغني فيه الارتجال شيئاً.

وما ظهرت الصنعة والتجويد في الشعر حتى اتقته العرب اتقاء شديداً لأنها رأت الشاعر في ترويته إنما يسمّ كلماته فلا يرمى بها إلا قاتلاً؛ ولا جرم كان ذلك أيضاً سبباً من الأسباب في ضعف الارتجال، لأن شاعر الجاهلية الآخرة ميزان الأحساب، لا يصلح إلا أن يرفع ويضع، غير أن سبيل هؤلاء [الصنعين] في غير تلك الطرائق سبيل غيرهم من أهل الطبع، فهم يرتجلون في الحماسة والهجاء وغيرهما.

ثم جاء الإسلام فكانت أسباب الشعر في أوله على ما كانت في أولية العرب؛ إذ كان مثل حسان ينصب له منبر في مؤخر المسجد لينافح عن رسول الله

(١) قلت: الخنذيذ من الشعراء: الشاعر المجيد المنقح.

(٢) البيان ج١.

(٣) قال الجاحظ في كتابه (البيان ج١) كنت أظن قولهم «محكك» كلمة مولدة، حتى سمعت قول الصعب ابن علي الكتاني:

أبلغ قرارة إن الذئب أكلها	وجائع سغب شر من الذئب
أدل أطلس ذو نفس محككة	قد كان طار زماناً في العباسيب

وَلِلَّهِ الْحُكْمُ^(١)، ولذلك مر المخضرمون برونق الطبع ووشى الغريزة، حتى نبغ الحطيثة وهو من هو فى الضراعة والجشع وسقوط الهمة، وكان راوية زهير وابنه، فاستعبده الشعر، واستفرغ مجهوده، وكان الأصمعى يسميه هو وزهيراً وأشباههما (عميد الشعر) لذلك. ثم ضعف شأن الارتجال إلا فى بعض المماتات، وفى الأبيات القليلة من غيرها تخرج على الطبع وتنبعث بها المادة؛ واستحال الارتجال إلى البديهة وهى الإطراق القليل التفكير غير الطويل، وما قصر عنها فهو الروية. وامتاز بالبديهة شعراء الدولة الأموية، وقليل من شعراء العباسيين، وأشهر هؤلاء فى ذلك أبو نواس، فقد كان قوى البديهة والارتجال، لا ينقطع ولا يروى إلا فلتة، وقالوا: إنه بهما غلب على مسلم بن الوليد. غير أن ذلك لم يكن منه إلا فى الأبيات المحدودة، أما الطوال كقصائد السماطين وغيرها فلم نعثر على رواية فى ارتجالها بعد المخضرمين إلا ما رواه ابن خلدون عند ذكر استقبال عبد الرحمن الناصر من أمراء الدولة الأموية بالأندلس لرسل الملوك الوافدين عليه من رومة والقسطنطينية وغيرهما؛ قال بعد أن وصف من جلال مجلس الخلافة ما قال: وأمر يومئذ الأعلام أن يخطبوا فى ذلك الحفل... وكان من خطباء هذا المجلس منذر ابن سعيد (توفى سنة ٣٥٥) وهو فقيه شاعر كاتب خطيب جرى على ذلك كله، وقد أورد الجلسة صاحب نفح الطيب وفصل أبهة ذلك المجلس وحالة الخطباء فراجع هناك^(٢).

ولا يبعد أن يكون فى كل عصر من يرتجل مثل ذلك حتى فى المتأخرين إلا أنه لا يجىء بالجيد ولا يبارى أهل الروية. ومن عجائب ذلك فى المتأخرين ما ذكره صاحب خلاصة الأثر فى ترجمة أبى السماع البصير المصرى أنه كان أعجوبة الزمان وأحد الأفراد فى البديهة وارتجال الشعر؛ قال: وكانت طريقته إذا أراد الارتجال أن يبدأ بإنشاد قصيدة من كلام أحد الشعراء المتقدمين بصوت شجى، وفى أثناء إنشاده يتندر على وزن تلك القصيدة فى أى باب كان من أبواب الشعر مدحاً كان أو غزلاً أو غيرهما. (ص ١٣٩ ج ١) ولم نقف على نظير لهذه الرواية إلى

(١) قلت: ينافح (نافح) عنه: دافع، نافح فلاناً: كافحه، والحديث رواه البخارى فى الأدب (٦١٥٠).

(٢) نفح الطيب: ١٧١/١.

عصرنا، ولكن هناك عجيبة أخرى فى ارتجال الرسائل ذكرها الثعالبي فى
اليتيمة^(١).

أما البديهة فهى عند سببها فى كل عصر وزمن، وقد جمع على بن ظافر
كتاباً حسناً فى ذلك سماه «بدائع البدائنة» وهو مشهور.
ومن البديهة سريع يقارب الارتجال، وهو الذى تجوز المتأخرون فى تسميته
بالارتجال، وفى كتب الأدباء أشياء كثيرة منه كالذخيرة لابن بسام والقلائد
وغيرهما.

* * *

[كان عمود الارتجال القافية، وربما حدا بعضهم بالرجز حتى إذا شردت عليه
القافية تركه وسجع بغيره].
[... من أسباب ضعف الارتجال... غلبة اللحن ومعاشرة اللحنين، حتى
صار الشاعر يحتاج إلى الإطراق ونحو ذلك].

(١)اليتيمة : ٣١/٤ .

النَّبُوغُ وَالْقَابَهُ فِي الشَّعْرَاءِ

جرى المتأخرون على أن يصفوا الشاعر المحسن إحساناً عالياً بالنابع والنابعة في المبالغة، ويطلقون هذا الوصف إطلاقاً عاماً غير ملتفتين إلى أصل الكلمة ووجه اشتقاقها، ولا إلى استعمال العرب إياها، وإن كان ذلك يطابق ما ذهبوا إليه بعض المطابقة، ولكننا رأينا الاستعمال العلمى الحديث (السيكوفسيولوجيا) والاستعمال اللغوى القديم، يضعفان هذه الكلمة في جنب القوة التى يحركونها لها كما سنبينه فيما يلى:

لم يكن النبوغ عند العرب لقباً عاماً كما توهموا، ولكنه كان خاصاً بالشعراء الذين يقولون الشعر ويجيدونه ولم يكونوا فى إرث الشعر، ومن أجل ذلك لم يلقبوا بالنابعة إلا ثمانية من الشعراء ذكرهم بأسمائهم جميعاً الزبيدى فى تاج العروس فى شرح مادة - نبغ - وهم: زياد بن معاوية الديباني، وقيس بن عبد الله الجعدى، وعبد الله بن المخارق الشيباني، ويزيد بن أبان الحارثي المعروف بـنابعة بنى الديان، والنابعة ابن لآى الغنوى، والحارث بن كعب اليربوعى، والحارث بن عدوان التغلبى، والنابعة العدوانى ولم يسموه.

وعلى السبب فى تلقيب هؤلاء بالنوابع بنى اللغويون تعريف النبوغ فى الشعر كما مر، فيظهر من ذلك أنه تعريف خاص مقيد بسبب معروف فلا يطلق إلا مجازاً. أما الألقاب العامة عند العرب قد ذكرها الجاحظ فى البيان، قال: والشعراء عندهم أربع طبقات: فأولهم الفحل الخنذيذ، والخنذيذ هو التام، ودون الفحل الخنذيذ، الشاعر المفلق، ودون ذلك الشاعر فقط، والرابع الشعور^(١) فالخنذيذ هو الذى يجمع إلى جودة شعره رواية الجيد من شعر غيره؛ وسئل رؤية عن الفحولة قال: هم الرواة، والمفلق الذى لا رواية له إلا أنه موجود كالأول فى شعره [وقالوا فى سبب هذه التسمية إنه يأتى فى شعره بالمفلق وهو العجب، وقيل المفلق الداهية] والشاعر فقط هو الذى يكون فوق الردىء بدرجة، أما الشعور فهو

(١) البيان والتبيين: ج ١.

لا شيء. قال الجاحظ: وسمعت بعض العلماء يقول: طبقات للشعراء ثلاثة: شاعر، وشويعر؛ وشعرور. وأول من سُمي بالشويعر امرؤ القيس؛ سُمي به محمد بن حمران بن أبي حمران، وقد سُمي بعده بذلك نفر، منهم الموقوف شاعر بنى حميس، وصفوان بن عبد ياليل من بنى سعد إلا أنهم إنما يندون بذلك في الهجاء وعلى وجه النقيصة؛ وقبل هذه الألقاب كان عندهم لقب بسيط لا يدل على أكثر من هيئة النظم، وبهذه البساطة استدللنا على أنه أقدم من الألقاب المذكورة آنفاً؛ ذكر صاحب المخصص^(١) قال أبو زيد: العرب تقول: خطيب مصقع وشاعر مرقع؛ فالمصقع: الذى يأخذ فى كل صقع من الكلام أى ناحية منه. والمرقع: الذى يصل الكلام بعضه ببعض يرقع ما انخرق منه، وبهذا قيل للشعر نظام، لاتصاله واتساقه، فكان هذا اللقب نشأ عندهم فى أوائل العهد بإطالة الشعر ومجاوزة البيتين والثلاثة، لأن مدّ البيتين مثلاً إلى أن يبلغا أبياتاً هو حقيقة ذلك الوصل الذى وضعوا هذه الكلمة لتعريفه.

وبعد أن أخذ شعراء العرب فى التروية والتنقيح وتحكيك الشعر نشأ عندهم لقب المطبوع واستعملوه فىمن يجرى على طبعه العربى ولا يتصنع ولا يتكلف ما يلزم التروية من التبييت ومعاودة النظر ونحو ذلك، فهذه جملة ألقاب الشعراء عندهم.

أما تعريف النبوغ فى علم السيكوفيسيلوجيا، وهو الذى يبحث فيه عن ارتباط أحوال النفس بالوظائف العضوية، فإن أهل هذا العلم يقولون: إن النبوغ تميز المخلوق بتأدية أعمال مألوفة على وجه من الإتقان يصعب على كثير ممن يقومون بهذه الأعمال عادة، فهو إذن استعداد فطرى تنميه المثابرة على العمل حتى يبلغ حظه المقسوم له من الكمال، وعلى ذلك يكون عاماً فى كل المخلوقات؛ لأن كل جنس منها يمتاز بعضه على بعضه فى أداء الحركات والأعمال الطبيعية له.

ولكن عندهم نبوغاً عبقرياً خاصاً بالإنسان يصح أن يسمى بالجهيزة، وهو ابتداء المرء ما يكون غيره قد غفل عنه، أو اتباعه ما جرى عليه غيره ولكن على

(١) المخصص: ١١٥/٢.

وجه ذاتى يكون له فيه صفة من الابتداء، فهو إذن نمو عضوى كمالى يثبت للعامل شخصية العمل. وهذا المعنى فى الشاعر هو الذى يريده العرب بلقب الفحل والخنذ - كما سبق - وبه ميزوا السرقة من الاختراع فى المعانى، كما سيأتى فى موضعه.

الاختراع والاتباع

لم يغفل علماء الأدب العربى عن معنى الجهيدة والنبوغ العبرى، وهم يسمون ذلك بقسميه الاختراع والإبداع، والفرق بينهما عندهم أن الاختراع خلق المعانى التى لم يسبق إليها والإتيان بما لم يكن منه قط، والإبداع إتيان الشاعر بالمعنى المستظرف والذى لم تجر العادة بمثله، ثم لزمته هذه التسمية حتى قيل له بديع، فصار الاختراع للمعنى والإبداع للفظ، قالوا: فإذا تم للشاعر أن يأتى بمعنى مخترع فى لفظ بديع فقد استولى على الأمر وحاز قصب السبق^(١) وإنما ذلك معنى شخصية الكلام التى تميزه وتجعله خلقاً وابتكاراً فيكون عملاً ذاتياً يدل على صفة شعرية متخصصة، وليس يصح لقب الشاعر لغير هذه الصفة وإلا فهو متحل أو مغتصب. واشتقاق الاختراع من التلين، يقال: بيت خرج إذا كان ليناً، والخروج منه، فكان الشاعر سهل طريقة هذا المعنى أو لينه حتى أبرزه، وأما البديع فهو الجديد، وأصله فى الحبال، وذلك أن يُقتل الحبل جديداً، ليس من قوى حبل نقضته ثم فتلته فتلاً آخر.

والاختراع فى شعر العرب مما يظلمون به عند المحدثين والمولدين؛ لأن أولئك أهل البادية وتربية العراء وشعراء الفطرة، وهؤلاء أهل الحضارة التى تفتق القرائح بما تنوعه من المآخذ المختلفة؛ ولذلك كانت المعانى قليلة فى شعر الجاهليين تكاد تحصر لو حاول ذلك محاول، وإنما نريد المعانى التى لا يشتركون فيها بطبيعة الاجتماع، والتى لو اختلطت جميع أشعارهم لتزايلت وانفصل بعضها عن بعض، فكان كل معنى قلباً فيه سر حياة القصيدة أو القطعة، كقول امرئ القيس:

سموت إليها بعد ما نام أهلها سموّ حباب الماء حالا على حال

فهذا المعنى الذى لا تصوره إلا الخواص الدقيقة، قد سلمته له الشعراء جميعاً فلم ينارعه فيه أحد، وقد مكن مزية الاختراع فيه أنه وصف طبعى ثابت لا يطاوع فى التوليد والتشقيق^(٢) إلا بالعنت والاستكراه، ومن أجل ذلك لم يأخذه أحد إلا

(١) العملة : ١٧٧/١.

(٢) قلت: التشقيق: شقق الكلام: وسَّعه وبيَّنه وولد بعضه من بعض.

فضحه؛ وسنلم به فى ترجمة امرئ القيس .

وقد جاء المخضرمون ولا مزىة لهم على شعراء الجاهلية فى الاختراع، ثم جاء بعدهم شعراء الصدر الأول من الإسلاميين فزادوا فى ذلك بعض الزيادة بما مكتتهم منه الحالة الدينية، ثم كانت طبقة جرير والفرزدق والأخطل وأصحابهم فذهبوا فى التوليد والإبداع والاختراع مذهبا واضحا، وطرقوا لذلك طريقا سابلة^(١)، ثم أتى أبو المحدثين بشار بن برد وأصحابه فنظروا إلى مغارس الفطن ومعادة الحقيقة ولطائف التشبيهات فأحكموا سبها وساروا إليها بالفكر الجيد والغريزة القوية، وقد التقى إليهم طرفا العربية فى منطقة البداوة الزائلة ومفتتح الحضارة الثابتة، فأصبح شعرهم خلقا جديدا، ووقف شعر من قبلهم عند الاستشهاد بالفاظه، حتى لتجرّ اللفظة الواحدة قصيدة بطولها. وكان من افتنان هؤلاء المحدثين أن نصبوا لأنفسهم منزلة تضارع المنزلة التى وقف عندها الشعر القديم، فصار يستشهد بهم فى المعانى كما يستشهد بالقدماء فى الألفاظ، وعلماء الأدب مجمعون على أن أكثر الشعراء المولدين اختراعاً وتوليداً، أبو تمام وابن الرومى.

وهذا الأخير كان ضنينا^(٢) بالمعنى حريصاً عليها: يأخذ المعنى الواحد ويولده فلا يزال يقلبه ظهراً لبطن، ويصرفه فى كل وجه وفى كل ناحية، حتى يميتة ويعلم أنه لا مطمع فيه لأحد يتخصص به ويزيد بذلك مادة النبوغ العبقري فى شعره؛ وقد تجدد من يجيء بعده ممن لا يعد فى طبقته قد أخذ هذا المعنى بعينه فولد فيه زيادة ووجهه جهة حسنة تدل البصير بالصناعة على أن ابن الرومى مع شره لم يتركها عن قدرة. وقد ذكر ابن رشيق فى موضع من كتابه (العمدة) عزمه على تأليف كتاب يحصى فيه معانى الجاهلية ويذكر ما انفرد به المحدثون وما شاركهم فيه المتقدمون، كصفات النجوم ومواقعها، والسحب وما فيها من البروق والرعود، والغيث وما ينبت عنه، وبكاء الحمام، وكثير مما لم يتسع له كتاب العمدة، وشرط على نفسه فى ذلك إحصاء المخترعات للمحدثين وإقامة البرهان منها على أن ابن الرومى أكثر الشعراء اختراعاً. وابن رشيق أهل لهذا التأليف، ولكننا لم نعرف عنه خبراً غير ما ذكره هو.

(١) قلت: طريقا سابلة: طريقا مسلوكا كما فى القاموس .

(٢) قلت: ضنينا: شديد البخل.

والمعاني بما فيها من صفة الحياة وفسحة الروح خاضعة كالأحياء لناموس^(١)
الانتخاب الطبيعي الذي يقضى بتنازع البقاء، ولولا ذلك لأقفل باب الاختراع
والتوليد، لأنه إذا اقتصر الناس على طبقة واحدة من الشعر ولم يكن في طباعهم
ما يساعد معنى من الكلام على إماتة معنى آخر أو إسقاطه والحلول محله لم يبق
من الكلام ما يفتح للتوليد، ولم يبق من القرائح ما يتمخض للولادة؛ ولو تتبععت
معاني الشعر السائرة ورتبتها ترتيباً تاريخياً على العصور التي قيلت فيها، لأمكنك
أن تضع من ذلك تاريخاً لهذه الوفيات المعنوية، ومن أمثلة ذلك ما قاله الجاحظ أن
الناس كانوا يستحسنون قول الأعشى:

تشب لمقرورين^(٢) يصطليانها ويات على النار الندى والمحلّق

فلما قال الخطيئة:

متى تأته تعشوا إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد

سقط بيت الأعشى^(٣) مع أن بيت الخطيئة مولد من قول الأعشى، والتوليد أن
يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدمه أو يزيد فيه زيادة، وليس باختراع لما
فيه من الاقتداء بغيره، ولا يقال له أيضاً سرقة إذا كان الشاعر ليس آخذاً على
وجهه.

الاتباع وأنواعه:

فالتوليد اتباع، ولكن هذا الاتباع على نوعين: اتباع في طريق المعنى، واتباع
للمعنى نفسه؛ والأول يكون إلماماً وملاحظة واسترواحاً، والثاني لا يكون إلا
غضباً وسرقة واستكراهاً، وذلك دليل البلادة وسقوط الهمة وضعف القدرة
والعجز؛ وقد ذكروا للاتباع في الشعر أنواعاً سموها بأسماء خاصة، وهي ألقاب
محدثة وضعوا أكثرها في القرن الرابع وذكرها الخاتمي في حلبة المحاضرة، وتبسط
فيها ابن رشيق^(٤) وأورد مثلاً لكل من هذه الألقاب فارجع إليها إن شئت.

(١) قلت: الناموس: القانون أو الشريعة.

(٢) قلت: المقرور: يقال يوم مقرور: بارد، ورجل مقرور: أصابه البرد.

(٣) البيان والتبيين: جـ ١.

(٤) العمدة: ١٦/٢.

ولا غنى للشاعر - جاهلياً أو إسلامياً - عن اتباع غيره من الشعراء، وأول ذلك الرواية، وقد كانت شائعة إلى أن انتشر الخط وكثرة الدواوين فصار الشعراء يتلقون عنها، وقد وقفنا على أسماء بعض الشعراء الذين روى لغيرهم وتخصصوا بهذه الرواية لهم مبعثرة في بطون الأوراق فجمعناها، وهي على قلتها كافية في الدلالة، فمنهم امرؤ القيس، كان رواية أبي دؤاد الإيادي^(١)، وكان زهير رواية أوس بن حجر، وهو زوج أمه وطفيل الغنوي^(٢) وكان الخطيئة رواية زهير وابنه^(٣) ولم يقتصر على الرواية لهما بل كان يروى شعر الحجازيين أيضاً وكان منقطعاً لهم^(٤) وكان هذبة بن الخثرم رواية الخطيئة، وجميل رواية هذبة، وكثير رواية جميل^(٥) وبلغ من اعتباره إياه أنه كان إذا استنشد لنفسه بدأ فأنشد لجميل^(٦) وكان أبو ذؤيب الهذلي رواية ساعدة بن جوبة الهذلي^(٧) ولا نظن استغراق هذا الباب ممكناً إلا أن يكون قد كتب فيه أحد المتقدمين من أئمة الأدب

(١) العملة : ٦١/١ .

(٢) العملة / ١، ١٣٢، ١٥٥ .

(٣) الاغانى : ٧٨/٧ .

(٤) الطبقات : ص ٣٤ .

(٥) الاغانى : ٨/٧ .

(٦) العملة : ١٣٢/١ .

(٧) الطبقات : ص ١٥٤ .

شِياطين الشعراء

نذكر فى هذا الفصل ما يعتقد العرب من قول الجنّ على السنة الشعراء ولا نجاور ذلك، لأن استيفاء هذا البحث خاص بالتكاذيب (الميثولوجيا) ولهم من هذا القبيل عقائد وعادات كثيرة سنشير إليها فى ذلك الموضع.

لم يكن الشعر فى فحول أهله من العرب لفظاً لسان يطير ويقع، ولكنه كان حسباً ونسباً، وكان الشعراء هم أهل التاريخ، فإذا لم يستطع الشاعر أن يرفع ويضع، وأن يبعث لسانه مع الموت إلى الموتى بحيث يكون كما وصفوا الجنى بأن فمه يتأجج ناراً، فذلك الساقط المغمور؛ من أجل هذا كان يجنح الشعراء إلى اعتقاد أن شعرهم أحرف نارية تلقى بها الجن على ألسنتهم، وأنهم إنما يتناولون من الغيب، فهم فوق أن يُعدّوا من الناس ودون أن يحسبوا من الجن؛ فإذا جاء أحدهم بالقصيدة البارعة، ورمى بالكلمة النافذة، ضرب قلبه أنها من هناك، وأنه إنما يؤديها عن لسان قائلها، فيكون ذلك مدعاة إلى توكيد الثقة والاعتداد، وإلى الذهاب بالنفس ونفرة الأنف ونحو ذلك مما هو من كبر القرائح وترفع العقول. والعرب فيما حكاه أبو عبيدة يعرفون الجنى بأسماء، فإذا كفر وظلم وتعدى وأفسد قيل شيطان... إلخ، وقد يسمون الغضب شيطاناً، ومن ذاك قول أبى الوجيه العكلى فى أمر: كان ذلك حين ركبني شيطاني! قيل: وأى الشياطين تعنى؟ قال: الغضب! كما يسمون به الكبر، ومنه قول عمر: لا نزعنّ شيطانه من تغرته؛ وكذلك يريدون بالشيطان فى بعض معانيه الفطنة وشدة العارضة^(١) فيكون ما جاء فى الشعر من ذكر شياطين الشعراء على وجه المثل؛ لأن كل الصفات التى سبقت إنما هى خصيصة بالشاعر قبل الشيطان؛ وعندنا أنهم أخذوا هذا الاعتقاد من الكهانة وهى أقدم فيهم من الشعر، وكان لكل كاهن نجى يسمونه الرئى والتابع، فذهب الشعراء هذا المذهب وسموا شياطينهم أو سماها لهم الرواة... كما ستعرف. وقد درج شعراء الأمم على استعانة القوى الغيبية من قديم، لأن البيان وحى، ولأن الشعر يكاد يكون تفاعلاً روحياً من امتزاج روح الشاعر بروح

(١) الحيوان: ج١.

أخرى، إذ هو كالحالة الطارئة على النفس: تشعر بها وقتاً دون وقت، وفي موضع دون موضع؛ فكان شعراء اليونان والرومان يستدعون في أوائل منظوماتهم (Les Muses) وقد اصطالحوا على تسميتها بآلهة الشعراء أو عرائسه أو ربات الأغاني، ولهم في هذه العرائس أساطير منقولة (انظر شرح الجزء الثالث من الديوان) وقد انسحب على آثارهم المتأخرون من شعراء الأوربيين، فهم يسمون ربة الشعر، بالمنشدة السماوية، ونحو ذلك مما يتوكل عليه القلب ويلوذ به الاعتقاد.

والعرب لم يكونوا يفتتحون في أشعارهم باستدعاء تلك القوة الغيبية أو الاستمداد منها، كما فعل اليونان والرومان، ولكن ذلك كان لا يجاوز الاعتقاد وحركة النفس كبراً وغروراً، وكان ذلك فيهم قبيل الإسلام؛ ونظن أن الذي اخترعه الأعشى؛ لأنه أول من احترف الشعر وجعله تجارة؛ إذ هو لم يكن مكفى المؤنة ولا سرى التكسب كالنابغة؛ وقد ذكر صاحب القاموس أن جهنم تابعة الأعشى - أي شيطانه - وهو نفس لقب عمرو بن قطن^(١) من بني سعد بن قيس ابن ثعلبة، وكان يهاجى الأعشى، فكانه شيطانه لأنه لا يزال يهيجه ويبعثه على الشر، ولعل هذا هو الأصل. ثم اتخذ الأعشى، بعد ذلك مسحلاً؛ أما ما نسب من ذلك إلى أوائل الشعراء كامرئ القيس، وما زعموا من أن له قصائد ومطارحات مع عمرو الجنى وأن شيطانه لافظ بن لاحظ، فهو من تخرصات الرواة وما يجيئون به استيفاء لهذا البحث الخرافى وتكثراً من النظائر والأشباه فى الروايات، ولهم فى ذلك أخبار ذكر بعضها صاحب جمهرة أشعار العرب وصاحب كتاب آكام المرجان وغيرهما.

ونحن ذاكرون ما وقفنا عليه من أسماء شياطين الشعراء، إذ هم جعلوا ذلك مادة فى تاريخ آدابهم:

قالوا إن لافظ بن لاحظ هو صاحب امرئ القيس، وهبيد صاحب عبيد بن الأبرص وبشير بن أبى حازم، وهاذر بن ماهر صاحب زياد الديراني، وهو الذى استنبغه وهو أشعر الجن وأضنهم بشعره؛ فالعجب منه كيف سلسل لذيان به؟..^(٢)، ومسحل بن أثانة صاحب الأعشى، وجهنان صاحب عمرو بن قطن،

(١) قلت: انظر القاموس المحيط ص (١٤٠٩) ط . مؤسسة الرسالة .
(٢) الجمهرة: ص ١٩ .

وعمر بن الخطاب صاحب المخيل السعدى وصاحب حسان بن ثابت من بنى الشيبان،
ومدرك بن واغم صاحب الكميث؛ قالوا وكان الصلادم وواغم من أشعر الجن،
وسنقناق صاحب بشار؛ وذكر جرير أنه يلقي عليه الشعر مكتهل من الشياطين؛
والفرزدق يقول إن لسانه أشعر خلق الله شيطاناً، ولكنهما لم يسميا هاجسيهما.

وقالوا إن رجلاً أتى الفرزدق فقال: إني قلت شعراً فانظره، قال أنشد، فقال:

وفيهم عمر المحمود نائله كأنما رأسه طين الخواتيم

فضحك الفرزدق ثم قال: يا ابن أخي إن للشعر شيطانين يدعى أحدهما
الهوبر والآخر الهوجل، فمن انفرد به الهوبر جاد شعره وصح كلامه، ومن انفرد
به الهوجل فسد شعره، وإنهما قد اجتمعا لك فى هذا البيت فكان معك الهوبر فى
أوله فأجدت، وخالطك الهوجل فى آخره فأفسدت^(١).

وكانوا يسمون الشعراء كلاب الحى، وأول من لقبهم بذلك عمرو بن كلثوم
فى مقوله:

وقد هرت كلاب الحى منا وشذبنا^(٢) قتادة من يلينا

والرواية التى أتت كلاب الجن خطأ، لأن المراد بكلاب الجن شعراؤهم وهم
الذين ينبحون دونهم ويحمون أعراضهم كما ذكر الجاحظ^(٣) وقد تابعه الشعراء
على هذه التسمية، لأن كل هجاء منهم يفخر بأنه عقور...

ولم يلتفت المحدثون من الشعراء بعد بشار بن برد لأمر هؤلاء الشياطين إلا ما
يجىء لهم من سبيل الفكاهة والبادرة، ولكنهم لم يدعوا الاستعانة بأسماء الله فى
رأس القصيدة، فيكتبون اسم الفتاح أو العليم أو المعين، أو يتدثون بالبسملة، وقد
درجوا على ذلك إلى اليوم، وبخاصة فى العراق.

(١) الجمهرة: ص ٣٤.

(٢) قلت: شذبنا شذب اللحاء شذباً: قشره، وشذب العود: أزال ما عليه من الأغصان حتى يبدو لحاؤه.

(٣) الحيوان: ج ١.

طبقات الشعراء

يقسمون الشعراء باعتبار عصورهم إلى أربع طبقات: جاهلي قديم. ومخضرم، وهو الذى أدرك الجاهلية والإسلام. وإسلامى. ومحدث. قال ابن رشيق: ثم صار المحدثون طبقات: أولى، وثانية مع التدريج؛ وهكذا فى الهبوط؛ ويسمى المحدثون بالمولدين أيضاً، وبعضهم يطلق هذا اللقب على الإسلاميين ويخصه بهم.

وأصل المخضرم عندهم من أدرك الجاهلية والإسلام، ثم أطلقوه على هذه الطبقة، فقالوا شاعر مخضرم، قال ابن برى: أكثر أهل اللغة على أنه مخضرم - بكسر الراء - لأن الجاهلية لما دخلوا فى الإسلام خضرموا آذان إبلهم: قطعوا أطرافها، (وكان أهل الجاهلية يخضرمون نَعَمهم، فلما جاء الإسلام أمروا أن يخضرموا من غير الموضع الذى يخضرم فيه أهل الجاهلية) لتكون علامة لإسلامهم إن أغير عليها أو حوربوا؛ وأما من قال: مخضرم - بفتح الراء - فتأويله عنده أنه قطع عن الكفر إلى الإسلام^(١).

وأشهر المخضرمين: لبید، وحسان، والحطيئة، والنابغة الجعدى، والخنساء. ثم شعراء الجاهلية عند بعض العلماء ثلاث طبقات، يعدون فى الأولى: أصحاب السبع الطوال على المشهور، والنابغة، وأعشى قيس، والمهلhel، وعدى بن زيد، وعبيد بن الأبرص، وأمىة بن أبى الصلت؛ وفى الطبقة الثانية: الشنفرى، وأبو داؤد، وسلامة بن جندل، والمثقب العبدى، والبراق بن روحان، وتأبط شرا، والسموأل بن عادىاء، وعلقمة الفحل، والحارث بن عباد، وخداس بن زهير، وعروة بن الورد، والأسود بن يعفر، وحاتم الطائى، وأوس بن حجر، ودريد بن الصمة، والخنساء؛ ولا يعدون من الطبقة الثالثة غير لقيط بن زرارة. وهذا التحديد يسقط كثيراً من شعراء الجاهلية وشواعرهم. وهم إنما قسموهم على رتبهم فى الإجادة كما يقولون؛ ثم إن من يقف على مجازفتهم فى التفضيل بالقطعة

(١) تاج العروس : ٢٨ / ٧ .

والبيت، بل وينصف بيت، لا يرى في هذا التقسيم إلا أنه رأى مرسل كما اتفق، لا كما تجرى به الأدلة وتسيره البراهين؛ ولهم بعد كلام كثير فيمن هو أشعر العرب، تجده مبعوثاً في سطور الكتب، وهو مما لا يؤخذ به لأن سبيله سبيل ذلك الرأي؛ وعندنا أن قولهم فلان أشعر العرب لبيت كذا أو لقصيدة كذا، محمول على المبالغة في الاستحسان، كما يقولون أشعر الإنس والجن ونحو هذا؛ فكأنهم يمدحون الشاعر بكلام على مذهب الشعر.

وشعراء الجاهلية معروف أكثرهم، والمخضرمون معروفون جميعاً، ولكن الإسلاميين لا يعرف منهم إلا عدد قليل، وذلك راجع للفتن الإسلامية التي صرفت قرائحهم واستأصلت أكثر أهل الاستعداد منهم، كما سنبينه في موضعه.

أما المحدثون فلم يسقط من مشاهيرهم أحد، وقد وضعت لهم كتب التراجم في عصورهم المختلفة إلى اليوم، وسنذكرها في «باب التاريخ» إن شاء الله.

الشاعرات

كان ابن أبي دُواد يقول: ليس أحد من العرب إلا وهو يقدر على قول الشعر، طبع ركب فيهم، قلّ قوله أو كثر، فإن صدق هذا على رجالهم صدق على نسائهم، إذ الطبع واحد واللغة متفقة والغريزة لا تختلف، وإنما يتفاوت الجنسان في فنون القول لا في القول نفسه، ثم في براعة الصناعة من جهة قوة الشعر وسبكه ورصفه والتثامه، ومن ناحية المعنى وصحته والإبداع فيه؛ أما في استقامة الألفاظ وفصاحتها، وفي استقامة الأوزان الشعرية بعضها أو كلها فما أحسب ذلك يعيب أحداً منهم رجالاً ونساء متى أراد وحمل طبعه عليه، إن لم يكن في جميعهم ففى أكثرهم؛ ولهذا كان الذى قصر بالشعر العربى وجعل أكثره متخلفاً لا يثبت على أفواه الرواة - كثرته وتعاطى كل أصوله، حتى العامة والسفلة؛ وما من قائل إلا وهو معدّ لقوله سامعاً، ولا من سامع إلا وهو يحفظ ويروى بعض ما سمع، فقد خرج الأمر إلى أن صار كالعادة والطبيعة؛ وإذا وجدت أمة كلها شعراء تساقط شعراؤها حتى لا يثبت منهم ولا يتفرد إلا من كان فوق الطبيعة وجاء من وراء العادة فيما قالوا وفيما سمعوا، أو من احتاجوا أن يعتبروه كذلك لأمر من أمورهم كما يحتاج أهل المملكة إلى الملك، وما هو بنفسه صار ملكاً ولكنه بما رضوا وخضعوا وبما سمعوا وأطاعوا.

فهذان سببان إن وقعا فى حكم الشعراء من الرجال لم يتفق أحدهما ولا كلاهما للشاعرات من النساء؛ إذ كانت المرأة دون الرجل فى هذه القوة، فلا هو ينقلب أنثى ولا هى تنقلب رجلاً، ثم كان لها من الشأن فى التاريخ على مقدارها، فما قط عرفت شاعرة أخلت شعراء دهرها، ولا كاتبة غطت على كتاب رمنها، ولا عرف مثل هذا فى الأدب ولا فى الرواية ولا فى شىء من هذه الصناعة بوسائلها وأسبابها، فكانت الطبيعة نفسها حجاباً مضروباً على النساء قبل الحجاب الذى ضربه الرجال عليهن.

بهذين السببين قلّ الشاعرات من النساء طبيعة، ثم زادهن قلة فى العرب أن تاريخ النساء فيهم كان ينشئ جزءاً من تاريخ السيوف، فكانت المرأة العربية كأنها

طبيعة من طبائع النعمة؛ إذ لم تكن إلا عرضاً يُحمى بالسيف أو عرضاً يُسلب بالسيف، وجعلها ذلك منهم بمنزلة الذاكرة من وقائع التاريخ، فهي التي تذكرهم الثأر وأيام الدم، وهي التي لا تنسى شيئاً مما هيأتها له الطبيعة الاجتماعية في أرضها وقومها، فإن كانت لم تعش إلا في ظلال السيوف، وإن كانت أما لم تلد إلا قاتلاً أو مقتولاً، فهي في الأولى يتصل بها تاريخ القتلى من أهلها، وفي الثانية تتصل هي بتاريخ القتلى من ذويها؛ فمن ثم انصرفت عن الشعر إلا في أخص شئونها، وشغلت من الخيال بإحساسها الذي لا هم لها إلا أن تستمد منه الحادثات لتوقع منه حادثات مثلها، سيئة بسيئة؛ فهي بعيدة عن القول بمقدار قربها من العمل.

ولذلك بنيت المرأة العربية على أخلاق شديدة، لمكان الطباع والعادات والحوادث التي أنشأتها] وانحدرت فيها وجرت عليها، فجاءت في مثل تركيب الصحراء: إن يكن فيها ساعات ندية من الليل وضوئه ونسجه وأحلامه، ففيها نهار يصب النار على الأحياء ملء أقطار السموات، كأنه لم يقسم لها إلا شدة الحب وشدة البغض، تجري فيهما على أسباب وعلل مذ صارت جزءاً من طبيعتها الثانية فتستفرغ فيهما كل وسائلها وتبلغ بهما ما بلغت قواها. فتنتهي إلى خلقين ثابتين: شدة الجزع، وشدة الصبر؛ وكل ذلك مما لا يترك للشعر في طبعها إلا مكاناً محدوداً في معان محدودة.

وسبب رابع في قلة الشاعرات عند العرب، وهو أن كل قبيلة إنما تعتد الشاعر لسانها السياسي، وتعدده للخصومة في تاريخها والنضج عن أحسابها، وتنال به ما ينال الأسد من أنيابه، فهو منهم إن أرادوه كان المعنى المتوحش في المعنى الإنساني، وإن أرادوه لأفئدتهم كان المعنى الإنساني في المعاني الوحشية ولذلك يسمون الشعراء «أظفار العشيرة». والمرأة لا تصلح ظفراً ولا ناباً، ولا تحسن أن تمضغ لحوم الأعداء في هجائها، ولا أن تأتي بالكلام الذي تترقرق فيه دماؤهم، ثم هي نفسها جزءٌ تقع عليه الخصومة بينهم، وفيها أكثر المعاني التي يستبون بها، بل هي أم هذه المعاني... ثم كانت طبيعة جنسهم أن ينشئوها في الحلية لا في الخصام، وأن يجعلوها فاكهة العيش لا ثمره المر، وكل هذه حدود تتراجع فيها

حدًا وراء حد، والشعراء منطلقون من جميعها .

والعرب لا يرون كل من تقول الشعر شاعرة؛ إذ كان ذلك طبيعياً فيهم وإنما الشأن فيمن تتخطى حدود الحجاب الطبيعي وتكثر من القول وتتصرف في فنونه ومعانيه بما يتعدد من حوادثها ومصائبها؛ فتلك هي الشاعرة عندهم لا غيرها، وبذلك جرت لهم العادة في السماع والرواية؛ إذ المصائب تجعل المرأة في جوّ الرجل أو قريبة منه، بما تضيف إليها من الشعور وبما تبعثها عليه من العمل، ثم هي في تلك الحال إنما تدون لهم بعض التاريخ وتزيدهم لساناً في رواية المفاخر، ومن هذه الجهة تشبه الشعراء، فيتناشدون شعرها ويستمعون إليها، وتنبغ بالمصائب ثم تكون ندرتها فيهم نبوغاً آخر، وقلما تقدمت المرأة عندهم في باب من أبواب الكلام أو العمل إلا كانت غريبة نادرة، وهي سنة طبيعية في التاريخ انتفعت بها النساء الشاعرات إلى يومنا هذا؛ فإن الشيء الغريب لو لم تكن له قيمة لكفى بغرابته قيمة فيه .

وكان نساء العرب يقلن الشعر في معانٍ متقاربة يرجع أكثرها إلى إحساس المرأة وحسن تصريفه بين عقلها ولسانها؛ ولم يكن لهن من معاني الشعر غير الرثاء وبعض الغزل، وشعر ترقيص الأطفال، وشعر التحضيض يثرن به نخوة الرجال ويحضضونهم على طلب الثأر والثبات والاستماتة في الحرب؛ وقد تجعل المرأة جسمها قصيدة مع شعرها في التحضيض، كالذي فعلته ابنتا الفند الزماني، فقد قالوا إنه لما اشتدت الوغى يوم التحالقي وخاف بنو بكر من الفرار، عمدت إحداهما إلى أثوابها فألقتهما عنها وأقبلت عارية مجردة وجعلت تحض الناس وترتجز، وفعلت أختها مثل ذلك، فتحمس القوم ووثبوا يقاتلون قتلاً منكراً؛ فهذه مادة من شعر النساء لا يستطيعها أبلغ الشعراء من الرجال .

والرجز الذي ارتجزت به إحدى هاتين هو الرجز المشهور:

نحن بنات طارق نمشى على النمارق^(١)

وهذه الأبيات تروى أيضاً لهند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان، فقد كانت

(١) قلت: ذكره البيهقي في دلائل النبوة ٢٢٣/٣، وابن هشام ٢٠/٣ .

ترتجز بها فى وقعة أحد وخلفها النساء يضربن بالدفوف؛ وهند هذه هى التى شقت بطن حمزة لما قتل، وقد كان أسداً من أسود الله على قومها، فاستخرجت كبده فلاكتها فى فمها فلم تطق إساغتها فلفظتها، وهذا من شر ما يعرف عن امرأة، وليس يشبهه إلا ما فعلته ريحانة أخت عمرو بن معديكرب الفارس المشهور؛ وأم دريد بن الصمة فارس هوازن وسيد بنى جشم، فإنه لما قتل ابنها عبد الله بن الصمة لم تزل تعير أخاه دريداً وتحضه، حتى نفر فى طلب الثأر من غطفان، فغزاهم وقتل منهم قوماً، ثم أسر قاتل أخيه وأتى به إلى فناء أمه فقتله تحت عينيها، فأحضرت السيف وجعلت تلحس الدم بلسانها إلى أن انقطع منه شيء وهى لا تشعر لغلبة الفرح عليها؛ ومع هذا الظماً إلى الدم لا يروى لريحانة شعر فى ابنها، ولا هى معدودة فى الشواعر، وإنما رثته أختها كبشة بنت معديكرب، فأجزأت الخالة عن الأم؛ ومن أعجب ما يروى عن شاعرة، خبر عجوز تسمى خويلة، وكان يدخل عليها أربعون رجلاً كلهم لها محرم بنو إخوة وبنو أخوات، طرقتهم بنو واهن وبنو ناغب فقتلوا منهم ثلاثين، فوقفت خويلة على مصارعهم ثم عمدت إلى خناصرهم فقطعتها ونظمت منها قلادة وألقتها فى عنقها وخرجت حتى لحقت بابن أختها تستنفره للثأر فى شعر جاف [مقتضب] كخناصر قتلاها، رواه القالى فى أماليه^(١).

سابقه (٣٨١٠)

ومن أعجب شعر النساء القديم فى الجاهلية الأبيات المشهورة المروية لليلى بنت لكيز الملقبة بالعفيفة، وهى التى تصف فيها ابتذال الأعداء لعفافها بهذا البيت النادر:

قيدونى غللونى ضربوا ملمس العفة منى بالعصا

وقولها «لممس العفة» من الكلام الذى لا يفنى التعجب من بلاغته ومن حسن التعبير فيه؛ وكذلك أبيات جليلة أخت جساس، وكان أخوها قتل زوجها كلياً بن ربيعة؛ فلما اجتمع النساء يندبنه أخرجنها وحسبها شامة لأنها أخت القاتل، فبلغ ذلك إليها فقالت أبياتاً من أعجب الشعر:

(١) الأمالي: ١٢٧/١.

جَلَّ عِنْدِي فَعْلُ جَسَاسٍ، فَوَا حَسَرْتَا مِمَّا انْجَلَى أَوْ يَنْجَلَى!
 فَعْلُ جَسَاسٍ عَلَى وَجَدِي بِهِ قَاطِعَ ظَهْرِي وَمُذْنٍ أَجَلَى
 لَوْ بَعِينَ فَقَتْتُ^(١) عَيْنٌ سَوَى اخْتَهَا فَاَنْفَقَاتِ لَمْ أَحْفَلِ
 يَا قَتِيلًا قَوَّضَ الدَّهْرُ بِهِ سَقَفَ بَيْتِي جَمِيعًا مِنْ عَلِي
 هَدَمَ الْبَيْتَ الَّذِي اسْتَحْدَثْتُهُ وَانْثَنَى فِي هَدْمِ بَيْتِي الْأَوَّلِ
 يَشْتَفِي الْمُدْرِكُ بِالثَّارِ، وَفِي دَرَكِي ثَارِي تُكَلِّ مَثْكَلِي
 إِنْنِي قَاتِلَةٌ مَقْتُولَةٌ وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَرْتَاحَ لِي^(٢)

قال صاحب المثل السائر: وهذه الأبيات لو نطق بها الفحول المعدودون لاستعظمت، فكيف بها من امرأة!!

ولا يهولنك كثرة أسماء النساء اللاتي قلن شعراً، فعمود الشعر عندهن الرثاء، وليس لهن إلا المقاطيع والأبيات القليلة، ولم تَبْنِ منهن إلا الخنساء وليلى الأخيلية؛ وما شعرت الخنساء حتى كثرت مصائبها؛ وكانت قبل ذلك كغيرها من النساء: تقول البيتين والثلاثة، حتى قُتِلَ أخوها صخر [...] به من كان مثله، فأجادت وأطالت؛ لأنها أصبحت مصروفة الهم إلى نوع من الحب في نوع من الشعر؛ وسمت همتها إلى أن صارت تعاضم العرب في مصيبتها بأبيها وأخويها صخر ومعاوية؛ فصارت تشهد المواسم وقد سَوَّمت^(٣) هودجها براية وتقول: أنا أعظم العرب مصيبة! وتبكي أهلها وتنشد مراثيهم فدارت أشعارها على الألسنة؛ وقد قلدها في هذا الصنيع هند بنت عتبة، فإنه لما قُتِلَ أبوها وعمها وأخوها، وبلغها ما تفعل الخنساء في الموسم وتسويمها هودجها ومُعاضمتها العرب بمصيبتها، قالت: أنا أعظم من الخنساء مصيبة! وأمرت بهودجها فسوِّم براية، وشهدت الموسم بعكاظ، وجعلت تسأل عن الخنساء فدُلَّت عليها، وجعلت كل منهما تعاضم الأخرى وتنشد مراثي أهلها. فلو كان يُعرَف عندهم أشعر من هاتين لسموهن.

(١) قلت: فقئت: فقأ العين أو البثرة ونحوها فقأ: شقها فخرج ما فيها.

(٢) كناية عن الموت.

(٣) قلت: سومت: علمته كما في القاموس.

وقد استفحلت الخنساء فى رثاء أخيها صخر، وكان أخاها لأبيها ولكنه كان أحبَّ إليها من معاوية وهو لأبيها وأُمها.

غير أن المصائب لا تجعل غير الشاعرة شاعرة، ولا بد من تركيب ملائم فى بعض الناس لتلقى مادة الشعر عن الروح والقلب والطبيعة، ولم يأت فى شعر النساء خاصة أفحل ولا أجزل من شعر الخنساء، كأن فقد رجالها جعلها رجلاً.

وكثير من أشعار النساء يضعه الرواة ويهيئون له أخباراً يجرى فيها ذلك الشعر، ولكن ما تقوله المرأة فى لوعتها لا يُحسن الرجل أن يقول مثله مهما تكلف لذلك ولبسه على تصنع؛ وبهذا تستطيع أن تميز الصحيح والمنحول من شعر النساء.

وقد يُمسك لسان امرأة فى مصيبتها زمناً إلى الحول إذا فجعت بحبيبتها، فلا تقول شيئاً مع قدرتها على القول؛ لأنها لا تسلو ولا تفيق، ولا تريد أن تسلو ولا تفيق، كامرأة مالك بن عمرو الغسانى، فلما روجوها بعد زوجها الأول نطقت ترثيه ليلة عرسها؛ فكان شعرها طلاقها من بعلمها الثانى!

ومن نادر الشعر فى مراثى النساء أبيات تروى لامرأة من بنى الحارث بن كعب كان لها طفلان من عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب، وكان عبيد الله هذا عاملاً لعلّى بن أبى طالب على اليمن، فوجه معاوية إلى اليمن بسر بن أرطاة فأرشد على الطفلين، فوارتهما أمهما تحت ذيلها، فأخذهما وذبحهما تحت عينيها؛ فكانت تقول فى رثائهما وتذبيهما أبياتاً، منها:

يا من أحسَّ بُنىَّ اللذين هما	كالدُّرَّتين تشظى عنهما الصدفُ
يا من أحسَّ بُنىَّ اللذين هما	سمعى وطرفى فطرفى اليوم مُختطف
يا من أحسَّ بُنىَّ اللذين هما	مُخَّ العظام فمخى اليوم مُزدهفُ

ولا أبلغ فى البلاغة ولا أحسن حكاية لصوت البكاء والندب من قولها «بُنَىَّ» فهاتان الياءان المشددتان تعصران الدموع عصراً وتصوران غصص العبرات مترددة فى خلق الباكية أبدع تصوير.

ولم يكن نساء العرب يقلن فى الغزل ووصف الهوى إلا قليلا، لمكان المرأة بينهم وشدة الغيرة فيهم، ثم لا يكون غزلهن إلا عفيفاً، كهذه الأبيات التى رواها ثعلب لامرأة من العرب تقول فيها تصف خلوة مع حبيبها:

وبتنا خلاف الحى لا نحن منهم ولا نحن بالأعداء مختلطان
وبتنا يقينا ساقط الطل والندى من الليل بُرداً يُمنّة عطران
نذود بذكر الله عنا من الصبى إذا كان قلبانا بنا يردان

وهذا المصراع الأخير من أبدع الكنايات ومن أبلغ البلاغة العربية.

فلما تحضر العرب ونشأت طبقة الشعراء العشاق، وبدأ عصر القيان الناديات المغنيات - مثل جميلة وعزة الميلاء وسلامة الزرقاء ومن فى طبقتهم - فشا الغزل فى شعر النساء، وكان يندر بعد ذلك أن تظهر الشاعرة المتفحّلة التى تجرى على سنة العربيات، كليلى بنت طريف الشاعرة الفارسة التى كانت فى أواسط القرن الثانى للهجرة، وكانت تسلك فى رثاء أخيها الوليد بن طريف الشيبانى الخارجى مسلك الخنساء فى رثاء صخر، ولها الأبيات الطائفة التى منها هذا البيت البليغ المشهور فى كتب النحاة:

أيا شجر الخابور ما لك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف

ولا غرابة فى فروسية هذه الشاعرة وفصاحتها وجزالتها^(١)؛ فهى من نساء الخوارج، وهن فى النساء الإسلاميات كالعضل فى الجسم!

وللقيان الناديات تأثير بعيد فى تاريخ الأدب، لأنهن يتهاككن رقة وظرفاً وحباً، وشعر الشاعرات منهن كخفقان القلوب، كله مقاطيع لا قصائد، وكان منهن من تجلس للشعراء تناقضهم وللأدباء تحاورهم، كخلوب جارية يحيى بن خالد البرمكى، وفضل الشاعرة جارية المتوكل، ولم تكن تشعر الواحدة منهن حتى يتصل الهوى بينها وبين شاعر أو شعراء وكاتب أو كتاب، تأخذ منهم وتدع، وتعرف منهم وتنكر؛ وليس بعد الخنساء وليلى الأخيلية أشهر من فضل الشاعرة جارية المتوكل؛ وروى صاحب الأغاني فى أخبار سعيد بن حميد الشاعر الكاتب

(١) قلت: الجزل: الكريم وخلاف الركيك من الالفاظ كما فى القاموس.

المرسل، وكانت تهواه فضل، عن إبراهيم بن المهدي، قال: كانت فضل الشاعرة من أحسن خلق الله خطأً وأفصحهم كلاماً وأبلغهم في مخاطبة وأثبتهم في محاوره؛ فقلت يوماً لسعيد بن حميد: أظنك يا أبا عثمان تكتب لفضل رقاعها وتفيدها وتخرجها فقد أخذت نحوك في الكلام وسلكت سبيلك، فقال لى وهو يضحك: ما أخبت ظنك...! والله يا أخى لو أخذ أوائل الكتاب وأماثلهم عنها لما استغنوا عن ذلك^(١).

ومن مضحكات فضل هذه أنها كانت تهاجى خنساء الشاعرة جارية هشام المكفوف، وذلك ما لم نعرف له نظيراً في الأدب العربى، فقد عرفنا أن الهجاء قد يلجّ بين شاعرين، أو بين شاعر وشاعرة، ولكننا لم نعرفه بين شاعرة وأخرى مثلها، إلا ما قيل عن فضل وخنساء؛ وكان هجاؤهما نساءياً حياً وكانت كلتاهما تستعين فى ذلك بالرجال؛ فكان أبو شبل عاصم بن وهب يعاون فضلاً، وكان القصيرى والحفصى يعينان خنساء، وبهذا رجع الهجاء إلى حقيقته فصار بين رجال بعضهم وبعض.

وكان عند المتوكل شاعرتان غير فضل، هما: بنان ومحبوبة، غير أن السبق لفضل؛ فهى شاعرة زمنها.

وعلى كثرة أسماء النساء الشاعرات فى التاريخ الأدبى وروايتهم؛ عن أبى نواس أنه قال: ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة منهن الخنساء وليلى؛ وقول أبى تمام: لم أنظم شعراً حتى حفظت سبعة عشر ديواناً للنساء خاصة - لم ينته إلينا ولا ديوان واحد إلا المقطعات التى جمعت للخنساء، وهى ليست ديوانها؛ ولعل السبب فى ذلك أن الناس لم يكونوا يحفلون بشعر النساء، إذ كان شعر الرجال قد ملأ الدنيا وذهب المذاهب كلها فى فنون الكلام وبلاغته، وإنما كان يجمع بعض الرواة والعلماء أشياء من ذلك، كالكتاب الذى جمعه أبو عبد الرحمن العتبي الشاعر البصرى المتوفى سنة ٢٢٨هـ من أشعار النساء اللاتى أحبين ثم أبغضن، وكلهن من العرب، وأشعار النساء للمرزبانى، وهذا الكتاب لا يزال موجوداً؛ ثم ما ألف فى طبقاتهن، كالإمام الشواعر للأصبهانى المتوفى سنة

(١) أعلام النساء (٤/ ١٧١ - ١٧٦).

٣٥٠هـ، والنساء الشاعرات لعدة أدباء.

والعجيب أن الذين ألفوا في طبقات الشعراء لم يذكروا الشاعرات معهن، لا في الحجاز ولا في الشام ولا في العراق ولا في مصر ولا في المغرب ولا في الأندلس؛ وضربوا الحجاب عليهن؛ إذ كان شعر النساء تظرفاً، وإذ لا يكاد يعرف في التاريخ كله من تستحق اسم الشاعرة غير بضع نساء معدودات أشهرهن من عددنا؛ وإذا عرفت امرأة واحدة في عصر؛ غطى عليها مائة رجل في حجاب من لحى الرجال فلا تكاد تظهر؛ فيا رحمتا لهؤلاء الضعيفات!

تنوع الشعر العربي وفنونه

الشاعر إنسان منفرد في الناس، وهو في نفسه عالم مجتمع من حيث تشبكت في نفسه علائق الموجودات وترتبط أسباب الحوادث وتتألف من ذلك كله صور مرتبة تلقى إليها حقائق هذا العالم التي يستمد منها الشعر؛ غير أن تلك الصور يدخل عليها ما يعترى الصور الحسية من الجمال والقبح على اختلاف أنواعها من الرقة والمناسبة والغلظة واختلال التركيب ونحوها؛ وذلك تابع لتأثير العصور على الشاعر ومقدار ما يكون قد تخلف في عصره من أسباب الرقي الإنساني، فإن جهد الشاعر أن يكتنه حكمة الخالق في خلقه - وليس العالم كله إلا تفسيراً مرتباً على أجزاء هذه الحكمة البالغة - فالعصر الطويل بحوادثه التي تغير وجه الأرض إنما هو صفحة تطوى لتترك من المعاني ما تبنى عليه صفحة أخرى، وما هذا التشابه في حوادث العالم إلا نوع من الالتئام؛ كما يشابه الثوب في جملة نسجه ولكن قطعة منه لا تغنى عن قطعة؛ بل لابد لظهور حقيقته من التمام كلها على حسب ما يقدر له في كماله. وعلى ذلك يمكن تقسيم الشعر مطلقاً إلى ثلاثة أقسام باعتبار علاقة روح الإنسان بالقوى الغيبية؛ وعلاقتها بأحوال الناس؛ وعلاقتها بسائر الموجودات الأخرى؛ لأن الشعر ليس أكثر من أن يكون لغة الروح؛ فجميع أنواعه إلى هذه الأقسام الثلاثة وعلى مقدار ارتقاء كل أمة يكون مبلغ شعرها منها؛ فالعرب في جاهليتهم كانوا منصرفين عن الفكر في حقائق القوى الغيبية، مستسلمين للأوهام بحكم العادة ولذلك فقدت من شعرهم مادة الجمال الروحاني التي يتألق فيها نور السماء، فكان شعراً مادياً لا يصف المحسوس بأكثر من كونه محسوساً وإن تنوعت العبارات واختلفت الأساليب، وكذلك كانت علائقهم الاجتماعية بسيطة في أكثر أحوالها، لأنهم أهل بادية لا يختلطون بغيرهم ولا يعرفون من تاريخ العصور أكثر من عوائد أسلافهم الأقربين، فكانهم في أوائل من عمروا الأرض، وكأنهم عند أنفسهم من آباء التاريخ؛ ولذلك جاءت فنون شعرهم غير مرتبة ولا مستقصاة، بل تنحصر في أنواع لا تكافئ ما يكون من العلائق في أمة راقية، وكانوا يعرفون ذلك النقص في مادة أشعارهم فوجهوا جهدهم وصرفوا

قواهم إلى الفصاحة وتشقيق الكلام وتصريف اللغة؛ فبلغوا في ذلك منزعاً بعيداً؛ لأنها من الصناعات التي تلائم الظواهر النفسية، وكانت أحوالهم الاجتماعية كلها بعيدة عن أن يخاص عليها في قرارة النفس، فلما صادف ذلك الاتفاق منهم المشابهة التامة والمطابقة الصحيحة، نهضت به طباعهم الراقية إلى ما قصرت فيه عنهم سائر الأمم، لانصراف طباعها إلى غير ذلك وتورع قوى الابتكار في أفرادها ونوابغها المعدودين.

اسم عثمان أو اسمه مقدون؟

وبهذا يتضح لك خطأ ما حكاه ابن خلدان وأقره من اعتقاد أئمة الصناعة الأدبية أن ما لم يجز على أساليب العرب كشعر المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء؛ وهو يريد بأساليب العرب ما صرفوا إليه جهدهم مما وافق ظواهر أحوالهم على نقصه؛ وقد سقط في ذلك جمهور الأدباء حتى كبارهم كالجاحظ وغيره؛ فكان من هذا علة أصل الجمود الذي جعل الشعر العربي يضطرب في دورة الأزمنة لأنه لا يدور معها إلا قليلاً عندما يدفعه أهل القرائح المستقلة، ومدار الاستقلال في القريحة على نوع من الإبداع خاص بها هو الذي يقال في نفس فلان وروح فلان، فإذا اقتدت القرائح بعضه ببعض فقد استعبدت وذلت؛ لأنها تتبع آثاراً في طريق مصنوعة؛ ولكن طريق الإلهام لا أثر فيها إلا حس الأرواح بعضها ببعض، وليس يحق هذا الحس إلا خذلان من الله، فالقريحة المستقلة لا تتبع صفة قريحة أخرى؛ ولكنها تتبع الروح الملهم وتبين آثاره في الصنعة وتبالغ في تمييزها حتى تتجه إلى مصدر الإلهام؛ وذلك سر النبوغ العبقري.

وقد يتفق للجاحظ أن يحوم بخاطره حول المعنى المقصود من الشعر ولكنه لا يسقط إلا على أطرافه وأعالى فروعه، وإنما يعنى عليه أنه ينظر إلى أن الشعر عمل فردى مبدؤه الشخص وغايته الشخص؛ وكان ذلك صحيحاً في العرب لأنه ينطبق على حالتهم الاجتماعية؛ إذ كانوا أفراداً أو في حكم الأفراد؛ وكانت كل أعمالهم تجري هذا المجرى، فهم لا يغزون مثلاً مدافعة عن الحياة العامة للقبيلة؛ أى من أجل باعث سياسى؛ ولكنهم يغزون للحياة الفردية؛ أى مدافعة عن العيش أو التماساً له أو مغالبة عليه؛ وكذلك هم في كل شأنهم ما دام قوام الاجتماع عندهم بالعصبية، وقد ظهر أثر ذلك في شعرهم فهو شخصى في معانيه، ممتاز

بهذه الشخصية، حتى لا تجد فيه الحوادث المركبة التي يرمى بها إلى غرض عام، كتاريخ قبيلة من القبائل؛ وكالشعر التمثيلي الذي يُتَحَيَّلُ فيه على تصريف المعاني وسياسة الحوادث؛ وكان ذلك سهلاً عليهم لو أنه في طبيعة معيشتهم ومن مقتضى نظامهم الاجتماعي، أما فيما عدا ذلك، أى في المعاني الشخصية، فقد بلغوا في إجادتها مبلغاً يناسب إحكام اللغة وإتقانها؛ وهو الذي خُدع به الرواة حتى ظنوه كملاً إنسانياً كان مقسوماً للعرب فخصوا به وذهب في مآثر زمنهم، لأن على أسلوبهم وشي الغريزة، وفيه حوك الطبيعة، وذلك معدوم في طبع من بعدهم بالضرورة؛ ولما سُئِلَ أبو عمرو بن العلاء عن المولدين قال: ما كان من حسن فقد سُبِقُوا إليه وما كان من قبيح فمن عندهم، ليس النمط واحداً، ترى قطعة ديباج وقطعة نسيج وقطعة نطع...

قال الجاحظ: عامة العرب والأعراب والبدو والحضر من سائر العرب أشعر من عامة شعراء الأمصار والقرى من المولدة وليس ذلك بواجب لهم في كل ما قالوه؛ وقد رأيت ناساً منهم يهرجون أشعار المولدين ويستسقطون من رواها؛ ولم أر ذلك قط إلا في راوية للشعر غير بصير بجوهر ما يروى، ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد من كان وفي أى زمان كان... إلى أن قال: والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي؛ وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع وجودة السبك؛ فإنما الشعر صناعة وضرب من الصبغ وجنس من التصوير...

ونقول إن الفرق بين المولد والأعرابي أن المولد يقول بنشاطه وجمع باله الأبيات اللاحقة بأشعار أهل البدو؛ فإذا أمعن انحلت قوته واضطرب كلامه^(١).

قلت: وإذا كان الشعر ضرباً من الصبغ وجنساً من التصوير فلا ينبغي أن يكون كله ماءً ورونقاً، وهو اللون البليغ الذي يريدونه؛ لأن تصوير الحياة العامة يحتاج إلى الألوان الكثيرة؛ وربما دخل فيها أقبح الألوان فكان أحسن شيء، لوقوعه مع المناسبة بين الألوان الأخرى.

(١) الحيوان: ٤٠/٣.

على أن المُحدِّثين قد خالفوا العرب في كثير من الشعر إلى ما هو أليق وأمسَّ بأزمانهم، ولكن ذلك إنما كان من تأثير العصور عليهم ضرورة ولم يتجاوزوا به التشبيه والأوصاف، أما فنون الشعر فبقيت على ما تركها العرب، إلا ما كان من التصرف القليل في بعضها - كما ستعرفه - وأول من عد هذه الفنون وميز الشعر بها تمييزاً أخذ عنه، أبو تمام؛ فإنه رتب كتاب الحماسة في عشرة أبواب: هي الحماسة، والمراثي، والأدب، والتشبيب، والهجاء، والإضافات، والصفات، والسير، والملح، ومعرفة النساء؛ ثم جاء عبد العزيز بن أبي الأصبغ فجعلها بعد التتبع والاستقصاء ثمانية عشر: وهي الغزل، والوصف، والفخر، والمدح، والهجاء، والعتاب، والاعتذار، والأدب، والخمريات، والأهديات، والمراثي، والبشارة، والتهاني، والوعيد، والتحذير، والتحريض، والملح، وباب مفرد للسؤال والجواب.

وقد ذكر الثعالبي في ترجمة ابن حجاج الشاعر الهذلي الكبير وكان في القرن الرابع، أن البديع الأسطريابي رتب ديوانه على مائة وأربعين باباً وواحد؛ ثم قفى كل باب وجعله في فن من فنون شعر الزجل؛ ولكن هذه الفنون غير متباينة في تنوعها، بل ربما كان منها مائة نوع من الهجاء والسباب وحده، والباقي في المديح وغيره.

فأنت ترى أن تلك الفنون جميعها متداخل بعضها في بعض من حيث الوصف الشعري، وإنما هي أسماء نوعية تتباين مسمياتها بالحالة لا بالذات، فإن الشعر في الأعم الأغلب واحد في جميع تلك المتناقضات والمتشابهات من حيث روحه وأسلوبه والمبدأ الذي يأخذ منه والغرض الذي ينتهي إليه، ولكن أحواله متعددة بحسب اختلاف تلك الأنواع، فإن حالة الرثاء وصفة الفجيعة مثلاً غير حالة الشعر الخمرى وصفة الطرب والانشراح.

ولكن تنوع الشعر في الحقيقة إنما يكون ذاتياً، أى في الروح والأسلوب والمبدأ والغرض؛ فروح الشعر هو نوع التأثير الذي يخلقه الشاعر فيه، والأسلوب هو الطريقة التي يخصص بها نوع هذا التأثير، والمبدأ هو المعنى النفسى الخاص الذي يكيف به الشعر المؤثر، والغرض هو المعنى العام النفسى الذي يقصده من التأثير.

وبذلك يكون الشعر تمثيلاً حقيقياً للحياة، لأن الحياة مجموع من العادات العملية والانفعالية والذهنية مرتبة ترتيباً منظماً يؤدي إلى سعادة أو شقاء، ويسرق إلى الأقدار أيها كان؛ والناس كذلك مختلفون في قيمة التأثير بأحوال هذه الحياة، ونوع هذا التأثير، وفي المبادئ الخاصة التي تبنى عليها تلك الأحوال، والأغراض العامة التي تساق إليها، فالشاعر ينبغي أن يكون قوة من قوى الطبيعة التي تساعد في تكوين هذا الاجتماع على حالة من أحوال المختلفة، والقوى الطبيعية كلها متغيرة متباينة، ولكن هذا التغير فيها إنما هو شكل الانتظام الذي قامت به الحياة. والذي يحتاج إلى المطر لا يشترط في السحاب أن يجيء من هنا أو من هناك، ولا أن يكون قد تصاعد من بحر كذا أو غيره، ولا أن يساق بريح شديدة أو لينة؛ وكذلك الشاعر لا يقيد في شعره بنوع أو حالة؛ لأن الشعر قوة مؤلفة من عناصر دقيقة تنتظم بطبيعتها على النحو الذي يصورها في شكلها الملائم لتصريف مادة القوة فيها وعلى حسب ما يصرف الشاعر من هذه القوة.

فإذا اتفق الشعراء على شكل واحد وعلى أنواع معروفة لا تكافئ أغراض الحياة، فقد سقطوا من منزلتهم الطبيعية المبنية على تنوع القوى، وعند ذلك تظهر في مجموعة شعرهم الزيادة عن الحاجة الخاصة بأكثر مما يظهر فيه النقص عن الحاجة العامة اللازمة للاجتماع، وتكون النتيجة من ذلك أن يضج أكثرهم من وقت الحرفة لأن المتفردين منهم بظهور القوة هم الذين يكونون شعراء الناس فيجتازون، والباقيون يكونون شعراء أنفسهم فيغيبون في شعراء الناس.

وليس يؤخذ مما ذكرناه أن شعراء العرب لم يكونوا على بينة من حقيقة الشعر، بل هم قد تبينوها ولكن لم تمكنهم حالة عصرهم التفتن في أقسام الشعر وتنويعه على معاني الحياة الراقية؛ إذ كانت هذه الحياة غير متيسرة لهم، وكان ذلك حقاً على من جاءوا بعدهم، ولكنهم إنما درسوا الشعر في الغالب لينوعوا به الحياة، وكان الصحيح لو أثبتوا سنة العرب أنفسهم ودرسوا الحياة لينوعوا بها الشعر.

وسنأخذ في تاريخ أهم الأبواب التي فيها يدخل النظم العربي وهي: الهجاء، والمديح، والحماسة، والرثاء، والتشبيب، والوصف، والسياسة، والحكمة،

والهزل، وشعر الحكاية، وشعر الترقيص. وتبعتها بفصل في الشعر العلمي، وهو الذي تنظم فيه المتون والضوابط والكتب، مقتصرين على تأريخ كل باب دون البحث في وجه المعنى وطريق صنعته، فذلك من موضوع البلاغة ونقد الشعر.

الهجاء

نحن فى تاريخ هذه الأبواب لا نبسط فلسفة الأخلاق، ولا نكتنه أسرار تركيبها نريد أن نلون أجزاء الصورة الإنسانية بالأصباغ حتى نعين منها ما يكون صباغة بالشعر وما لا يكون؛ لأننا لو ذهبنا نُعدّ لذلك لأدخلنا فى هذا الكتاب كتاباً آخر، وأحدهما لا محالة مخرج الثانى عن غرضه الذى وضع له؛ فالكلام فى الهجاء يحتمل كثيراً من فلسفة النفس، كتعريف العيوب والردائل وما يتأثر بها من الأخلاق والأحوال التى يكون فيها هذا التأثير على اختلافه لينا وشدة، إلى ما يتصل بهذه المعانى أو يقاربها. فنحن نتجاوز ذلك كله إلى التاريخ. وإنما نلم فيه بما لا يحسن بنا أن نتخطاه وإن ترامت أطراف الكلام، وكان الإسراع وسيلة السائر فيه إلى الأمام.

العرب أمة أخلاق، لم تصفها الحضارة، ولم يذهب بخشونتها النعيم والترف، فهى جارية طبيعة فى مجرى العادات الوراثية الذى تخطه العصور ويتحيف^(١) جوانبه تيار الاجتماع؛ وبديهي أن ذلك المجرى لا يكون مطرداً على اتساق، بل هو يستقيم وينحرف، وتلتثم جوانبه وتمزق على مقتضى سنة التكون الطبيعى الذى يرجع فى كل ظواهره إلى الاتفاق وقذفات الأقدار. لذلك يرى العربى نفسه خلُقاً محضاً، ولكن فطرة الحياة غطت على بعض جوانب منه وكشفت عن بعضها. فهذا يظهر منه جانب الكرم وإن كان شجاعاً، ويظهر من الآخر جانب الشجاعة وإن كان كريماً، وهلم جراً، حتى إنهم لا يميزون بوصف من الأوصاف إلا من تناهى فيه، وتجد ذلك فى أمثالهم، فيقولون: أكرم من فلان، وأشجع من فلان، وأحلم من فلان؛ ولكنهم لا يميزون من يستجمع الفضائل الكثيرة ويكون كلُّها غالباً ظاهراً، فلا يضربون به أمثالهم، لأنه عندهم دون من يستغرق الخلق الواحد ويستوفى مناقبه على ما يعرفونها؛ فلما قضى عليهم نظام الحياة بالمغالبة، كان جانب التنافس بالأخلاق أغلب فيهم على جانب المنازعة بالأعمال، لأن العمل مظهر الخلق، وقلما يأتون شيئاً من أعمالهم إلا

(١) قلت : يتحيف، (تَحْيِف) الشيء: وتنقصه وأخذ من نواحيه كما فى القاموس .

ابتغاء أن يُظهروا تلك الأخلاق أو يكتسبوا ما يساعدهم على المبالغة في إظهارها، وذلك بين في حروبهم ومنافراتهم وكثير من عوائدهم؛ فكان من الطبيعي أن يدعو إلى ظهور الهجاء.

ولهذا لم يكن الهجاء عند العرب في اعتبار السباب والإفحاش؛ ولكنه سلبُ الخلق أو سلب النفس، أو فصل المرء من مجموع الخلق الحى الذى يؤلف قومية الجماعة وتركه عضواً ميتاً يتواصفون ازدراءه ويحركه جسم الأمة حركة جامدة كلما نهض أو تقدم.

لا جرم كان للهجاء عندهم ذلك الشأن؛ وعدوا بكاء الأشراف منه أول مكارمهم كما ستعرف؛ وكان السباب والإفحاش فيه مما يحيله عن أن يكون هجواً ولا يضر المهجواً شيئاً؛ فالهجاء عندهم قسمان: قسم يسمونه هجو الأشراف، وهو ما لم يبلغ أن يكون سباباً مقدعاً، بل هو التضريب بين الأحساب، وتعليق الكلام على الأخلاق يمتص منها مادة الحياة؛ وقسم هو السباب، ولا يعباون به لأنه هجو المهجوين بطبيعتهم وهم السفلة؛ فليس يجنح إليه الشاعر إلا إذا عجز عن إصابة المغمز^(١) الذى يكمن فيه الألم من الموضع الصحيح. ولما قدم النابغة بعد وقعة حسي سأل بنى ذبيان: ما قلت لعمري بن الطفيل وما قال لكم؟ فأنشدوه؛ فقال: أفحشتم على الرجل وهو شريف لا يقال له مثل ذلك؛ ولكنى سأقوله؛ ثم قال: فإن يك عامرٌ قد قال جهلاً فإن مطية الجهل السباب^(٢)

الآيات فلما بلغ عامراً ما قال النابغة شق عليه وقال: ما هجانى أحد حتى هجانى النابغة؛ جعلنى القوم رئيساً وجعلنى النابغة سفيهاً جاهلاً وتهكم بى!

ولذلك السبب كان أليق ما يسمى به الهجاء (شعر التاريخ) لأن الهجاء مؤرخ يذكر مثالب الناس ومناقبهم، ويقص من التاريخ ما يستعين به على إحكام معنى الهجاء؛ حتى إنك لتقرأ كثيراً من الشعر الذى أثر عنهم فى ذلك وفيه ذكر العادات وأخبار من التاريخ فلا تجد فيه شعراً، حتى إذا عرفت شرحه وتأويله وجدت فيه شعراً لا يكون ذلك المنظوم إلا إشارة إليه، وذلك كقول جرير يعير الفرزدق

(١) قلت: المغمز: العيب والمطن.

(٢) العمدة: ١٣٩/٢.

ويعلمه فخر قيس عليه:

تُحَضُّضُ يا ابن القين قيساً ليجعلوا لقومك يوماً مثل يوم الأرقام
كانك لم تشهد لقيطاً وحاجباً وعمرو بن عمرو إذ دعوا يال دارم
ولم تشهد الجونين والشعب والصفاء وشداث قيس يوم دير الجماجم

وقد أوردها المبرد في كتابه الكامل^(١) وشرحها، وعلى هذا التأويل قال يونس بن حبيب: لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس. ومن الهجاء بالعادة قول ابن لسان الحمرة لرجل من بني أسد مر به: قد علمت العرب يا معشر بني أسد أنكم أشدها بياض جعورا! فعطف عليه الأسدى فضربه بالسيف حتى برد، وتأويل ذلك أنه غيره بأنهم لا يعرفون البقل ولا يعرفون إلا اللبن؛ لأنهم يقولون إن الجعور قد تبيض إذا كان قوت صاحبها اللبن. وقال الشاعر يهجو ناساً منهم بذلك^(٢):

عراجلة بيض الجعور كأنهم بمنعرج الغيطان شهب العناكب^(٣)

وهذا وإن كان تطرفاً في الهجاء إلا أنه شائع فيهم، لأنهم يهجون بكل شيء حتى بأكل الكراث، كما عير به جرير عبد قيس بالبحرين^(٤)؛ وبأكل السخينة، وعيرت بها قريش. وبأكل لحوم الكلاب، وعيرت به بنو أسد؛ وبأكل لحوم الناس أيضاً... وهجيت به هذيل وأسد وبلعنبر وباهلة^(٥)؛ وبكثرة الأكل، وهجيت به قيس.

والأشعار في ذلك مأثورة تفيض بها الكتب.

الهجاء في القبائل:

وكان هجاء الشريف عندهم مما يندرج إلى هجاء قبيلته وتشعيثها، لأنه لا يشرف إلا إذا فخرت القبيلة به وجعلته معقداً ألسنتها فيما بينها وعنوان شرفها بين

(٢) الحيوان: ٧٥/٢.

(١) الكامل: ١٣٤/١.

(٣) العناكب: مفردا العنكب، وهو ذكر العنكبوت.

(٥) الحيوان: ١٣٩/١.

(٤) الكامل: ٨١/٢.

القبائل، وكان له عز الأمر والنهي، وعقد المن في أعناق الرجال وسرور
الرياسة، وثمره السيادة. قال الجاحظ في سبب ذلك: وإذا بلغ السيد في السؤدد
الكمال حسده من الأشراف من يظن أنه الأحق به، وفخرت به عشيرته، فلا يزال
سفیه من شعراء تلك القبائل قد غاظه ارتفاعه على مرتبة سيد عشيرته فهجاه.
ومن طلب عيباً وجده، فإن لم يجد عيباً وجد بعض ما إذا ذكر وجد من يغلط فيه
ويحمله عنه. ولذلك هُجى حصن بن حذيفة، وهُجى زرارة بن عدس، وهُجى
عبد الله بن جدعان، وهُجى حاجب بن زرارة. وإنما ذكرت لك هؤلاء لأنهم من
سؤددهم، وطاعة القبيلة لهم، لم يذهبوا فيمن تحت أيديهم من قومهم ومن
حلفائهم وجيرانهم مذهب كليب بن ربيعة، ولا مذهب حذيفة بن بدر، ومذهب
عينه بن حصن، ولا مذهب لقيط بن زرارة - أى فى إعانت الناس بطغيانهم
وبغيهم كما كان يفعل كليب إذ كان يحمى موقع السحاب فلا يُرعى ونحو ذلك^(١)
- فإن هؤلاء وإن كانوا سادة فقد كانوا يظلمون... وكان أولئك السادة لم يكن
شأنهم أن يردوا الناس إلى أهوائهم، وإلى الانسياق لهم بعنف السوق وبالخراب في
القيود؛ وهم مع ذلك قد هجوا بأقبح الهجاء. ومتى أحب السيد الجامع والرئيس
الكامل قومه أشد الحب، وحاطهم على حسب حبه لهم، كان بغض أعدائهم له
على حسب حب قومه^(٢). هذا إذا لم يتوثب إليه، ولم يعترض عليه من بنى
عمه وإخوته من قد أطمعته الحال فى اللحاق به، كخبر أوس بن حارثة بن لام
الطائي حين ألبسه النعمان الحلة التى جعلها لأكرم العرب، فحسده قوم من أهله،
فقالوا للحطيئة: اهْجُ وَلَكَ ثلاثمائة ناقة! فقال الحطيئة: كيف أهجو رجلاً لا أرى
فى بيتي أثاثاً ولا مالاً إلا من عنده؟ ثم أخذها بشر بن أبى خازم أحد بنى أسد
وهجاه... والخبر بجملته ساقه المبرد فى الكامل^(٣). ولذلك لم يكن يسلم من
ضروب الهجاء إلا القبائل المغمورة والمنسية، حيث لا يكون فيها خير كثير ولا شر
كثير، وحيث يكون محلهم من القلوب محل من لا يغيظ الشعراء ولا يحسدهم
الأكفاء، فيسلمون من أن يضرب بهم المثل فى قلة ونذالة، بخلاف القبائل التى

(١) الحيوان: ١٥٦/١ وابن الأثير: ٢٣٧/١٠.

(٢) الحيوان ٣١/٢.

(٣) الكامل ١٣٧/١.

يعرفونها بالمناقب والمثالب. وقد تكون القبائل متقدمة الميلاد، ويكون في شطرها خير كثير وفي الشطر الآخر شر وضعة، مثل قبائل غطفان وقيس عيلان؛ ومثل فزارة ومرة وثعلبة؛ ومثل عبس وعبد الله بن غطفان؛ ثم غنى وباهلة واليعسوب والطفافة؛ فالشرف والخطر في عبس وذبيان؛ وربما ذكروا القبائل الوضيعة ببعض الذكر؛ مثل اليعسوب والطفافة وهاربة البقعاء وأشجع الخثي؛ ولكن البلاء كله لم يقع إلا بغنى وباهلة، وهم أرفع من هؤلاء وأكثر مناقب، ولكنهم لقوا من صوائب سهام الشعراء ومرّ الهجاء كأنهم آلة لمدارج الأقدام ينكب فيها كل ساع ويعثر بها كل ماش، حتى صار من لا خير فيه ولا شر عنده أحسن حالاً ممن فيه الخير الكثير وبعض الشر، قال الجاحظ: ومن هذا الضرب تميم بن مر وثور وعكل وقيم ومزينة، ففي عكل ومزينة من الشرف ما ليس في ثور؛ وقد سلم ثور إلا من الشيء اليسير مما لا يرويه إلا العلماء؛ ثم حلت البلية وركد الشر والتحف الهجاء على عكل وقيم وقد شعثوا بين مزينة شيئاً؛ ولكنهم حبّهم إلى المسلمين قاطبة ما تهيأ لهم من الإسلام حين قل حظ تميم فيه...

ولولا الربيع بن خيثم وسفيان الثوري لما علم العامة أن في العرب قبيلة يقال لها ثور؛ ولشريف واحد ممن قبّلت تميم أكثر من ثور وما ولد؛ وكذلك بلعنبر قد ابتليت وظلمت وبُخِست مع ما فيها من الفرسان والشعراء... ومن نوادر الرجال إسلاميين وجاهليين؛ وقد سلمت كعب بن عمرو؛ فإنه لم ينلها من الهجاء إلا الخمس والتف...

ولأمر ما بكت العرب بالدموع الغزار من وقع الهجاء، وهذا من أول كرمها، كما بكى مخارق بن شهاب، وكما بكى علقمة بن علاثة، وكما بكى عبد الله بن جدعان^(١)؛ أما مخارق بن شهاب فذكر في البيان أنه وفد رجل من بني مازن على النعمان بن المنذر، فقال له النعمان: كيف مخارق بن شهاب فيكم؟ قال: سيد كريم، وحسبك من رجل يمدح نفسه ويهجو ابن عمه. ذهب إلى قوله:

(١) الحيوان: ١٧٦/١.

تري ضيفها فيها بيت بغبطة وجار ابن قيس جائع يتحوب^(١)

ولعله بكى لذلك؛ وأما علقمة بن علاثة فقد ذكر ابن بسام في الذخيرة أنه لما سمع قول الأعشى:

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

بكى وقال: أنحن نفعل ذلك بجاراتنا؟ وأما عبد الله بن جدعان، فقد قال الجاحظ في الحيوان: إنه بكى من بيت لخداش بن زهير ولم يذكره، ولم نقف عليه؛ وكان خداش قد هجاه من غير أن يكون قد رآه؛ وكذلك فعل دريد بن الصمة؛ لأنه رأى فيه شرفاً ونبلاً فأراد أن يضع شعره موضعه^(٢).

ومن أسباب الهجاء في القبائل أيضاً أن يكون القبيل متقادماً الميلاد قليل الذلة قليل السيادة؛ فيتهاون أن يصير في ولد إخوتهم الشرف الكامل والعدد التام؛ فإنه يستبين حيثئذ لكل من رآهم أو سمع بهم أضعاف الذي هم عليه من القلة والضعف، وتكون البلبلة في شرف إخوتهم؛ وكذلك عندهم كل أخوين إذا برع أحدهما وسبق وعلا الرجال في الجود والإفضال أو في الفروسة والبيان؛ فإنهم يقصدون بمآثر الآخر في الطبقة السفلى لتبين البراعة في أخيه، وقد يكون مع ذلك وسطاً من الرجال، فصارت قرابته التي كانت مفخرة هي التي بلغت به أسفل السافلين^(٣).

ولما صار للهجاء في القبائل هذا الشأن واعتقدوه سياسة، صار البيت الواحد يربطه الشاعر في قوم لهم النباهة والعدد والفعال، فيدور بهم في الناس دوران الرحي؛ كما أهلك الحبطات وهم بنو الحارث بن عمرو بن تميم قول الشاعر فيهم:

رأيت الحمر من شر المطايا كما الحبطات شر بني تميم

فلزمهم هذا القول؛ وكما أهلك ظليم البراجم قول الآخر:

إن أباناً فقحة لدارم كما الظليم فقحة البراجم

(١) قلت: يتحوب: تحوب: ترك الحوب (الإثم)، وتحوب من الشيء توجع وتحسر.

(٢) سرح العيون: ص ٢٥٤.

(٣) الحيوان: ١٧٩/١.

وكما أهلك بنى عجلان قول النجاشي:

وما سُمي العجلان إلا لقولهم خذ العقب واحلب أيها العبد واعجل

وكما أهلك نغيراً قول جرير يهجو الراعي:

فغُضَّ الطرف إنك من نغير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

وهذه القصيدة تسميها العرب: الفاضحة، وقيل سماها جرير: الدماغه، وقد تركت بنى نغير يتسبون بالبصرة إلى عامر بن صعصعة ويتجاوزون أباهم نغيراً إلى أبيه عامر؛ هرباً من ذكر نغير؛ وفراراً عما وسم به من الفضيحة والوصمة^(١)، وكان بنو نغير من جمرات العرب الذين تجمعوا في أنفسهم ولم يُدخلوا معهم غيرهم في أنسابهم بالمخالفة ونحوها؛ والجمرات هم بنو نغير؛ وبنو الحارث بن كعب؛ وبنو ضبة؛ وبنو عبس بن بغيض؛ قال المبرد في «الكامل»: وأبو عبيدة لم يعدد فيهم عبساً في «كتاب الديباج» ولكنه قال: فطفئت جمرتان وهما: بنو ضبة، لأنها صارت إلى الرباب فخالفت؛ وبنو الحارث، لأنها صارت إلي مذحج؛ وبقيت بنو نغير إلى الساعة لأنها لم تحالف^(٢) وقد أجاب شاعرهم جريراً فلم يغن عن قومه شيئاً.

وعلى الضدّ من ذلك خبر بنى أنف الناقة؛ فإن الواحد منهم كان إذا قيل له: ممن الرجل؟ قال: من بنى قريع، فيتجاوز جعفرأ أنف الناقة ابن قريع بن عوف بن مالك؛ فما هو إلا أن قال الخطيئة:

قوم هم الأنف والأذنان غيرهم ومن يسوّى بأنف الناقة الذنبا؟

حتى صاروا يتناولون بهذا النسب ويمدّون به أصواتهم في جهارة^(٣). وقد بلغ من خوفهم من الهجاء ومن شدة السب عليهم وتخوفهم أن يبقى ذكر ذلك في الأعقاب ويسب به الأحياء والأموات، أنهم إذا أسروا الشاعر أخذوا عليه الموائيق؛ وربما شدوا لسانه بنسعة كما صنعوا بعبد يغوث بن وقاص حين أسرته بنو تميم يوم الكلاب، وأبياته في ذلك مشهورة^(٤) وأسر رؤية في بعض حروب تميم فمنع

(٢) الكامل: ٣٧٧/١.

(١) العملة: ٢٦/١.

(٤) البيان: ج٢.

(٣) العملة: ٢٩/١.

الكلام؛ فجعل يصرخ: يا صباحاه! ويا بني تميم؛ أطلقوا من لساني^(١).

ثم صاروا يستنجدون بالشعراء ليحضوا لهم الأشراف في ردّ الغارة وغيرها فيخشي الشريف إن هو لم يغثه أن يفضحه بهجائه^(٢).

وكما سلم بعض القبائل من الهجاء بالخمول والقلّة، كفسان وغيلان من قبائل عمرو بن تميم سلمت بعض القبائل بالنباهة العالية من مضرة الهجاء فكأنها لم تهج، مثل نباهة بنى بدر وبنى فزارة، ومثل نباهة بنى عدس بن زيد وبنى عبد الله بن دارم، ومثل نباهة الذبان بن عبد المدان، وبنى الحارث بن كعب، فليس يسلم من مضرة الهجاء إلا خامل جداً أو نبيه جداً^(٣).

وذكروا عن حجناء بن جرير أنه قال لأبيه: يا أبت إنك لم تهج أحداً إلا وضعته إلا اليتيم. فقال جرير: إني لم أجد حسباً فأضعه ولا بناء فأهدمه^(٤).

وقد سمر يزيد الرقاشي ذات ليلة عند السفاح فحدثه بحديث ساقه فيه أشعاراً هجيت بها ثلاث وأربعون قبيلة، وقد حكاه المسعودي في (مروج الذهب)^(٥) فالتمسه هناك.

وكان الشعراء يعرفون تاريخ الهجاء في القبائل حتى يستطيعون أن يميزوا القبائل التي انتضلت بينها تلك السلام من القبائل التي تجاوزت فلم يكن بينهما هجاء، وقد أنشد الكميت بن زيد نصيباً الشاعر فاستمع له، فكان فيما أنشده قوله يصف غليان القدر:

كأن العُظام من غليها أراجيز أسلم تهجو غفارا

(يشبّه غليان القدر وارتفاع اللحم فيها بالموج الذي يرتفع). فقال له نصيب: ما هجت أسلم غفارا قط، فاستحيا الكميت فسكت^(٦).

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) الحيوان: ١/ ١٧٠، ١٧١.

(٣) البيان: ج ٢.

(٤) البيان: ج ٢.

(٥) مروج الذهب: ص ٢.

(٦) الكامل: ١/ ٣٣٥.

الهجاء في الشعراء :

قد عرفت أن الشاعر لا يكون هجاءً إلا وهو في معنى المؤرخ، فليس كل القبائل يعرف بعضها مثالب بعض، ولا كل الناس يعرف ذلك، فمتى سیر الشاعر قصيدة فكأنه نشر كتاباً في أمة كلها يقرأ ويكتب، ومن أجل هذا لما استأذن حسان النبي ﷺ أن يهجو قريشاً قبل إسلامهم ويسلّه منهم سل الشعرة من العجين، أمره أن يستعين بأبي بكر، ولم يكن في زمنه أعلم بالأنساب منه، حتى إن أنسب العرب إنما أخذوا عنه كما ستعرفه في موضعه.

ولمكانة ذلك الشعر من التاريخ، صار الراوية للأشعار لا يكون راوية حتى يكون نسابة عالماً بالأخبار، وقد تغلب على بعضهم رواية المثالب خاصة كعقيل بن أبي طالب، وهو أحد الأربعة من قريش الذين كانوا رواة الناس للأشعار وعلماءهم بالأنساب والأخبار، وهم معزلة بن نوفل، وأبو الجهم بن حذيفة، وحويطب بن عبد العزى، وعقيل هذا^(١) ومن تخصصوا بالمثالب والعيوب في الرواة: دغفل النسابة، والنخار العذري، وابن الكيس النمرى، وصحار العبدى، وابن شرية، وابن أبي الشطاح وهشام بن الكلبي.

ولم يبلغ جرير مبلغه من الهجاء إلا لمكان علمه بالنسب والمثالب من جده الخطفي، وهو حذيفة بن بدر بن أسلم. وكان الخطفي هذا من العرفاء العلماء بالنسب وبالغريب^(٢) وكذلك الفرزدق، كان هو شاعر الناس وراوي أخبارهم، وهما يكادان لشهرتهما يكونان فكى الهجاء فيما يلاك ويمضغ من الأعراض.

ولما كان الشعراء ألسنة قبائلهم ونوابها في السياسة العامة، كان هجاء بعضهم بعضاً لا يزال عاماً حتى إذا ذهب عصية القبائل وهنت عقدة الجاهلية وسكنت نائرة^(٣) الأحزاب، صار الهجاء كسائر أغراض الشعر: يقال فيه للبراعة وابتكار المعاني فاتخذ لحك الحزازات وشق المرائر وتحول إلى كذب وسخف وإفحاش

(٢) البيان: ج١.

(١) البيان: ج٢.

(٣) قلت: النائرة: العداوة والشحناء.

وإقذاع وكان من هذا شيء في الجاهلية حين يكون الشاعر منبوءاً من قبيلته، أوحين يلتمس لنفسه الذكر في القبائل وشيوع المقالة باسمه، فيقصد الأسواق والمواسم؛ كالذى نقله السكري في شرح أشعار الهذليين قال: أقبل رجل من أهل اليمن شاعر يقال له حبيب - والناس بذى المجاز - يهجو الناس، فأشار له بعضهم إلى خباء أبى ذرة الهذلي حتى وقف عليه فرجز به فخرج إليه أبو ذرة من قبل أن يعرفه فأشار له بيده ورجز به أيضاً، ثم سألته عن اسمه فعرفه، فعاد إلى الرجز به، فطرده أهل اليمن؛ ثم كان الخطيئة وهو الحسب الموضوع، فسلح بالشعر سلحاً، ثم جاء جرير وطبقته فصار أكثر الهجاء من يومئذ فحشاً خالصاً وكذباً مصمتاً وسباباً محضاً، ثم كان كل متعاصرين من الشعراء يكون بينهما مثل ذلك ويعدون من منافسة الحرفة وطبع الصناعة، فمتى نظم الشاعر قصيدة نقضها الآخر عليه، ويسمون هذه القصائد بالنقائض، وأشهرها نقائض جرير والفرزدق، وهي محفوظة متداولة، وقد نقل المبرد في الكامل شيئاً منها^(١).

وقالوا إن جنازة مرت بجرير فبكى وقال: أحرقتني هذه الجنازة! قيل فلم تقذف في المحصنات؟ قال: يبدو لى ولا أصبر^(٢)؛ فكذلك كان يبدو لمن في طبقته حتى صار الناس يستجيرون بقبر أبى الفرزدق من هجائه فيجبرهم^(٣).

وقد نسب الفرزدق في آخر عمره وتعلق بأستار الكعبة وعاهد الله أن لا يكذب ولا يشتم مسلماً، وذكر ذلك في شعره^(٤) وكان جرير مؤلفاً بقذف المحصنات يعدهن شطر الهجاء ومادة الإقذاع وقد دعا مرة رجلاً من شعراء بنى كلاب إلى مهاجته فقال الكلابي: إن نسائي بامتعتن ولم تدع الشعراء في نسائك مترقعا^(٥).

ولانطباع الشعراء على هذه الشراسة الشديدة والجرح العريض لما يدلون به من طول اللسان وإحجام الناس عن مخاشنتهم كان الأشراف يتجنبون مازحة الشاعر

(١) الكامل : ٢٨٢ / ١ .

(٢) البيان : ج ٢ .

(٣) الكامل : ٢٩١ / ١ .

(٤) البيان : ج ١ .

(٥) الكامل : ٧٠ / ١ .

خوف لفظة تسمع منه مزحاً فتعود جداً^(١) كما كانوا يتقون من أنفسهم مأثور القول فى المصيبة والمرثية، خوف أن يسبق لسانهم بكلمة من التوجع فتؤخذ عليهم وتجرى فى الناس مثلاً مضروباً وعبياً منسوباً.

مشاهير الهجائين:

ليست الشهرة بالهجاء مما تيسر لكل شاعر يسب ويفحش، فلو كان هذا لقد كان غلب الهجاء على كل شاعر، ولكن أصحاب الهجاء كأصحاب السياسة من أهلها وغير أهلها؛ يستطيع كل امرئ أن يتأول ويتنبأ وينذر ويأتى بصنوف القول كلها، ومع ذلك لا تجد شهرة السياسة إلا لنوادى الرجال، لأن حوادثها أرزاق وحظوظ، فلا يتفق لكل من ينتحل السياسة أن يصرف الدول ويضع ويرفع، كما لا يتفق مثل ذلك لكل هجاء؛ قال أبو عبيدة: والذين هجوا فوضعوا من قدر من هجوه، ومدحوا فرفعوا من قدر من مدحوه، وهجاهم قوم فردوا عليهم وأفحموهم وسكت عنهم بعض من هجاهم مخافة التعرض لهم، وسكتوا عن هجاهم رغبة بأنفسهم عن الرد عليهم وهم إسلاميون - الخطيئة، وجريير، والفرزدق، والأخطل؛ وفى الجاهلية زهير، وطرفة، والأعشى، والنابغة^(٢).

فهؤلاء أفراد الهجائين وأقطاب السياسة اللسانية، ولم يبلغوا أن يكونوا كذلك حتى كانت فيهم السلطة والسلطة معاً؛ وهى جماع الصفات التى ذكرهم بها أبو عبيدة، فانظر أين يقع ثمانية من جمهور شعراء الجاهلية والإسلاميين لولا أن فى الشر كما فى الخير أرزاقاً وأقساماً؛ وهذا الفرزدق نفسه قد تجنب مهاجاة زياد الأعجم ووهب لمخافته عبد القيس^(٣) وتجنب هو وجريير معاً مهاجاة الأحوص إكباراً لشعره^(٤) ومع ذلك لم يذكر معهما هذان الشاعران فى قليل ولا كثير، ولو بقى الأمر بعد الدولة الأموية عربياً كما كان فيها لظهرت طبقات أخرى تستحق التاريخ، ولكن الذين ظهروا، وأولهم بشار بن برد، إنما صرفوا بأسهم بعضهم إلى بعض، وهجوا الكبراء لأموالهم لا لأحسابهم، حتى قيل فيهم إنهم يمدحون بثمان ويهجون مجاناً... وقد صار الهجاء من يومئذ كما قلنا ضرباً من الصناعة ونوعاً

(٢) البيان : جـ ٢.

(٤) العمدة : ٣٨/١.

(١) العمدة : ٤٦/١.

(٣) العمدة : ٣٧/١.

معدوداً من الشعر، وإن لم تكن إجادته فى طبع كل شاعر، كما قالوا عن ذى الرمة، فقد كان أحسن الناس نسيباً وأجودهم تشبيهاً وأوصفهم لرمل، وهاجرة، وفلاة، وماء، وقراد، وحية، فإذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبع؛ وذلك الذى أخره عن الفحول، فقالوا: فى شعره أبعاد غزلان ونقط عروس^(١).

وأشهر المحدثين بالهجاء على هذا الوصف بشار بن برد، وكان إذا غضب وأراد أن يقول هجاءً صفق يديه وتفل عن يمينه ويساره^(٢) ودعبل بن على الخزاعى، وكان هجاء الملوك جسوراً على الخليفة متحاملاً لا يبالي ما صنع حتى عرف بذلك وطار اسمه فيه، وكان لذلك يقول عن نفسه إنه يحمل خشبة منذ كذا سنة لا يجد من يصلبه عليها، وابن الرومى على بن عباس، وكان لسانه أطول من عقله حتى قتله الهجاء، وأكثر إجادته فيه لأنه كان سلك طريقة جرير من الإطالة والإفحاش، فإن جريراً أول من أطل الهجاء، وكان يقول: إذا هجوت فأضحك^(٣) وابن بسام، وكان يهجو أباه وأقاربه، يستنّ فى ذلك سنة الخطيئة الذى هجا أمه، وابن الحجاج البغدادي خبيث العراق؛ وأبو بكر المخزومي هجاء الأندلس فى القرن الخامس؛ وكان أعمى شديد الشر كأنه نار صاعقة، وكان يهجو فى كل كلامه من شعر وغير شعر؛ ويقول عن نفسه: لا تبديل لخلق الله. ومع سبقه فى الهجاء كان إذا مدح ضعف شعره^(٤)؛ وابن القطان المتوفى سنة ٤٩٨ كان هجاءً لم يسلم منه الخليفة فمن دونه، وأبو القاسم الشمشي الأندلسى فى القرن السادس وقد جمع هجاءه فى ديوان سماه (شفاء الأمراض فى أخذ الأعراض) وعلى بن حزمون هجاء المغرب فى أوائل القرن السابع وكانوا يتدارسون هجاءه حتى لم تخل بلدة فى المغرب من شعره^(٥) وابن عنين هجاء مصر فى القرن السابع. قال المقرئ فى نفح الطيب: وله ديوان سماه «مقراض الأعراض» ولكن ابن خلكان وكان معاصراً له ورآه قال: إن المقراض قصيدة طويلة جمع فيها خلقاً كثيراً من رؤساء دمشق، وقد نفاه صلاح الدين الأيوبي إلى اليمن لإفحاشه فى هجاء الناس، وتوفى سنة ٦٣٠.

- | | |
|--------------------|------------------------|
| (١) الطبقات: ص ١٤. | (٢) سرح العيون: ص ٢١٠. |
| (٣) العملة: ١٤٠/٢. | (٤) نفح الطيب: ٨٩/١. |
| (٥) المعجب: ص ١٩٦. | |

فهؤلاء أشهر أهل الهجاء لغلبته على شعرهم وإتيانهم فيه بالأوابد وذهابهم
فى معارضة كل مذهب، وهم فى المحدثين كالذين عدهم أبو عبيدة فى
الإسلاميين والجاهليين وإن كان من عدهم كلهم يهجون؛ ومن للشعراء قوم
يسمونهم المغلبين وهم الذين غلبوا بالهجاء وإن كان عن ليسوا إليهم فى الشعر ولا
قريباً منهم، ومعنى المقلب عندهم الذى لا يزال مغلوباً. قال ابن رشيق: ومنهم
نابغة بنى جعدة، وقد غلب عليه أوس بن مغراء القرىعى وغلبت عليه ليلى
الأخيلية... وقد علم الكافة ما صنع جرير بالأخطل والراعى جميعاً... ومن
المغلبين: الزبرقان، غلبه عمرو بن الأهم غلبه المخبل السعدى وغلبه الخطيئة،
وقد أجاب الاثنين ولم يجب الخطيئة، ومنهم تميم بن أبى مقبل، هجاه النجاشى
فقهره وغلب عليه، وهاجى النجاشى عبد الرحمن بن حسان فغلبه عبد الرحمن
وأفحمه... ومن مغلبى المولدين على جلالته بشار بن برد، فإن حماد عجرد
وليس من رجاله ولا أكفائه هجاه فأبكاه ومثل به أشد تمثيل، وعلى بن الجهم
هاجى أبا السمط مروان بن أبى الجنوب فغلبه مروان، وهاجاه البحترى فغلب عليه
أيضاً، على أن على أقذع منه لساناً وأسبق إلى ما يريده من ذلك وأقدم سناً، ومنهم
حييب «الطائى» وهاجى السراج وعتبة فما أتى بشىء... وهاجى دعبلاً فاستطال
عليه دعبلاً أيضاً^(١)، وربما هجى الشاعر من هو أكبر منه وأبعد صيتاً، لا ليغلبه،
ولكن ليحييه فيعد فى طبقته، كما فعل بشار، فإنه هجا جريراً بأشعار كثيرة فلم
يجبه جرير أنفة واحتقاراً، فقال: لو هجانى لكنت أشعر الناس^(٢).

(١) العمدة: ٦٧، ٦٨.

(٢) العمدة: ٧٠/١.

المديح

والمديح فى فطرة الإنسان، لأنه إحساس الكبرياء التى هى عمود الإنسانية فيه، فإن الناس متفاضلون فى القوة على الأعمال، وهم كذلك متفاضلون فى حسمهم لهذه القوة، فالوائق بنفسه الذاهب بها مذهب الغناء والاعتداد يجد فى طبعه حركة واهتزازاً متى حققت له أعماله تلك الثقة ولم يكذب وهمه فى الاعتداد باطلاً؛ فذلك الاهتزاز هو إحساس الكبرياء الكامنة فيه، وهو الذى يقصد تصويره بالفخر والمديح.

ولا تكون الكبرياء رذيلة ممقوتة إلا إذا جاوزت مقدارها الطبيعى الذى يكون دائماً مكافئاً لحقيقة الثقة بالنفس، فهى حينئذ تتقلب صلفاً^(١) وتدخل فى حكم الطباع المتكلفة ولا تحدث من الاهتزاز إلا وهماً وغروراً، كالذى يحدث من نشوة الخمر؛ فإذا هى زادت كانت عند العقلاء عريضة.. والمديح الذى يصور هذه الكبرياء الكاذبة لابد أن يكون أكذب منها حتى تعوض عليه غرابة المبالغة شيئاً من رونق الحقيقة، وهو حينئذ صنعة وتكلف، ثم هو الذى عناه المتأخرون بقولهم: أعذب الشعر أكذبه.

فهذان شطرا المديح، لا يكون إلا فى أحدهما، وقد ذهب العرب بالشرط الأول قبل أن تضعف أعصاب البداوة، فكان مديحهم فخراً كله، لأن أساس الطبيعة البدوية فضيلة الاعتماد على النفس، وهى التى تحدث الكبرياء الصحيحة، فلا تكاد تجد من شعر المهلل أو امرئ القيس وطبقتهما مدحاً مبنياً على الملق^(٢) والمداهنة وتصنع الأخلاق، وإن وجد شيء من ذلك قبل النابغة وزهير فهو مصنوع لا شك فى صنعته وتوليده؛ وقد زعم الأصمعى^(٣) أن هذا البيت الذى يروى لمهلهل مصنوع محدث وهو قوله:

(١) قلت: صلفاً: صلف الشيء: قل خيره، وصلفه (صلفاً): أبغضه.

(٢) قلت: الملق: الذى يعد ولا يفى، ويتظاهر بما ليس عنده.

(٣) الكامل: ١٨٨/٢.

أَنْبَضُوا مَعْجَسَ الْقِسْيِ وَأَبْرَقْنَا كما تُرْعِدُ الْفُحُولُ الْفُحُولَا

لأن فيه غلطاً لغوياً، إذ لا يقال إلا رعد وبرق إذا أوعد وتهدد، وأرعدنا نحن وأبرقنا إذا دخلنا في الرعد والبرق، وليس الخطأ اللغوي وحده وهو الذى يدل على الصنعة والتوليد، ولكن الخطأ الأخلاقى أمكن منه فى باب الدلالة.

ولما وهنت أعصاب البداوة فى بعض الشعراء بما وجدوا من مس الترف والنعيم، جعلوا يبتغون بالشعر المئالة والكسب، وبذلك حولوا شيئاً من مديحهم إلى الشطر الثانى، وقد ذكرنا منشأ ذلك فى باب البديهة والارتجال؛ غير أن هذا التحول المرضى فى المديح إنما كان يأخذ منه على التدرج فى أول أمره، فبقى مديح زهير طبيعياً لم يحاول فيه صبغ الحقيقة بذلك اللون الأسود الذى يعطيها فى الوهم منظر الاستعباد، ولذلك فضله عمر بن الخطاب بأنه كان لا يمدح الرجل إلا بما فيه؛ ولكن الذى سلم من أمر زهير لم يسلم من أمر النابغة، لأن زهيراً كان لا يقول على الرغبة والطمع، وكان يمدح رجلاً من الأشراف بصفات مثله الصحيحة، والنابغة كان يتكسب من المناذرة والغساسنة، وهم ملوك، فكان يرى النابغة أن مديحهم لا بد أن يكون طبقة فى الشعر تساوى طبقتهم فى الناس، ولما هرب من النعمان وجعل يعتذر إليه باعتذاراته المشهورة، عمد إلى تجويد المديح وزخرفته ينفخ به كبرياهه فيصغر فى جنبها ما أتاه ويتجاوز عنه.

وقد جاء بعدهما الأعشى، فلم تكن له همة إلا فى المدح والهجاء، وكان رجلاً مجدوداً فى الشعر؛ ما مدح أحداً إلا رفعه ولا هجا أحداً إلا وضعه، والأمور يومئذ تطير للشعر طيراناً؛ فكان الأعشى على التحقيق أول من احترق المديح وابتذله فى طبقات الناس؛ ولذلك اضطر أن ينفخ معانيه بالمبالغة والإغراق، وإن تجاوز موضع الحقيقة إلى ما يقع وراءها من نواحي التصوّر البعيدة؛ وقد عرف العرب ذلك منه وألفوه، لأن حظ هذا النوع من الشعر أن يسير وإن كان كذباً، فإن ركذ فى لسان الشاعر لم يبالوا به وإن كان حقيقة؛ ولذلك لما نزل الأعشى بمكة وأضافه المحلق - وهو رجل فقير خامل الذكر ذو بنات قد كسدن عليه، وأراد الأعشى إنفاقهن وأن يكفيه أمرهن - أصبح بعكاظ ينشد قصيدة وقد اجتمع الناس^(١)

(١) العمدة: ٢٥/١.

يقول فيها:

أرقتُ وما هذا السهادُ المؤرِّقُ وما بى من سقمٍ وما بى معشوقُ
نفى الذمَّ عن آل المخلوق جفنة كجافية الشيخ العراقي تفهق

فما أتم القصيدة إلا والناس ينسلون إلى المخلوق يهشونه، والأشراف من كل قبيلة يتسابقون إليه جرياً يخطبون بناته، لمكان شعر الأعشى، فلم تمس منهن واحدة إلا فى عصمة رجل أفضل من أبيها ألف ضعف. وافتنان هذا الشاعر فى صنعه المديح وقصده فيه إلى تصوير الكبرياء الكاذبة، هو الذى طوع له أن يكذب فى التاريخ حين نظم قصائده التى ذكر فيها منافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة، وقد كانا تنافرا إلى هرم بن قطبة. فأقاما عنده سنة لا يقضى لأحدهما على الآخر، حتى قدم الأعشى، وكانت لعامر عنده يد؛ فقال شعره فى ذلك فرواه الناس، وافترقوا وقد نفر عامر على علقمة بحكم الأعشى، والقصة مشهورة^(١) وفيها أقوال ولكن الرواة مجمعون على حكم هذا الأعشى.

وكذلك كذب الخطيئة على التاريخ فى مديح قومه، وكانوا من القائمين فى أهل الردة، فقال:

فدى لبني نصر طريفي وتالدى عشية ذادوا بالرماح أبا بكر

قال المبرد: قوله ذادوا بالرماح أبا بكر، كذب؛ إنما خرجوا على الإبل ففقتعوا لها بالشنان فنفرت وفرت^(٢) والمعاني تخضع الحقائق وتصرفها فيما شاءت ولكنها لا تخضع التاريخ، لأنه فى نفسه حقيقة خالدة لا تمسخ ولا تموت، فإذا حاول الشاعر أن يكذب فيه فلا يكون ذلك إلا إذا اعتاد تحويل الحقائق فيمدح كذباً ويهجو كذباً، وذلك من ضرورة الصنعة والاحتراف، فلا يفعله إلا وقد ابتذل الشعر واتخذة حرفة وذلك ما ذهبنا إليه من أمر الأعشى.

وقد نقلت فى فصل (الشعر فى القبائل) قول الجاحظ إنه لم تمدح قبيلة فى الجاهلية من قريش كما مدحت مخزوم، ولم يتهم من الشاهد والمثل المادح فى

(١) العملة: ٢٨/١، وشرح العيون: ص ١٠٦.

(٢) الكامل: ٢٣٢/١.

أحد من العرب ما تهيأ في بنى بدر.

ولما دجا^(١) الإسلام وتحضرت الدولة واستأصلت الفتن أهل الطبع الشعري من العرب، انفرد بالشعر جماعة هم الذين اتصلوا بدولة الذهب (الأمويين) فاستقلت طريقة المديح من يومئذ وأطاله الشعراء، وقد أجمعوا على أن كثيراً أول من فعل ذلك^(٢) كما أن جريراً هو أول من استن إطالة الهجاء وتقصير المماحة. قال: فإنه ينسى أولها ولا يحفظ آخرها^(٣).

وقد نصوا على أن أمدح الناس في طبقة الجاهلية والإسلاميين زهير والأعشى ثم الأخطل وكثير^(٤) أما المحدثون فقلّ منهم من لا يحترف المديح ويجعله عمود شعره وموضع كدّه وإجادته، وقد جرّاهم على ذلك جود الخلفاء والأمراء ورغبتهم في اصطناعهم وتسنية الجوائز لهم من أجل ذلك؛ ولا أعجب من أن يدخل الخيص بيص الشاعر المتوفى سنة ٥٧٤ على خالد القسرى أحد أمراء الدولة الأموية فيقول له: إني مدحتك بيتين قيمتهما عشرة آلاف درهم فأحضرها حتى أنشدتهما، فيحضر خالد الدراهم ثم ينشد الخيص بيص قوله:

قد كان آدم قبل حين وفاته أوصاك وهو يجود بالحوياء

بينه أن ترعاهم فرعيتهم وكفيت آدم عيلة الأبناء!

فيدفع إليه خالد الدراهم ويأمر أن يضرب أسواطاً وينادى عليه: هذا جزاء من لا يعرف قيمة شعره، ثم يقول له: إن قيمتها مائة ألف^(٥)، وخالد هذا هو الذى كان يجلس للشعراء فى يوم معيّن ويجيزهم فيه، وهو أول من فعل ذلك، وقد حذا حذوه الخليفة المهدي العباسي، ولكنه لم يقصر اتخاذ الأيام على الشعراء، بل اتخذ كذلك أياماً لأرباب الصناعات والغايات؛ وكان الوليد بن يزيد من خلفاء بنى أمية أول من تخرّق في البذل للشعراء، فعّد أبيات الشعر وأعطى على كل بيت ألف درهم^(٦) فلما جاء المهدي من خلفاء العباسيين وصل مروان بن أبى حفصة

(١) قلت: دجا الإسلام: انتشر وانبسط.

(٢) العمدة: ١/٦٢.

(٣) العمدة: ٢/١٠٣.

(٤) العمدة: ٢/١٠٤.

(٥) سرح العيون: ص ٢٠٤.

(٦) الأغاني: ١٧/١٤٨.

بمائة ألف درهم على قصيدته التي مطلعها:

* طرقتك رائرة فحى خيالها *

يعارض بها قصيدة للأعشى؛ وكذلك كان يعطيه الرشيد؛ وقد كثر الشعراء في أيامه فكان يبابه منهم من لم يجتمع لأحد قبله - وسنذكر فحولهم لمناسبة تأتي في بحث الأدب الأندلسي - وضاعت بهم بغداد فاضطروا إلى تقديرهم بالاختبار وترتيبهم في الجوائز؛ فعهد يحيى بن خالد بذلك إلى شاعره أبان اللاحقى^(١)؛ وكان ذلك عهد البرامكة وهم من هم؛ فقد نال شاعرهم أبان اللاحقى على قصيدة واحدة فيهم مثل ما ناله مروان من الرشيد كل عمره^(٢)؛ وأعطى المتوكل حسين بن الضحاك ألف دينار عن كل بيت من إحدى قصائده؛ وهو أول من أعطى ذلك^(٣)، ولم يساو هؤلاء في ذلك غير الأندلسيين - وسنلم بشيء من خبرهم في موضعه - ولو ذهبنا نتتبع تاريخ الجوائز ونستقصى مقاديرها للزمنا لذلك مؤنة في التأليف وكلفة في الجمع؛ لأنها مع تاريخ الشعر في كل عصر؛ وقد كان من الشعراء من يتراجع طبعه وتنضب مادته بعد مدوحه الذي اختص به، كأبي الحسن السلامي توفي سنة ٣٩٤ شاعر عضد الدولة وكان عضد الدولة يقول: إذا رأيت السلامي في مجلسي ظننت أن عطارده نزل من الفلك إلى ووقف بين يدي! فلما توفي تراجع طبعه ورقّت حاله ولم يتفع بنفسه^(٤) ومثله كثيرون.

ويحسب الناس أن من نقائص شعراء المتأخرين أنهم ينقلون المديح من رجل إلى رجل؛ فيلقون بالقصيدة الواحدة جماعة من الناس؛ ولكن ابن رشيق يقول: إن ذلك كان دأب البحترى؛ وفعله أبو تمام في قصائد معدودة؛ منها:

* قَدْكَ اتَّئِدُ أَرَيْتَ فِي الْغُلُوءِ *

نقلها عن يحيى بن ثابت إلى محمد بن حسان^(٥)؛ وإن كان وجه ذلك في المتأخرين العجز عن الشعر فلا نرى له وجهاً في المتقدمين إلا أن يكون إخلافاً

(٣) العمدة: ١٠٤/٢.

(٥) العمدة: ١١٤/٢.

(١) الأغاني: ٧٣/٢٠.

(٤) يتيمة الدهر: ١٦٣/٢.

الأمل فى المثوبة والإجارة بالحرمان؛ فيقول قائلهم: هن بُنيَاتِي أنكحهنّ من أشاء!

شعر الكدية أو الشعر الساسانى:

الكدية حرفة السائل الملح؛ وهى أيضاً شدة الدهر؛ وكان من شعراء العرب صعاليك وشُطّار ومتلصّصون؛ وأشهرهم عروة بن الورد المعروف بعروة الصعاليك، وتأبط شراً، وسعد بن ناسب؛ ولكن لم يكن فيهم مكدون؛ والفرق بين الحالتين أن الشطارة تبسط اليد قوية عزيزة؛ والكدية بسطها بالسؤال ضارعة ذليلة؛ فلما استفحل التمدن الإسلامى وامتزج العرب بالفرس؛ أخذ خبثاؤهم فيما أخذوه منهم تلك الحرفة؛ ولذلك يسمّون بنى ساسان كما أخذوا عن الهنود مذهب الخناقين واستعدوا له استعداداً عجيباً؛ فانتحله جماعة من أصحاب المنصورية والغالية وغيرهما؛ وقد ذكر الجاحظ من ذلك طرفاً صالحاً^(١) وأورد شعراً لحماد الراوية يذكر فيه القبائل المشهورة بالخنق لعهد؛ أى فى منتصف القرن الثانى؛ وهى عجل وكندة وبجيعة، فراجعها هناك، ثم نسب هذا الشعر فى موضع آخر لأعشى همدان^(٢).

أما الكدية فهى عند أهلها كل ما يحتال به على الشر والأذى فى سبيل العيش من الشعوذة والمخرقة وما إليهما، ولهم فيها رموز لا يفهمها غيرهم وأصحابها أهل بأس وشدة وفساد كبير، ولكن من الشعراء من كان يقبل على هذه الحرفة لا يبغي بها بدلاً من عرض الحياة ووفرة الغنى وإقبال الأمراء، ومنهم من كان يحفظ رموزها تطرفاً وتغلّحاً، ونظن أنهم لم يظهروا بها إلا فى القرن الرابع، وأشهرهم فى ذلك الأحنف العكبرى، وكان فرد بنى ساسان بمدينة السلام، وهو من جماعة صاحب بن عباد^(٣). وكان من شعرائه فيها أيضاً أبو دلف الخزرجى الينبوعى، قال الثعالبي فيه: شاعر كثير الملح والظرف، مشحوذ المدبة فى الكدية، خنق التسعين فى الاطراب والاعتراب، وركوب الأسفار الصعاب، وضرب صفحة المحراب بالحراب... قال: وكان الصاحب يحفظ مناة بنى ساسان حفظاً عجيباً، ويعجبه من أبى دلف وفور حظه منها، وكانا يتجاذبان أهدابها، ويجريان فيما لا يفطن له حاضرهما، ولما اتحفه أبو دلف بقصيدته التى عارض بها دالية

(٣) يتيمة الدهر: ٢٨٥/٢.

(٢) الحيوان: ١١٩/٦.

(١) الحيوان: ٩٧/٢، ٩٨.

الأحنف العكبرى فى المناكاة وذكر المكدين والتنبيه على فنون حرفهم وأنواع رسومهم وتنادر بإدخال الخليفة المطيع لله فى جملتهم، وقد فسرهما تفسيراً شافياً كافياً - اهتز ونشط لها وتبجح بها، وتحفّظ كلها، وأجزل صلته عليها، وقد اختار منها الشعابى ١٩٥ بيتاً وساقها فى يتيمة مع شرحها (جزء ثالث) وأكثر مصطلحاتها فارسى، ورأينا صاحبها يقول فيها:

ومنا شعراء الأَر ضِ أهل البدو والحضر

فإذا لم يكن منهم يومئذ طائفة كبيرة طواهم التاريخ بأجناسهم على أدناسهم، فإن أبا دلف إنما أراد صنعة المديح وتكسب الشعراء بها، وهى فن من تلك الفنون اختص به الشعراء كما اختص غيرهم بغيره من فنونها الكثيرة، ومدار جميعها على أخذ «جزية الخلق» كما يقولون، وليس للمديح عند الشعراء الذين يتكسبون به معنى أكثر من ذلك.

الفَخْرُ والحَمَاسَةُ

يقول ابن رشيّق: إنّ الفخر هو المديح نفسه، ولكن الشاعر يخص نفسه وقومه. ونحن كذلك نراه قد يكون شطراً من الهجاء؛ إذ يقصد به التفضيل والترجيح بين الصفات الممدوحة التي يعتز بها والصفات المهجوة التي يفتخر عليها، أما في الهجاء فهو طبيعي كما ترى، لأنه بعض مادته، ولكن مدح النفس مرذول، يدل على سقوط الهمة، وعلى فسولة الرأي^(١)، وعلى أن المرء يزور من نفسه لساناً غير مخلوق، وهذا أدخل في باب المذلة والضعفة منه في باب الفخر والحمية؛ والصحيح أن هذا الفخر الذي عناء ابن رشيّق إنما هو الفخر الصناعي الذي تزيّد فيه المتأخرون واستظرت به طبيعتهم، فصنعتهم مديحٌ صرف، وكل من قدر على أن يقول حاتم كريم، فهو قادرٌ بدياً على أن يقول أنا كريم، وقس على ذلك؛ لأن التاريخ يعتبر دائماً ميتاً موتاً حقيقياً إذا أريد تقليد أعماله الخالدة بالأقوال، فلو كان الذي يقول: أنا كريم كرم حاتم؛ إنما قال هذا القول في الناس الذين شهبوا حاتمًا بالكرم؛ لكان قد وجد التاريخ حياً فإما يكذبه أو يصدقه؛ على مقدار عمله الذي يساوى به عمل حاتم، ولا يكون لكلمته معنى إلا التنبيه على هذه الفضيلة فيه.

فحقيقة الفخر إذن ليست مدحاً كما قيل، ولكنها تأريخ، وسواء في معنى التاريخ فضيلة الفرد وفضيلة الجماعة، لأنه كما يكون ظَفَرُ الجيش في الحرب نتيجة حوادث كثيرة، كذلك تكون فضيلة الكرم عن حوادث معروفة أنتجت هذه التسمية؛ والمرء لا يكون كريماً في العرب بلا شيء، ولا بشيء قليل.

وعلى هذا التأويل نرى الفخر فطرة في العرب، فلا يكاد السيد منهم يأتي عملاً إلا تناوله شاعر قبيلته وفخر به، لأنه لسان القبيلة ومؤرخ أحسابها، وإذا فخر أحدهم بفضيلة في نفسه كالشجاعة أو الكرم أو غيرهما، فإنما يكون ذلك في معرض التذكير بهذه الفضيلة واستشهاد التاريخ الحى عليها، أو يكون توطئاً لنفسه

(١) قلت: الفُسُولة: قلة المروءة، وضعف الرأي.

وتحميساً لها بما يهيج من كبرياتها، كما يغنى الشجاع فى الحرب، وكما ينبه عن نفسه عند الضربة القاضية والطعنة النافذة؛ وهذا هو باب الحماسة.

وفيما عدا ذلك فلا يكون فى الفخر معنى المديح إلا لأن فيه معنى الهجاء، كالمنافرات المشهورة فى العرب؛ وكانوا إذا تنازع الرجلان منهم وادعى كل واحد أنه أعز من صاحبه، تحاكما إلى عالم من حكمائهم المحيطين بالأنساب والتاريخ، فمن نقر منهما - أى فضل نفره على الآخر - لا يفلح الثانى بعدها أبداً؛ والأصل فى هذا كما ترى الهجاء لا المدح، لأن الذى يقارع الآخر عن حسبه ويكاثره بالأحياء والأموات من أشراف قومه، إنما يريد الغض منه، ليظهر هو وقيلته بهذه المقابلة، ولو أراد معنى التمدح وحده لقد كان فى حسب قومه غنى.

وثم نوع آخر من الفخر عند العرب هو شبيه بالفخر المصنوع فى ظاهره لا فى حقيقته، وذلك أن العربى يعاف الشئ ويهجو به غيره، فإن ابتلى به ملاً ماضيه فخراً، ولكنه لا يفخر به لنفسه من جهة ما هجا به صاحبه، قال الجاحظ: فأنهم هذه، فإن الناس يغلطون على العرب ويزعمون أنهم قد يمدحون الشئ الذى قد يهجون به، وهذا باطل، فإنه ليس شئ إلا وله وجهان وطريقان. فإذا مدحوا ذكروا أحسن الوجهين وإذا ذكروا أقبح الوجهين^(١). ويدخل فى هذا النوع باب العيوب الخلقية كالبرص فإنهم يهجون به، ولكن من ابتلى به من شعرائهم ضرب له المثل الذى يستغفره ويشغل عنه كقول ابن حبناء:

إنى امرؤ حنظلى حين تنسبنى لا من عتيك ولا أخوالى العوق

لا تحسن بياضاً فى منقصة إن اللهاميم فى أقرانها البلق^(٢)

وقس على ذلك، فهذا المدح المصنوع، ولكن عذرهم فيه أنهم اضطروا إليه فراراً من معنى الهجاء، ومن هذه الجهة اكتسب المديح.

فكيفما أدركنا القول لا نجد هذا الباب خالصاً عند العرب غير مقصود به إلا صنعة الكلام وحدها كما يفعل المولدون، ولذلك لم يغلب هذا النوع على قول الشاعر منهم كما يغلب المديح الهجاء والوصف، بل لم يكد يتميز به بعضهم على

(٢) الحيوان: ٥٤/٥.

(١) الحيوان: ٥٧/٥.

بعض؛ واعتبر ذلك بالآيات التي يعدونها أفخر الشعر، وقد وى منها ابن رشيق طائفة، فإنك لا تجد لجاهلى بيتاً يبرعها أو يكون منها بمنزلة فى الصنعة، وإنما تجد أكثر ذلك للإسلاميين والمولدين.

أما الإسلاميون فقد شاع الفخر فى أيامهم، للخلافات التى كانت بين بنى هاشم وبنى أمية، وبين هؤلاء وبنى العباس، ولكنه بُنى على الهجاء كما مرّ فى منافرات العرب، ولذلك استغرقت الخطب، والكتب ولم تكن سُهمة الشعر منه إلا القليل؛ وكان منهم من يغرى بين الوجوه من الناس وبين العلماء بالأنساب، يحب أن يعرف حالات الناس وعيوب الأشراف، كعبد الله بن عامر، ومصعب بن الزبير؛ قال الجاحظ: فلا جرم أنهما كانا إذا سباً أوجعا^(١) وسنلم بشيء من هذا الباب فى بحث الخطابة.

وكان فيهم قوم متميزون دون سائر القبائل بالكبر، أبطهرهم ما وجدوا لأنفسهم من الفضيلة، ولم يكن فى قوى عقولهم وديانتهم فضل على قوى دواعى الحمية فيهم، وهم من قريش بنو مخزوم، وبنو أمية. ومن العرب بنو جعفر بن كلاب، وبنو زرار بن عدس خاصة^(٢) فلا جرم كان من هؤلاء ديوان مفرد لمعانى الفخر والحماسة. وقد ذهب بشهرة الفخر فى الإسلاميين من الشعراء جرير والفرزدق؛ لذهابهما بشهرة الهجاء.

أما فى المولدين فالذين برعوا فى صنعة الفخر والحماسة كثيرون، وقد صارت الإجادة فى ذلك على حسب قوة الشاعر وبمقدار ما تؤتى القريحة من التصرف؛ لأن هذا الشعر لا يصنع لرغبة ولا لرهبة وليس وراء معانيه ظل، فلا يجيده إلا مجيد، ولكن شهرته أكثر ما تعلق بالأمراء والشجعان وأهل النسب؛ كالشريف الرضى، وهم يقصدون إلى هذا النوع فى شعرهم قصداً، ويتخذون منه لساناً للسياسة والتاريخ. ثم هو شيء فى طباعهم، لا يتكلفون منه الكثير كما يفعل من دونهم. ولذلك لا يعدوه وشئ الطبيعة ورونق الغريزة، وذلك شائع فيهم. وأول هذه الطبقة فى الإسلام شعراء الخوارج، وأشهرهم قطرى بن الفجاءة، ثم الأمراء والوزراء. كأمرأ بنى حمدان، وأشهرهم أبو فراس الحمدانى، وكالوزير

(٢) الحيوان ٢١/٦، ٢٢.

(١) البيان: ج ١..

الطغرائي، وكثيرين من وزراء الأندلس، وسنذكرهم في موضعهم، وكان آخر من
أداه إلينا الزمان من هذه الفئة، المرحوم محمود سامي البارودي.

وقد استحدث المتأخرون طريقة صناعية في الحماسة؛ وهي مزجها بالغزل
والافتنان في ذلك؛ وأخذوا هذه الطريقة عن عترة في البيتین المنسوبين إليه:

* ولقد ذكرتُك والرماح نواهل *

وكان يتفق ذلك في الأبيات من القصيدة؛ حتى صنع فيه القاضي السعيد
هبة الله بن سناء الملك قصيدته الشهيرة التي مطلعها:

سواي يخاف الدهر أو يهرب الردى وغيرى يهوى أن يكون مخلدا
وقسمها على الحماسة والغزل؛ وهي أشهر القصائد في هذا النوع.

الرثاء

الشعر فى المراثى إنما يقال على الوفاء، فيقضى الشاعر بقوله حقوقاً سلفت، أو على السجىة إذا كان الشاعر قد فجع ببعض أهله، أما أن يقال على الرغبة فلا؛ لأن العرب التزموا فى ذلك مذهباً واحداً، وهو ذكر ما يدل على أن الميت قد مات؛ فيجمعون بين التفجع والحسرة والأسف والتلهف والاستعظام، ثم يذكرون صفات المدح مبللة بالدموع، حتى قال قدامة: إنه ليس بين المراثى والمدحة فصل إلا أن يُذكر فى اللفظ ما يدل على أنه لهالك؛ ومن أجل ذلك لم يتبسّطوا فى معانى الرثاء والفجعية من الموجودات وما يتبع ذلك من درس العواطف المحزنة والبحث عن أماكن الألم فى نفس الإنسان، كما كان ذلك عند اليونان، إذ كان من شعرائهم من تخصص للفواجع وعرف بصفات الحزن كأوريبيدس وغيره، وكما كان عند العبرانيين، وهم أبكى الناس، حتى إن الرثاء من الصفات المميزة لأشعارهم؛ ويرجع ذلك النقص فى العرب إلى أسبابه الطبيعية مما يتعلق بالبداءة والأخلاق التى تكون عنها، وقد مر ذكر ذلك فى مواضع كثيرة.

ومن تلك الأخلاق كانوا لا يرثون قتلى الحروب، لأنهم ما خرجوا إلا ليقتلوا، فإن بكوهم كان ذلك هجاءً أو فى حكمه؛ ولكن الرثاء لمن يموت حتف أنفه؛ أو يقتل فى غير حرب من حروب التاريخ، كالغارة ونحوها، فحيثُ يُعددون المآثر ويبالغون فى الفجعية كأن هذا الموت غير طبيعى فيمن يستحق أن يموت... .

وقد مرَّ فى الكلام عن شواعر العرب شىء عن موضعهن من الرثاء، لأنهن أشجى الناس قلوباً عند المصيبة وأشدهن جزعاً على هالك؛ لما رُكِبَ فى طبعهن من الخور^(١)، وفى قلوبهن من سهولة الانخلاع. أما الرجال فلم يشتهر منهم بالرثاء إلا أفراد عضتْهم المصيبة بما لم يبرأ من الألم فصاحوا تلك الصيحة التى ينجذب معها القلب إلى الشفتين.

(١) قلت: الخور: (من النساء): الكثيرات الريب لفسادهن وضعف عقولهن، وخار فلان خوراً: ضعف وانكسر كما فى القاموس.

قال المبرد في الكامل^(١): وكانت العرب تقدم مراثى وتفضلها، وترى قائلها بها فوق كل مؤبّن. وكأنهم يرون ما بعدها من المراثى منها أخذت وفي كنفها تصلح... ثم ذكر منها قصيدة أعشى باهلة التي يرثى بها المنتشر بن وهب الباهلي وساق خبرها. وكذلك روى قصيدة متمم بن نويرة في أخيه مالك، وهذه القصائد التي يشير إليها المبرد هي عيون المراثى التي رواها محمد بن أبي الخطاب القرشي في كتابه «جمهرة أشعار العرب» وهي لأبي ذؤيب الهذلي، وعلقمة بن ذى جَدَن الحميري، ومحمد بن كعب الغنوي، والأعشى الباهلي، وأبي زبيد الطائي، ومالك بن الربيع، ومتمم بن نويرة، ولم يذكرها منها شعر النابغة في حصن بن حذيفة، ولا مراثى أوس بن حجر في فضالة بن كَلْدَة. ولأوث هذا فيه مراث جيدة، من أحسنها القصيدة السائرة التي أولها:

أيتها النفس أجملِي جَزَعاً إن الذي تحذرين قد وقعا!

وبديهي أن الرثاء لا يتعلق بالنسيب كما يتعلق به المدح والهجاء وغيرهما ولكن وردت للعرب في ذلك قصيدة واحدة. قال ابن الكلبي: لا أعلم مرثية أولها نسيب إلا قصيدة دريد بن الصمة.

أرثَ جديداً الحبل من أم معبدٍ بعافية وأخلفت كل موعد

وقال ابن رشيقي: «وإنما تَغَزَل دريد بعد قتل أخيه بسنة وحين أخذ ثاره وأدرك طلبته، وربما قال الشاعر في مقدمة الرثاء: تركت كذا أو كبرت عن كذا وشغلت عن كذا، وهو في ذلك كله يتغزل ويصف أحوال النساء، وكان الكميت ركاباً لهذه الطريقة في أكثر شعره، فأما ابن مقبل فمن جفاء أعرابيته أنه رثى عثمان بن عفان بقصيدة حسنة أتى فيها على ما في النفس ثم عطف وقال:

فَدَعُ ذا ولكن علقْتُ حبلَ عاشقٍ... «الآيات».

والنسيب في أول القصيدة على مذهب دريد خير مما ختم به هذا الجلف على تقدمه في الصناعة^(٢).

(١) الكامل ٢/ ٣٩٠.

(٢) العمدة: ٢/ ١٢١، ١٢٢.

ومما حدث بعد الإسلام فى طرق الرثاء الجمع بين التعزية والتهنئة، وهو مخصوص بالخلفاء فى تعزية من يلى عهد أبيه منهم، وكان أول ذلك حين مات معاوية وقدم يزيد ولده فلم يقدم أحد على تعزيته، حتى دخل عليه عبد الله ابن همام الساولى فأنشده^(١) ففتح للناس بعده باب القول، وقد روى ابن رشيق هذه الأبيات فى العمدة^(٢) ووطأ لها بسجعات نسبها للسلولى، والصحيح أن له الشعر وحده، أما السجع فهو لعطاء بن أبى صيفى الثقفى، وهو من الخطباء الذين فتح لهم الكلام بذلك الشعر^(٣). ولما توفى عبد الملك وجلس ابنه الوليد دخل عليه الناس وهم لا يدرون أيهنثونه أم يعزونه؟ فأقبل غيلان بن مسلمة الثقفى، فسلم عليه ثم خطب معزياً ومهتأ. وكذلك لما توفى المنصور دخل ابن عتبة مع الخطباء على المهدي فسلم ونحا هذا المنحى، وقد روى كلامهما الجاحظ فى الجزء الأول من البيان.

والذى ابتدا بالإجادة فى هذه الطريقة من الشعراء، أبو نواس فى قصيدته النونية التى يعزى بها الفضل بن الربيع عن الرشيد ويهنيه بالأمين، يقول منها:

وفى الحى بالميت الذى غيَّب الثرى فلا الملكُ مغبون^(٤) ولا الموت غابنُ

ثم اتبعه أبو تمام فى قصيدته التى أولها:

* ما للدموع تروم كل مرام *

يقولها للوائح بعد موت المعتصم، وقد صرف الكلام فيها كيف شاء وأطنب كما أراد، وتقدم فيها على كل من سلك هذه الناحية من الشعراء؛ وليس فى المتأخرين من يؤم فى هذه الطريقة غير جمال الدين بن نباتة المصرى، من شعراء القرن السابع، فإنه جاء فى قصيدته الميمية التى عزى فيها عبد الملك المؤيد صاحب حماه وهنا ولده الأفضل، بما يعد من عجائب الصناعة، لأنه استطرد فى القصيدة على طولها بالجمع بين التهنئة والتعزية إلى آخرها، وهى مشهورة، مطلعها:

هنا محاذك العزاء المقدما فما عبس المحزون حتى تبسما

(١) البيان: ١. (٢) العمدة: ٢/١٢٤. (٣) البيان: جـ١

(٤) قلت: مغبون: غبن الشيء غبناً: نسيه، وغبته الرجل: مر به وهو قائم فلم يره، ولم يفطن له.

وأبو تمام من المعدودين فى إجادة الرثاء خاصة، حتى قيل فيه إنه نواحة ندابة؛ وكذلك عبد السلام بن زغبان المعروف بديك الجن؛ واشتهر فى الرثاء بطريقة انفرد بها لا ترجع إلى الأسلوب ولا إلى الصناعة، ولكن إلى معنى الفجعية، وذلك أنه قتل له جارية وغلماً كان يهواها ثم جعل ينوح عليهما ويرثيهما، فاشتهر بهذه الطريقة، وليس أدل على جودة رثائه من قوله فيها:

لو كان يدرى الميتُ ماذا بعده بالحىُّ منه، بكى له فى قبره

وكان للرثاء شأن فى أوّل الدولة الأموية، حتى كانت المراثى يُناح بها نوحاً على القتلى والأموات، وأشهر من عرف بذلك الغريض المغنى، وقد ربه الثريا بنت عبد الله بن الحارث وعلمته النوح بالمراثى على من قتله يزيد بن معاوية من أهلها يوم الحرة^(١)؛ وكان المشهور قبله بالنوح ابن سريج المغنى، وقد عدل بعد ظهور الغريض إلى الغناء فعدل معه الغريض إليه^(٢)، ثم كان بنو أمية يشترطون فى تقريب الرواية منهم أن يكون لمراثى العرب أحفظ، وكان القائم برثاء المتقدمين منهم النصيب الشاعر، فكان إذا قدم على هشام بن عبد الملك أدخله له مجلسه واستنشد مراثى قومه، فإذا أنشده بكى وبكى معه^(٣) وكان يتقرّب بذلك إلى ملوكهم وأمرائهم، حتى إنه لما دخل على عمر بن عبد العزيز وهو أمير المدينة ابتدأه فى الاستئذان أن ينشده من مراثى أبيه عبد العزيز، فقال: لا تفعل فتحننى^(٤)؛ وقد عارض بنو أمية فى الولع بالرثاء شعراء الطالبين ومن نبغ بعد ذلك من هذه الشيعة إلى اليوم.

ومن طرق الرثاء التى أحدثها المتأخرون، ما يرثون به الدواب والآثاث والأدوات، وقد مرت الإشارة إلى ذلك فى موضع آخر؛ ولكن القصيدة التى احتذوها فى ذلك إنما هى القصيدة الهرية الشهيرة التى نظمها ابن العلاف الشاعر المتوفى سنة ٣١٨، وكان له هرّ يأنس به، وكان يدخل أبراج الحمام التى لجيرانه ويأكل فراخها، وكثر ذلك منه فأمسكه أربابها فذبحوه، فرثاه بها، وقيل إنه إنما رثى بها عبد الله بن المعتز وخشى من الإمام المقتدر لأنه هو الذى قتله، فنسبها إلى

(١) الأغاني: ٨٥/١.

(٢) الأغاني: ١٠٠/١.

(٣) الأغاني: ١٣٥/١.

(٤) الأغاني: ١٣٧/١.

الهر وعرض به في أبيات منها، ويقال بل كنى بالهر عن الوزير أبي الحسن بن
الفرات أيام محتته، لأنه لم يجسر أن يذكره ويرثيه. وقيل غير ذلك، وهذه
القصيدة في ٦٥ بيتاً، وهي معدودة من أحسن الشعر وأبدعه، وقد نقل زبدتها ابن
خلكان في تاريخه^(١). وللعلاف قصائد أخرى في الهر أيضاً ولكن هذه أشهرها.
واستحسن من بعده هذا المذهب، فعارض ابن العميد القصيدة الهرية صناعة،
ونقل الثعالبي شيئاً من قصيدته في اليتيمة^(٢) ولما نفق برذون أبي عيسى المنجم
بأصبهان وكان قد طالت صحبته له، أوعز الصاحب ابن عباد إلى الندماء المقيمين
في حلبته أن يعزوا أبا عيسى ويرثوا برذونه^(٣)، فقال كل منهم قصيدة فريدة، نقل
الثعالبي مختارات منها^(٤). ثم شاع هذا النوع بعد ذلك وتقبلوا في أغراضه.

(١) تاريخ (ابن خلكان): ١/١٣٧.

(٢) اليتيمة: ٢٣/٣.

(٣) قلت: البرذون: الدابة كما في القاموس

(٤) اليتيمة: ٥٥/٣.

الغزل والنسيب

ليست هاتان الكلمتان مترادفتين بالمعنى الأخص كما جرى فى عرف الناس، ولكن بينهما فرقاً نبه عليه قدامة فقال: إن النسيب ذكر خلق النساء وأخلاقهن، وتصرف أحوال الهوى به معهن، وقد يذهب عن قوم موضع الفرق بين النسيب والغزل، والفرق بينهما أن الغزل هو المعنى الذى اعتقده الإنسان فى الصبوة إلى النساء نسب بهن من أجله، فكأن النسيب ذكر الغزل والغزل المعنى نفسه. قال: والغزل إنما هو التصابى والاستهتار بمودات النساء... وإذا قد بان أن الذى قلناه على ما قلنا فيجب أن يكون النسيب الذى يتم به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهالك فى الصباية، وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة، وما كان فيه من التصابى والرقّة أكثر مما يكون من الخشن والجلادة، ومن الخشوع والذلة أكثر مما يكون فيه من الإباء والعز، وأن يكون جماع الأمر فيه ما ضادّ التحافظ والعزيمة ووافق الانحلال والرخاوة، فإذا كان النسيب كذلك فهو المصاب به الغرض.

لا جرم كانت هذه الأخلاق التى يحلو بها النسيب ويعذب الغزل غير صريحة فى البداوة، ولا خالصة فى تلك الخشونة الفطرية التى طبع عليها العرب فى جاهليتهم، فكان نسيب شعرائهم قليلاً بمقدار تلك الأخلاق التى انسلخت من الطبيعة العربية وتحولت عن صميمها بما فيها من المادة الحضرية الموروثة أو المكتسبة، لأن أول من تعهرّ فى شعره من العرب وشيّب بالنساء، إنما هو امرؤ القيس بإجماع الرواة، وكان أبوه من ملوك كندة فظهرت فى غزله الحضارة اليمنية وأفسدتها صعلكة الرجل؛ إذ كان على أنه ابن ملك لا يستتبع إلا صعاليك العرب وذوبانهم، وقد شيب حتى بنساء أبيه؛ وكان هذا سبب نفيه، لا ما زعموه من أن الملوك كانت تأنف لأبنائها من الشعر، وقد نبه على ذلك الجاحظ «فى الحيوان» وسنكشف قلب هذا الشاعر متى وصلنا إلى ترجمته. وكان قبل امرئ القيس خاله مهلهل، وهو زير نساء، ولكنه كان بعين أخيه كليب فارس العرب المشهور - وقد مرّ وصفه - فلم يك بالمفحش ولا بالبدىء، ولما كان مهلهل أول من أرقّ الشعر

كان كذلك أول من غنى بالتشبيب من شعره ^(١).

ولم يَجِءْ بعد هذين الشاعرين من يتهالك فى غزله غير النابغة الذبياني، وقد أفحش فى بعض نسيبه إفحاشاً كأنه رومى أو فارسى، لطول ما صحب المناذرة والغساسنة، أما سائر الشعراء من العرب فكانوا على سَنَّة قومهم من الغيرة والأنفة؛ ولذلك ظهر النسيب فيهم طبيعياً فقامت فيه الطلول والآثار، وتشوقوا بالرياح الهابة والبروق اللامعة والحمام الهاتفة والخيالات الطائفة وبكوا على آثار الديار العافية وأشخاص الأطلال الدائرة.

وهم إذا وصفوا محاسن النساء لم يزدوا على الأوصاف الطبيعية التى تقع عليها الأعين؛ إذ كن غير مقصورات ولا محجوبات، وإنما تجىء طهارة الغزل من اعتبار الحسن اعتباراً طبيعياً، كالذى تعرفه النفس من جمال الشمس والقمر، وخضرة الرياض، وأريج الأزهار، ونحو ذلك؛ وأظن أن إجماع الناس كافة على اختلاف أمهم فى تشبيه الحسن النسائى بتلك المعانى إنما جاءهم من ذلك الاعتبار، لأنه فيهم إرث الطهارة الطبيعية من لدن الإنسان الأول؛ ولذلك السبب عينه لم تكن تأنف العربية أن توصف محاسنها؛ لأن الحسنة فيهم صفة نفسها، وإنما كان الشأن فى ريبة النظر وندس الفؤاد، وذلك الذى كان يستطير له الشر بينهم وتعتقد عليه الغارات فهو غزل الأسنه لا غزل الألسنة، وهو أيضاً كان السبب فى أن النسيب لم يغلب على شعر واحد من شعرائهم فيعرف به كما عرف قوم بالهجاء والمديح وغيرهما، وعلى أن هذا النسيب كان نوعاً من أنواع الوصف فهو كذلك لم يتميز به شاعر تَمَيَّزَه بالأوصاف الأخرى؛ وهذه تراجم شعراء الجاهلية وأشعارهم بين أيدينا، وهى بجملتها الدليل على ما أسلفنا بيانه.

فلما جاء الإسلام آمنت العيون المربية، وصدق النظر فى عفته، وتلجلجت الألسنة فيما كانت تنطلق به؛ فكان ذلك أبلغ فى عفة النسيب، حتى صار يؤخذ من طرق اللسان، ولا يقصد به إلا إقامة السَنَّة التى درج عليها العرب، وتحريك ما فى القلوب من بقايا الشباب؛ حتى يستجيب الطبع للشاعر وتسلس له الخواطر، كما قال مالك بن زغبة الباهلى ^(٢).

(١) سرح العيون: ص ٦١.

(٢) الممددة: ٩٨/٢.

وما كان طبي حبيها غير أنه يُقامُ بسلمى للقوافى صدورها

ولولا ذلك ما سمعه رسول الله ﷺ في مسجده من قصيدة كعب بن زهير الشهيرة؛ ولتين الناس منه الكراهة له؛ وهم لم يرووا من ذلك شيئاً كما رووا في غيره (هو منافرة الزبرقان؛ راجع العمدة).

ومضى الشعراء على ذلك إلى زمن عمر بن الخطاب، وكان لشدته في الدين ينكر من الشعر غير معالي الأخلاق وصواب الرأي وما يرجع إلى الأنساب؛ حتى لقد مرَّ بحسان وهو ينشد في مسجد رسول الله ﷺ فأنكر ذلك، ثم قال: أرغاء كرخاء البكر؟ فقال حسان: دعني عنك يا عمر، فوالله إنك لتعلم لقد كنت أنشد في هذا المسجد من هو خيرٌ منك فما يغير عليّ ذلك! لا جرم أنه استبطل النسيب ورآه عبثاً، إن لم تكن فيه حرمة فقد يكون سبباً إليها، خصوصاً وقد تواصل الناس في زمنه معاني الغزل بما جلبته لهم الفتوح من السرارى، فتقدم عمر إلى الشعراء أن لا يتشبه أحد بامرأة إلا جلده^(٢)؛ وكان يأبى أن يساكنه جميل من الرجال تهتف به العواتق في خدورهن؛ وقصة نصر بن حجاج معه مشهورة، ولكن ما جاءتهم به الفتوح كان قد أدخل عليهم رخاوة المدنية ونقض من طباعهم، ثم جعلت قلوبهم تسبب وتسبب معها أخلاقُ البداوة؛ فما هدأت الفتن بعد عثمان واستقر الأمر لمعاوية حتى قويت قلوب وضعفت عقول، وانصرف أكثر القرشيين إلى ما ألهاهم به معاوية من الترف والنّعمة، وما جرائهم عليه من مباحات النظر واللسان، وهو كان يبذل إليهم الأموال في هذا السيل ويعينهم عليه بما وسعه من الجهد، ليكسر من قرشيتهم التي هي قوام الخلافة. وظهر يومئذ الغناء مُمتَرى فيه حتى أباحه يزيد بن معاوية (٦٠ - ٦٤ هـ) ففشاً في الحجاز؛ والنسيب مادة الغناء الطبيعية وبه يقوم أمره؛ فكان المغنون يتناولون في أول أمرهم نسيب الجاهليين والمخضرمين؛ كالمهلhel وامرئ القيس والنابعة وذى الإصبع العدواني وحמיד بن ثور وغيرهم؛ وكان هذا منشأ الظرف الحجازي الذين ضربوه مثلاً؛ لأن أهل العراق كانوا ينكرون الغناء ولكن لا يرون بأساً بالرجز، وهو ما يحدى به^(٣)؛ وكذلك صاروا يكرهون النسيب من أجله؛ حتى قال فيهم سعيد بن

(٣) الأغاني: ١٦٣/١.

(٢) الأغاني: ٩٨/٤.

(١) العمدة: ٩٨/٢.

المسيب: إنهم نسكوا نسكاً أعجيباً. ونبغ في ذلك العهد عمر بن أبى ربيعة الغزل المترف، وكانت أمه سُبَيْت من حضرموت، ويقال من حمير، ومن هناك أتاه الغزل^(١) كما أتى امرؤ القيس من قبله، وليس بينهما من يساويهما في هذه الطريقة، وإنما نشأ لزمناه فتیان الشعر من القرشيين، كأبى دهل الجمحي، ومن ينزل منزلتهم بما يدل به من سابق الحرمة، كعبد الرحمن بن حسان، فلم يتركوا أن يقولوا النسيب في كل من جاز أن يقولوه فيه وكل من لم يعجز، حتى تناولوا به بنت معاوية؛ ولكت ابن أبى ربيعة هو الذى استقلت له هذه الطريقة وكان أول من شهر بها، فبرع نظراءه بسهولة الشعر وشدة الأسر وحسن الوصف وإرسال شعره قصصاً غزلية حتى كأنه إنما يدون فيه تأريخ قلبه، ولذلك فتن به الناس، وكان أشهر أهل الحجاز يومئذ بالطرف والركة وطباع الغزل، ابن أبى عتيق، وهو عبدالله ابن عبد الرحمن بن أبى بكر، فكان عمر يذهب في شعره إلى أخلاقه^(٢) وأخبارهما مشهورة، ثم كان يغنى في أشعاره ابن سريج المغنى النواحة، فلو أن القلوب لا ترى ببصائرها إلا لوناً واحداً لكان هو اللون الذى يعطيه غناء ابن سريج بشعر ابن أبى ربيعة، ولذلك طار نسيبه وصار الحسان يتعرضن في آفاق لحظه كواكب وأقماراً ليشهرن فيرتفعن في الناس بصفته؛ وبلغ من فتنة شعره للنساء أنهن كن يتدارسنه ويكتبنه^(٣).

وقد خلقت تلك البيئة عمر خلقاً نسائياً، حتى كأنما كن ينجدبن إليه للمناسبة الجنسية... فقد كان في أيام الجمع يلبس حلل الوشى ويركب النجائب المخضوبة بالحناء عليها القطوع والديباج ويسبل لفته ويخرج يتلقى العراقيات إلى ذات عرق، ويتلقى المدنيات إلى مرّ ويتلقى الشاميات إلى الكديد^(٤) كل ذلك التماساً للغزل وطلباً لمئاته، وأخباره كثيرة مثبتة في موضعها من كتاب الأغاني.

وظهرت مع عمر طبقة العشاق من شعراء العرب: كجميل، وكثير، ونصيب، وجنادة العذرى وغيرهم؛ ثم الشعراء الذين صاغت لهم البيئة: كالأحوص الذى كان يشبب بالنساء ذوات الأخطار من أهل المدينة، حتى نفاه سليمان بن عبد الملك^(٥)؛ ووضاح اليمن وكان يشبب بامرأة الوليد بن عبد الملك.

(٣) الأغاني ١/٣٧.

(٢) الحيوان ٢/٢٨.

(١) الأغاني ١/٣٢.

(٥) الأغاني: ٤/٤٨.

(٤) الأغاني ١/٨٨.

وفشا أمر الغناء فكان ابن سريج وابن محرز ومعبد والغريض ومالك وابن عائشة وغيرهم يغنون في النسيب من شعر تلك الطبقة كلها، وبذلك ظهر النسيب في وضع يشبه أن يكون فارسياً أو رومياً ولا يلتئم مع أخلاق العرب؛ إذ تحكى فيه قصة الغزل ويفتخر فيه بنقض العفة وانحلال الطباع، إلى أمثال هذه المعاني؛ وكان ذلك أصل ما ورثه المولدون من هذه الصناعة.

وثم نوع من الهجاء استخدم فيه النسيب، واستعين على البلوغ إلى حقيقته بهذا الغزل الحديث، وأول من فعل ذلك الشاعر الملقب بالعرجي، وهو عبد الله ابن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان، وقد نبغ بعد موت ابن أبي ربيعة ونحا نحوه وتشبه به فأجاد، وكان جريئاً في شعره على نساء قریش ونساء بنى أمية، قليل المحاشاة لأحد، وكان يهجو محمد بن هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي، فلما رأى أنه لم يبلغ منه ولم [يُمِضْه] جعل يشيب بأمه وامراته^(١) وينسب بهما، وخصوصاً أمه، على تلك الطريقة من حكاية الوقائع وافتراء الإفك، لا لمحبة ولا لمعنى من معاني الغزل^(٢)؛ ولكن ليفضح الرجل بإشاعة الشعر على السنة المغنين؛ وليس يؤخذ بالنسيب هذا المأخذ إلا وقد استقامت طريقته تلك بما يُمتهد لها من الأعراض ويوطأ من الأخلاق؛ ولذلك صار الأشراف والأمراء يتقون تلك الألسنة أكثر مما يتقون العيون المريبة بعد أن شددوا في الحجاب وفرقوا بين الرجال والنساء في الطواف، وذلك في إمارة خالد القسرى عامل سليمان بن عبد الملك على مكة، إذ بلغه قول بعض الشعراء^(٣):

يا حبذا الموسم من موقف وحبذا الكعبة من مسجد

وحبذا اللاتى يزاحمتنا عند استلام الحجر الأسود

فتحوكت الأخلاق يومئذ في سواد الأمة بهذا النسيب، حتى كان من الأشراف من يحاول أن يعيد الأخلاق العربية، كعبد العزيز بن مروان والى عبد الملك على مصر، فإنه كان لا يعطى شاعراً شيئاً حتى يذكر أمه في مدحه لشرفها، فكان الشعراء يذكرونها باسمها في أشعارهم^(٤).

(٢) الأغاني: ١٥٤/١.

(٤) الأغاني: ١٣٦/١.

(١) الأغاني: ١٦١/١.

(٣) المسعودي: ١١٦/٢.

ولما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز تحامى شعراء الغزل أن يشهروا النساء في نسيبهم، وتحولوا عن طريقة ابن أبي ربيعة، حتى إن النسيب الشاعر المقدم في ذلك لم يأخذ جائزته إلا بعد أن شهدوا له أنه عاهد الله أن لا يقول نسيباً يشهر به النساء^(١) واستمر أكثرهم على ذلك: لا ينسب إلا تملحاً واستجماماً على غير ربة ولا فاحشة، ومالوا في ذلك إلى طريقة العرب، إلا ما لا بد منه من صنعة الأخلاق التي تناسب الغزل والتشاجي، حتى ظهر أبو المحدثين بشار بن برد، فأفرط في الصنعة، لأنه كان أعمى، وبالع في تصوير الإحساس ليمتاز بذلك على المبصرين «وهو والأعشى معدودان كذلك عندهم» فكان سبيله إلى هذا الغرض أن نصب في شعره حبائل الشيطان وزخرفته بتزويق اللسان وقارب في غزله النساء بما كان يجتزئ ابن أبي ربيعة بنظره عن التحدث به في النسيب، حتى اشتهر نساء البصرة وشبابها بشعر بشار، وانتهى خبره من وجوه كثيرة إلى المهدي بن المنصور العباسي، وكان أشد الناس غيرة، فنهاه عن ذكر النساء وقول التشبيب^(٢) ثم ظهر بعد ذلك أبو فراس والعباس بن الأحنف، وهذا الأخير ليس في شعره مديح، إنما هو مصروف إلى النسيب يتوخى فيه صفة المعنى لا صفة الحكاية، وشعره عكس شعر الفرزدق لأنه كان لا يقول في الغزل^(٣) والعباس لا يقول إلا فيه.

ومن ذلك العهد شاع النسيب والتحم بالشعر، ورغب فيه الخلفاء من شعرائهم حتى إن الرشيد أمر بحبس أبي العتاهية والتضييق عليه لما تزهد وألى على نفسه أن لا يقول شعراً في الغزل^(٤) ثم أضاف البحترى إلى النسيب معنى تعلق به وردده في شعره واستقصاه، حتى كان الباب الذي شهر به على أنه أرق الناس نسيباً وأملحهم طريقة، وذلك المعنى هو ذكر الطيف والخيال، وكان من ذلك شيء قليل في أشعار المتقدمين يركبون فيه صنعة جافية تتخون محاسنه وتُعفى على معنى الغزل فيه، إذ كانوا يطردونه؛ وأشهر ما في ذلك قول جرير:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعى بسلام

ومن انفرد بطريقته في النسيب بعد البحترى وشهر بالغزل خاصة، أبو الوليد

(٢) الأغاني: ٤١/١.

(٤) الأغاني: ١٦٠/٣.

(١) الأغاني: ١٣٨/١.

(٣) البيان: ج١.

ابن زيدون، وهو الذى لقبه الأندلس ببحتري المغرب، وقصائده مشهورة، وخصوصاً النونية التى يتشوق بها إلى ولادة، وكذلك أبو الوليد ابن الجنان من شعراء الملك الناصر صاحب الشام فى القرن السابع، قال بن سعيد المغربى: ومقاطيعه الغرامية قلائد أهل الغرام^(١) وكان فى ذلك القرن أيضاً أبو الفضل زهير الشهير ببهاء الدين، وهو صاحب الديوان المشهور الذى يقال فى غزله إنه السهل الممتنع، وقد انفرد بهذه الطريقة حتى لا يذكر معه فيها أحد من المتأخرين إلا تابعاً، ثم تتابع الشعراء بعد هؤلاء وكلهم ينسبون وأكثرهم يجيدون، ولكننا لا نعرف لواحد منهم طريقة يتبع فيها بل كلهم، إلا ما اشتهروا به من السخافات، كالغزل الممقوت الذى يصفون فيه الأحداث والمخثين، وكان منشأ ذلك فى أوائل الدولة العباسية بعد اقتناء المماليك من الروم والترك وغيرهم؛ ولبعض خلفائهم. ولع به واستهتار، كالمعتضد وغيره، وليس هذا موضع شرحه ولا تأريخه، وقد رأينا لبعض المتأخرين فيه كتاباً مطبوعاً، ولكننا ننزه كتابنا عن الإشارة إليه.

ويدخل فى تاريخ النسب بعض المذاهب الصناعية التى استحدثت فيه، ونخص بالذكر من ذلك مذهبين: الأول ما سلكه المتنبى من التغزل بممدوحه، وقد نبه عليه الثعالبي فى اليتيمة، والثانى ما استنّه الوزير الطغرثى من الجمع بين مدح فتيان الحى والتغزل بفتياته، وقد شغف بهذه الطريقة من المتأخرين ابن معنوق الموسوى وأكثر غزله فيها.

(١) نفح الطيب: ٣٧٩/١.

الشعر الوصفي

الوصف جزء طبيعي من منطق الإنسان، لأن النفس محتاجة من أصل الفطرة إلى ما يكشف لها من الموجودات وما يكشف للموجودات منها، ولا يكون ذلك إلا بتمثيل الحقيقة وتأديتها إلى التصور في طريق من طرق السمع والبصر والفؤاد، أي الحس المعنوي، فالأمم الطبيعية هي أصدق الأمم في الوصف طبيعة، لأنه سبيل الحقيقة في الستتها، ولأن حاجاتها الماسة إليه تجعل هذا الحس فيها أقرب إلى الكمال، فإذا أضفت إلى ذلك سعة العبارة ومطاوعة اللغة في التصريف - كما هو الشأن عند العرب - كان أجمع للحس وأبدع في تصوير الحقيقة بما تكثر اللغة من أصباغها ويجيد الحس في تأليف بينها وتكوين المناسبات الطبيعية التي تظهرها تلك الألوان المهيأة على حسب هذه المناسبات.

ولما كان الوصف الشعري هو أرقى ما يكون في اللغة من صناعة الأصباغ والتلوين، كان لا يقع إلا على الأشياء المركبة من ضروب المعاني، وكان أجوده لذلك ما استجمع أكثر المعاني التي يتركب منها الشيء الموصوف وأظهرها فيه وأولاهها بتمثيل حقيقته، وهي الطريقة التي اتبعها العرب في أوصافهم بدلالة الفطرة القوية والطبيعة الراقية، وقد كان هذا سبباً في تطبيقهم وصف الحيوان والنبات وغيرهما على علومهم ومعارفهم التي خلدها بذلك في أشعارهم؛ لأن من أخص مزايا العلم التدقيق والاستقصاء، حتى قال الجاحظ: قل معنى سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة وقرأناه في كتب الأطباء والمتكلمين إلا ونحن قد وجدنا قريباً منه في أشعار العرب والأعراب^(١). فاستقصاء المعاني التي يتركب منها الموصوف طبيعة عامة في شعرائهم، ولكنهم يتفاوتون في قوة الاحتيال على إبراز هذه المعاني وابتداع الأساليب في تصويرها، وهذا هو موضع التفضيل بينهم، لأنه راجع إلى اختلاف القرائح خلقةً واستعداداً. وقد غفل أكثر الأدباء عن هذه الحقيقة، فتراهم يعجبون لما يرونه في بعض أشعارهم مما يكون سبيله الاحتيال على تصوير أجزاء الموصوف، ويعدون خشونة وجفاء طبع، كالذي يذكرونه في وصف

(١) الحيوان: ٨٣/٣.

الناقة بأن هراً قد ثبت في دَفْئها، كقول عنترة:

وكأنما ينأى بجانب دَفْئها الـ وحشى من هزج العشى مؤوم
هر جنيبٌ كلما عطفت له غَضْبى اتقاها باليدين وبالفم

وهم إنما أرادوا صفة الناقة بأنها رواغة شديدة التفزع لفرط نشاطها ومرحها، فجاءوا بهذا المعنى الذى تلزم عنه تلك الصفة، وخصوا الهر لأنه يجمع العض بالناب والمحض بالمخالب، فيكون ذلك أبلغ فيما أرادوه.

ومنه قول أوس بن حجر، وقد جاء بأكثر من ذلك، يريد أنها لا تستقر:

كان هراً جنيباً تحت غُرَضتها والتف ديكٌ بحَقْوَيها وخنزير

وقول الشماخ:

كان ابن آوى موثقٌ تحت غُرَضها إذا هو لم يكلم بنيَّه ظفراً
«والغُرَض والغرض: حزام الرجل»^(١).

وعلى ذلك يؤول كل ما ورد فى أوصافهم من أمثال تلك المعانى التى يستقصون بها أجزاء الصفة وأساليب التركيب، وهى عامة فى الشعر الجاهلى والطبقة التى تليهم من الإسلاميين، ومن أعجبها قول الراعى حين أراد أن يصف لون الذئب:

متوقع الأقران فيه شهبه هشّ اليدين تخاله مشكولا
كدخان مرتجل بأعلى تلعة غرثانَ ضرمَ عرفجا مبلولا

المرتجل: الذى أصاب رجلاً من جراد فهو يشويه، وجعله غرثان لأنه على طول الغرث لا يختار الخطب اليابس على رطبّه، فهو يشويه بما حضره. وأدار الراعى هذا الكلام ليكون لون الدخان بلون الذئب الأطلح متفقين^(٢).

ومن تفاوتهم فى الأساليب قول الشماخ فى صفة الحر:

كان قتودى فوق جاب مطرد من الحقب لاحتَه الجداد الغوارز^(٣)

(١) الكامل: ٧٤/٢.

(٢) الحيوان: ٢٤/٥.

(٣) الحيوان: ٢٨/٥.

قال الجاحظ: ولهذه الأبيات كان الخطيئة والفرزدق يقدمان الشمخ بغاية التقديم. وسجد الفرزدق مرة إذ سمع رجلاً ينشد بيتاً لليد:
وجلا السيول عن الطلول كأنها زبرٌ تُجدُّ متونها أقلامها
ف قيل له: ما هذا؟ قال: مرضع سجدت في الشعر أعرفه كما تعرفون مواضع السجود في القرآن^(١).

ولما كان الوصف عند العرب أشبه بالحقيقة العلمية كما مر، كان الشاعر منهم لا يتعاطى إلى ما يُحسن من ذلك ضرورة، وقد يشارك في أوصاف كثيرة ولكنه ينفرد بالشهرة في بعضها، من جهة العلم لا من جهة الصناعة، فكلما كان أعلم بأجزاء الموصوف وحالاته، وأقدر على استقصاء هذا العلم في شعره، كان أبلغ في الوصف وأولى بالتقديم فيه؛ وإن أحسن ما يكون الوصف الصادق إذا خرج عن علم، وصرفته روعة العجب، فإن العلم يعطى مادة الحقيقة، والعجب يكسبها صورة من المبالغة الشعرية، وكل وصف لا يكون عن هذين أو أحدهما فهو تزيد من الكذب، وتكثر بالباطل، لأن سبيله سبيل المصنوع المتكلف، ولا يسلم متعاطيه من الخطأ، كما ترى شعراء المولدين يصنعون في صفة الإبل ونحوها من خصائص الشعر الجاهلي.

وقد أخطأ أبو نواس على جلالته في وصف الأسد حين تعاطاه، وسيأتى ذلك في موضع آخر.

وعلى جهتي الوصف الصادق اللتين ذكرناهما، يجرى كل شعر العرب ومن بعدهم من طبقتي المحضرين والإسلاميين، ولا يبقى موضع للعجب في تناولهم بالوصف كل أجزاء طبيعتهم، حتى الحشرات، وحتى ما لا يستحسن مثله عادة من الوصف، كما فعل مخارق بن شهاب المازني؛ وهو على سيادته وكرمه، وعلى أنه من رؤساء العرب، تراه يصف تيس غنمه، ولولا روعة العجب لترك ذلك لأخلاق الرعاة ومن في طبقتهم^(٢).

على أنهم في ذلك جميعه إنما كانوا يتوسعون فيما يتعلق بالأجزاء من

(١) سرح العيون: ص ٢٧٥.

(٢) الحيوان: ١٤٣/٥.

الموصوفات دون ما يتعلق بالمعاني، والأجزاء متعلقة بالهيئة الخاصة، والمعاني متعلقة بالحالة العامة؛ فإذا وصفوا الناقة مثلاً وهي ذات هيئة خاصة مميزة بأجزائها أتوا على هذه الأجزاء واستغرقوا كل ما يتعلق بالهيئة؛ وحسبك أن تقرأ قصيدة التغلبي في وصف القطاة، وقد رواها الجاحظ وقال إنها أجود قصيدة قيلت في القطاة^(١) وإنما كانت كذلك لاستغراقها كل أجزاء الصفة بحيث تصوّرها تصويراً حياً، ولكنهم إذا وصفوا حرباً انصرفوا عما فيها من المعاني العامة وردّوها إلى النوع الأوّل فجزّءوها أجزاء واعتبروها هيئة، فربما وصفوا منها الخيل وفرسانها وأدوات القتال وذكروا الصفة العامة للحرب، من النقع والدماء والطير التي تتبع القتلى ونحو ذلك مما تردّ جملته إلى أجزاء مفردة بأعيانها، ولكنهم لا يصفون حالة المتقاتلين عما يبنى على معاني النفس وتقام به فلسفة الإنسانية، لأن ذلك بعيد عن نظام اجتماعهم، ولو اقتضاه الاجتماع لاهتدوا إليه؛ ولهذا السبب عينه لم يؤثر عنهم شيء في الأوصاف التاريخية التي يستمد منها الشعر القصصى، وقد ذكر شعراؤهم واقعة الفيل وسيل العرم وغيرهما^(٢) ولكنهم لم يحتالوا على أن يصفوا ذلك بمعانيه العامة في قصة أو شبه قصة، كما رأيتهم يحتالون على إبراز الصفات الطبيعية ويتكلفون لذلك نوعاً من القصص على ما سلف بيانه. وقد تجدهم يزحمون أجزاء الهيئة ويبالغون في استقصائها حتى تقصر الألفاظ عن بسط المعنى وتترك في التصوير مواضع للنظر والفكر، كقول الشماخ يصف أرضاً تسير النبالة فيها:

تقعقع في الآباط منها وفاضها خلت غير آثار الأراجيل ترمي

قال قدامة: فقد أتى هذا البيت بذكر الرجالة وبين أفعالها بقوله «ترمي»، ومن الحال في مقدار سيرها بوصفه تقعقع الوفاض، إذ كان في ذلك دليل على الهرولة أو نحوها من ضروب السير، ودل أيضاً على الموضع الذي حملت فيه الرجالة الوفاض، وهي أوعية السهام، حيث قل «في الآباط» فاستوعب أكثر «هيات» النبالة وأتى من صفاتها بأولها وأظهرها عليها، وحكاها حتى كأن سامع

(١) الحيوان: ١٦٩/٥.

(٢) الحيوان: ج-٧.

قوله يراها^(١) ولم يلتزم المولدون سنن العرب في الوصف بل قلبوه إلى التشبيه، وبينهما فرق عند العرب، وهو أن الوصف إخبار عن حقيقة الشيء، والتشبيه مجاز وتمثيل، لأنه مبنى على أن يوقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها، إذ لا بد أن يكون بين المشبه والمشبّه به اشتراك في معانٍ تعمهما ويوصفان بها، واقتراق في أشياء ينفرد كل واحد منهما بصفتها، فهو يدخل في الوصف كما ترى وليس به في الحقيقة.

ومن أجل ذلك بالغوا في أوصافهم وجاءوا بالتشبيه المفرط والبعيد، وكان هذا شيء اقتضته حضارتهم المبنية على الترف وتمويه الأشياء بالزخرفة، وقل منهم من يصف عن علم كأبي نواس في أوصافه للكلاب واستغراقه في سنّها، لأنه كان عالماً راوية، وكان قد لعب بالكلاب زماناً وعرف منها ما لا تعرفه الأعراب؛ قال الجاحظ: وذلك موجود في شعره، وصفات الكلاب مستقصاة في أراجيزه؛ هذا مع جودة الطبع وجودة السبك والحذق بالصنعة؛ وإن تأملت شعره فضلته، إلا أن تعترض عليك فيه العصبية أو ترى أن أهل البدو أبدأ أشعر وأن المولدين لا يقاربونهم في شيء، قال: فإن اعترض هذا الباب عليك فإنك لا تبصر الحق من الباطل ما دمت مغلوباً^(٢) وهذه الصفات هي التي تذكر في شعر الصيد والطرْد؛ ولانصراف المولدين عن حقائق الموصوفات كانوا يسمون الأوصاف الشعرية بما يجرى مجرى العويص^(٣) وجعلوا لبعض التشبيهات ألفاظاً سموها بالآلِفاظ الملوكية^(٤) وهي خاصة بوصف ما يكون عند الملوك من أدوات الترف والنعمة.

أما مشاهير الوصافين في تاريخ الأدب جاهلية وإسلاماً فهم وإن كانوا يجيدون أكثر الأوصاف لكنهم اشتهروا بأنواع غلبت عليهم الإجادة فيها، فاشتهر من نعت الخيل امرؤ القيس وأبو دؤاد وطفيل الغنوى والنابعة الجعدى، ومن نعت الإبل طرفة وأوس بن حجر وكعب بن زهير والشمّاخ، وإن كان أكثر القدماء يجيدون وصفها لأنها مراكبهم؛ وكان عبيد بن حصين الراعى النميرى أوصف الناس لها، ولذلك سُمّي راعياً؛ وأما الحُمُر الوحشية والقسي والنبل فأوصف

(١) نقد الشعر: ص ٤١.

(٢) الحيوان: ١٠/٢.

(٣) يتيمة الدهر: ٢٢٨/٣.

(٤) زهر الآداب على هامش العقد الفريد: ص ٥٣.

الناس لها الشماخ، ولقد أنشد الوليد بن عبد الملك شيئاً من شعره فى الحُر فقال: ما أصفه لها! إنى لأحسب أن أحد أبويه كان حماراً... وأما الخمر فمن أوصاف الأعشى والأخطل وأبى نواس، واشتهر أبو نواس وابن المعتز أيضاً بصفة الصيد والطرْد، ولا يذكر مع امرئ القيس فى منزله من اختراع التشبيه إلا ابن المعتز، وكان ذو الرمة أوصف الناس لرمل وهاجرة وفلاة وماء وقراد وحية، وهو رئيس المشبهين الإسلاميين، وكان يقول: إذا قلت كأن... ولم أجد مخلصاً منها فقطع الله لسانى! وقد اشتهر بوصف الطبيعة الوحشية أيضاً عبيد بن أيوب العنبرى، وكان نافراً من الإنس جوّالاً فى مجهول الأرض، فاستغرق ذلك شعره^(١) ومن الوصافين المتفنين فى الأوصاف على بن إسحاق المعروف بالراجحى المتوفى سنة ٣٥٢، وأبو طالب المأمونى المتوفى سنة ٣٨٣، وله أشياء كثيرة فيما يجرى مجرى العويس، واشتهر كشاجم بآلات المنادمة، والصنوبرى بالروضيات، وابن خفاجة الأندلسى بأوصاف الطبيعة الحضرية وابن حمديس الصقلى بأوصاف البرك والمياه والأنهار، وسنذكر كلمة عن أوصاف الأندلسيين متى وصلنا إلى تاريخ الأدب الأندلسى إن شاء الله.

والوصف باب من الشعر قلما تجد شاعراً لا يحسن منه شيئاً أو أشياء، ولكن هؤلاء الذين عددناهم قد ذهب لهم بالأوصاف التى غلبت عليهم الإجابة فيها صيتٌ بعيد وذكر، ولم يكن مثل ذلك لمن جاءوا بعدهم وإن أحسنوا فى أشياء كثيرة، إما لأن الإجابة لم تغلب عليهم فى نوع دون آخر، وإما لإهمال الأدباء والمؤرخين أن يعينوا لهم مثل تلك الأوصاف. والله أعلم.

(١) الحيوان: ٥٠/٦.

الشعر الحكيمى

إذا استصفينا المأثور من شعر العرب ومن بعدهم، وميزنا كل نوع منه بغرضه الذى يجمع جملة كما فعلنا فى هذه الأبواب التى نكتب فيها، خرج لنا من ذلك هذا النوع الذى نسميه الشعر الحكيمى، وهو المقصور على الدين والفلسفة وما يرمى إلى هذه الناحية، ونحن وإن لم نكن نراه شعراً خالصاً ولكننا نراه مذهباً من مذاهب الشعر، ولذلك خصصناه بالتأريخ.

كانت حكمة العرب راجعة إلى وثاقة الحلو وشدة العقول وفضل المنزلة فى تجارب الأيام، فهى حكمة لا تجرى على مذهب ولا تدور على نحلة ولا يبلغ بها الزمن مبلغ أحد هذين النوعين بالقياس والاستبطاء، كما يكون ذلك فى القضايا العلمية وعلى النحو الذى أخذت إليه شرائع الرومان وفلسفة اليونان مثلاً، وإنما كان أساس تلك الحكمة رسوخ الأخلاق فيهم بحكم العادة ونظر كل امرئ لنفسه بحكم الطبيعة، وذلك كان محور دينهم الطبيعى.

لا جرم أنهم صرفوا حكمتهم فى الشعر إلى ما يتعلق بالأخلاق والسياسة ولم يبالوا بتقرير مذهب من مذاهب أديانهم ولا أقاموا لظواهر هذه الأديان فى شعرهم وزناً، وقد صرفهم عن ذلك أنهم لم يدرسوا شيئاً من كتب الأديان، وأنهم كانوا يحتقرون هذه الحمراء من الفرس والنبط والروم وغيرهم، وقد كانت النصرانية واليهودية فى بعض قبائلهم، فكانت اليهودية فى بنى كنانة وكندة وبنى الحارث، وكانت النصرانية فى ربيعة وغسان وبعض قضاة وبنى تغلب وأهل نجران، غير من كانوا فى الحيرة ممن يطلقون عليهم اسم العباد، ومنهم عدى بن زيد العبادى^(١) ففيه أسماء القبائل المحليين ومن كانوا على غير دين مشركى العرب.

وقال الجاحظ فى نحو هذا: والمحلون من العرب ممن كان لا يرى للحرم ولا للشهر الحرام حرمة... إلخ.

وخرج من أهل الملتين شعراء معروفون ومع ذلك تؤثر لهم أشعار دينية على

(١) الحيوان: ٦٦/٧.

نحو ما تجدد في الشعر العبراني مثلاً، إلا أن يكون لذلك سبب تستدعيه طبيعة الشاعر فيغلب على الأسباب الأخرى، والطبيعة دائماً تقوى أسبابها وتضعف على هذا التقدير؛ ولم نعثر بعد جهد التفتيش وطول التنقيب إلا على اثنين من الشعراء اشتهرا بهذا النوع الديني من الشعر... وهما عدى بن زيد العبادي، وأمّية بن أبي الصلت؛ أما عدى فكان يسكن الحيرة ويجاور الريف، وشعره لإحكام أمثاله مثلاً في الحكم، ومن مشهوره أبياته في الاعتبار بذهاب القرون وهلاك الملوك، ومطلعه:

أيها الشاعر المعير بالدهر سر أنت المبرأ الموفور؟

قال الجاحظ في عدى: وكان نصرانياً ديناً وترجمانياً وصاحب كتب؛ وكان من دهاة أهل ذلك الدهر... ثم أورد شعراً له يذكر فيه شأن آدم ومعصيته وكيف أغواه إبليس وكيف دخل في الحية وأن الحية كانت في صورة جمل فمسخها الله عقوبة لها حين طاعت عدوه على وليه، ومطلع هذا الشعر:

قضى لسته أيام خليقته وكان آخرها أن صور الرجل
دعاه آدم صوتاً فاستجاب له بنفخة الروح في الجسم الذي جبلاً^(١)

وهذا هو المذهب الذي قلنا إننا لم نعرف به في شعراء العرب غير اثنين، عدى هذا أحدهما.

وأما أمّية بن أبي الصلت فقد كان أعرابياً مدرياً، قال الجاحظ: وكان داهية من دواهي ثقيف، وثقيف من دهاة العرب، وقد بلغ من اقتداره في نفسه أنه قد كان هم بادعاء النبوة وهو يعلم كيف الخصال التي يكون بها الرجل نبياً أو متنبياً إذا اجتمعت له. نعم وحتى ترشح لذلك بطلب الروايات ودرس الكتب، وقد بان عند العرب علامة ومعروفاً بالحوّلان في البلاد وراوية^(٢).

قال ابن قتيبة: وكان أمّية يخبر أن نبياً يخرج قد أظلم زمانه، وكان يؤمل أن يكون ذلك النبي، فلما بلغه خروج النبي ﷺ كفر به حسداً له، ولما أنشد النبي

(١) الحيوان ٦٥/٤.

(٢) الحيوان: ١١٧/٢.

ﷺ شعره قال: آمن لسانه وكفر قلبه^(١)؛ وله من الشعر الدينى شئ كثير، يقص فيه أحوال الثواب والعقاب وخرافات الأمم ونحو ذلك، وبعضه مذكور فى المجموعة المسماة شعراء النصرانية.

ومن يذهب هذا المذهب من العرب غير هذين الاثنين وإن كان ليس مذكوراً بالشعر ولا يتعلق بهما فيه - ورقة بن نوفل، وكان يتناشد مع زيد بن عمرو بن نفيل أشعاراً فى التوحيد وعبادة الله، ومنهم قس بن ساعدة الإيادى الحكيم الخطيب، وكان مذهبه الوعظ والاعتبار، ولم يكن يقص كأمية وعدى؛ لأنه صرف ذلك إلى الخطابة، وهو بها أعرف وأشهر.

ذلك شأن الجاهلية، أما الإسلام فقد مضى الصدر الأول منه والشعراء على سنة العرب، وإنما تتفق لبعضهم الأبيات مما يذكر فيه أمر الآخرة أو تحقيق معنى من معانى الحكمة الأخلاقية ونحو ذلك، حتى نشأت الخلافات الأموية بين على ومعاوية، وكان شاعر الشام يومئذ كعب بن جعيل، وشاعر العراق النجاشى أحد بنى الحارث بن كعب^(٢)، فاستنجد كل منهما بشاعر مصره ودفعاهما إلى التشيع، وكان هذا فيما نعلم أول ما تشيع الشعراء فى الإسلام، ثم استبحرت هذه الفتن فى الأعقاب واستحرت المفاخرات، فكان من المتشيعين لآل على الفرزدق وكثير الكميت، فكانوا ينظمون فى تفضيلهم ومدحهم وأنهم أحق بالامر الذى خرج من أيديهم، وكان الكميت شيعياً من الغالية، وكان صاحبه الطرمح خارجياً من الصُفوية يتعصب لأهل الشام، ومع ذلك كانت بينهما من الخاصة والمخالطة ما لم يكن بين نفسين^(٣) ثم فشت المقالات وتفرقت الفرق وشاعت المذاهب، فدخل أكثر الشعراء والرواة فى غمار أهلها، وسنذكر فى بحث الرواية شيئاً عن الرواة ولكننا نقول هنا إنهم جعلوا يستخرجون من بعض شعر الجاهلية مذاهب كالتى يتحلونها، فكان أبو عمرو بن العلاء يقول: كان لبيد مجبراً؛ وكان الأعشى

(١) الطبقات: ص ١٠٧، قلت والحديث عند مسلم فى كتاب الشعر (٢٢٥٥) بلفظ عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال: ردفت رسول الله ﷺ يوماً فقال: «هل معك من شعر أمية بن أبى الصلت شيئاً» قلت: نعم. قال: «هيه» فأنشدته بيتاً فقال: «هيه» ثم أنشدته بيتاً فقال: «هيه» حتى أنشدته مائة بيت. ورواية أخرى لمسلم يمثل ذلك ورواد قال «إنه كان ليسلم».

(٢) الكامل: ١/ ١٩٤. (٣) البيان ج ١.

عدلياً، وأنشد ليبيد:

من هداه سُبُلَ الخير اهتدى ناعمَ البال ومن شاء أضلَّ

وأنشد للأعشى :

استأثر الله بالوفاء وبالعَدَّ دَلَّ وولى الملامة الرجل^(١)

أما الشعراء فكان غيلان ذو الرمة على ما يقال أول من تكلم في القدر وخلق القرآن في الإسلام؛ وقيل أول من تكلم في القدر رجل من أهل العراق كان نصرانياً فأسلم ثم تنصر، وأخذ عنه معبد الجهني وغيلان الدمشقي^(٢)؛ وكان رؤية الراجز من أهل الجبر؛ وقد تحاكم في ذلك مع غيلان إلى بلال بن أبي بردة صاحب القضاء؛ وكان السيد الحميري من المفرطين في التشيع، وهو يقول برأى الإمامية، وكان أبو المحدثين بشار بن برد - على جلالته في الشعر - يسخف شعره بالاعتذار عن إبليس في أن النار خير من الأرض، ونحو ذلك من آراء الزنادقة^(٣). وكذلك كان سليمان الأعمى أخو مسلم بن الوليد، ثم كان بشار ينكر على حماد عجرد وحماد الراوية وأبان بن عبد الحميد اللاحقي وسائر إخوانهم في الرأي، وكانوا يتواصلون كأنهم نفس واحدة^(٤). وكان أبو نواس يجلس لبعض هؤلاء وينظم في سخيف ما يذهبون إليه، وذكر الجاحظ في البيان أنه كان لابن عقب الليثي وتصحيح اسم ابن أبي العقب وأنه مجهول لا يُعرف... إلخ^(٥) مذهب شعري في الملاحم والمغنيات، وأن أبا نواس والرقاشي كانا يقولان أشعاراً على مذاهب أشعار ابن عقب هذا وينحلانها أبا ياسين الحاسب الذي ذهب عقله بسبب تفكيره في مسألة، فلما جن كان يهذى أنه سيصير ملكاً؛ وقد ألهم ما يحدث في الدنيا من الملاحم؛ وقد روى في البيان^(٦) قطعة من تلك الأشعار.

وكان أبو العتاهية يتشيع على مذهب الزيدية؛ وكان مجبراً، وكان كثيراً ما يعارض ثمامة بن أشرس بين يدي المأمون. ومن شعراء النحل زرارة بن أئين مولى.

(٢) سرح العيون: ص ٢٠١.

(٤) الحيوان: ١/١٤٣.

(٦) البيان: ٧/٢.

(١) سرح العيون: ص ٢٩٢.

(٣) البيان: ج ١.

(٥) الأغاني: ١/١٦٩.

بنى أسد بن همام، وهو رأس النيمية^(١) وأبو السرى معدان الأعمى الشميطي؛ وله قصيدة صنف فيها الرافضة ثم الغالية وشرح مذاهبهم وذكر رؤسائهم^(٢). ومنهم أبو سهيل بشر بن المعتمر، وكان خاصاً بالفضل بن يحيى من البرامكة؛ فإن له قصيدتين ذكر فيهما آيات الله في صنعه وخلقه؛ ودل على مواضع الحكمة ومغزى الاعتبار، وصنف فى الأولى منهما الرافضة والإباضية والناطقة، وقد رواهما الجاحظ فى الحيوان (ج٦) وشرح منهما ما يختص بالحكمة دون النحلة؛ وكان بشر أروى المعتزلة للشعر، ولكن كل أولئك ومن هذا حذوهم لم يتخذوا الفلسفة والنحلة إلا مذهباً، وإنما كان شعرهم لسان اعتقادهم فيها ولهذا كان خيراً لهم لو كانوا على غير ذلك، بخلاف الفلاسفة من شعراء الأندلس - وسنذكرهم فى موضع الكلام عليهم - وبخلاف من استعان بالحكمة اليونانية والفارسية فى الشعر، كأبى العتاهية وأبان بن عبد الحميد اللاحقى شاعر البرامكة، وكالمتنبى والمعرى وأبى على بن الشبل الحكيم البغدادي المتوفى سنة ٤٧٣، وغيرهم. فإنهم إنما وصلوا بالحكمة بين العقل والقلب، وجعلوا لها من الشعر منفذاً بينهما إلى الروح، ولذلك قال بعضهم: لو سألوا الحقيقة أن تختار لها مكاناً تشرف منه على الكون لما اختارت غير بيت من الشعر.

وكان صالح بن عبد القدوس من الشعراء الفلاسفة، وجميع شعره فى الحكمة والأمثال؛ ولذلك عابه الجاحظ عليه وقال إنه لو تفرق فى أشعار كثيرة لزانها؛ وكان مذهبه مذهب السوفسطائية الذين يزعمون أن الأشياء لا حقيقة لها، وأن حال اليقظان كحال النائم؛ وله كتاب سماه كتاب (الشكوك)، قال فيه: كتاب وضعته من قراه شك فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن، وفيما لم يكن حتى يظن أنه قد كان!

الشعر الإلهي :

وهو النوع الذى يكون إلهياً محضاً تستخدم فيه المادة الشعرية للرمز عن الحقائق كأشعار الصوفية من أخذ أخذهم، والعلماء يسمون طريقة ذلك النظم

(٢) الحيوان: ٩٨/٢.

(١) الحيوان: ٣٩/٧.

«طريقة التحقيق» ويقول المتصوفة فيه:

حسوم أحرّفه للسرّ عاملةً إن شئت تعرفه جرّب معانيه

وقد كان بعض العلماء ينكر هذه الشطحات وهو يعتقد بها، صيانة لظاهر الشرع، إلا أن الأدب لا ظاهر له دون حقيقته، فيمكن أن نقول إن هذا الشعر نوع من العلم موزون، وقد سميناه علماً لأنه لا بد أن يكون مؤولاً لا يقصد ظاهره وإنما تكون له محامل يحمل عليها، كقول الشيخ محيي بن العربي (كان المغاربة يقولون ابن العربي واصطلاح أهل المشرق على ذكره بغير ألف ولام، فرقاً بينه وبين القاضي أبي بكر بن العربي)^(١):

يا من يرانى ولا أراه كم ذا أراه ولا يرانى

فلو أدت القول فى هذا سنة ما عرفت وجه تأويله، ولكن بعض إخوان الشيخ سأل: كيف تقول إنه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك؟ فقال مرتجلاً:

يا من يراه مجرماً ولا أراه آخرَ هذا

كم ذا أراه منعماً ولا يرانى لا هذا! ^(٢)

وكان أصل هذا النوع من الشعر فى الأندلس فى أواخر القرن الثانى أيام الحكم بن هشام الملقب بالربضى، فإنه كان طاغياً مسرفاً له آثار سوء قبيحة، وقد كان من قبله أهل تقوى ودين، وكان أهل الأندلس يومئذ كأنهم من بلادهم فى مسجد؛ فأوقع الحكم هذا بالفقهاء لأنهم كانوا أشد الناس عليه؛ ولذلك أحدثوا فى أيامه إنشاد أشعار الزهد بدياً حتى شاعت وألفها الناس، ثم خلطوا على ذلك شيئاً من التعريض بالحكم على جهة الرمز والإشارة، ثقة بفهم الناس عنهم؛ ^(٣) فلما طويت أيامه ولم تبق حاجة إلى التعريض بشخص معين، أطلقوا تلك الرموز وقصروها على الحقائق، حتى ظهرت الفلسفة الإلهية واستعمل أهلها فى كتبهم الرموز والاصطلاحات، فاتسع الصوفية بذلك فى شعرهم، خصوصاً بعد أن تلقوا كتب الشيخ أبى حامد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥. قال الفيلسوف أبو جعفر بن

(٢) المعجب : ص ١٣ .

(١، ٢) نفع الطيب: ٤٠٤/١ .

طفيل في صفة تعاليمه: وأكثره إنما هو رمز وإشارة لا ينتفع به إلا من وقف عليها بصيرة نفسه أولاً، ثم سمعها منه ثانياً، أو من كان مُعدّاً لفهمها فائق الفطرة يكتفى بأيسر إشارة، وقد ذكر في كتاب الجواهر أن له كتباً مضموناً بها على غير أهلها، وأنه ضمنها طريق الحق^(١) يريد كتبه المشتمة على علم المكاشفة، ولم نعرف قبل هذا الزمن شاعراً من شعراء الإلهيات الذين ينظمون على «طريقة التحقيق» وإن كان للمعري المتوفى سنة ٤٤٩ هـ شيء من ذلك، ولكنه مكشوف ليس فيه من أسرار المكاشفة شيء، وإنما كان المعري حكيماً متفلسفاً ولم يكن إلهياً محققاً وإن كان على قدم التجرد في طريقة الفقراء. وكان قبل المعري الحسين بن منصور الحلاج الذي أحرق سنة ٣٢٢، وينسبون له أبياتاً قليلة على طريق الاصطلاح والإشارة وإن كان ليس من الشعراء، كقوله:

لا كنت إن كنت أدري كيف كنت ولا

لا كنت إن كنت أدري كيف لم أكن

والبيت المشهور:

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء!

ولسنا نصحح مثل هذه النسبة، فإن هذا رجل اشتهرت حاله فسهل الحمل عليه، وكان أشعر شعراء القرن السادس في هذه الطريقة وما ناسبها محمد بن عبد المنعم الغساني الجلياني (جليانة: قرية من أعمال غرناطة) المتوفى بدمشق سنة ٦٠٢، وكان يقال له حكيم الزمان. وأكثر شعره في الحكم والإلهيات وآداب النفوس والرياضيات والكلام على طريق القوم^(٢) وفي القرن السابع نشأ أكبر شعراء الصوفية الذين تركوا لغيرهم هذا الميراث، وهم الشيخ ابن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢، والشيخ ابن العربي المتوفى سنة ٦٤٠، وأبو الحسن التستري المتوفى سنة ٦٦٨^(٣). وابن سبعين المتوفى سنة ٦٦٩، ولم ينشأ بعد هؤلاء من يساويهم أو يذكر معهم في طريقة التحقيق؛ على أن أشهر المتأخرين بعدهم الشيخ عبد الغنى

(٢) نفح الطيب: ١٦/٢.

(١) حى بن يقطان: ص ٦.

(٣) نفح الطيب: ٤١٠/١.

النابلسى المتوفى سنة ١١٤٣.

ولم يكن نظمهم مقصوداً على الشعر وحده، بل كانوا ينظمون فى الموشح والزجل أيضاً. ولكن ذلك منهم قليل، لأنهم إنما يريدون بالشعر المدايسة والحفظ، وأن يكون من أشعار المذاكرة عندهم وأبيات الطرائف.

الشعر الأخلاقى والمبادئ الاجتماعية

قد عرفت ما نريده من الفرق بين الشعر الحكيم والأخلاقى، فهذا الأخير هو ديوان التجارب، وإن فى كتاب القلب صفحتين: واحدة يحفظها التاريخ وينساها الاجتماع، وهى التى تخط عليها تفاصيل الحوادث، والأخرى يحفظها الاجتماع وينساها التاريخ، وهى صفحة الحكمة الأخلاقية التى تستخلص من جملة التاريخ، فهذه هى التى تستملى منها النفس معانى الشعر الأخلاقى دائماً، ولذلك تجد هذا النوع من الشعر كثيراً عند العرب يصوّرون فيه أخلاقهم تصويراً طبيعياً لم تخلق فيه صنعة الكلام شيئاً، ويذكرون حكمتهم الاستفادة من التجارب، ويدونون نصائحهم التى هى صفوة تلك الحكمة، وذلك هو الذى سماه أبو تمام فى حماسه «باب الأدب».

نرى العرب لصفاء فطرتهم وحدة أذهانهم وقوة طباعهم كأنما ينظمون فى شعرهم الأخلاقى قضايا الفلسفة التى ذهب فى تحقيقها شطر كبير من عمر الاجتماع الإنسانى، حتى لا تكاد تجد مبدأ من المبادئ الاجتماعية التى قررتها الفلسفة الحديثة إلا ولثله ذكر فى شعر هؤلاء الأعراب، وتأويل ذلك أن هذا الاجتماع الحديث مصنوع لا طبيعى، والفلسفة إنما هى حقائق الطبيعة، فهى تدعو لها أبداً، ولكون الناس مجتمعين على صورة يجهلون حقيقة ألوانها وأصباغها اختلفوا فى الدلالة على ذلك اختلافاً بيناً نشأت منه هذه المذاهب الكثيرة التى ترمى بجملتها إلى غرض واحد، وهو تلوين الصورة الاجتماعية بألوانها التى تصلح لها فى الحقيقة حتى تظهر من دقة التناسب وإحكام الملاءمة وسلامة الوضع فى صبغ كانه إلهى؛ فالعرب لما كانوا من صميم البداوة وفى إقليم كانه بموافقته لنمو العقل أقرب إلى السماء من سواه، كانوا يذكرون الصفات الأخلاقية للفرد والمجتمع فلا يعدون حقيقة الصفة؛ ولو أخذت تلك الصفات اليوم لخرجت عن موضوعها إلى أن تكون فى اعتبارنا مبادئ، لأنها قبلت فى حالة طبيعية فكانت صفة تحق، ولما استدار الزمان صارت حقاً يوصف؛ خذ مثلاً قول زهير:

على مكثريهم حقٌ يعترهمُ
وعند المقلين السماحة والبذل

فمهما أدت مذهب الاشتراكية، وهما قلبت آراء علمائه، لا تجد صوابه يخرج عن هذا البيت؛ فلو راعى المكثرون حق من يعتريهم ممن يعملون عندهم ومن هم مادة قوتهم - والحق كلمة جامعة لكل ما يوافق حقيقة المرء - وكذلك لو صار المقلون من أهل السماحة والبذل يتجاوزون عما لا يضر بالحق ولا يريدون من هذا الحق إلا أن يذلولوه في إصلاح أحوالهم حتى لا يأخذهم طمعُ الادخار بوهم المزاحمة للمكثرين - لو راعوا ذلك حق مراعاته لبقى أهل المال مهتئين بأموالهم؛ والمقلون مغتبطين بإقلالهم؛ والاشتراكية إنما هي الموصل الذي يشرك هذين الطرفين في الامتزاج بالرضى. ولعل أديباً أن يستقرئ هذه المعاني في الشعر العربي ويشرحها بالمبادئ الحديثة، فإنه لا يعدم من ذلك كتاباً حكيماً.

وكان الشعراء من العرب أثبت الناس على أخلاقهم التي يصفونها، ولذلك دلت عليهم دلالة المطابقة، بخلاف الإسلاميين فإنهم مارسوا صفة الأخلاق ومرتوا عليها، حتى تجد للشاعر منهم في الباب الواحد أقوالاً متناقضة، وهم مع ذلك لا يدرسون تلك الأخلاق، بل يتلقون من تجارب غيرهم، ومن الحكمة التي وضحت لهم، ثم يرسلون الشعر في ذلك على أنه صنعة دقيقة يستدل بها على لطف الحس وذكاء الفؤاد، ثم لا يعجب من ذلك إلا من يصيب بفطنته موضع الدقة ويقع على مكمن الخاطر، ولذلك لم يكن للشعر الأخلاقي تأثير في الاجتماع الإسلامي، ولم تستمد منه مبادئ ذلك الاجتماع شيئاً، لأنهم لم يداوروا به السياسة، ولا أرادوا به مكامن الاعتقاد، ولا أجروه مجرى النظر في طبقة من الطبقات؛ وإذا أخرج الكلام على أنه صنعة، نظر فيه الناس على أنهم متفرجون (يقال تفرج بكذا إذا جعل منه لنفسه لهواً).

أما من خالف ذلك من الشعراء بعض المخالفة؛ وحاول أن يجعل كلامه في الأخلاق للناس لا لنفسه، وأن يقرر فيه مبادئ قد درسها؛ وبعطيه من مادة التأثير الاجتماعي، كالمعري في بعض ديوانه «اللزوميات» فإنه يطرح ويُجفَى، لأنه لا يؤتى من قبل الناس وفسولة آرائهم، بل من قبل نفسه أيضاً؛ لأنه أحداً من الشعراء في التاريخ الإسلامي كله لم يترك أن يتخذ الشعر [صفة] تأديباً أو تكسباً، ولم يقف أحد منهم شعره أو جزءاً منه على مذهب واحد في السياسة أو

الاجتماع يتفنن فى شرحه والاحتجاج له والاحتياال فى تصوير معانيه وإيراد أجزائها على نحو ما يقتضى (لعصره)، بل تراهم يخرجون أشعارهم مخرج الخواطر والسانحات، وهمهم أن يجمعوا فيها أبواباً من الحكمة وفنوناً من الأخلاق، ثم يتركوا للناس شأن الاختيار، وإطلاق الاختيار وحده كاف فى إضعاف كل مذهب، لأن من توخى الإقناع توخى به الحمل عليه.

وذلك هو شعر المواعظ والنصائح والحكم، وهو كثير، وقد اشتهر به أفراد، كصالح بن عبد القدوس، وأبى الشيص، وغيرهما؛ وتهافت به بعض العلماء حتى وضعوا فيه الكتب المستقلة، كسعد بن ليون التجيبى فى القرن الثامن؛ وهو من أشياخ لسان الدين بن الخطيب، فقد نظم فى ذلك ثلاثة كتب وأورد فى بعضها أشياء لغيره، وقد ساق منها المقرئ - فى نفح الطيب - قطعة كبيرة^(١).

وعندنا أن شعراء الجاهلية لو قدر لهم أن يسخرُوا الشعر فى السياسة والاجتماع، الراقى «الديموقراطى» لقلدهم الإسلاميون فى ذلك ولبلغوا بهذا النوع مبلغ الكمال، ولكن من أين للعرب سياسة الملك ونظام الاجتماع؟ على أنهم مع ذلك لم يهملوا نوعاً من الشعر السياسى، وإن كان قليلاً بينهم لقلة البواعث عليه، كقصيدة لقيط بن يعمر الإيادى التى ينذر بها قومه غزو كسرى إياهم، وكان كاتباً فى ديوانه. ويعلمهم وجه الحزم فى تدبير أمرهم وسياسة مجتمعهم واختيار من يلقون إليه المقادة فى ذلك، وهى شهيرة متداولة، وكأبيات سلمة بن خرشب، التى أرسل بها إلى سبيع التغلبى فى شأن الرهن التى وضعت على يديه فى قتال عبس وذبيان، يذكر فيها لسبيع سياسة القضاء وتدبير الحكم، وقد رواها الجاحظ فى البيان (ج١) ولا بد أن يكون لهم من مثل ذلك أشياء لم تقع إلينا، والله أعلم.

(١) نفح الطيب : ٣٠٢/٣.

الشعر الهزلي

وهذا النوع آخر ما تبلغ إليه رقة الحضارة من فنون الأدب، لأنه إنما يتخصص به أناس لا يبالون أن يغمروهم سواد الحمقى وأهل المجون، وهم يعلمون أنهم شعراء العامة، وأنهم لا يلجون إلى الخاصة إلا من باب الطبع المنسجم ومن جهة الذهن المتفكه، وإنما قوام أمرهم الحيلة الطريفة والنادرة المعجبة والكلمة المتهالكة، وهذا كله وإن كان محتاجاً إلى ظرف اللسان، وإلى شدة المعارضة، وإلى نبوغ متميز في القريحة - إلا أنه لا يقوم عليه شيء من أمر اللغة، فإذا كان فيها لم يزد لها، وإذا سقط منها لم ينقصها، ولذلك ترى هذا النوع أكثر ما يكون في الأمم التي هرمت لغتها، كاللاتين واليونان. ومن أشهر نوابغ اليونان فيه: الشاعر تراس، والشاعر مياندر الذي يقال إنه ألف ثمانمائة رواية كلها قصائد مضحكة، وكان قبل الميلاد بثلاثة قرون، وقد عثروا من زمن قريب في إحدى القرى المغمورة في ضفة النيل على أربع قطع له كانت ضحكاً مدفوناً في الأرض من ٢٢٠٠ سنة...

لا جرم أنه لم يكن للعرب شعر هزلي في جاهليتهم، ولكنهم مع ذلك لم يدعوا التنادر؛ إذ هو شيء في أصل الفطرة وفي مذاهب المعاني، فجاءوا لذلك في شعرهم بنوع من التهكم يستخف الوقور ويرمى إلى الغاية من سياسة الهزل، فيبقى حسرة ولا يذهب ضحكاً، كقول بعضهم:

إذا ما تميمي أتاك مُفاخراً فقل: عدّ عن ذا، كيف أكلُك للضبِّ

وقول المكعبر الضبي في بني العنبر، وكان قومه أغبر عليهم فاستغاثوا بهم فلم يغيثوهم^(١):

وإني لأرجوكم على بطاء سعيكم كما في بطون الحملات رجاءاً

يتهمكم بهم ويقول: هذا رجاء غير صادق ولا موقوف عليه، كما أن هذه

(١) الكامل: ٤٩/١.

الحوامل لا يُعلم ما فى بطونها وليس بميثوس منهم.

وأكثر ما يكون ذلك عندهم فى معانى الهجاء، ولهذا سماه المتأخرون التهكم، والهزل الذى يراد به الجد، وقالوا فى الفرق بينهما: إن التهكم ظاهره جد وباطنه هزل، وهو ضد الثانى؛ لأن ظاهره يكون هزلاً وباطنه جد، وقد ورد منه فى القرآن قوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(١). وقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾^(٢).

وقد مرَّ عصر الجاهلية والإسلاميين لا يعدو بهما الشعراء ذلك هزلاً، حتى إذا استبحر الترف وفسدت مرّة الاجتماع، وتهالكت طبيعته، جعل الشعراء ينظرون ويتنادرون ويفتنون فى أساليب الهزل؛ لأن ذلك كان سبباً من أسباب معاشهم؛ إذ رأوا الخلفاء والأمراء قد اتخذوا لأنفسهم مقرّبين ممن يضحكونهم بالنوادر والمجون، شعراء وغير شعراء، كأشعب الطمّاع، وأبى دلّامة الشاعر، وأبى الحسين بن الضحّاك المعروف بالخليع المتوفى سنة ٢٥٠، وأبى العبر، وأبى العيّن، ومزيد وغيرهم؛ ومن هؤلاء نوع يحكون ألفاظ الناس من الأقطار المختلفة مع مخارج حروفهم، لا يغادرون من ذلك شيئاً، ويحكون السنة الدواب والبهائم؛ وذكر الجاحظ من مشاهيرهم أبا ربوبة الزنجى مولى آل زياد، وقال إنه يقف بباب الكرخ لحضرة المكارين فينهق فلا يبقى حمار مريض ولا هرم حسير ولا متعب بهير^(٣) إلا نهق...^(٤).

وليس ذلك عجباً فى مثل طبقة أبى ربوبة، ولكن العجيب أن يكون مثله فى الشعراء الظرفاء؛ فقد ذكر الثعالبي فى ترجمة أبى محمد بن رريق الكوفى الكاتب الشاعر أنه كان من عجائب الدنيا فى المطاوعة والمحاكاة، وكان يخدم مجلس الوزير المهلبى، ويحكى شمائل الناس وألستهم فيؤديها كما هى، فيعجب الناظر والسامع ويضحك الثكلان^(٥)؛ وهذا نوع من التمثيل انفرد به اليوم فى أوربا قوم ربما صور الواحد منهم فى نفسه العالم مناطق ولهجات وأزياء.

(٢) سورة الدخان: ٤٩.

(١) سورة النساء: ١٣٨.

(٣) قلت: بهير: بُهَر: انقطع نفسه من الإعياء، فهو مبهور، وبهير.

(٥) يتيمة الدهر: ١٤٢/٢.

(٤) البيان: ج١.

وقد يكون من البواعث على الشعر الهزلى والتزام هذا المذهب أن يجد الشاعر نفسه لا يقع مع فحول المعاصرين له فى شىء، فيسلك هذا المسلك يتميز به بينهم، كما فعل رأس الشعراء الهزليين ابن الحجاج البغدادي المتوفى سنة ٣٩١، وهو الذى جعلوه بعد ذلك مقياساً فى الشعر الهزلى؛ ويقال إنه فى الشعر كامرى القيس ولم يكن بينهما مثلهما، لأن كل واحد منهما مخترع طريقة، وكان مع ذلك من كبار شعراء الشيعة، وعاصره أبو حامد الأنطاكى المنبوز بأبى الرقعمق المتوفى سنة ٣٩٩. قال الثعالبي: هو بالشام كابن حجاج بالعراق، وكما فعل أبو عبد الله محمد الوهرانى الكاتب، وقد دخل البلاد المصرية فى زمن صلاح الدين فرأى بها القاضى الفاضل، وعماد الدين الأصبهاني، وتلك الحلبة، وعلم من نفسه أنه ليس من طبقتهم، فتنفق عندهم برسائله الهزلية ومقاماته المشهورة، وسنذكرها فى موضعها، وتوفى الوهرانى سنة ٥٧٥.

ويكون من ذلك أيضاً التزام الشاعر مذهباً واحداً فى الهجاء يريد أن يُعرف به ويجعله عرضة ملحه ونوادره، كما فعل ابن سكرة الهاشمى معاصر ابن الحجاج، وكان يقال فيهما: إن زماناً جاد بابن سكرة وابن الحجاج لسخى جداً، وهو من شعراء المجون والسخف كابن الحجاج، إلا أنه انفرد عنه بهجائه الهزلى فى قينة له سوداء يقال لها خمرة، وقد نظم فى هجائها عشرة آلاف بيت^(١). وكما فعل اسماعيل بن إبراهيم البصرى الحمدونى الشاعر فى الطيلسان الذى أعطاه إياه أحمد ابن حرب، وكان خليعاً، فسير فيه الحمدونى مائتى مقطوع، فى كل مقطوع معنى بديع، حتى ذهب طيلسان ابن حرب مثلاً إلى اليوم، وكان الأصل الذى عمل عليه الحمدونى أنه وقف على أبيات عملها أبو حمران السلمى فى طيلسانه، وكان قد أخلق حتى بلى، فتهافت بمعارضتها وجعل ذلك له طريقة يعرف بها^(٢).

ومن ذلك أيضاً أن يهزل الشاعر فى تصوير حالة من الفقر أو الضعف أو نحو ذلك من الصفات التى يتباين فيها الناس، فكأنه يرمى إلى انتقاد الحظوظ والأقسام، كما فعل أبو الشمقمق فى ذكر فقره وفقر بيته من الفئران ومصيبة

(١) يتيمة الدرر: ١٨٩/٢.

(٢) ابن خلكان: ٤٧٣/٢.

ستوره من ذلك، وساق الجاحظ بعض أشعاره تلك في الحيوان (١).

وكان عند الأعراب كثير من هذا النوع، وكذلك ترى منه قصائد وقطعا في شعر المولدين والمتأخرين، وبعضهم خص أكثر شعره بالفحش والتعهر حتى ضربوه مثلاً فنحن نضرب عنه صفحاً.

وجاء بعد هؤلاء على بن عبد الواحد صريع الدلاء وقتيل الغواني المتوفى سنة ٤١٢، فسلك مسلك أبي الرقعمق، ونيز بلقب ذى الرقاعتين، وله مقصورة في الهزل يعارض بها مقصورة ابن دريد المشهورة، وابن الهبارية الملقب بنظام الدين البغدادى المتوفى سنة ٥٤٠، قال العماد الكاتب في الخريدة: إنه غلب على شعره الهجاء والهزل والسخف، وسبك في قالب ابن حجاج وسلك أسلوبه وفاقه في الخلاعة، قال: والنظيف من شعره... في غاية الحسن، ثم كان بعده الشاعر المتصرف في أكثر فنون الهزل أبو الحكم الباهلى الأندلسى المتوفى بدمشق سنة ٥٤٩، قال المقرئ: وكان ذا معرفة بالأدب والطب والهندسة، وله ديوان شعر سماه نهج الوضاعة لأولى الخلاعة، ذكر فيه جملة شعراء كانوا بمدينة دمشق كطالب الصورى، ونصر الهيثى وغيرهما... ورثى فيه أنواعاً من الدواب ومن الأثاث وخلقاً من المغنين والأطراف، قال: وشرح هذا الديوان ابنه الحكيم الفاضل أبو المجد محمد بن أبى الحكم الملقب بأفضل الدولة (٢) فانظر ما عسى أن يكون هذا الشرح؟ ولأبى الحكم هذا مقصورة هزلية عارض بها مقصورة ابن دريد أيضاً، ومثل هذه المعارضة كثيرة للقصائد المعروفة يتعلق عليها أهل الظروف والملح، وقد رأيت شاعراً من شعراء الحلبة التى سبقت وقتنا هذا وغاب عنى اسمه، تناول ألفية ابن مالك فقلبها كلها تطفلاً ونقل ما فيها من أحكام اللسان على الأضراس والأسنان، وكان يفتخر دائماً بهذا الطبخ...!

وأورد المقرئ أيضاً قصيدة من هزل الأندلسيين ومجونهم قال إنها منسوبة لأبى عبد الله بن الأزرق وقد ذكر فيها صوت الصفح وصوت الضحك، كم هو، على نحو ما صورت العرب أصوات الأشياء كقولهم: «جرت الخيل فقالت حَبَطَقَطَقْ»

(١) الحيوان: ٨٢/٥.

(٢) نفح الطيب: ١٧/٢.

ونحو ذلك، والقصيدة متشعبة الفنون^(١).

ثم نبغ محمد بن دانيال الموصلي الحكيم المتوفى بمصر سنة ٦٠٨ قال فيه الصفدي: هو ابن حجاج عصره، وابن سكرة مصره، وله غرائب يتناقلها المصريون عنه من النكت والنوادر؛ وتقى الدين بن العربي المتوفى سنة ٦٨٤ وهو صاحب القصيدة الدبديبة الشهيرة التي جمعت فنوناً من الهزل، وقد ذكرها العامل في (الكشكول).

وبالجملة فقلما تجد شاعراً قد نضجت قريحته ونفذ خاطره في أسرار الأشياء إلا وله في مطارح نظره شيء من الضحك يخرج تهكماً واستهزاء، فكأنما تكشف له الطبيعة عن حقيقة تركيبها على ما خلقها الله، فكلما قارن بها هذا الوضع الاجتماعي المصنوع رأى تركيباً مضحكاً؛ ولولا ذلك لمحت مادة الانتقاد، والانتقاد قوة إلهية في قريحة الشعراء؛ فإذا أردنا بهزل القرائح هذا المعنى الجدي فالشاعر الذي لا تكون فيه هذه القوة يشبه أن يكون على نقص تركيبه في نظر الحكيم المتأمل، كائناً من الكائنات المضحكة أيضاً.

أما إذا أردنا المعنى العام وهو التطرف في الانتقاد بمقدار ما يتطرف المتبسم إلى القهقهة أو المجون والسخف أو العمل في صناعة الضحك وتركيبه في النوادر والملح حتى تكون قابلة للانفجار ضحكاً... فذلك الذي جئنا بمساقه، وهو عند العرب كما علمت كثير في جهتي المجون والانتقاد، قليل في جهة المطاوعة والإضحاك، لاستغنائهم عنه بالنوادر، ولمخالفته فطرة الشعر فيهم.

(١) نفع الطيب: ١٩٣/٢.

الشعر القصصى

المراد بهذا النوع ما يسميه الإفرنج epic، وهو عندهم ما تروى فيه الوقائع والحوادث على طريقة الشعر، مما لا يخلو من الغلو والإطراء، حتى يتميز عن التاريخ البحت؛ والنظم فيه قديم فى الأمم التى اغتذى خيالها بالدين والعادات كالمهابهاراتا عند الهنود، والأوديسا عند اليونان، والإنياذا عند الرومان، وكذلك نظمت فيه شعراء الأمم المتأخرة كالفرنسيين والألمان واليطاليين والإنكليز. وعندهم فى ذلك الملاحم الماثورة (ذكرت هذه اللفظة فى باب الشعر الحكيمى، وقد استعملها الجاحظ فى الحوادث والوقائع التى يتضمنها الشعر، ثم نقلها أدباء المغاربة لما يقارب فى المنظوم العامى معنى الشعر القصصى).

وللفرس والترك فى تاريخهم الإسلامى منظومات من هذا النوع، أشهرها شاهنامه الفردوسى، وشاهنامه الشاعر التركى الملقب بالفردوسى الطويل، قال فى كشف الظنون: إنه نظمها فى مليون وستمائة ألف بيت، وكتبها فى ٣٣٠ مجلداً، فلما عرضت على السلطان بايزيد العثمانى أمر بانتخاب ثمانين مجلداً وإحراق الباقي، فترك المؤلف بلاد الروم وذهب إلى خراسان فمات فيها كمدأ.

وفى كل ذلك شرح طويل لا موضع لبسطه هنا، ونحن إنما نتكلم عن العرب خاصة، ولقد حار المتأخرون الذين كتبوا فى تاريخهم وآدابهم عندما ألبوا بذكر هذا النوع والتمسوه فى أشعارهم ثم قُطِعَ بهم دونه - كيف يعللون ذلك وكيف يتأولونه؛ فمنهم من زعم أن العرب نظموا فيه كثيراً وضاع ما نظموه، فلم يبق لعهد التدوين والرواية إلا القليل مما ذُكرت فيه أخبار الحروب؛ ومنهم من رجع إلى أبعد من ذلك وتعلق بذنب التاريخ فزعم أن سفر أيوب فى التوراة ليس إلا منظومة عربية نقلت إلى العبرانية ولحق أصلها بدفائن العدم، والكلام فى هذا المعنى لا يُحمَل على التاريخ، فإن حُمِلَ عليه خطأ به إلى الخطأ؛ لأننا لا نتصور أن العرب خَلَقُوا من فطرتهم شعراء ينحتون الأوزان ويؤلفون الكلام على هذا النحو الذى وصل إلينا، بل ذلك شئ أوجدته الحاجة إليه فى عصر يعينه تاريخ

الاجتماع كما أشرنا إليه من قبل، ولو ذهب عنا تاريخ الأندلس مثلاً ثم رأينا بعض الموشحات أكنا نزع من أن ذلك النمط قديم في عرب الجاهلية ونُغفل دلالة اللغة التي نظمت بها الموشحات وحالة الاجتماع التي تشير إليها؟

ثم إن الرواة الموثوق بهم والعلماء (المفتشين) كالجاحظ وغيره يقطعون على الجزم بأنه لم يضع من شعر الجاهلية منذ جودوه على كثرة القبائل، ولا من أرجازهم، شيء كثير؛ والجاحظ يكرر هذا المعنى في مواضع من كتاب الحيوان، والتكرار أبلغ في التوكيد، فلو كان في طبيعة اللغة وحالة الاجتماع ما يدعو إلى نظم الوقائع الكبرى لما أغفلوه ولا ذهب عن الرواة خبره؛ وفي أيدينا أثر مما يشبه ذلك وهو قاطع في الدلالة التاريخية التي تؤخذ منه على أنه قائم بنفسه وأنه نوع صحيح الكفاية لا تدعو الحاجة لأكثر منه، والحاجة دائماً أم الاختراع، وهذا هو الذي خصصناه بالكلام.

إذا كان الغرض من الشعر القصصى ما يجمع من التاريخ ويحفظ من الأخبار، فذلك موجود في أشعارهم، ولكنهم لم يطيلوها إطالة الإلياذة وغيرها، لأن ذلك يقتضى له عمل من النظم وضرب من التأليف المقصود لا يتم حسنه إلا بالتنسيق وسياسة الألفاظ واستكراه المعانى واقتسارها، ثم إحكام اللحمة بين فصل وفصل وبين قطعة وقطعة، ثم تحكيك الألفاظ وتصفية الأسلوب واستيفاء صنعة التأليف، ولا يكون ذلك جميعه إلا بالصبر والمطاوله ورصد الأوقات التي تكون أجماً للنشاط وأصفى للخواطر؛ ولو أن في العرب من انقطع لهذا العمل لهجتوا صنيعه ورموه بالعمى وتركوه مثلاً وآية؛ لأن الشعر فيهم عند أسبابه التي ذكرناها فيما تقدم، وتاريخ البديهة والروية معروف أجمع عليه الرواة، ولم يسقط بعد طبقة المصنّعين - كزهير والنابعة - شيء من الشعر، وهذا النوع لا يتفق على الارتجال أبداً ولا بد فيه من الصنعة، فلو كان مما تدعو إليه الحاجة لقاله مثل زهير والنابعة، ولكنهم لم يقولوه بإجماع الرواة، فدل ذلك على أنه ليس من حاجة اجتماعهم.

ووجه آخر، وهو أن العرب لا يطيلون أشعارهم إلا في المواقف وفي أيام الحفل، كما فعل الحارث بن حنظلة في طويلته، وهي أقرب دليل على الشعر

القصصى ومنزلته وأسبابه عندهم، وسيأتى الكلام عن سببها فى موضعه؛ ثم إن طبيعة لغتهم تأبى الإطالة إلى أكثر مما تبعث عليه حاجة المفاخرة والمقارعة؛ لأن البلاغة فيها مبنية على الحذف أو الإشارة والإيجاز والاكتفاء من المعنى باللمحة الدالة ومن القصة بالمثل المعروف، ثقة بفهم بعضهم عن بعض، ثم هم إنما يتفاخرون على هذه السنة وبهذه البلاغة، فلو أنهم ابتلوا بمفاخرة اليونان أو الرومان مثلاً لاحتالوا فى نوع آخر من الشعر يسطون فيه اللغة ويمدّون معانى الخطاب، لأن مفاخرة القبيلة للقبيلة إنما تكون بمعانى من تاريخ الاثنين، ولكن مفاخرة أمة لأمة لا تكون إلا بتاريخ كليهما دون بعض معانية، كما فعل الشعوبية والعرب، ومن تدبر طرق الخطاب التى جاء بها القرآن وهو أبلغ ما يمكن أن تصل إليه العربية، وجده يوجز فى مخاطبة العرب ويكتفى بأيسر إشارة وأدنى لمحة، فإذا خاطب اليهود بسط الكلام وفرع منه وكرر بعض المعانى بزيادة فى بعضها عن بعض، فكذلك كان يفعل العرب.

وإذا كان الغرض من الشعر القصصى ما يحمله من الخرافات أو القصص الموضوعية، فهذا أيضاً قد نظم فيه العرب، ولكنهم لم يفرده بالقصائد ولم يطيلوه إطالة بالغة، لذهاب معنى التقديس من عقائدهم وعاداتهم، فليس لهم آلهة ولا أنصاف آلهة ولا أساطير من هذا القبيل على نحو ما كان عند الهنود واليونان والرومان، وإنما كانوا يتناقلون من ذلك أشياء تناسب طبيعتهم ومذهبهم الاجتماعى، كالقصص الموضوعية على ألسنة الحيوانات والجمادات وبعض الخرافات المادية، فهذه كلها نظموها فى شعرهم على طريقة المثل كما فعل اليونان، لا على طريقة التاريخ كما سنبينه.

يخرج من ذلك أن الشعر القصصى - بالمعنى المصطلح عليه - لم يكن فى طبيعة العرب ولا هو من مقتضيات اجتماعهم، فهم لم ينظموه فى جاهليتهم قطعاً، ولم ينظمه من بعدهم لوقوفهم عند حد التقليد كما أشرنا إليه مراراً فيما سبق، أما ما كان من ذلك عند الجاهليين والإسلاميين فنحن ذكروه فيما يلى:

قد تتبعنا أشعارهم وتقصصناها فى دواوينهم ودرسنا أكثر ما استخرجه العلماء، ومنها شواهد وأمثلة على الأخبار والعلوم، ثم اعتبرنا ذلك وتدبرناه فلم نرهم يقصّون فى شعرهم إلا فى مواضع معدودة.

أولاً- إذا كانت القصة ترمى إلى خلق من الأخلاق، كالوفاء والغدر والحفيظة ونحوها، فتكون صيغاً من أصباغ الشعر يعطيه لوناً ثابتاً من ألوان الحفيظة التي يرمى الشاعر إلى تأييدها، ولا أثبت في ذلك من لون التاريخ؛ ومن هذا النوع قصص الحارس بن حلزة في طويلته. وقد يكون في القصة من هذا النوع مواضع تصلح أن تُبنى عليها المعاني الكثيرة في الأخلاق فيتجاوزونها ويختصرون القصة بضرب من الإشارة إليها، ثقة بالفهم عنهم، كأنهم يريدون أن يجعلوا القصة كلها معنى واحداً من معاني الشعر، كقول جابر بن حنّى التغلبي: (١).

ولسنا كأقوام قريب محلّهم	ولسنا كمن يرضيكم بالتملق
فسائل شرحبيلاً بناً ومحلّما	غداة نكر الخيل في كل خندق
لعمرك ما عمرو بن هند وقد دعا	لتخدم ليلى أمه بموق
فقام ابن كلثوم إلى السيف مغضباً	فأمسك من ندمانه بالمخنق
وعممه عمداً على السيف ضربة	بذى شطب صافي الحديد مخفق

والقصة مشهورة وهي من مفاخر العرب (٢)؛ فكان جابراً يقول: أنا وإياك فيما تريده من التملق كابن كلثوم فيما أراد عمرو بن هند، فجعل القصة معنى من معاني شعره واقتصر منها على ما يؤدي غرضه، فذكر الباغي والمبغى عليه وعاقبة البغى، وترك ما وراء ذلك للأسماء التي تنبّه إليه الذاكرة.

ثانياً- إذا كانت القصة ذريعة لجلاء صفة من الصفات التي يريدون تحقيقها، فإنها حينئذ تكون ضرباً من التمثيل الذي يقرب الحقيقة ويكشفها للعقل، كأبيات النابغة في بعض اعتذاره للنعمان (٣)

واحكم كحكم فتاة الحى إذ نظرت	إلى حمام شراع وارد الشمد
يحفه جانباً نيق ويتبعه	مثل الزجاجة لم تكحل من الرمد
قالت: ألا ليما هذا الحمام لنا	إلى حمامتنا ونصفه فقد
فحسبوه فالقوة كما حسبت	تسعاً وتسعين لم تنقص ولم تزد
فكمّلت مائة فيها حمامتها	وأسرعت حسبة في ذلك العدد

(١) الحيوان: ٤٢/٣. (٢) الأغاني: ١٧٦/٩.

(٣) الحيوان: ٦٧/٣.

فإن ظاهرها يؤدي معنى من القصص، ولكن باطنها يؤدي إلى غرض لا حيلة في إبرازه بغير هذا الوضع، فإنه أراد أن يصور للنعمان اضطراب أمره، وأن ذنبه مظنة الخطأ في الحكم لما فيه مما يثير الحمية ويهيج الكبرياء، ثم يستنزله إلى العفو والصفح والنظر فيما أتاه بالعقل لا بالقلب، وأن ذلك أحمد له واليق بموضعه من الفضل والتمكن، فصور له هذه الفتاة تحزراً طيراً، والطيء أخف من غيره، ثم جعله حماماً، والحمام أسرع الطير، ثم جعله كثيراً، لأنه يكون أكثر اجتهداً في السرعة إذا كثر عدده، وذلك أنه يشتد طيرانه عند المسابقة والمنافسة، ثم لم يرض بذلك حتى جاء بما يدعو إلى منتهى السرعة الممكنة فقال: «يحفه جانباً نيق ويتبعه»، وذلك أن الحمام إذا كان في مضيق من الهواء كان أسرع منه إذا اتسع عليه الفضاء، فشدد الأمر وضيقه على الفتاة كما ترى، بما يقيم لها ألف عذر إن أخطأت في الحساب، ثم لم يكفه أن يذكر مع ذلك أنها أصابت، بل جعل إصابتها مثلاً في الفطنة، إذ عبرت في تلك الحالة عن تسع وتسعين بمجموع ونصفه أي ٦٦ و ٣٣ فهذه غاية البيان، وإذا لم تكن القصة من وضع النابغة وكانت صحيحة النسبة إلى زرقاء اليمامة، فلا شك عندنا في أن النابغة قصد منها هذا التصوير بعينه، ولا عجب مع هذا أن يكون من أهل الصنعة والتنقيح. ولا يشترط أن تكون القصة في هذا النوع تاريخية، بل ربما وضعها الشاعر كقول بعضهم في صفة صائد يعنيه بقصة معيشتة وحياته، والضمير في البيت الأول راجع للصيد:

أُتِيحَ لَهُ طَلْحٌ أَذَاهُ بِكَفِهِ خُوفٌ وَأَشْبَاهُ تُخِيرُنَ مِنْ حَجَرِ
أَبُو صَبِيَّةٍ، لَا يَسْتَدِرُّ إِذَا شَتَا لِقُوحًا وَلَا عَنَزًا، وَلَيْسَ بِذِي وَفَرٍ
لَهُ زَوْجَةٌ شَمَطَاءُ يَدْرَجُ حَوْلَهَا فَطِيمٌ تَنَاجِيهِ، وَآخِرُ فِي الْحَجَرِ^(١)

فقد بالغ في صفة هذا الصائد بالتوحش والقوة وحسن الإصابة، وذكر كل ما يدل على انفراده بالكدح، ليكون أقوى له وأبلغ في الاعتماد؛ إذ زوجته شمطاء، وأولاده فطيم وآخر في الحجر، ثم وصف انفراد قلبه كذلك بما شوه من عجوزه، حتى لا يكون فيه موضع للركة على الحيوان، وليس يتعين أن يكون هذا الصائد

(١) الحيوان : ١٤٠ / ٤ .

كذلك، ولكن صفة الرمية النافذة اقتضت هذه القصة.

ثالثاً - إذا كانت القصة خرافة من الخرافات، فيضربونها مثلاً لتوكيد الحقيقة، وأكثر ما يكون ذلك فى الخرافات الموضوعة على ألسنة الحيوان، وهى شائعة فى الأعراب، ومثلها فى كل أمة، ولها فى أكثر الأمم شعراء ينفردون بها، وأشهرهم فى المتأخرين لافونتين الشاعر الفرنسى، ومن هذا النوع قال النابغة فى هذا المثل البديع:

أليس لنا مولى يحب سراحنا فيعذرنا من مرة المتناصره
(الآيات فى خرافة الحية وحليفها) (١) .
وقول الهذلى:

وإخال إن أخاكم رعانة إذ جاءكم بتعطف وسكون
(الآيات فى خرافة النعامة التى ذهبت تطلب أذنين فعدت صليماً) (٢) .
وقول ابن هرمة فى خرافة الضب والصفدع:

ألم تارق لضوء البر ق فى أسحم لَمَّاح (٣) .

ومن أراد أن يقف على بعض خرافات الأعراب فعليه بقصيدة الحكم بن عمرو البهرانى، وكان أتى بنى العنبر بالبادية فنفوه إلى الحاضرة، فجعل يتفقه ويفتى فتياً الأعراب، وكان مكفوفاً دهرىاً، وقصيدته كلها ظريف غريب، وكلها باطل، والأعراب تؤمن بها أجمع، وقد رواها الجاحظ فى الحيوان (٤) وشرحها شرحاً مطولاً.

وقد وقفنا على نوع غريب من الشعر القصصى كنا نظن أن العرب لم يقولوا فيه، وذلك محاورة الحيوان ومساءلته، فى نظم قائم بنفسه وعلى نمط فات المتأخرين الذين عربوا مثل هذا الشعر عن اليونان والفرنسيين وغيرهم، فإنهم ينظمون ذلك شعراً مزاجاً من الرجز، يستقل كل بيت منه بقافيتين، ولكن هذا

(٢) الحيوان: ١٠٧/٤ .

(١) الحيوان: ٦٨/٤، وحسن التوسل: ص ١١ .

(٤) الحيوان: ٢٤/٦ .

(٣) الحيوان: ٣٨/٦ .

الشاعر أطلق القوافي في رجزه، فهو يغيرها عند انتقاله من معنى لمعنى مباين؛ ولا جرم أن الشعر القصصى لو نظم على هذا النحو لأمكن منه ما ظنه الأدباء غير ممكن، أما الأرجوزة فهي عن أبي زياد الكلابي، قال: أكلت الضبع شاة رجل من الأعراب، فجعل يخاطبها ويقول:

ما أنا يا جعار من خطابك على دق العصل من أنيابك^(١).

أما الأساطير الدينية فليس في العرب من يتعمل لنظمها غير أمية بن أبي الصلت، لما مرَّ من شأنه في باب الشعر الحكمي، وله من ذلك أشياء مروية، كقصّة سفينة نوح، وقصّة الحمامة التي بعثها ترتاد في الأرض موضعاً يكون مرفأً للسفينة بعد أن بعث الغراب فوق في جيفة ونحو ذلك؛ ومما نظم أمية من خرافات الأعراب خرافة الغراب والديك التي يقولون فيها إن الديك كان نديماً للغراب، وإنهما شربا الخمر عند حمار ولم يعطياه شيئاً، وذهب الغراب ليأتيه بالثمن ورهن الديك، فخاس به ولم يرجع، ولذلك ذهب الغراب مطلقاً في الأرض وبقي الديك محبوساً عند الناس؛ ولكن نظم أمية في هذه المعاني لا يرمى إلى شيء غير معنى القصص، كأنه لا يريد من الشعر إلا أن يكون دليلاً على علمه وترشحه للأمر الذي يحدث به نفسه كما سبق...

وقد نظم بعض المولدين في الشعر القصصى بما يقارب المعنى المصطلح عليه. من ذلك قصيدة محمد بن عبد العزيز السوسي من شعراء اليتيمة؛ قال الثعالبي فيه: إنه أحد شياطين الإنس، يقول قصيدة تُربى على أربعمئة بيت في وصف حاله وتنقله في الأديان والمذاهب والصناعات، وقد أورد منها قطعة^(٢) ونظم المتأخرون في السيرة النبوية خاصة، وأشهرهم في ذلك حكمة وإحكاماً، الإمام شرف الدين البوصيري، وشهرة قصيدته البردة والهمزية قد ملأت الدنيا.



(٢) يتيمة الدهر: ٢٣٧/٣.

(١) الحيوان ١٥١/٦.

الشعر العلمي

قد علمت أن الشعر كان مستودع علوم العرب وكتاب تجاربهم وحكمهم، فليس هذا الذي نريده بالشعر العلمي، ولكننا نريد القصائد التاريخية أو العلمية التي جاءت في حكم الكتب، وكذلك الكتب التي نظموا فجاءت في حكم القصائد، وهو ما يعبر عنه المتأخرون بالمتون المنظومة، كالفية ابن مالك وغيرها مما يجمع مسائل الفنون وضوابطها، وليس من عالم في هؤلاء إلا وله شيء قلّ أو كثر نصيباً مفروضاً.

ونحن نريد أن نتكلم هنا عن أصل هذا النوع وأقدم ما وقفنا عليه من أمثله التي احتذاها المتأخرون، وهم مجمعون على استعمال هذا النمط من الرجز الذي يستقل فيه كل مصراعين بقافية، حتى لقبوه بحمار الشعر لسهولة الحمل عليه، ثم هم مع ذلك التهافت لا تكاد تجد فيهم من يعرف اسمه عند المتقدمين؛ والعرب أنفسهم لم يضعوا له اسماً لم يأت في مشهور أراجيزهم منه شيء، ولم نقف منه عندهم إلا على مثال واحد، وهو ما ذكره الخطيب التبريزي في شرحه على تهذيب الألفاظ^(١) من أن رجلاً من هذيل أقبل إلى عمر بن الخطاب وهو جالس فأنشده شعراً يتجرّم فيه على أبيه ويستظهره عليه، فبعث عمر إلى أبيه فدعاه، فقال: ماذا يقول ابنك؟ زعم أنك نفيت. فقال: يا أمير المؤمنين، غذوته صغيراً وعقني كبيراً، أنكحته الحرائر وكفيتها الجرائر، فأخذ بلحيتي وأظهر مشمتي:

شاهد ذاك من هذيل أربعة مسافع وعمه ومشجعه
وسيد الحى جميعاً مالك وماك محض العروق ناسك

وهذا الرجز كما تراه إنما انساق مع الكلام واستجّر للحكاية، فلما أن يكون بعض ما يتفق من أحاديثهم العامة وأهملوا حفظه وروايته لأنه في سبيلها، ولما أن يكون شيئاً جرى على لسان ذلك العربي؛ وعلى أي الوجهين فما كان ليروى لولا أنه جاء تابعاً للشعر الذي قبله؛ وفيه شاهد من شواهد اللغة فحفظوه ليساق مع الحديث.

(١) تهذيب الألفاظ : ص ٣٣٢ .

ثم جاء بشر بن المعتمر الذى مر ذكره فى الشعر الحكيمى، وكان من أروى المعتزلة للشعر، فبنى على هذا الأصل أرجوزة طويلة ذكر فيها الملل والنحل وضرب الأمثال وأخذ فى قواعد مذهبه. ويظهر من كلام الجاحظ أن هذه الأرجوزة قد رُفعت إلى الناس وذهب لها صيت، وقد ذكرها مرتين فى كتاب الحيوان ونقل قطعة من أمثالها^(١) وقطعة أخرى فى ذكر فضل علىّ على الخوارج^(٢) وهو فى كل مرة يقول: قال بشر بن المعتمر فى شعره المزاج. وهذه التسمية أليق ما يسمّى به هذا النوع من الأراجيز، ولا بد أن تكون هذه الأرجوزة الأولى من نوعها، لأن الجاحظ نسب هذا النوع إليه وعينه به، وكان يكفى أن يقول: قال بشر فقط، ولأنه قد ظهر قبل بشر شعراء نظموا فى أمثال هذه المعانى، ولكن على طريقة الشعر الملقى، ولم يرد لواحد منهم شئ من المزاج، وكان أسهل عليهم لو عرفوه؛ وقد اشتهر هذا النمط بعد بشر، ونظم فيه ابن المعتز فى أواخر القرن الثالث كتابه «بشر الإمام» فى أرجوزة طويلة مثبتة فى ديوانه، ثم كان حذو المتأخرين فى المتون بعد ذلك على منظومة الإمام محمد بن عبد الله بن مالك المتوفى سنة ٦٧٢ علامة النحو واللغات الغريبة والآية فى حفظ أشعار العرب، وهذه المنظومة هى الألفية الشهيرة فى علم النحو، تبع فيها ابن معطى، قالوا: ونظمه أجمع وأوعب، ونظم ابن معطى أسلس وأعذب^(٣). ولابن مالك منظومات أخرى غير الألفية، ولكن هذه هى أشهر المتون المنظومة، يكاد ذلك يكون إجماعاً.

أما الشعر الذى تنظم فيه الضوابط العلمية لسهولة حفظها، فأكثر ما يكون قطعاً وأبياتاً قليلة، والأغلب فيه أن لا يكون مزاجاً، وقد وقفنا على مثال منه عند العرب، وهو قول طفيل الغنوى «يصف كيف تزجر الخيل فجمعه فى بيت واحد» هكذا قال المبرد فى الكامل، وقوله دليل على أن نظم الضوابط لم يكن معروفاً إلى زمنه، وإنما هو مما أحدثه المتأخرون:

وقيل أقدمى وأقدم وأخ وأخرى وها وهلاً واضبر وقادعها هبى

وهذه كلها كلمات تزجر بها الخيل، ولم يتسع البيت للفظتين من هذا القبيل؛

(٣) نفع الطيب: ٤٣٢/١.

(٢) الحيوان: ١٥٥/٦.

(١) الحيوان: ٨٠/٤.

هما مَقْبٌ وَمَقْطٌ^(١).

والمُتَأَخَّرُونَ من العلماء الذين يَأْبُونَ أن يتركوا شيئاً غير متروك إلى أصله؛ يزعمون أن أول من نظم المتون العلمية هو هرمس الحكيم الذي يزعم قوم من الصابئة أنه إدريس عليه السلام؛ ويقولون إنه أول من نظر في الطب وتكلم فيه وصنف لأهل زمانه «كتباً بأشعار موزونة» بلغتهم في معرفة الأشياء العلوية والأرضية^(٢).

هذا في نظم المتون والضوابط، أما الشعر الذي يحمل معاني التاريخ وأنواع الفنون على غير تلك الطريقة فإنما يجيء به المولدون على جهة الفخر بما يضمنونه، كقصيدة رياح بن سنيح الزنجي مولى بنى ناجية، وكان نصيحاً، فلما قال جرير:

لا تطلبنّ خثولةً في تغلب فالزنج أكرم منهم أخوالا

تحرك رياح فذكر أكثر من ولدته الزنج من أشراف العرب في قصيدة مشهورة معروفة ومنها البيت السائر:

إن الفرزدق صخرة عادية طالت فليس تنالها الأجبالا

يريد طالت الأجبال فليس تنالها^(٣).

ومن هذا النوع القصيدة الحميرية التي نظمها نشوان الحميري صاحب كتاب شمس العلوم، وقد نشرها بعض المستشرقين (تاريخ العرب) وقد عدّ فيها من ملكوا من الحميريين وافتخر بقومه هؤلاء وصارت هذه القصيدة اليوم عند الباحثين في التاريخ العربي القديم لا يقاس بها شعر شاعر، لما فيها من الأسماء التاريخية.

وقد ينظمون ذلك الشعر على جهة الفخر بالنظم نفسه وقوة التصرف كما فعل أبو العباس الناشئ المعروف بابن شرشير، وهو الناشئ الأكبر، وكان متبحراً في عدة علوم، وهو في الشعر من طبقة البحتری وابن الرومي وأضرابهما، قال ابن خلكان: وله قصيدة في فنون من العلم على روى واحد تبلغ أربعة آلاف بيت،

(١) الكامل: ١/١٦١. (٢) سرح العيون: ص ١٣٨. (٣) الكامل: ٨/٢.

وتوفى سنة ٢٩٣؛ فلو أنه جعل هذه القصيدة فى فنون من التاريخ والقصص ونحوها، لما خلا الشعر العربى إلى اليوم من النمط القصصى الذى نفاخر به الإلياذة وأمثالها فى كل شعر غير عربى.

وكذلك فعل أبو الحسن الأنصارى الجياني المتوفى سنة ٥٩٣ فى نظم كتابه (شذور الذهب) فى صناعة الكيمياء؛ وقد قالوا فيه: إن لم يعلمك صنعة الذهب علمك صنعة الأدب؛ وقيل فى الجياني: شاعر الحكماء وحكيم الشعراء.

ومما يحسن ذكره فى هذا الوضع، توفية للفائدة، كتب الحكمة والأمثال التى نظمها المولدون لتسهيل حفظها ومدارستها؛ وأهم هذه الكتب قليلة ودمنة الذى عربّه ابن المقفع؛ فقد نظمه أبان بن عبد الحميد اللاحقى شاعر البرامكة، ونظمه أيضاً ابن الهبارية البغدادي، وسمى كتابه نتائج الفطنة فى نظم قليلة ودمنة؛ وكلا الشاعرين مرّ ذكرهما؛ وكذلك نظمه الأسعد بن ممتاى المصرى ناظر الدواوين بالديار المصرية المتوفى سنة ٦٠٦؛ ولابن الهبارية أيضاً كتاب الصادح والباغم؛ نظمه على أسلوب قليلة ودمنة؛ وهو أراجيز فى ألفى بيت نظمها فى عشر سنين؛ ولم نذكره فى الشعر القصصى لأن هذا الموضع أليق به؛ ومن منظومة السير أرجوزة ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، فى أخبار الملك الناصر صاحب الأندلس؛ وسيرة صلاح الدين التى نظمها الأسعد بن ممتاى المذكور؛ وذلك فى الجملة ليس من الشعر، ولكنه نوع مما أخذنا فى تأريخه، فكان لابد من الإشارة إلى بعض أمثله فى التاريخ.

الفنون المحدثه من الشعر

ذكرنا تاريخ الشعر وأفضنا في مناحيه، وبقي علينا تاريخ هذه الفنون التي أحدثها البلديون، وهي الموشح، والزجل، والدوييت، والمواليا، والكان كان، والقوما؛ وهذا الكتاب وإن كان ليس فيه متسع للفنون التي خرجت بها آداب اللغة الملحونة، ولكننا سنلّم بها إماماً، ونتجاوز في ذلك بعد أن نتكلم على الموشح مقتصرين على مبتدأ خبرها، فإن لها طرقاً ورجالاً؛ إذ هي آداب لغة منفردة يتكلم بها شعراء الناس، واستيفاء ذلك هنا يُعدُّ من تداخل التواريخ، وهو في رأينا دليل على فساد النظر وسوء الاحتمال لهذه العلوم؛ فلو أن مؤلفاً كتب في تاريخ لغة العامة وآدابها، ثم بسط في كتابه الكلام عن شعر العرب بمثل ما قدمناه، وعلى النحو الذي أخذنا إليه، لكان حقيقاً بأن يدل فضل اطلاعه على فساد صنعته في تأليف الكتاب، وكذلك ليس خلط الأعداد وهي مادة الحساب، مما يُعدُّ في شيء من صحة الحساب.

الموشح

ويقال له التوشيح أيضاً، والذي نراه فى أصل هذه اللفظة أنها منقولة عن قولهم: ثوب موشح، وذلك لوشى يكون فيه، فكأن هذه الأسماط والأغصان التى يزينونه بها هى من الكلام فى سبيل الوشى من الثوب، ثم صارت اللفظة بعد ذلك علماً؛ إلا أن يكون الأندلسيون قد أخذوا هذه التسمية عن المشاركة، فتكون منقولة عن التوشيح الذى عدّه قدامة بن جعفر فى نقد الشعر من أنواع ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت، وجرى عليه أهل البديع، فيكون اشتقاقها من معنى الوشاح كما نصوا عليه؛ لأنهم عرفوا هذا النوع بأن يكون معنى أول البيت دالاً على قافيته، فينزل فيه هذا المعنى منزلة الوشاح، وينزل أول الكلام وآخره منزلة محل الوشاح من العاتق والكشح اللذين يجول عليهما.

اختراعه:

قال ابن خلدون فى أصل استحداث هذا الفن: «أما أهل الأندلس فلما كثر الشعر فى قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التتميق فيه الغاية، استحدث المتأخرون منهم فناً سموه بالموشح ينظمونه أسماطاً وأسماطاً وأغصاناً وأغصاناً... واستظرفه الناس جملة، الخاصة والكافة؛ لسهولة تناوله وقرب طريقه، وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم بن معافر الفريرى من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى، وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد، ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما، فكان أول من برع فى هذا الشأن عبادة القزار شاعر المعتصم بن صمادح صاحب ألمرية... إلخ».

وعبادة هذا توفى سنة ٤٢٢، فالذى يفهم من كلام ابن خلدون أحد معنيين: إما أن يكون مقدم بن معافر شاعر الأمير عبد الله فى القرن الثالث هو الذى سمى هذا النوع بالموشح حين اختراعه، فيكون قد بقى إلى زمن عبادة لم ينبغ فيه أحد، ويكون الأندلسيون فى القرن الثالث «قد كثر الشعر فى قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التتميق فيه الغاية». وإما أن تكون هذه التسمية قد أحدثها المتأخرون من زمن عبادة، وزمنه أرقى عصور الشعر فى الأندلس، وكلاهما خطأ، وذلك مما

وهم فيه ابن خلدون لأنه إنما ذهب كعادته إلى التعليل، فظن أن استحداث هذا الفن من فضل القوة وإتقان الصناعة، وذلك لا يكون إلا على ما وصف، ولكن الشعر لم يكن قد بلغ في الأندلس ذلك المبلغ في القرن الثالث كما سنفصله متى انتهينا إلى الكلام على الأدب الأندلسي، ولو كان كما زعم ابن خلدون لحفظوا اسم مقدم بن معافر، وإننا على طول ما عنيينا من نصب البحث ومطولة التعب في التنقيب، وقد قرأنا ما قرأناه لتهيئة مواد هذا الكتاب حتى لم نغادر كتاباً في الأدب والتاريخ بأنواعه - لم نظفر بكلام عن مقدم هذا ولا تكشف لنا من تاريخه شيء. ومما يدل على فساد المعنى الثاني أن ابن بسام - وهو أعلم بهذا من ابن خلدون وغيره من المتأخرين - ذكر في كتابه الذخيرة أنه نشأ بين مخترع الموشح وبين عبادة، يوسف بن هارون الرمادي، وهو الشاعر الأندلسي في القرن الرابع (توفي سنة ٤٠٣) فلا بد أن يكون عبادة قد أخذ عنه مثال الإتقان في هذه الصناعة، وحينئذ يتعين أن لا اختراع الموشح سبباً آخر غير كثرة الشعر وبلوغ الغاية في تزيينه، ونحن ذاكروه بعد، ولكننا ننقل هنا عبارة الذخيرة، فإن فيها قولاً آخر في اختراع هذه الأوزان؛ قال ابن بسام في ترجمة عبادة: «كان في ذلك العصر شيخ الصناعة وأحكم الجماعة... وكانت صناعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقتها ووصفوا حقيقتها غير مرقومة البرود، ولا منظومة العقود، فأقام عبادة هذا عمادها، وقوم ميلها وسنادها، فكأنها لم تُسمع بالأندلس إلا منه، ولا أخذت إلا عنه، واشتهر بها اشتهاً غلب على ذاته، وذهب بكثير من حسناته؛ وأول من صنع أوزان هذه الموشحات: محمد بن محمود المقبرى الضرير؛ وقيل إن ابن عبد ربه صاحب العقد أول من سبق إلى هذا النوع من الموشحات؛ ثم نشأ يوسف بن هارون الرمادي؛ ثم نشأ عبادة هذا فأحدث التصفير؛ وذلك أنه اعتمد على مواضع الوقف في المراكز^(١).

سبب اختراعه :

وعندنا أن الذي نبههم إلى اختراع أوزان التوشيح إنما هو الغناء لا غيره، فإن تلحين البيت من الشعر قد يجيء على بعض الوجوه كالموشح، إذ يخرج جملاً

(١) فوات الوفيات: ص ١٩٩.

مقطعة تتساق مع النغم؛ فلو تنبه إلى ذلك أديب موسيقى لأمكن أن يضع أوزاناً على هذه التقاطيع، وهم لا يختارون للغناء من الشعر إلا ما احتمل في حركاته حسن التجزئة وصحة التقسيم وإجادة المقاطع والمبادئ.

والذى يدل على أن الغناء هو الأصل في التوشيح، أن الأندلس فتحت في أواخر القرن الأول، ولم يخترع التوشيح إلا في الربع الأخير من القرن الثالث، فكانت الفترة قريبة من مائتى سنة، والسبب الطبيعي في ذلك أن أمر الأندلس كان في مبدئه دينياً محضاً - كما ستراه في موضعه - وبقي الشعر عندهم متعلقاً بنوايغ تميزين بالضعف والقلة إلى زمن الأمير عبد الرحمن بن الحكم في أوائل القرن الثالث، حتى نبغ يحيى الغزال شاعر الأندلس وفيلسوفها؛ ثم قدم زرياب المغنى من العراق على هذا الأمير سنة ٢٠٦، وكان الأمير مفتوناً بالغناء، فلم يمحض على ذلك زمن حتى شاع الغناء وانحرف إليه الأندلسيون، وكان ذلك أول تاريخه عندهم، فلعل المدة بين شيوع الغناء واستحداث التوشيح لا تزيد عن نصف قرن.

وقد أقبل أدباء الأندلس في أواخر القرن الرابع على الموسيقى، ومن هاهنا دعت الحاجة إلى التفتن في تلك الأوزان، فاستقل بذلك عبادة الذى أومأنا إليه، وليس هذا فيه بعجيب إذا عرفت أن ابن الحداد وهو معاصر عبادة، وكلاهما من شعراء المعتصم بن صمادح، قد وضع كتاباً في العروض مزج فيه بين الموسيقى وبين آراء الخليل - وكل ذلك سيأتيك في موضعه مفصلاً إن شاء الله.

والأندلسيون لم يلحقوا المشاركة في الغناء، ولم يكثروا فحولهم فيه؛ ولذلك انصرفوا عن الغناء في الشعر إلى تحميلة أوزان التوشيح، فأغربوا ولذلك كما قال ابن دحية على أهل المشرق، لأنهم جمعوا فيه جملة التطريب؛ وقد نبه علي ذلك ابن رشد فيلسوف الأندلس في تلخيصه كتاب أرسطو طاليس في الشعر حيث قال كلامه على المحاكاة: والمحاكاة في الأقاويل الشعرية تكون من قبل ثلاثة أشياء: من قبل النغم المتنقة، ومن قبل الوزن، ومن قبل التشبه نفسه، وهذه قد يوجد كل واحد منها منفرداً عن صاحبه، مثل وجود النغم في المزامير، والوزن في الرقص والمحاكاة في اللفظ، أعنى الأقاويل المخيلة (غير الموزونة)؛ وقد تجتمع هذه الثلاثة بأسرها، مثل ما يوجد عندنا في النوع الذى يسمى الموشحات والأزجال، وهي

الأشعار التي استنبطها في هذا اللسان أهل هذه الجزيرة أهـ «العدارى المائسات».

وهذا هو السبب في اختلاف أوزانه وأوضاعه؛ لأن الغرض منه تطبيق ألفاظه على مؤلفات من الأصوات بمقتضى صناعة الموسيقى، فكانوا يؤلفون من الأصوات التي تخرجها الضربات على الأوتار المختلفة كلاماً يناسب أن يقابل في وزنه تلك الأصوات بحروف متحركة أو ساكنة وعلى ذلك يكون مؤلف التوشيح تابعاً لما تقتضيه أصوات الموسيقى وأوزانها، وذلك قد يوافق الأوزان العربية التي يلحن فيها الشعر وقد يخالفها وعليه أكثر عملهم، ولم يلتفت أكثر أدباء المتأخرين إلى هذه الحقيقة فحسبوا التوشيح كغيره من الأوزان، ولذلك اقتصر شعراؤهم على النظم في مذهب العروض منه وتركوا ما عداه، لأنهم لا يعرفون له وزناً، إلا أهل الموسيقى منهم؛ فإنهم ذهبوا فيه كل مذهب، وقد ذكر الشيخ شهاب الدين في سفينته المشهورة أن موشحات المتقدمين قد بطل العمل في تلحينها، ولذلك اقتصر في السفينة على إيراد موشحات المتأخرين، وأثبت من ذلك ٣٠٠ موشح فيها ٣٥٠ لحناً.

وعلى الأصل في أوزان التوشيح اختراع المتأخرون نوعين آخرين هما المستجاد والبنود، وسنذكرهما في بحث الصناعات لأن موضعهما هناك أليق بهما.

الموشح الملحون :

ومن التوشيح ما لا يكون معرباً، وهو من اختراع أدباء اليمن؛ قال صاحب سلافة العصر: ولأهل اليمن نظم يسمونه الموشح، غير موشح أهل المغرب، والفرق بينهما أن موشح أهل المغرب يُرَاعَى فيه الإعراب بخلاف موشح أهل اليمن فإنه لا يراعى فيه شيء من الإعراب، بل اللحن فيه أعذب؛ وحكمه في ذلك حكم الزجل أهـ (ص ٢٤٣).

ولم نزل نبحت عن أصل هذا النوع حتى وقفنا في كتاب نفحة اليمن لأحمد الأنصارى اليمنى الشروانى^(١)، وهو مطبوع في مصر، على نوع سماه الشعر

(١) ذكر في موضع من كتابه هذا أنه كان بكلكتا سنة ١٢٢٢.

الحميني لا يكون إلا ملحوناً، وقال إنه منسوب إلي الفضل الأديب محمد بن حسين الكوكباني اليمني، وهو توشيح أوله:

ما لقلبي لم يزلْ عَشَقُو فنون في هوى حال التثنى والمجون

زى الغصون قد فنى صبرى وقل الاحتيال

قد قسم قلبي بأسياف الجفون وقسم لى الهوى تلك العيون

ريب المنون ما حياتى بعد ذا إلا محال

وقال: إن شعراء اليمن هم فرسان هذا الميدان، وحاملوا لواء هذا الشأن؛ وعلى هذه الطريقة نظم بعض علماء المتأخرين على نمط الشعر، كقصيدة الشيخ عليش الشهيرة التى مطلعها:

الزم باب ريك واترك كل دون

وأورد فى النفة قصيدة من هذا النمط قال إنها للفاضل البكرى؛ فهذا هو الشعر الحميني على ما عرفت، وهى تسمية أهل اليمن؛ أما المغاربة فقد استحدثت عامتهم من هذا النمط أنواعاً بأسماء أخرى، وسنشير إليها بعد.

بعض أنواع الموشح:

لم يوضع فى صناعة الموشح ووجه نظمه وأسماء أوزانه فيما نعلم، غير كتاب واحد وضعه صفى الدين الحللى الشاعر المتوفى سنة ٧٥٠، وهذا الكتاب لم ينته إلينا إلا خبره. وسنذكر اسمه فى كتب التوشيح، ثم إن هذه الصناعة لا ضابط لأوزانها إلا الألحان كما سلف، فهى موطأة للاختراع بمقدار ما تجرؤ عليه القرائح؛ ولذلك تعددت فيها الأوزان واختلفت طرق الصنعة. فلا سبيل إلى حصرها إلا بالتلقى واتصال السند عن أهلها، ولا ندري إن كانوا قد وضعوا لكل وزن اسماً يعرف به أم كان اسم التوشيح عاماً لجميعها فلا تخصص الأوزان إلا بأسماء ألحانها فقط كما هو الشأن فى أدوار الغناء؛ وقد بحثنا فى ذلك كثيراً فلم نرجع بطائل، وكنا نظن أننا نصل إلى تسمية كل وزن وتعيين مخترعه، ولكننا لم نقف من ذلك إلا على النذر القليل الذى لا يُعتدُّ به فى استنباط التاريخ، وقد رجح عندنا أنهم لم يسموا الموشحات بأسماء معينة كما فعلوا بالصناعات الشعرية،

كالتخميس والتشطير وغيرهما، إلا ما دخل فيه الشعر من ذلك، كهذا النوع الذي اخترعه الصفي الحلبي^(١) وسماه الموشح المضمّن، ومثل له بتضمين الأبيات المنسوبة لأبي نواس، وقيل إنها للحريري، ومطلع موشحه^(١).

وهو الهوى، ما حلتُ يوماً عن الهوى ولكن نجمي في المحبة قد هوى
وما كنت أرجو وصل من قتلتي نوى وأضنى فؤادي بالقطعة والنوى
ليس في الهوى عجب إن أصابني العطب
حامل الهوى تعب يستفزه الطرب

فالبيت الأخير «حامل الهوى... إلخ» هو المضمّن، وما قبله توطئة له من نظم الصفي؛ وكالموشح المجنح، ويسمونه أيضاً الشعرى، لأنه قصيدة على وزن ورويّ واحد من الشعر يفصل بين كل بيتين منها بيت من الموشح يناسب وزنه لحن القصيدة، ويشترط فيه أن تكون كل أبيات التوشيح مصرعة على قافية واحدة^(٢).

وكما خلطوا بين أوزان الشعر وبين أوزان التوشيح، يخلطون بين وزن الدوبيت والزجل وبينه، وكل ذلك لأن التوشيح لا ضابط لوزنه إلا المناسبة كيفما اتفقت.

ومن الأوزان التي عينوا مخترعها، هذا الوزن الذي قال الصفي إن مخترعه السلطان المؤيد صاحب حماة المتوفى سنة ٧٣٢^(٣).

وهو - كما ترى - يكاد لسان الناطق، ولكنه إذا قطع الحاناً وصححت تجزئته وأحكمت مخارج ألفاظه وجرى فيه الغناء كان طرباً عجيباً، وعلى ذلك وضع؛ ومن أراد أن يقف على كثير من أوزان الموشحات فليقرأ ما ورد من ذلك في نفع الطيب وفوات الوفيات وكتاب العذارى المائسات وسفينة الشيخ شهاب الدين، وكلها مطبوعة؛ وكنا هممنا أن نحصى ما وقفنا عليه من ذلك، لولا أننا رأينا أن الفائدة لا تتم إلا إذا أثبتنا مطلع كل وزن ليتصفح القارئ وجوه الأنواع ويستثبت مواضع الاختلاف في أوزانها، وذلك يستغرق قطعة كبيرة من هذا الكتاب، ثم هو

(١) ديوان صفي الدين الحلبي: ص ٢٩٨.

(٢) ديوان الحلبي: ص ٢٩٩.

(٣) ديوان الحلبي: ص ٣٩١.

عمل تعليمي فليتبعه من مست إليه حاجته .

نوابغ الوشاحين :

يبتدئ تاريخ النبوغ في التوشيح من القرن الخامس، ورأس أدبائه عبادة، وشّاح المعتصم الذي أومأنا إليه من قبل، ثم جاء بعده ابن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذى النون صاحب طيئلة، وبعدهما الحلبة التي كانت في دولة المثلثين إلى القرن السادس، وسابق فرسانها القطيلي الأعمى (كذلك يذكره صاحب نفح الطيب، وقد ورد اسمه في مواضع، وفي مقدمة ابن خلدون: الطيطلي) ثم يحيى ابن بقیّ، ومحمد بن أحمد الأنصاري المعروف بالأبيض، والحكيم أبو بكر بن باجه صاحب التلاحين المعروفة (وسيأتي بيان ذلك في الأدب الأندلسي)؛ ثم اشتهر بعد هؤلاء في صدر دولة الموحدين محمد بن أبي الفضل بن شرف، وأبو إسحاق الرويني؛ ثم كان حسنة هذه المائة السادسة الفيلسوف أبا بكر بن زهر المتوفى سنة ٥٩٥، والوشاحون عيال على إحسانه فيما اتفق له من بدائع الموشحات التي شرقت، وغربت؛ واشتهر بعده ابن حيون، والمهر بن الفرس، ثم نبغ ابن جرمون بمرسية، وأبو الحسن سهل بن مالك بغرناطة، وأبو بكر بن الصابوني، واشتهر بين أهل العدو ابن خلف الجزائري، وابن هزر البجائي، ولكن الذي انفرد بشهرة هذه المائة إبراهيم بن سهل الإسرائيلي وشّاح أشيلية وشاعرها؛ وقد طبعت له قطع صغيرة في مصر على أنها ديوانه؛ ولكن الذي يقول في نفح الطيب إن ديوانه كبير مشهور بالمغرب حاز به قصب السبق في النظم والتواشيح، ومات ابن سهل غريقاً سنة ٦٤٩؛ وظهر بعده أحمد المقرئ المعروف بالكساء، وهو شاعر وشاح زجال^(١).

ثم كان نابغة المائة الثامنة في الأندلس لسان العربية ابن الخطيب، وله في التوشيح بدائع كثيرة، وكان من أبرع تلامذته في ذلك ابن زمرك وزير الغنى بالله، ثم اشتهر بعده العربي العقيلي الشّاح، ثم ظهر في المائة التاسعة في النصف الأول أبو يحيى بن عاصم الذي يقول عنه الأندلسيون إنه ابن الخطيب الثاني؛ ثم استعجمت الأندلس وظهر في المغرب في أواخر القرن العاشر عبد العزيز بن

(١) نفح الطيب : ٣٠٣/٢ .

محمد القشتالي وزير أبي العباس أحمد الشريف الحسيني، وسنذكره بعد؛ أما المشاركة قد تكلفوا التوشيح وبقى للأندلسيين فضل الطبع لم ينازعهم فيه إلا ابن سناء الملك المصري المتوفى سنة ٦٠٨ فقد طارت موشحاته خصوصاً موشحته التي اشتهرت شرقاً وغرباً، وأولها:

يا حبيبي ارفع حجاب النور عن العذار

ننظر المسك على الكافور في جلائر

كللي، يا سحب تيجان الربى، بالخلي واجعلي، سوارها منعطف الجدول رلا
تزال في أفواه المغنين إلى اليوم.

كتب التوشيح:

وضع صفى الدين الخلي ديواناً سماه (العاطل الخالي والمرخص الغالي) (وذكر في كشف الظنون العاطل الحادي أخطأ) وقد أوضح فيه قاعدة الفنون الشعرية جميعها، وهي الموشح، والدوييت، والزجل، والموالي، والكان وكان، والقوما، وأورد أمثلة ذلك من نظمه. وذكر ابن خلكان في ترجمة ابن سناء الملك أنه جمع موشحاته التي نظمها في ديوان سماه (دار الطراز). وفي نفح الطيب أن لسان الدين بن الخطيب ألف في هذا الفن كتابه المسمى «بجيش التوشيح» وأتى فيه بالغرائب. قال... وذيل عليه صاحبنا وزير القلم بالمغرب عبد العزيز بن محمد القشتالي بكتاب سماه: «مدد الجيش...» وأتى فيه بكثير من موشحات أهل عصرنا من المغاربة، وضمنه من كلام أمير المؤمنين مولانا المنصور أبي العباس أحمد الشريف الحسيني ما زاده ريناً، وأخبرني أنه ذكر فيه لأهل العصر في أمير المؤمنين، ولأمير المؤمنين المذكور أزيد من ٣٠٠ موشح^(١).

وقد طبع بعض الأدباء مجموعة صغيرة قال إنه انتخبها من كتاب وجده في بعض مكاتب رومة اسمه «العذارى المائسات في الأزجال والموشحات» هذا غير ما تجده في كتاب نفح الطيب وسفينة الشهاب وبعض الدواوين.

(١) نفح الطيب : ٢٢٧/٤ .

الدوبيت

وهذا الاسم من كلمتين، إحداهما فارسية وهى (در) بمعنى اثنين، والأخرى (بيت) العربية؛ وسموه كذلك لأنه لا يكون أكثر من بيتين، وقد أخذه أدباء العرب عن الفرس، ويعرف عندهم بالرباعى، واختص بالإجادة فيه بعض شعرائهم، كعمر الخيام، ورباعياته مشهورة مترجمة باللغات الأجنبية، وهى ٥٠٠ بيت، ولا نعرف أول من استعمل هذا النوع فى العربية، ولكن نشأته كانت فى بغداد؛ ولا ندرى كيف يعده ابن خلدون من شعر عامتها، وهو كالמושح والشعر: لا تكون ثلاثتها إلا مغربة، فإذا دخلها اللحن خرجت عن هذه الأسماء إلى أسماء أخرى، كالشعر الحمينى فى الموشح عند أهل اليمن، (وعروض البلد) فيه نفسه عند أهل الأمصار بالمغرب.

ونحن نرجح أن هذا النوع لم يكن فى العربية قبل القرن السابع؛ لأننا لم نجد فى شعر أحد قبل ذلك الزمن ولا وجدنا إشارة إليه، ولم نجد للشعراء ولعاً به إلا فى أواخر تلك المائة وما بعدها؛ والرباعى بعد من المخترعات الحديثة فى اللغة الفارسية، لأن أول من وضعه أبو سعيد بن الخير المتوفى سنة ٤٦٥، وبعضهم يقول إنه كان موجوداً قبل ذلك ولا يرجع اختراعه إلى تاريخ معين؛ غير أن من عرفوا بنظمه أبا جعفر رودكى الشاعر المتوفى سنة ٣٠٢ حتى افتن فيه الخيام وأجاده فاشتهر بما نظم فيه شهرة بعيدة، لأنه ضمنه أفكاراً سامية وانتقادات مرة؛ ثم أقبل الأدباء عليه من بعده. . . وقد عارضها فى العربية شديد الدين الأتبارى كما ذكر صاحب خلاصة الأثر^(١) ولم يقع لنا شيء من رباعياته.

وللدوبيت وزن واحد، وهو فعلن (بسكون العين) متفاعلن (وتارة يغير إلى متفاعلين)، فعولن، فعلن (بتحريك العين وسكونها) وأمثله كثيرة؛ وقد يضمنونه أنواعاً من البديع، ومن أكثر الشعراء ولوعاً بذلك، الصفى الحلى، وله فى ديوانه منه مقاطيع كثيرة. وللدوبيت باعتبار القوافى خمسة أنواع: الأول يسمونه الرباعى

(١) خلاصة الأثر : ٤ / ٣٩٠.

المرج ويشترط في قوافيه أن يكون بين الثلاثة منهما أو بين أربعتهما الجناس التام،
كقول بعضهم:

يا من بسنان رمحه قد طَعَنَّا والصارم من لحظه قَطَعَنَّا
أرحم دَنَفًا في سنّه قد طَعَنَّا في حبك لا يصيبه قطّ عَنَّا

والرباعي الخاص، ويشترط فيه أن تكون كل قافيتين متقابلتين بينهما جناس تام؛ ويقولون إن مثاله:

أهوى رشاً بلحظه كَلَمْنَا رمزاً وبسيف لحظه كَلَمْنَا
لو كان من الغرام قد سَلَمْنَا ما كان له بيده سَلَمْنَا
والرباعي المنطق ومثاله:

قد قدّ لمهجتي غرام ونَشَرُ والقلب مَلَكُ
من كان يراك قال ما أنت بَشَرُ بل أنت مَلَكُ
والرباعي المرفل كقوله:

بَدَرٌ إذا رآته شمسُ الأفقِ كسفتُ ورقى في يوم أحدٍ
عوذتُ جماله برب الفلقِ وبما خلّقا من كل أحدٍ

وهذان النوعان لا يشترط في قوافيهما الجناس.

والخامس الرباعي المردوف، ويحسن فيه التزام الجناس، ومثاله:

يا مَرَسَلًا للأنام جاهاً وَحَمَى ها أنت لنا عزا وهدى
في أيّ مددٍ

يا أفضلَ مَنْ مَشَى بأرض وسما يا شافعنا في الحشر غدا
غَوْثًا ومددٌ

الشعر العامي والموالي

لا نعرف بالتحقيق أصل الشعر العامي ولا منشأه؛ ولكننا لا نشك أنه قديم، وأن ظهوره كان في أواخر القرن الأول للهجرة، بعد ظهور الغناء وانتشاره؛ لأن طبقات كثيرة من العامة - ومن في حكمهم ممن لا أدب لهم - لا يطربون للغناء في الشعر الفصيح؛ وخاصة عامة أهل الشام، ولعلمهم أصل الشعر العامي في العربية لأن الفصيح استبحر في بلادهم، وهم مع ذلك أسقم الناس السنة؛ فكان لابد لعامتهم من هذا الشعر، وقد وقفنا على شيء من شعرهم الذي يطربون له؛ من ذلك ما رواه صاحب الأغاني في أخبار معبد أنه أشخص إلى الوليد بن يزيد، ثم كان في منزل بعض أهل الشام من ذوى الحال الرفيعة وقال في وصف غنائه عنده: فجعلت لا آتى بحسن إلا خرجت إلى ما هو أحسن منه، وهو لا يرتاح ولا يحفل لما يرى منى فلما طال عليه أمرى، قال: يا غلام، شيخنا شيخنا! فأتى بشيخ، فلما رآه هتس إليه، فأخذ الشيخ العود ثم اندفع يغنى:

سَلُورْ فِي الْقَدْرِ، وَيَلَى علوه جاء القَطُّ أَكَلَهُ، وَيَلَى علوه!

والسلور: السمك بلغة أهل الشام، قال: فجعل صاحب المنزل يصفق ويضرب برجله طرباً وسروراً... أهـ^(١). وذكر في أخبار حنين الحيرى، وكان في أيام عبد الملك بن مروان، أنه خرج إلى حمص يلتمس الكسب بها ويرتاد من يستفيد منه شيئاً، فاجتمع بفتيانها ثم غنَّاهم في هُنَيَّاتٍ معبد، وغنَّاء الغريض، وخفائف ابن سريج، وأهزاج حكَم، وفي غنائه هو، فلم يتحرك منهم أحد ولا فكهوا لذلك، وجعلوا يقولون: ليت أبا مُنبه قد جاءنا، حتى جاء أبو منبه، فخنس حنين وصار كلا شيء، خوفاً منه ورهبة أن يفتضح بإحسانه، قال: فأخذ العود ثم اندفع يغنى:

طَرِبَ الْبَحْرُ فَأَعْبَرِي يَا سَفِينَهُ لا تشقى على رجال المدينة

فأقبل القوم يصفقون ويطربون ويشربون، ثم أخذ في نحو هذا من الغناء^(٢).

(١) الأغاني: ٢٨/١.

(٢) الأغاني: ١٢٣/٢.

ولابد أن تكون مثل هذه الأشعار قد شاعت في العامة يومئذ وجعلوها فنهم، ولكن الأدباء لم يحفلوا بها فلم يصل إلينا من خبرها شيء، ويدل على ذلك ما نقله صاحب الأغاني من مثل ذلك في أخبار إسحاق الموصلي.

ثم ظهر بعد ذلك هذا النوع الذي يسمونه المواليا، وقالوا في أصله أقوالاً أشهرها عند الأدباء أن الرشيد أمر بعد نكبة البرامكة أن لا يرثيهم أحد بشعر، وتنكر لمن يفعل ذلك، فرثت إحدى جواريتهم جعفرًا بهذا النوع الذي يدخله اللحن ولا يجرى على أوزان الشعر، لتتقى بذلك نقمة الرشيد، وجعلت تقول بعد كل شطر: يا مواليا! فعرف هذا النوع به وتناقله الناس؛ والذي قالته في ذلك هو:

يا دار، أين ملوك الأرض أين الفرس أين الذين حموها بالقنا والترس
قالت: نراهم رمم تحت الأراضى الدرس سكوت بعد الفصاحة ألسنتهم خرس!

وليس هذا النوع ملحوناً أبداً كالزجل والكان وكان والقوما، ولكنه يحتمل الإعراب واللحن، ولا يجيزون فيه مع ذلك أن يختلط الاثنان في قول واحد فتكون بعض ألفاظ البيت معربة وبعضها ملحونة؛ فهذا من أقبح العيوب التي لا تجوز؛ وإنما يكون المعرب منه نوعاً بمفرده؛ والملحون منه ملحوناً لا يدخله الإعراب (المستطرف عن كتاب العاقل والحالي).

وللمواليا وزن واحد وأربع قواف؛ منها واحدة اخترعها صفي الدين الحلبي (المستطرف) وقد حملته المتأخرون محاسن البديع كما فعلوا بالدوبيت؛ وحرف المصريون هذه الكلمة بكلمة «موال» وأهل الصعيد منهم أشهر الناس بهذه المواليل؛ وخاصة أهل مديرتي قنا وجرجا، ويقسمون الموال إلى نوعين: أحمر، وهو الذي ينظم في الحماسة والحرب والحكمة، وأخضر وهو ما دخل في الغزل والنسيب وما إليهما من الأنواع الرقيقة؛ وقد يجعلونه مخمساً ومسبغاً، ويسمى النعماني، وذلك كله مأثور بينهم مستفيض في مناقلاتهم وقريب منه نوع آخر يسمونه «فن الواو» ووزنه كوزن بحر المجتث في الشعر: مستعلن فاعلاتن، ويكون في أربع شطرات، كل شطرة تسمى في اصطلاحهم فردة - ومنه أحمر وأخضر كما مر في الموال - ولكنهم يسمون المحتوى منه على الجناسات مغلوقة، والأمثلة في ذلك كله كثيرة ولها رسائل متداولة معروفة.

الزجل

قال ابن خلدون: ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية، من غير أن يلتزموا فيها إعراباً، واستحدثوا فناً سموه بالزجل، والتزموا النظم فيه على مناحيهم فجاءوا فيه بالغرائب، واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة. وأول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية، أبو بكر بن قزمان، وإن كانت قيلت قبله بالأندلس، ولكن لم تظهر حلاها ولا انسكبت معانيها واشتهرت رشاقته إلا في زمانه، وكان لعهد المثلثين (أول القرن الثامن) وهو إمام الزجالين على الإطلاق أهـ.

ورأيت في بعض الكتب أن ابن قزمان هذا أول من تكلم بالزجل وسبب ذلك أنه وهو في المكتب عشق بعض الصبيان، فرفع أمره للمؤدب فزجره ومنعه من مجالسة الصبي، فكتب في لوحه:

المِـلَاح ولأد أماره ولاوحاش ولأد نصاره

وابن قزمان جـا يغفر ما قبلوا الشيخ غفاره

فاطلع عليه المؤدب فقال: قد هجوتنا بكلام مزجول، فيقال إنه سُمي زجلاً من هذه الكلمة.

ولست أثبت هذه الرواية ولا أنفيها؛ أما ابن قزمان فهو الوزير الكاتب أبو بكر ابن قزمان، اشتمل عليه المتوكل على الله صاحب بَطْلَيْمُوس في أواخر القرن الخامس؛ فاقتطع في دولته أسمى الرتب، وهو شاعر بليغ وصفه الفتح بن خاقان في القلائد بأنه «مُبَرِّز في البيان، ومحرز للسبق عند تسابق الأعيان» وقال لسان الدين بن الخطيب: كان ابن قزمان نسيج وحده أدباً وظرفاً ولوذعية... وكان أديباً بارعاً حلو الكلام مليح النثر مبرزاً في نظم الزجل، قال: وهذه الطريقة الزجلية بديعة تتحكم فيها ألقاب البديع وتنفسح لكثير مما يضيق على الشاعر سلوكه، وبلغ فيها أبو بكر رحمه الله مبلغاً حجرة الله عن سواه، فهو آيتها المعجزة، وحجتها

البالغة، وفارسها المعلم والمبتدى فيها والمتتم^(١).

وقد شاعت أرجال ابن قزمان وأولع بها الناس خصوصاً المشاركة، حتى كانت فى القرن السابع كما قال ابن سعيد العربى، مروية فى بغداد أكثر مما هى فى حواضر المغرب. واشتهر مع ابن قزمان من معاصريه بهذه الطريقة عيسى البليدى، وأبو عمرو بن الزاهر الأشبلى، وأبو الحسن المقرئ الدانى وأبو بكر بن مدين، وكان فى عصرهم بشرق الأندلس محلف الأسود، إلا أن إمامهم المجمع عليه إنما هو ابن قزمان. ثم جاءت بعد هؤلاء حلبة كان سابقها عبد الله بن الحاج المعروف بمدغليس، وهو خليفة ابن قزمان فى زمانه وقد وقعت له العجائب فى هذه الطريقة، وامتاز عن ابن قزمان بصنعة ألفاظه حتى طارت شهرته بذلك، وكان أهل الأندلس يقولون: ابن قزمان فى الزجالين بمنزلة المتنبى فى الشعراء، ومدغليس بمنزلة أبى تمام، بالنظر إلى الانطباع والصناعة، فابن قزمان ملتفت إلى المعنى ومدغليس ملتفت إلى اللفظ، وكان أديباً معرباً لكلامه مثل ابن قزمان، ولكنه لما رأى نفسه فى الزجل أنجب، اقتصر عليه^(٢)، وقد ذهب مدغليس بشهرة القرن السادس، حتى ظهر ابن جحدر الأشبلى فى النصف الأول من القرن السابع، وكان إمام الزجالين فى عصره، ثم كانت الإمامة بعده لإمام الأدب أبى الحسن سهل بن مالك، ثم استقل بها فى أول المائة الثامنة أبو عبد الله الألوسى، ثم محمد بن عبد العظيم من أهل وادى آش، ومعاصره لسان الدين بن الخطيب الشهير، وفى هذه المائة صارت الطريقة الزجلية فن العامة بالأندلس، واستحدثوا منها نوعاً سموه الشعر الزجلى، وذلك أنهم ينظمون بها فى بحور الشعر، لكن بلغتهم العامية، فتجمع وزن الشعر ولحن الزجل على المبالغة المألوفة.

أما المشاركة فقد أولعوا بالزجل وأكثروا من أوزانه، حتى قالوا: صاحب ألف وزن ليس بزجال، والمتأخرون من أهل هذا الفن يقولون إنه لم يتصل بهم أكثر من خمسين وزناً. وتفننوا فى إبداعه أنواع البديع، ومن أشهرهم فى ذلك علاء الدين ابن مقاتل الحموى من أدباء الملك المؤيد صاحب حماة، وقد استشهد ببعض أرجال ابن حجة فى كتابه خزانة الأدب فى باب الجناس المقلوب وفى باب التوجيه

(١) نفح الطيب: ٣٥٦/٢.

(٢) نفح الطيب: ٢٣٧/٢.

وغيرهما^(١) متابعاً فى ذلك الشيخ شمس الدين بن الصائغ، فقد ذكر أنه استشهد فى شرحه المسمى رقم البردة بشيء من أزجال أهل عصره على بعض أنواع البديع^(٢)، وقلده هو فى ذلك ولكنه لم يورد لغير علاء الدين بن مقاتل، لذهاب شهرته شرقاً وغرباً، وإبداعه فى إبداعه، واقتراعه فى اختراعه.

وللمصريين تاريخ خاص فى الزجل، لأن هذه الطريقة توافق ما فى طباعهم من اللين ومشايعة الكلام بشيء من التهكم الذى تبعث عليه صفة الفتور الطبيعية فيهم، وهى التى يقال فيها إنها ذوق حلاوة النيل. وقد اخترع المصريون فى الزجل نوعين سموهما البليقة والقرقية. قال صاحب كتاب الأقصى القريب، وهو أبو عبد الله محمد التنوخى، فى كلامه على الموشحات والأزجال: ومنها قرقيات المصريين وبليقاتهم، والفرق بينهما وبين الزجل أن الزجل متى جاء فيه الكلام العرب كان معيباً، والبليقة ليست كذلك، فيجىء فيها العرب وغير العرب، ولذلك سميت بليقة؛ من البلق، وهو اختلاف الألوان، وتفاقر البليقة القرقية فى أن البليقة لا تزيد على خمس حشوات غالباً، وقد تنتهى إلى السبع قليلاً، والقرقية تزيد كثيراً على حكم الزجل فى ذلك، وسميت القرقية كذلك من القرقة وهى لعبة يلعب بها صبيان الأعراب، وهذه اللعبة سماها صاحب القاموس: القرق^(٣)، ووصفها ورسمت خطوطها فى تارج العروس، فانظرها هناك.

وقد كان اختراع البليقة فى القرن السابع، ثم تبسطوا فيها بعد ذلك فكانت القرقيات، ولا تحقق تاريخها، ولكنها متأخرة عن المائة السابعة حتماً، وقد استدللنا على ذلك بما ذكره صاحب فوات الوفيات إذ قال فى ترجمة صدر الدين ابن المرحل المتوفى سنة ٧١٦ بالقاهرة، وهو تالمعروف فى كتب الشاميين بابن الوكيل المصرى: «وشعره مليح إلى الغاية، وكان ينظم الشعر والموشح والدوبيت والمخمس والزجل والبليق». فلو كانت القرقيات يومئذ معروفة لذكرها وإن كانت من الزجل، فقد ذكر المخمس وهو من الشعر^(٤).

(١) خزانة الأدب : ص ٥٠ ، ١٧٠ .

(٢) خزانة الأدب : ص ١٦

(٣) القاموس المحيط : ص ١١٨٨ ط مؤسسة الرسالة .

(٤) فوات الوفيات ٢/ ٢٥٤ .

وأشهر نوابغ المصريين فى الأزجال من المتقدمين، الغبارى الذى نبغ فى عهد السلطان حسن، فإن له أرجالاً بعيدة الشهرة بما فيها من دقة الصنعة وإبداع المعانى وكثرة التفنن. وقد رأينا فى مجموعة من مدائحه حملاً زجلياً (أهل هذا الفن يسمون ما يعادل القصيدة فى الشعر منه: حملاً) لرئيس العامة فى هذا الفن على عهد محمد على باشا، وهو محمد الحباك القشاشى، يزاهى ٥٦٠ بيتاً، مدح فيه أهل مصر على طريقة عامية، وذكر علساءها وأشرافها ومتنزهاتها وعد أكثر أسواقها - لأنه من سوق كان يسمى القشاشين ذكره فى الزجل - وقال فى آخره ما يستدل منه أنه يعارض الغبارى فى حمل له بهذا المعنى، وقال: إن الغبارى ما استطاع أن يضبط محاسن مصر فيما وصف. وما استفدناه من هذه المجموعة، أن للزجل أوزاناً كانت مشهورة، منها وزن: (أصبحت مصر نزهة للناظرين)، ووزن (على دارى)، ووزن (فى الهند مكتوب) وللمتأخرين من عوام العصر مثل هذه الأوزان أيضاً، ويعدون منها (بفتة هندی یا بنات).

ولم يزل فن الزجل مشهوراً بمصر إلى عهدنا، ولأهله فيه إحسان كثير وهم يرتجلونه ويحاضرون به، وقد ذكر الأديب عبد الله نديم المصرى الشهير فى مجلة الأستاذ واقعة فى المساجلة بالزجل مع بعض رؤساء الفن من العامة، وكان الشرط أن من تلعثم أو استبلع الآخر ريقه يبتغى بذلك مهل البديهة وخلصة الفكر فهو المغلب، وذكر هناك بعض الأوزان التى أخذوا فيها؛ فارجع إليها فإنها عجيبة.

والزجل اليوم أحد أنواع الشعر العامى الباقية لعهدنا، وقد اختص به المصريون، فيقال: الزجل المصرى، كما يقال: المغنى السورى، والزهيرى البغدادى.

ومما نوفى به فائدة هذا الفصل، أن ظرفاء المصريين يقولون فى الفنون السبعة التى نكتب تاريخها: «السبعة وثمّتها» ويريدون بهذه «التمّة» فن الواو الذى ذكرناه وأبجراً أخرى ينظمون عليها العامية فى أوزان خاصة، يعارضون بها أسماء البحور الشعرية، ومنها المستطيل فى معارضة الطويل، والممتد فى معارضة المديد، والمتوفر فى معارضة الوافر، وغير ذلك مما يبعث عليه الظرف المصرى، وهو بجملته معدود من الزجل فلا حاجة إلى إيراد أنواعه وأمثله.

فنون أخرى :

قال ابن خلدون بعد كلامه على الأزجال . ثم استحدث أهل الأمصار بالمغرب فناً آخر من الشعر فى أعاريض مزدوجة كالموشح ، نظموا فيه بلغتهم الحضرية أيضاً وسموه عروض البلد ، وكان أول من استحدثه فيهم رجل من أهل الأندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير ، فنظم قطعة على طريقة الموشح ولم يخرج فيها عن مذاهب الإعراب ، مطلعها :

أبكاني بشاطئ النهر نوح الحمام على الغصن فى البستان قريب الصباح
فاستحسنه أهل فارس وأولعوا به ونظموا على طريقته وتركوا الإعراب الذى
ليس من شأنهم وكثر سماعه بينهم واستفحل فيه كثير منهم وفرعوه أصنافاً إلى
المزدوج والكارى والملعبة والغزل ، واختلفت أسماؤها باختلاف اردواجها
وملاحظاتهم فيها... إلخ^(١) .

... ونقل قطعة كبيرة من هذه الملعبة تشبه الشعر التاريخى المعروف
بالقصصى ، حتى ذهب بعض المتأخرين إلى أن أمثال هذه الملاعب تعتبر نوعاً من
الشعر القصصى وإن كانت عامية .

الأصمعيات والبدوى :

وذكر ابن خلدون أيضاً أن العرب المستعجمين عن لغة سلفهم من مضر
يقرضون لعهد الشعر فى سائر الأعاريض على ما كان عليه سلفهم المستعربون
ويأتون منه بالمطولات... إلخ^(٢) وقد أورد فى مقدمته بعض قصائد أمثلة على ما
ذكر .

كان وكان والقوما :

وهما كما قال أصحاب الفنون فرعان من الزجل ، وإنما أفردوهما نوعين
لتغيرات فيهما لا تكون فى الزجل ، أما الأول فلا نعرف من تاريخه شيئاً ، وله
وزن واحد وقافية واحدة ، ويستعملونه كثيراً فى الوعظ ونحوه من المعانى التى

(١) مقدمة ابن خلدون : ص ٣٤٨ وما بعدها .

(٢) مقدمة ابن خلدون : ص ٣٣٣ .

تدخل فيها الحرقه والحده ونحو ذلك، كقول بعضهم:

ما ذقت عمري جرعة أمر من طعم الهوى
الله يصبر قلبي على الذي يهواه

وأما القوما فقليل إن أول من اخترعه ابن نقطة برسم الخليفة الناصر، والصحيح أنه مخترع من قبله، وإنما كان الناصر يطرب له فاشتهر في زمنه، وهو من اختراع البغداديين، قيل كانوا ينشدونه عند السحور في رمضان كما يفعل المسحرون بالقصص والأدعية لعهدنا، وسمى بذلك من قول المغنين (قوما نسحر قوما) وجعلوه على وزن هذه الكلمات الثلاث، ثم فرعوا منه فروعاً دعوها الزهري والخمري وغيرهما على حسب المعاني التي ينظمون فيها، ومن هذا النوع ما نظمه الصفي الحلبي يسحر به بعض الخلفاء:

لا زال سعدك جديد دائم وجدك سعيد^(١)

الحماق:

وهو نوع قد يدخلونه في الزجل، ولكن أكثرهم على أنه منفرد، وهم ينظمونه قطعاً، كل بيتين من القطعة في قافية^(٢).

العامي الغريب:

وهو نوع من النظم نشير إليه استطراداً ونلم به تفككه وتلمحاً، وذلك أن «اللغويين» من أدباء العامة يخترعون ألفاظاً غريبة لا تجرى على وزن ولا تدخل في لغة، ثم ينظمونها معاية بها في الحفظ، أو إغراباً في التفككه، أو مبالغة في التشديق والتقعير، كالقصيدة التي أوردها صاحب كتاب إعلام الناس ونسبها للأصمعي، وقصتها هناك فارجع إليها، وهي من تكاذيب الظرفاء وباطل المنحول.

ورأينا في كتاب «نفحة اليمن» للأنصاري أنه اجتمع في بلدة كلكتة سنة ١٢٢٢ هـ برجل من العرب اسمه جواد ساباط وقد ارتد عن الإسلام وسمى ناثانائيل ساباط، وهو واحد فيما يرويه من المضحكات والعجائب، قال: وله نظم

(١) المستطرف: ٢٥٤/٢.

(٢) المستطرف: ٢٥٥/٢.

على أسلوب أبي الهميسع المنسوب إليه لفظ «حَجَلْنَجَع» وذكر هناك بعض شعره،
ومنه قصيدة شنيعة يقول فيها.

بهشوا الخرباش عنه برخشوا طسعوا عن دارمى حين تشوا

وذلك يدل على أن أبا الهميسع كان متميزاً بهذه الطريقة، وقد أولع بها أهل
التقعر من المتأخرين، ومنها قول بعضهم وقد ضبطناه بإملائه.

يا سائلى عن حَبْلَطَنْج عَجُفْتُ عَجُفْتَاهُ تَمَر كَالْعَبْعَلَصِ

ولا نشك في أن هذه القافية في معارضة كلمة أبي الهميسع التي ذكرها
الأنصاري وأول من ابتدأ هذه الطريقة من الفصحاء بشار بن برد أبو المحدثين كان
يجيء بالكلمات اليسيرة التي لا حقيقة لها فيحشو بها شعره ليتنادر بذلك، ومنه
ما حكاه قال: مات حمارى فرأيت في النوم فقلت له: لِمَ مِتَ؟ ألم أكن أحسن
إليك؟ فقال:

سیدی خذ بی آتانا عند باب الأصبهانی

تیمتنی بینان وبدل قد شجانی

ولها خذ أسیل مثل خذ الشیفران

فقال له بعضهم: ما الشيفران؟ قال: ما يدريني؟ هذا من غريب الحمار، فإذا
لقيته فاسأله! (١)، ثم استظرف الناس منه ذلك فمروا فيه حتى بلغ مبلغه في
المتأخرين. والله أعلم.

(١) الأغاني : ٦٤/٣.

البابُ السادس
في حقيقة القصائد
المعلقات ودرس شعرائها

THE UNIVERSITY OF CHICAGO

THE UNIVERSITY OF CHICAGO

THE UNIVERSITY OF CHICAGO

THE UNIVERSITY OF CHICAGO

السَّبْعُ الطَّوَالُ

هى المعروفة بالمعلقات، المروية لامرئ القيس، وطرفة بن العبد، وزهير بن أبى سلمى، ولييد بن ربيعة، وعمرو بن كلثوم، وعنترة بن شدّاد، والحارث بن حلزة، وكلهم جاهلون إلا لييداً، فإنه من المخضرمين؛ وإنما سميت المعلقات، لأن العرب اختارتها من بين أشعارها فكتبوها بالذهب على الحرير، وقيل بماء الذهب فى القَبَاطَى (جمع قبطية - الكسر والضم، وهى ثياب إلى الرقة والدقة والبياض، كانت تتخذ بمصر من الكتان) ثم علقوها على أركان الكعبة، وقيل فى أستارها، وزاد بعضهم أنهم كانوا يسجدون لها كما يسجدون لأصنامهم.

أما أن هذه القصائد من مختارات الشعر فأمرٌ لا ندفعه؛ لأن العرب فى الجاهلية كان يقول الرجل منهم الشعر فى أقصى الأرض، فلا يُعْبَأُ به حتى يأتى مكة فيعرضه على قريش، فإن استحسّنه روى وكان فخراً لقائله، وإن لم يستحسّنه طُرح وذهب فيما يذهب؛ قال أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ (وقيل ١٥٩): وكانت العرب تجتمع فى كل عام بمكة، وكانت تعرض أشعارها على هذا الحى من قريش.

وأما خبر الكتابة بالذهب أو بمائه والتعليق على الكعبة ففى روايته نظر، وعندى أنه من الأخبار الموضوعة التى خفى أصلها حتى وثق بها المتأخرون، وإنما استدرجهم إلى ذلك أن هذه القصائد تكاد تكون الصفحة المذهبة من ديوان الجاهلية، وأن العرب قوم لم يصح من أديانهم إلا دين الفصاحة وهو الذى دانوا به أجمعين، فلو أنهم فعلوا ذلك لكانوا قد أتوا بشيء غير نكير، وسنقص فى أخبارهم وكتبهم أثر تلك الرواية ونورد ما رجّح عندنا أنها موضوعة:

نقل ابن خلكان عن ابن جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٧ (وقيل ٣٣٨) أن حماداً الراوية هو الذى جمع السبع الطوال، وحماد هذا توفى سنة ١٥٥، وفى المزهرة أنه أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها، وقال البغدادى فى خزانة

الأدب^(١) بعد أن ذكر أصحاب المعلقات: وقد طرح عبد الملك بن مروان شعر أربعة منهم وأثبت مكانهم أربعة، وعبد الملك توفي سنة ٨٦، فبين وفاته ووفاء حماد ٦٩ سنة، ثم قال البغدادي: وروى أن بعض أمراء بني أمية أمر من اختار له سبعة أشعار فسمها المعلقات، وفي رواية أخرى - في غير الخزانة -: فسمها المعلقات الثواني.

وقال ابن الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ (وقيل سنة ٢٠٦): أول شعر علق في الجاهلية شعر امرئ القيس، عُلّق على ركن من أركان الكعبة أيام الموسم حتى نظر إليه، ثم أحْدَر فَعَلَقَت الشعراء ذلك بعده، وكان ذلك فخراً للعرب في الجاهلية، وعدّوا من علق شعره سبعة نفر، إلا أن عبد الملك طرح شعر أربعة منهم وأثبت مكانهم أربعة.

وبمعارضة هذه الرواية بما ذكره أبو جعفر النحاس يتضح لك أن أبا جعفر لم يثق بها، فيكون خبر طرح عبد الملك وإثباته موضوعاً أيضاً، خصوصاً وقد أغفله أبو زيد بن أبي الخطاب القرشي صاحب الجمهرة المتوفى سنة ١٧٠، وابن الكلبي هذا هو الذي نقل عنه الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب في شرحه ديوان امرئ القيس عند ذكر قصيدته المختارة أنه قال: إن أعراب كلب ينشأون هذه القصيدة لابن حذام (هو امرؤ القيس بن حذام) وذكره امرؤ القيس بن حجر في بعض شعره حيث يقول:

عوجاً على الطلل المحيل لأننا نبكى الديار كما بكى ابن حذام

ويروى خذام - بالخاء، وحزام بالزاي، وحمام. ويقال إن (لأننا) لغة في (لعلنا)؛ حكى الخليل أن بعض العرب يقول: ائت السوق أنك تشتري لنا سوقاً، أى لعلك. وكان ابن حذام بكى الديار قبل امرئ القيس.

وقد أغفل ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ رواية ابن الكلبي بجملتها في كتابه طبقات الشعراء، ولم نر أحداً ممن يوثق بروايتهم وعلمهم أشار إلى هذا التعليق ولا سَمَّى تلك القصائد بهذا الاسم، كالجاحظ والمبرد وصاحب الجمهرة وصاحب

(١) خزانة الأدب ٦١/١.

الأغاني، مع أن جميعهم أوردوا في كتبهم نثراً وأبياتاً منها، وقد ذكر أبو الفرج صاحب الأغاني المتوفى سنة ٣٥٦ أن عمرو بن كلثوم قام بقصيدته خطيباً بسوق عكاظ، وقام بها في موسم مكة، فلو كان خبر التعليق صحيحاً لما ضره أن يقول: فكتبتها العرب وعلقتها على ركن من أركان الكعبة.

وقال ابن قتيبة في ترجمة طرفة: وهو أجودهم طويلة، يعنى مختارته. وفي ترجمة عنترة، وكانت العرب تسميها الذهبية، ولكنه قال في ترجمة الحارث بن حلزة عند ذكر قصيدته: وهى من جيد شعر العرب، وإحدى السبع المعلقات؛ ولم ترد هذه اللفظة إلا في هذا الموضع، غير أن البغدادى نقل كلمة في الخزانة معزوة إليه وأسقط منها لفظة المعلقات^(١) فيكون ذكرها في طبقات ابن قتيبة زيادة من النساخ، لشهرة الكلمة في المتأخرين وارتباطها بهذا النعت.

والأسماء التى وردت بها تلك القصائد فيما لدينا من كتب الأدب والبيان واللغة إلى آخر القرن الثالث، هى: السبع الطوال، والسموط، والسبعيات؛ أما الأولى فهى تسمية حماد، وقد نقلها من الحديث «أُعْطِيَتْ مَكَانَ التَّوْرَةِ السَّبْعُ الطَّوَالُ»^(٢) وهى: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، واختلفوا فى السابعة أنها يونس، أو يوسف، أو الكهف - وأما الثانية ففى الجمهرة عن المفضل أن امرأ القيس وزهيراً والنابعة والأعشى وليداً وعمراً وطرفة أصحاب السبع الطوال التى تسميها العرب السموط (ونقلها صاحب العمدة: السمط، ونقلها عنه السيوطى فى المزهرة)، فمن قال إن السبع لغيرهم فقد خالف ما أجمع عليه أهل العلم والمعرفة؛ فأسقط من أصحاب المعلقات عنترة والحارث بن حلزة، وأثبت الأعشى والنابعة؛ وهذا مما يدل على أن بين الرواة اختلافاً فيهم، فلو كان خبر التعليق صحيحاً لكان نصاً فى تعيين الأسماء.

وأصل التسمية بالسمط أو السموط عن حماد أيضاً، ففى بعض أخباره قال: كانت العرب تَعْرِضُ أشعارها على قريش، فما قبلوا منها كان مقبولاً، وما رَدُّوا منها كان مردوداً، فقدم عليهم علقمة بن عبدة فأنشدهم:

(١) خزانة الأدب ٥١٩/١.

(٢) السيوطى فى الجامع الصغير (١١٧١) وعزاه للطبرانى عن واثلة، وقال السيوطى: حسن.

* هل ما علمت وما استودعت مكتوم *

فقالوا: هذه سمط الدهر؛ ثم عاد إليهم في العام المقبل فأنشدهم:

* طحا بك قلب في الحسان طروب *

فقالوا: هاتان سمطا الدهر؛ وهى رواية لا توافق ما قالوه من أن العرب كانت تقرر لقريش بالتقدم عليها إلا في الشعر.

وأما السبعيات فهي تسمية وقفنا عليها في إعجاز القرآن للباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣؛ وقد ذكر هناك ما تؤخذ منه حقيقة هذه القصائد؛ قال: أنت لا تشك في جودة شعر امرئ القيس؛ ولا ترتاب في براعته؛ وقد ترى الأدباء أولاً يوازنون بشعره فلاناً وفلاناً؛ ويضمون أشعارهم إلى شعره؛ حتى ربما وازنوا بين شعر من لقيناه وبين شعره في أشياء لطيفة وأمور بديعة؛ وربما فضلوه عليه أو سَوَّوا بينهم وبينه؛ أو قَرَّبوا موضع تقدمهم عليه وبرزوه بين أيديهم؛ ولما اختاروا - أى الأدباء - قصيدته في السبعيات أضافوا إليها أمثالها، وقرنوا بها نظائرها؛ ثم نراهم يقولون: لفلان لامية مثلها... إلخ، وقد أورد ذلك وبالغ في مدح القصيدة، ثم بين عوارها، وزيف كثيراً من جيدها، ليظهر الفرق بين أجود الشعر وبين القرآن في أسباب الإعجاز، ويبرهن على أن القرآن جنس مميّز وأسلوب متخصص؛ فلو صح عنده خبر التعليق وأن العرب هى التى اختارتها وقدمتها على سائر الشعر - لكان فى ذلك دليل يشدّ عليه يده شدّ الحريص.

وفى الجمهرة عن المفضل (هو المفضل بن محمد الضبى، كان عالماً بالشعر وكان أوثق من روى الشعر من الكوفيين، وهو معاصر لحماد الراوية، وقد غلبه عليه بصدق الرواية عند المهدي كما سيمر بك فى بحث الرواة) بعد أن ذكر أصحاب السموط قال: وقد أدركنا أكثر أهل العلم يقولون إن بعدهن سبعة ما هن بدونهن، ولقد تلا أصحابهن أصحاب الأوائل فما قصروا، وهن «المجمهرات» لعبيد بن الأبرص، وعنترة بن عمرو، وعدى بن زيد، وبشر بن أبى خازم، وأمّية بن أبى الصلت، وخداش بن زهير، والنمر بن تولب.

وأما منتقيات العرب فهن للمسيب بن علس، والمرقش، والمتلمس، وعروة بن

الورد، والمهلل بن ربيعة، ودريد بن الصمة، والمتنخل بن عويمر.

وأما المذاهب فللأوس والخزرج خاصة، وهن لحسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، ومالك بن العجلان، وقيس بن الخطيم، وأحيحة بن الجلاح، وأبى قيس ابن الأسلت، وعمرو بن امرئ القيس.

وعيون المراثي سبع، لأبى ذؤيب الهذلي، وعلقمة بن ذى جدن الحميري؛ ومحمد بن كعب الغنوي، والأعشى الباهلي، وأبى زييد الطائي، ومالك بن الريب النهشلي، وتمام بن نيرة اليربوعي.

وأما مشروبات العرب وهي التي شابهن الكفر والإسلام، فلنابغة بنى جعدة، وكعب بن زهير، والقطامي، والخطيئة، والشماخ، وعمرو بن أحمر، وابن مقبل. وأما الملحمات السبع فهي: للفرزدق، وجريز، والأخطل، وعبيد الراعي، وذى الرمة، والكميت بن زيد، والطرماح بن حكيم.

قال المفضل: فهذه التسع والأربعون قصيدة هي عيون أشعار العرب في الجاهلية والإسلام (ص ٣٥) وبعد أن ساق صاحب الجمهرة أخباراً قال: هذا ما صحت به الرواية عن الشعراء وأخبارهم...

فقد خلص لنا مما تقدم أن حماداً هو أول من اختار السبع الطوال وشهرها في الناس، وأن ابن الكلبي هو الذي ذكر خبر تعليقها على الكعبة، وهو قد علل ذلك بأن العرب ينظرونها في الموسم، ثم ينزلونها أو يسقونها، وأن من عدا ابن الكلبي ممن هم أوثق في رواية الشعر وأخباره لم يذكروا من ذلك شيئاً، بل جملة كلامهم ترمى إلى أن القصائد لم تخرج عن سبيل ما يختار من الشعر، وأن المتأخرين هم الذين بنوا على خبر التعليق ما ذكروه من أمر الكتابة بالذهب أو بمائه في الحرير أو في القباطي، وأن العرب بقيت تسجد لها ١٥٠ سنة حتى ظهر الإسلام، مع أن امرأ القيس لم يفته الإسلام بأكثر من مائة سنة، وتسميتهم لذلك المعلقة بالمذاهب، مع أنك رأيت في رواية المفضل أن المذاهب قصائد أخرى للأوس والخزرج، وذكر ابن رشيقي في العمدة رواية أخرى في تسمية الطوال بالمعلقات، وهي أن الملك كان يقول إذا استجيدت قصيدة الشاعر: علقوا لنا هذه، لتكون في

خزائنه . . .

[وليس بعيد أن يكون ابن الكلبي، وهو من متأخري الرواة، قد رأى انصراف الناس عن شعر الجاهلية والتأدب به إلا فيما احتاجوا إليه من الشاهد والمثل، ولا يكاد ذلك يعدو أشعاراً معروفة متداولة في أيدي العلماء لمكانة الشعر الإسلامي يومئذ، وقد كثر فحوله وافتنوا فيه أيما افتنان، وذهبوا في البديع كل مذهب، فاخترق ابن الكلبي - أو غيره - خبر التعليق، ليصرف وجوه الناس إلى هذه القصائد، وهم يومئذ أكثر ممن قبلهم ولعاً بمآثر الجاهلية، لعفاء الصبغة العربية من سياسة عصرهم كما يعرف الواقف على التاريخ. وليس يشك أحد أنه لولا هذا الخبر لما بقيت هذه القصائد متداولة إلى اليوم، لا لشاهد منها ولا لمثل فيها، ولكن لوقوع اختيار العرب عليها].

وعندنا أن الذي روى التعليق إنما أخذه من تعليق قريش للصحيفة، وذلك أنه لما فشا الإسلام وقوى المسلمون بحمزة وعمر، اثمرت قريش في أن يكتبوا بينهم كتاباً يتعاقدون فيه على أن لا ينكحوا بنى هاشم ولا يبيعوهم ولا يتاعوا منهم شيئاً؛ فكتبوا بذلك صحيفة بخط منصور بن عكرمة، ثم علقوها في جوف الكعبة توكيداً لذلك الأمر على أنفسهم.

وأعجب شيء أنك لا ترى في كلام أحد من الصدر الأول من لدن النبي ﷺ ما يشير إلى ذلك الخبر، مع أنهم تكلموا في الشعر والشعراء وفاضلوا بينهم، وورد في الحديث كلام عن امرئ القيس وعترة، وكل ذلك مما يدل على أن ذلك التعليق إنما كان بحبل التلفيق!

وقد شرح هذه القصائد جماعة ذكر منهم صاحب كشف الظنون أبا جعفر بن النحاس المتوفى سنة ٣٣٨، وأبا علي الثعالبي المتوفى سنة ٣٥٦، وأبا بكر البطليموس المتوفى سنة ٣٩٤، وأبا زكريا بن الخطيب التبريزي المتوفى سنة ٥٠٢؛ والدميري صاحب حياة الحيوان، والزوزني المتوفى سنة ٤٨٦ وشرحه مطبوع متداول؛ وهي مشروحة أيضاً في كتاب الجمهرة، ولابن الأباري عليها شرح مفرد.

وقد رأينا من ينكر أن هذه القصائد صحيحة النسبة إلى قائلها، مرجحاً أنها منحولة وضعها مثل حماد الراوية، أو خلف الأحمر، وهو رأى فائل؛ لأن الروايات قد تواردت على نسبتها، وتجد أشياء منها فى كلام الصدر الأول؛ وإنما تصح الروايات بالمعارضة بينها؛ فإذا اتفقت فلا سبيل إلى ذلك، غير أنه مما لاشك فيه عندنا أن تلك القصائد لا تخلو من الزيادة وتعارض الألسنة، قل ذلك أو كثر؛ أما أن تكون بجملتها مولدة فدون هذا البناء نقض التاريخ.

امروء القيس

هو حنـدج بن حجر، الحنـدج الرملة الطيبة تنبت نباتاً حسناً، وليس في العرب حُجْر - بضم الحاء - غير هذا؛ ومعنى امرئ القيس: رجل الشدة، والمسمون بهذا الاسم في العرب جماعة ذكر منهم السيوطي ستة عشر في كتابه المزهر؛ ومؤرخو الروم يذكرونه في كتبهم باسم قيس.

يُكنى أبا الحارث؛ وأبا وهب، ويلقب بالملك الضليل؛ وذى القروح؛ كان أبوه وأعمامه ملوكاً على قبائل من العرب؛ وكانت لأبيه على بنى أسد إتاوة في كل سنة؛ فغبروا على ذلك دهرأ؛ ثم إنه بعث إليهم جابيه الذي كان يُجيبهم فمنعوه ذلك؛ وحُجِر يومئذ بتهامة؛ وضربوا رسله وضرجوهم ضرجاً شديداً قبيحاً؛ فسار إليهم وأخذ سراتهم فجعل يقتلهم بالعصا؛ فسُموا عبيد العصا؛ وآلى أن لا يساكنهم في بلد أبداً؛ وحبس منهم عمرو بن مسعود؛ وكان سيداً؛ وعبيد ابن الأبرص الشاعر؛ ثم إن عبيداً استعطفه بأبيات منها:

برمت بنو أسد كما	برمت بيضتها الحمامة
جعلت لها عودين من	نشم وآخر من ثمامة
إما تركت تركت عفواً	أو قتلت فلا ملامه
أنت المليك عليهم	وهم العبيد إلى القيامة

فرق لهم حجر وبعث في أثرهم؛ فأقبلوا؛ حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة، تكهن كاهنهم وهو عوف بن ربيعة يحضهم على قتله، فركبوا كل صعب وذلول، فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر حجر، فهجموا على قبته وخيم عليه حجابه ليمنعوه ويجيروه، فأقبل عليهم علباء بن الحارث الكاهلي، وكان حجر قد قتل أباه، فطعنه من خللهم، فأصاب نساها فقتله، وقيل غير ذلك، وأنهم أخذوه أسيراً في حرب بينهم وبينه، فوثب عليه ابن أخت علباء فطعنه ولم يجهز عليه، فأوصى ودفع كتابه إلى رجل وأمره أن ينطلق إلى أولاده ويستقرئهم

واحدًا واحدًا حتى يأتي امرأ القيس، وكان أصغرهم، فأبهم لم يجزع دفع إليه سلاحه وخيله ووصيته، وكان بين فيها من قتله وكيف كان خبره، فانطلق الرجل بوصيته إلى نافع ابنه، فأخذ التراب فوضعه على رأسه، ثم استقرأهم واحدًا واحدًا، فكلهم فعل ذلك، حتى أتى امرأ القيس فوجده مع نديم له يشرب الخمر ويلعبه بالنرد، فقال له: قُتل حجرًا فلم يلتفت إلى قوله وأمسك نديمه، فقال له امرؤ القيس: اضرب، فضرب، حتى إذا فرغ قال: ما كنت لأفسد عليك دستك! ثم سأل الرسول عن أمر أبيه كله، فأخبره، فقال: «الخمر على النساء حرام حتى أقتل من بنى أسد مائة وأجز نواصي مائة!».

وفى خبر آخر أن حجرًا كان طرد امرأ القيس وآلى أن لا يقيم معه، أنفة من قوله الشعر، وكانت الملوك تأنف من ذلك، فكان يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط من شذاذ العرب من طيء وكلب وبكر بن وائل فإذا صادف غديرًا أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه في كل يوم وخرج إلى الصيد فتصيد ثم عاد فأكل وأكلوا معه وشرب الخمر وسقاهم وغمته قياه. ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء ذلك الغدير، ثم ينتقل عنه إلى غيره، فاتاه خبر أبيه ومقتله وهو بدمون من أرض اليمن فقال: ضيغنى صغيراً وحملنى دمه كبيراً، لا صحو اليوم ولا سكر غداً، اليوم خمر وغداً امرأ! ثم شرب سبعا، فلما صحا آلى أن لا يأكل لحماً، ولا يشرب خمراً، ولا يدهن، ولا يصيب امرأة، ولا يغسل رأسه حتى يدرك ثأره، وفى الأغاني رواية أخرى عن سيبويه عن الخليل بن أحمد^(١). ثم إنه نهى إلى بنى أسد فقاتلهم، وكان أدركهم ظهراً وقد تقطعت خيله وقطع أعناقهم العطش، فكثرت الجرحى والقتلى، وحجز الليل بينهم وهربت بنو أسد، فلما أصبحت بكر وتغلب - وهم الذين كانوا معه - أبوا أن يتبعوهم وقالوا له: لقد أصبت ثأرك، قال: والله ما فعلت ولا أصبت من بنى كاهل ولا من غيرهم من بنى أسد أحداً. قالوا: بلى، ولكنك رجل مشؤوم، وانصرفوا عنه، فمضى هارباً لوجهه، حتى أمده مرثد الخير بن ذى جدن الحميرى، وتبعه شذاذ من العرب، واستأجر رجالاً من القبائل ثم خرج فظفر ببني أسد، وألح المنذر فى طلب امرئ

(١) الأغاني: ٧٥/٨.

القيس ووجه إليه الجيوش فتفرق من كان معه ونجا في عصبته، فكان ينزل على بعض العرب ويرحل حتى قدم على السموءل فعرف له حقه، فكان عنده ما شاء الله، ثم إنه طلب إليه أن يكتب له إلى الحارث بن أبي شمر الغساني بالشام ليوصله إلى قيصر، فاستنجد له رجلاً لما انتهى إلى قيصر - ذكر مورخو الروم أنه القيصر يوستينيانس، وقال بعضهم إن امرأ القيس قدم عليه في القسطنطينية فقلده إمرة فلسطين، إلا أنه لم يسع في إصلاح أمره وإعادة ملكه، فضجر وقفل راجعاً، ثم أصابه مرض كالجدري في طريقه كان سبب موته - قبله وأكرمه وضم إليه جيشاً كثيفاً فيهم جماعة من أبناء الملوك، فلما فصل من عنده وشى به [الطماح، وهو رجل من بني أسد كان امرؤ القيس قد قتل أخاً له... (١)].

ثم دفن في سفح جبل يقال له عسيب ببلدة تدعى أنقرة، وقيل إن ذلك سنة ٥٣٨ للميلاد، أي سنة ٨٤ قبل الهجرة، وقيل سنة ٥٦٥م، ووفيات الجاهلية لا يعتمد فيها على نصوص التاريخ إلا الذين تكون أدمغتهم مجلدات من التاريخ القديم...

طويلة امرئ القيس :

ذلك نبذ من تاريخ أمير الشعراء بسطنا مه بعض ما يكشف لك وجه نشأته، لتعرف الأخلاق التي كان لابد لشعره أن يظهر بها مظهر التميز والمتخصص، ثم نحن نسوق إليك طرفاً من الحديث عن طويلته، ثم نقذف بجملة الكلام عن شعره في فصل انتقادي؛ لأن امرأ القيس ليس بالشاعر الذي يقال فيه وكُد ومات، فيترجم بالفاظ لا تفوت حتى تموت، ولكنه الرجل الذي افتتح به ديوان التاريخ الأدبي، وما زال فيه كأنه قطعة من الزمن، لا يغيره الموت ولا يغييه الكفن!

كان من حديث تلك القصيدة أن امرأ القيس كان مولعاً ببنت عم له يقال لها فاطمة، وأنه طلبها زماناً فلم يصل إليها، حتى كان يوم الغدير... حين مرت به فتيات وفيهن ابنة عمه يردن الغدير ليتردن، فتبعهن مختفياً، فلما تجردن ودخلن الغدير وثب على ثيابهن فأخذها وقعد عليها، وقال: والله لا أعطى واحدة منكن

(١) الأغاني: ٧٣/٨.

ثوبها حتى تخرج كما هي فتأخذه بيدها. فأبين ذلك عليه، حتى ارتفع النهار؛ فلما خشين فوات الوقت خرجت إحداهن فوضع لها ثيابها ناحية فلبستها... ثم تتابعن على ذلك حتى فضحهن جميعاً، وذلك العهر الذى ليس بعده خلق ذميم ولا عهد أنيم، ثم حملن متاع راحلته بعد أن نحرها لهن، وحملت ابنة عمه على غارب^(١) بغيرها، فلما راح إلى أهله نفث الخبيث على لسانه، فقال هذه القصيدة وقص فيها ما كان وجعلها حديثاً باقياً على الدهر.

وقد قابلنا بين أربع نسخ منها بروايات مختلفة، فما وجدنا نسخة تساوى الأخرى فى عدد أبياتها، فهي فى الجمهرة سبعون بيتاً، وفى الديون الذى شرحه الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب ٧٧ بيتاً، وهو ينقل فى مواضع من شرحه عن ابن النحاس، فلعله قابل على نسخته؛ وفى شرح الزوزنى ٧٩، وفى نسخة أخرى من ديوانه ٧٥ بيتاً؛ وهذه النسخ تختلف مع ذلك فى كثير من الأبيات تقديماً وتأخيراً، وفى رواية بعض الألفاظ، بحيث لا تجتمع اثنتان منها على صورة واحدة.

أما القصيدة فقد وقف فيها واستوقف، وبكى واستبكى، وذكر الديار والآثار، ثم استشعر العزاء وتجلد، ثم التاع وتنهد، ثم كأنه عفا وتجدد، وذكر يوم الغدير، ووصف عقر ناقته للعذارى، وتبذله لمن تبدل الجأذر، وارتماءهن بلحمها وشحمها، ثم ألمّ بأطراف العفاف من ابنة عمه، وتعهرّ فى ذلك حتى كأن الكلام لا يمر بقلبه بل يخلقه لسانه خلقاً، إلا فى أبيات قليلة، ووصف الجمال وصفاً ظاهراً يبلغ شهوة النظر، ثم وصف طول الليل وخرج من الفخر إلى صفة الخيل، واستتبع ذلك بالصيد والقنص والطعام، ثم رفع عينيه إلى البرق والسحاب، وخفضها إلى الجبل فزمله من المطر فى ثياب أغمضها وسكت كما يسكت على خير جواب.

المختار من ذلك كله قوله:

أفاطم مهلاً بعض هذا التذلل	وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى
أغرّك منى أن حبك قاتلى	وأنك مهما تأمرى القلب يفعل
وما ذرفت عيناك إلا لتضربى	بسهميك فى أعشار قلب مقتل

(١) قلت : الغارب من البعير: ما بين السنام والعنق.

تصدّ وتبدى عن أسيلٍ وتتقى	بناظرة من وحشٍ وجرة مُظفلٍ
وليل كموج البحر أرخى سدوله	على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطّى بصلبه	وأردف أعجازاً وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى	بصبحٍ؛ وما الإصباحُ منك بأمثل
وقد أغتدى والطيرُ فى وكناتها	بمنجردٍ ^(١) قيد الأوابد هيكل
مكرّ مفرّ مقبلٍ مدبرٍ معاً	كجلمودٍ صخرٍ حطّهُ السيلُ من علٍ
له أبطلاً ظنّى وساقاً نعامه	وإخاءٍ سرحانٍ وتقريبٍ تتفل

شاعرية امرئ القيس وأسباب شهرته :

كان امرؤ القيس يمانى النسب ولكنه كان نزارى الدار والمنشأ، فإن الديار التى وصفها فى شعره كلها ديار بنى أسد، ومن ثم كانت له الفصاحة؛ وقد رأيت أن أباه وأعمامه كانوا ملوكاً، وللكهم قصة رواها صاحب الأغاني؛ فلم يألّفوا ما ألفته العرب من خشونة العيش وجفاء البداوة، بل كان أبوه حين يرتحل يقدم بعض ثقله أمامه ويهيئ نزلهُ، ثم يجيء وقد هيئ له من ذلك ما يعجبه، فضربت القباب، واجتمعت القيان، فينزل، ويقدم مثل ذلك إلى ما بين يديه من المنازل^(٢).

فلا جرم كان ميراث امرئ القيس منه هذه الكبرياء التى تمسح شعره، وتلك النعمة التى يرف بها ريفاً؛ وقد كان المهلهل الشاعرُ خاله، فنزع إليه بالعرق، واجتمع له الشعر والنعمة والكبرياء، على فراغ وشباب، فأفسدته، فشب خليعاً ماجناً يتعهر فى شعره، ولم يطرده أبوه أنفة من الشعر لأن الملوك كانت تأنف منه كما يروى، ولكن حياءً مما فيه؛ إذا كان شعره قد تغالبت عليه الشهوات حتى كأنه صورة قلبه ثم كانت العرب تروى ذلك منسوباً إلى ابن ملك من ملوكها، وقد كان أبوه أراد أن يشغله عن الشعر فجعله فى رعاء إبله حتى يكون فى أتعب عمل، فلما كان الليل بات يدور إلى متحدثه حيث كان يتحدث، فقال أبوه: ما شغلته بشيء؛ ثم أرسله فى خيله، فكذلك؛ ثم جعله فى الضأن، فمكث يومه فيها، حتى إذا أمسى أراحها، فلما بلغت المراح دنا أبوه يسمع فإذا هو يقول: أخزاه الله

(١) قلت : منجرد: اسم فرس امرئ القيس، والنجر الفرس : لاشعر عليه كما فى القاموس ..

(٢) الأغاني: ٦٧/٨ .

وقد أخزاها، من باعها خيرٌ ممن اشتراها! ثم سقط ليلته لا يتحرك، فلما أصبح قال أبوه: اخرج بها؛ فمضى حتى بعد عن الحى وأشرف على الوادى، فحشا فى وجهها التراب فارتدت. وخرج مراغماً لأبيه، فكان يسير فى العرب يستتبع صعاليكهم وذؤبانهم، ويطلب الصيد والغزل وما إلى ذلك فلم يبق فى شعره فضلٌ لشرف النفس والعفة والحفاظ، ولولا تصعلكه ومخالطته الرعاء لما جنح فى التشبيه إلى مساويك الإسحل^(١)، وحب الفلفل، ونقف الحنظل، وغيرها مما هو فى شعره؛ ولما جاء من ذلك بالساقط والسفساف، وقد عابه عليه المتأخرون وما أنصفوه، لأنه لا يكون كابن المعتز الذى إليه انتهى التشبيه فى صناعة الشعر، فهو يصف ماعون بيته إذ يقول فى الهلال:

فانظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

فانتقاد الشاعر من هذه الجهة خطأ يبين لأن ذلك سبب طبعى لا قبل للانتقاد به وهو أشبه شئ بعيب الطويل لطوله، والقصير لقصره، والحبل لنسخته، ونحو ذلك، مع أن فى تلك مناسبات أخرى تستدعى الإعجاب وتعد فى محاسن الخلق.

ولا يذهبن عنك أن الذين ينتقدون امرأ القيس وغيره بما هو من خصائص الجاهلية، إنما نشأ عندهم ذلك بعد مقابله بنعمة الحضارة وترف العمران، ولو كانوا فى الجاهلية لكانوا أجهل منه؛ ولكن فى شعر كل شاعر ما يمكن أن ينتقد فى كل زمن، وذلك مما يكون سبيله سبيل المعانى الطبيعية، ولا يتفاوت فى الناس إلا بميزات أخرى ترجع إلى النشأة وسلامة الذوق وخلوص الفطرة ونحوها من الصفات التى هى تأويل معنى التفاوت.

ومن تدبر ما نقلوه من شعر امرئ القيس يخيّل له أول وهلة أن هذه الشهرة التى رزقها ليست على مقدار شعره، ولا هى فى وزن براعته، ولكنها جاءت من ذكره فى الحديث الشريف^(٢)، وما زين به الرواة أخباره وشعره حتى كأنما عوضه الدهر من ملك النسب الأدب، ولكن ذلك إنما يعتريه إذا قرأ بعض ما نسب إليه لا

(١) قلت: الإسحل: شجر يُستاك بأعواده يشبه الأثل، ينبت فى السهول فى منابت الأراك.

(٢) قلت: الحديث هو «امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار» رواه أحمد ٢٢٨/٢.

جميعه، لأن في شعره منحولاً كثيراً، وبعضه يلائم ديابجته فيكاد يلتحم به حتى لا يميزه إلا دقيق النظر، ولا برهان لدينا على النفي والإثبات في شعر مثل امرئ القيس ومنزلته ما هي؛ وليس من شاعر أو راوية إلا وقد أحب أن يكون له في كلامه لفظ أو معنى، ولذلك تعاوروا ألفاظه بالتغيير والتبديل، وأدخلوا في شعره ما ليس منه، وقد نص بعضهم على أنه لم يصح له رلا نيف وعشرون شعراً بين طويل وقطعة^(١) ولذا نفى الأصمعي الأبيات المروية التي يقول فيها:

ألا إلا تكن إبلٌ فَمِعْزَى كأن قرونَ جَلَّتْهَا العِصَى

وقال إن امرأ القيس لا يقول مثل هذا، وأحسبه للحطيثة. فما استطاع أن يستدل على ذلك إلا بقوله فيها:

فتوسعُ أهلُها أَقْطاً وَسَمْناً وحسبكُ من غنى شَبَعٍ وريُّ

لأن مثل هذا لا يقوله من يذكر عن نفسه أنه لا يقتصر إلا على الحصول على الملك^(٢). وإنما يناسب مثل الحطيثة لما في شعره من الجشع والضراعة.

وقد بالغوا في الحمل عليه حتى كأنه دابة الشعر، فنسبوا له سَخَفَ القول وساقط الكلام وما يجرى مجرى الهذيان؛ ورأيت في بعض نسخ ديوانه قصيدة لأمية أشبه شيء بالجلجوتية وشعر الطلاس، منها:

فكم كم وكم كم ثم كم كم وكم وكم

قطعت الفيافي والمهامه لم أَمَلَّ

وكاف وكفكاف وكفى بكفها وكاف كفوف الودق من كفها انهمل

وهذا المغفل الذي نحله هذه القصيدة جرى في بعضها على قياس قوله في القصيدة التي تروى له^(٣):

وسنَّ كسْنِيْقٍ^(٤) سنَاءً وَسِنَمٍ دَعَرْتُ بِمِذْلَاجِ الهَجِيرِ نَهْوَضِ

(١) العملة : ٦٧/١ . (٢) شرح ديوان امرئ القيس : ص ١٧٥ .

(٣) ديوان امرئ القيس : ص ١١٩ .

(٤) قلت : السُنِّيْقُ : البيت المجصص، والكوكب الأبيض (جمعها) سنانيق .

ولعل هذه «الكمكمة» من قول محمد بن منذر البصري في معنى التكثير^(١).
غير أن الناقد البصير يستطيع أن يتبين أسلوب امرئ القيس من قراءة قصيدتين أو
ثلاث مما صح له، فيستخلص منها صفات شعره التي ميزته بالتقديم وجعلته أمير
الشعراء وصاحب لوائهم؛ إذ كان أحسنهم نادرة، وأسبقهم بادرة، وقبل أن تأتي
على شيء من ذلك نذكر نشأته الشعرية وما استخلصناه من الأسباب الطبيعية في
شهرته:

كان امرؤ القيس يروى شعر أبو دؤاد الإيادي يتوكأ عليه^(٢) وهو فحل قديم
كان أحد نُعَات الخيل المجيدين. قال الأصمعي: هم ثلاثة: أبو دؤاد في الجاهلية،
وطفيل، والجعدى. قال: والعرب لا تروى شعر أبي دؤاد وعدى بن زيد، وذلك
أن ألفاظهما ليست بنجدية^(٣).

فلو أن امرأ القيس لم يكن من أهل نجد لكانوا قد أهملوا رواية شعره ثم هو
كان يعرف أن امرأ القيس بن حذام يبكى في شعره الطلول؛ فأخذ ذلك عنه كما
أخذ صفة الخيل عن أبي دؤاد، وتراه يحاول أن يلحقه في إجادة نعتها والشهرة
بذلك؛ حتى لا يخلو أكثر شعره من هذا الوصف.

وقد كان يعاصره من الشعراء والمعروفين: علقمة بن عبدة، وعبيد بن
الأبرص؛ والشنفرى، وأبو دؤاد، وسلامة بن جندل، والمثقّب العبدى، والبراق بن
روحان، وتأبط شراً، والتوأم اليشكري؛ وكان من حشم أبيه شاعر اسمه عمرو بن
قصبة، وهو الذى ذكره فى قصيدته التى قالها حين توجه إلى قيصر، وذلك فى
قوله:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

وكل هؤلاء لم يقع للرواة من شعرهم مقدار ما وقع فى أيديهم لامرئ
القيس؛ فكان ذلك سبباً من أسباب تميّزه وانفراده.

وتم سبب آخر، وهو أن الذى فى يد العلماء من أهل الغريب والعربية
وعلماء البيان لا يجتمع منه لشاعر واحد جاهلى ما اجتمع لامرئ القيس؛ وهو

(٣) الطبقات: ص ٣٨.

(٢) العمدة: ٦١/١.

(١) العمدة: ٦٠/٢.

عندهم طبقة متميزة لفصاحته وقدمه؛ فشعره أشبه شئ بأقدم كتاب فى اللغة عند من يظفر به من المتأخرين، وكأنما كان بعضهم يجله عن الانتقاد فى الفاظه؛ فكل ما استعمله فصيح من حيثما تلقفه وكيفما جاء به؛ وإن كان ذلك لا شك فى صحته دون فصاحته؛ فإن أهل النظر من علماء البصرة يقولون فى تأويل بيته:

لها متنتان خَطَّاتَا كما أكب علي ساعدِيه النمرِ

إنه لما جاور فى طيء علق من لغتهم، وهم يقلبون الياء ألفاً؛ يقولون فى رضىنا: رَضَانَا؛ وكذلك خطَّاتَا أصله خطيتَا؛ فقلب الياء ألفاً؛ وهى لغة لم يلتزمها الشاعر، ولا وجه لها إلا أن يكون ميزان لسانه قد تعطل فى هذه الكلمة كما تعطل فى غيرها؛ فأنحدرت منه ثقيلة غثة باردة؛ والعجيب أن علماء المعانى والنحو والعروض انتقدوه جميعاً وأخذوا عليه أشياء كثيرة؛ ولكن مات الانتقاد وبقيت الألفاظ حية، حتى إن أكثر ما قالوه لا يُعرف اليوم ولم يُورد منه شُرَاح ديوانه إلا القليل؛ ولعلمهم فعلوا ذلك ليتكافأ الانتقاد مع شهرة الرجل، وهؤلاء أصحاب البيان ما زالوا يطأطئون من الغدائر المستشزرات فى كلامه ويضربونها مثلاً فى التنافر والثقل، ولكن (مستشزرات) هذه كانت قد رسخت قبلهم حتى لم يستطيعوا أن يحدروها عن منزلتها من الشهرة، وذلك من عجائب امرئ القيس، فإن له ألفاظاً وإن كانت أحجاراً، إلا أنها ثابتة من شهرته فى جبل.

والعلماء بالشعر يقولون إن امرأ القيس لم يتقدم الشعراء لأنه قال ما لم يقولوا، ولكنه سبق إلى أشياء فاستحسنها الشعراء واتبعوه فيها؛ لأنه أول من لطف المعانى، ومن استوقف على الطلول، ووصف النساء بالظباء والمها والبيض، وشبه الخيل بالعقبان والعصى، وفرق بين النسيب وما سواه من القصيدة، وقرب مأخذ الكلام، فقيّد الأوابد، وأجاد الاستعارة والتشبيه؛ وقلمما يخلو كتاب فى الأدب من هذه الكلمة، وهى مع ذلك مقبولة كأنها ناموس من نواميس الطبيعة فى شهرة هذا الشاعر، على أنها - كما ترى - لم تعزّز ببرهان، ولم يمسخها دليل؛ فليس ما يمنعنا أن نمسها بالمحك فنخلص إلى حقيقتها.

أما أنه أول من لطف المعانى واستوقف على الطلول إلخ، فلا يكون دليله إلا

تتبع كلام العرب عن كانوا قبله، وإدارة الأذان في هواء الجزيرة من أكنافه، وهو شيء لا يصدق مدعيه كائناً من كان، لأن العرب أنفسهم أهملوا رواية كلام أبي دؤاد كما ذكر الأصمعي، وسيله سبيل غيره، فضلاً عن أهملهم الزمن وجلدت صدورهم التي هي دواوين أشعارهم بصفحات من الكفن؛ وانظر ما معنى قول ذلك القائل: «وإنه أول من فرق بين النسب وما سواه من القصيدة» فإن هي إلا كلمة مولد قصير النظر في مطارح الكلام، كأن شعراء العرب كلهم كانوا على سنة المولدين من افتتاح القصيدة بالنسب ثم التخلّص بعد ذلك إلى ما يأخذون فيه من المعاني، وهو رأى لم يقل به أحد؛ ولا يزال في القصائد المروية قبل امرئ القيس بقية من القوة على تكذيبه.

وأما أن هذا الشاعر أول من قرّب مآخذ الكلام، فقيد الأوابد، وأجاد الاستعارة والتشبيه، فهو الصحيح، ولكن لا على أنه أول من ابتدأ ذلك، بل على أنه أول من اشتهر به وابتدع فيه، وجملة ما حفظ له منه أشياء معدودة، غير أنها لو توزّعها شعراء الجاهلية لزانتهم جميعاً.

بقى سبب آخر من أسباب شهرة امرئ القيس في العرب وبقاء شعره على الستتهم وهو أنهم يجدون في بعض كلامه رقّة المنادمة وطرب الخمر وفتور الغزل وغير ذلك مما هو من حظ القلب، ثم هم يرونه إذا أخذ في غير هذه المعاني يطبع ألفاظه على قلبها من الاستعارة والتشبيه، فإذا قابلوا ذلك بخشونة غيره وانصرفوا إلى أوصاف البداوة، وجدوا في شعره كالظل الذي يفيء، والماء الذي يجري، والحسن الذي يمتيح، والنسيم الذي يترنح؛ فكان ولا جرم كأنما يستهويهم استهواء، وكان مجموع شعره في البدو حضارة وفي الحضرة بداوة؛ وهذا مروان ابن أبي حفصة الشاعر أنشده العتبي لزهير، فقال: هذا أشعر الناس، ثم أنشده للأعشى فقال: بل هذا أشعر الناس، ثم أنشده لامرئ القيس فكأنما سمع به غناء على الشراب، فقال: امرؤ القيس والله أشعر الناس^(١) ومروان شاعر في صميم الحضارة، فكيف بالعرب؟ وعندى أن هذا أعظم ما تتميز به شاعرية امرئ القيس؛ لأنه دليل الصنعة التي تبرز على الطبع، والطبع الذي يبلغ في سموه مبلغه

(١) الطبقات: ص ٩.

بالصنعة؛ وهو الدليل الذى لو سقط من شعره لسقط بشعره لا محالة.

شعر امرئ القيس :

لم نعدّ ما عددناه من أسباب شهرة هذا الشاعر وهو قليل مجمل، إلا توطئة لما يأتى من انتقاد كلامه، فإنه عند المتأخرين أفق لا يحس إلا بالنظر، ورجل كأنما كانت شهرته قدراً من القدر، يأخذون ذلك بالتسليم، ويقولون هو أمر كان من قديم؛ مع أن أدباء الصدر الأول قد تكلموا فى خطئه فى العروض والنحو والمعانى، وعابوا عليه كثيراً من شعره وخطأوه فى وجوه من التصرف، ولا يزال ديوانه يدعو إلى ذلك، لأنه هو هو اليوم وقبل اليوم، غير أن أولئك المتأخرين أصبحوا يرون هذا الديوان كدار الآثار: لا يطمع الحى ببعض الإجلال لميت من أمواتها. . .

كل ما يتناوله امرؤ القيس فى شعره من المعانى، لا يتجاوز الغزل، والاستهتار بالنساء، ووصف الصيد والخمر والطيب والخيل والنوق وحمى الوحش والطلول والجبال والبرق والمطر؛ أما افتخاره فى شعره فقليل جيد، والحكمة فيه أقل وأكثر جودة، ومن عيونها قوله:

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف، ولم يغلبك مثل مغلب

وهو يُخرج بعض ذلك مخارج نافرة، فلا يتناسب شعره فى الجودة، ولا يطرد فى سلامة اللفظ، ولا يتشابه فى صحة المعنى، بل يجىء بالشريف والسخيف، والمبتذل والضعيف؛ حتى كأن شعره صُوّر على اضطراب أخلاقه، ولا يعلل ذلك إلا بتفاوت الأحوال التى يقول فيها، وأنه لم يكن يقصد إلى الشعر قصداً إلا فى القليل الذى أجاده وبرع فيه، أما فيما عدا ذلك فقد منعت الثقة بنفسه أن يتبع عليها ويقابل بين وجوه الكلام، وذلك بديهي: وإلا فلا معنى لأن يكون مرة نجماً فى السحاب ومرة حجراً فى التراب؛ والشاعر الذى يسف إنما يسقط فى طبقات الهواء لا فى طبقات التراب؛ ولذلك كان جيد امرئ القيس أجود شياً، ورديته أردأ شياً.

وغزل هذا الشاعر ساقط كله، لأن استهتاره وتبذله معناه أن يتلطف فى

المعاني بما يستلزمه الإبداع في التعريض والكتابة، والاكتفاء باللمحة الدالة، فبردت حرارته بذلك التصريح، وثقل على القلوب إلا قليلاً عما يفتن فيه، فيجىء حسنه من صنعة المعنى لا من المعنى نفسه، كقوله:

أغرّك منى أن حبك قاتلى وأنتك مهما تأمرى القلب يفعل؟

فإنه نزع فيه إلى الحماسة، وهو بيت لو دار في كل أمة لوجد له في شعرها موضعاً؛ وكذلك قوله:

سموت إليها بعد ما نام أهلها سمو حباب الماء حالاً على حال

وهذا البيت من مخترعاته، فإنه أول من طرق هذا المعنى وابتكره، وسلم الشعراء إليه، قال صاحب العمدة: وهو أول الناس اختراعاً وأكثرهم توليداً^(١) فلا يبغي من شعره إلا الوصف. ومداره على الاستعارة والتشبيه، وسأخذ بطرف من الكلام فيهما، ثم نفصل به إلى القول في معانيه ومبلغ انطباق ألفاظه عليها، لتبين موقع نظره في مطارح الكلام، ومذهب فؤاده من أسرار الصناعة؛ ولابد لنا هنا من التنبيه على أن الأدباء قد وضعوا أشعاراً من البديع ونحلوها امرأ القيس، يقصدون من ذلك إلى الغرض من شأن الذين اخترعوا تلك الأنواع؛ حتى يوهموا أنهم سبقوا إليها؛ أو إقامة الشاهد على بعض ما يتباغضون فيه من مبتذل الشعر.

ومن النوع الأول ما أورده ابن رشيق^(٢) بعد أن أورد بيتين لأبي نواس فقال: وأول من نطق بهذا المعنى امرؤ القيس:

لَمَنْ طَلَّلْ دَارِسُ آيَةً أَضَرَّ بِهِ سَالِفُ الْأَحْرَسِ

تَنَكَّرَ الْعَيْنُ مِنْ جَانِبٍ وَيَعْرِفُهُ شَغَفُ الْأَنْفَسِ

وليس فيما دونوه لامرؤ القيس؛ والتوليد فيه بين.

ومن الثاني ما أورده ابن رشيق أيضاً^(٣) عند الكلام على التقطيع والتقسيم من باب الترصيع، كقول المتنبي:

(١) العمدة: ١٧٥/١.

(٢) العمدة: ٥٥/٢.

(٣) العمدة: ٢٥/٢.

أَقْلُ أَنْلِ اقْطَعْ أَحْمِلْ عَلى سَلٍّ أَعِدِّ

رَدْ هَشٍّ بِشٍّ تَفْضِلْ أَدِّنْ سُرٍّ صِلْ

فإنه قال: وأصل هذا كله من قول امرئ القيس:

أَفَادَ فَجَادَ، وَشَادَ فَزَادَ وَقَادَ فَذَاذَ، وَعَادَ فَأَفْضَلَ

ومهما تهافت امرؤ القيس فلا أراه يسقط على مثل هذا.

استعاراته:

قالوا إن الاستعارة إنما هي من اتساعهم في الكلام اقتداراً ودالة، وليس ضرورة؛ لأن ألفاظ العرب أكثر من معانيهم؛ وليس ذلك في لغة أحد من الأمم غيرهم، فهم إنما استعاروا مجازاً واتساعاً، ومرجع ذلك إلى شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيد المبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ، أو بحسن المعرض الذي يبرز فيه، تبسطاً في اللغة، واسترسالاً في طرق التعبير، فعلى هذا تكاد تكون الاستعارة البيان كله، وليس من غرضنا أن نشرح أقسامها، أو نلم بما قالوه في تحقيقها، وإنما نتكلم عليها في شعر امرئ القيس خاصة، فهي التي ميزت شعره، وقلدت في جيد الزمان درّه، وأكسبته شهرة أنه أول من أفلح في شق هذه الصدقة حتى زعم ابن وكيع^(١) أن أول استعارة وقعت في الكلام قوله:

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلى

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل

وليس يخفى أن العربي الذي يجيء بالاستعارة المتمكنة إنما كان ينظر فيها ويديرها إدارة، بحيث لا تتفق اتفاقاً ولا تجيء عفواً إلا في النادر، ولذلك قل الجيد منها في كلامهم حتى نزل القرآن، فتكون من هذه الجهة اختراعاً يدل على قوة غير قوة الفطرة، وهي في شعر امرئ القيس أكثر منها في المأثور من شعر غيره من الجاهلية، وأصفي ماء، وأعذب رواء، وحسب ذلك أن يكون دليلاً على تفضيله، وأشهر الاستعارات التي اتفقت له هذان البيتان.

(١) العملة: ١٨٦/١.

فاستعار لليل سدولاً يرخيها، وصلباً يتمطى به، وأعجازاً يردفها وكلكلاً ينوء به. وقد تنازعهما الأدباء، حتى جرى مجرى المثل، وقلما تجد كتاباً في البيان خالياً منهما، وقد ذكر الأمدى في الموازنة البيت الثانى، ورد عليه ابن سنان وجعله من الاستعارة المتوسطة، وفرق بينهما صاحب المثل السائر، ولكنه على كل حال بمنزلة من الحسن.

وسنخط في البيتين كلمة موجزة: أما الأول فإن تشبيه الليل بموج البحر تشبيه لا أحسن منه، لما يجيش فيه من الظنون ويتقلب من الخواطر، ثم هو مرمى البصر من سريرة الكون؛ فذلك شبه اتساع البحر وغوره بالنسبة لما يدرك النظر منه، غير أن قوله: أرخى سدوله، ذهب بذلك الحسن كله، إذ أفاد أن الغرض من التشبيه غرض محسوس، وهو أدنى أنواعه؛ لأن إرخاء السدول إنما يدل على السكون والحجاب، لا أكثر من ذلك، والكلمة استعارة لظلام الليل، فصارت لفظه الموج لا معنى لها إلا إقامة الوزن، وهى التى كانت عمود الحسن فى التشبيه.

وأما البيت الثانى فقد أجمعوا على أنه فى وصف طول الليل، ولست أراه كذلك، وإلا فلو تمطى كلب ما زاد فى وصف طوله على هذه الألفاظ، وإنما أراد الشاعر ثقل الليل وفتوره، وأنه كلما هم أن ينجلي سقط، كما يفعل الذى يتمطى ثم يردف أعجازه ثم ينوء بكلكله. فالوصف حقيقة ممثلة لتصوير ناطق، وعلى ذلك المعنى تكون الاستعارة أبلغ ما يمكن أن يقع فى هذا الموضع، وما أخطأ من عده من التشبيه المضمحل الأداة، لأنه به أليق.

ومن تصرفه بالاستعارة فى شعره قوله:

وهرٌ تصيد قلوب الرجال وأفلت منها ابنُ عمرو حُجْرٌ

هرٌ: هى المعروفة بابنة العامرى، وكان يشبب بها امرؤ القيس، وبفاطمة، والرباب، وهند، وفرتنا، وليس؛ وسلمى، ومعنى البيت أن أباه أفلت منها، ولو رآها لصادته فيما تصيد. قالوا: واستعارة الصيد مع الهر مضحكة، ولو أن أباه من فارات بيته ما أسف على إفلاته منها هذا الأسف...!

فقد ألزموه الاستعارة كما ترى حتى قارنوا بينها وبين استعارة زهير في قوله^(١):

ليثٌ بعَثَرٌ يصطاد الرجال إذا ما كَذَّبَ الليث عن أقرانه صدقا

ولكنهم جهلوه فيها هذا الجهل وكيف يمثله من مثله؟ والذي أرى أنهم غفلوا عن المعنى الذى قصد إليه؛ فإن هرا كانت من كلب، وكان امرؤ القيس فى كلب وطىء أيام نفاه أبوه، فهو إنما يتنادر عليه، وإذا خرج البيت على هذا المعنى كانت الاستعارة فيه متوسطة، ولكنها تكون سبباً لكناية من أبلغ الكنايات...

ومن استعارته البديعة كلمته التى كأنما قيد بها شهرته فى هذه الحياة، وذلك قوله فى الجواد: قيد الأوابد؛ ولقد حاول المولدون أن يجيئوا بمثلها، غير أنها بقيت مفردة، وذلك كقول ابن الرومى فى الحديث: شرك العقول وعقلة المستوفز، وقول المتنبي فى صفة الجواد: أجل الظليم وربقة السرحان، ورأيت لدريد بن الصمة كلمة تكاد تساويها فى الحسن، وهى فى قوله:

يا فارساً، ما أبو أوفى إذا اشتغلت كلتا اليدين كروراً غير وقاف
(عُبرُ الفوارس) معروف بشكته

كاف إذا لم يكن من كربة كاف

فالكلمة هى (عُبرُ الفوارس) يريد بها أن الفوارس ترى منه ما يُبكي أعينهم ويستعبرها^(٢).

وهذا وأمثاله مما يدل على فطنة الشاعر وحدة فؤاده، وأن له من قوة الفطرة ما يقوم مقام الصنعة؛ وتلك صفات يدل عليها كثير من كلامه، غير أن امرأ القيس إنما كان مبتدئاً فيما ابتدع، ولذلك لا يمكن أن يؤخذ البديع كله من شعره، وليس هذا بضائره ونحن الآن فى الكلام عن استعاراته؛ ومن الاستعارة نوع اتفق علماء البديع أنها المقدمة فى هذا الباب وليس فوق رتبها فى البلاغة رتبة، وهى الاستعارة المرشحة، كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ

(٢) سرح العيون : ص ٢٥٥ .

(١) العمدة : ١٨٣/١ .

تَجَارَتْهُمْ...»^(١) فإن الاستعارة الأولى وهى لفظ الشراء، رشحت الثانية وهى لفظ الربح والتجارة؛ وهذا النوع لا تصيب منه فى شعر امرئ القيس مثلاً واحداً؛ والذيبقى من استعاراته إنما هو فى سبيل ما قدمناه، وهو قليل تدل جملته على قلب يعى وفؤاد يصنع، وشعر فى زمنه شاعر؛ ولا نستطيع أن نوازن بين مذاهبه فى الاستعارة ومذاهب المولدين، فلو سمع هذا الشاعر القرآن وكان أموياً أو عباسياً، لكان ابن المعتز ثانى اثنين فى الاستعارة والتشبيه.

وقد أخرجوا من كلامه كلمات جرت أمثالا، ورواها الميدانى والضبى وغيرهما^(٢).

تشبيهاته :

قد قلنا فى استعارات امرئ القيس، وترسمنا آثاره فى ذلك المذهب بما يؤدى إلى حكم فى الصناعة، ويكشف عن غاية من غايات الرجل؛ ونحن وإن لم نكن أفضنا فى ذلك، إلا أن هذا المنزع قريب، ربما أغنى فى بعضه المثال الواحد؛ إذ كان امرؤ القيس مبتدئاً فى شىء ومبتدعاً فى شىء، وجهده فى جميع ذلك أن تُخصى له الكلمات المحدودة، وهى لا تحتل الإفاضة على تقسيم الكلام إلى فصول وتميز بعضها من بعض. ثم هو إنما كان شاعراً من شعراء الفطرة، يعرض للسانه القول كما يعرض لعينه الوحش؛ فينطلق كلاهما على نفس واحد يصنع القليل ولا ينقح الجملة؛ فكان ما يجىء فى كلامه من بدائع الصنعة هو الدليل على فضل قوته التى تغمر فؤاده وتصرفه إلى مشايعة طبيعة اللغة فى النمو، ولو صرفت تلك القوة إلى الصنعة التى يعرق فيها الكلام من كثرة تقليبه، لكان للكلام فى شعره مذهب آخر؛ وأنت قد تجد للمتنبى بيتاً واحداً لو جُمع اختلاف العلماء فيه لزاد على اختلافهم فى جميع شعر امرئ القيس.

أما تشبيهاته فهى بجملتها ترمى إلى غرض واحد، وهو تصوير الحقيقة تصويراً غير ملون، وله فيها طرائق بديعة هو أول من ابتكرها، كتشبيه الإضافة فى قوله:

(١) سورة البقرة: ١٦

(٢) شعراء النصرانية: ٦٨/١.

له أَيْطَلَا ظَبْيِي وَسَاقَا نَعَامَةً وَإِرْخَاءَ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيبَ تَنْفَلٍ

فقد جاء به - كما ترى - حتى جعله تحقيقاً، وفيه أيضاً تشبيهه بأربعة بأربعة، وقد زعم الفرزدق أنه أكمل بيت قالته العرب، أو قال: أجمع بيت^(١) وهو أول من فتح هذا الباب^(٢).

وقد يجيء بعضها مُخْدَجاً^(٣) غير تام الأجزاء، وتبلغ ببعضها المبالغة إلى الاعتساف والشطط، كقوله في صفة الفرس:

وَأَرْكَبُ فِي الرُّوعِ خَيْفَانَةً كَسَا وَجْهَهَا سَعْفٌ مُتَشِيرٌ

الخيفانة: الجرادة التي انسلخت من لونها الأول الأسود أو الأصفر وصارت إلى الحمرة، فشبه فرسه بها لخفتها، وشبه ناصيتها بسعف النخلة، قالوا: وهذا الوصف غير مصيب، لأن الشعر إذا غطى العين كان عيباً، وهو الغم، والحسن منها أن تكون الناصية كأنها حبشة، أي قصيرة مجتمعة^(٤) وفي هذه القصيدة وهو مما نحن فيه:

لَهَا مَتْنَانٌ خَطَايَا كَمَا أَكَبَّ عَلَى سَاعِدِيهِ النَّمِرُ

يريد أن لها متنين كساعدي النمر المبارك، في الغلظ واكتناز اللحم؛ والمستحب عندهم تعريق المتن وتعريق الوجه، كما قال طفيل وهو أحد نُعَاتِ الخيل المجيدين:

* مَعْرِقَةُ الْأَلْحَى تَلُوحُ مَتُونُهَا *

أي معرقة الوجوه ويكاد يستبين العصب من قلة اللحم، وكذلك المتون؛ وقد وصف امرؤ القيس الخيل في هذه القصيدة وصف سمسار يزين فرساً في السوق لا وصف فارس، ولولا تصعلكه لجاد من ذلك بما لا يلحق له الشعراء غباراً، وهذا شيء تعرفه بمقارنة معانيه في الخيل بمعاني غيره من فرسانها. ومن قبل ما نحن فيه قوله في الغزل:

وَإِذَا هِيَ تَمْشِي كَمْشَى النَّزِيرِ فَيَصْرَعُهُ بِالْكَثِيبِ الْبَهَرُ

(١) العمدة: ٢١/٢.

(٢) العمدة: ١٩٩/١.

(٣) قلت: مخدجا: ناقصا.

(٤) ديوان امرؤ القيس: ص ١٣.

يصف تَفْتُرُ الحسنة فى مشيتها بمشية المنزوف دمه أو عقله بالسكر إذا صعد كثيراً فانقطع نفسه من الإعياء والكلال، فانظر هذه المبالغة الباردة وهذا التشبيه القبيح، وما عسى أن تكون تلك الحسنة إلا فى الدرجة الثالثة من السل...

ولهذا الشاعر طريقة فى التشبيه جاء منها بأبيات معدودة، وهى تناسب التبع الذى ستكلم عنه، لأنه كان أول من اخترعه؛ وهذه الطريقة هى أن يريد من الوصف ما يلزم من حقيقة المثلة فى الذهن، وقد اتفق له من ذلك ما يُعدُّ غاية فى الحسن، كقول فى وصف سالفه الفرس:

وسالفه كسَحُوقِ اللبى ن أضرمَ فيها الغوى السُّعْرُ

فلقد أراد من وصف عتق الفرس بأنها شجرة متوقدة من شجر الكندر ما يستتبعه هذا الوصف من لون النار، وهى الشُّقْرة، فكأنه أراد أن يقول إن فرسه شقراء، فاحتال لذلك بهذا التشبيه البديع، وقد أخذ هذا التشبيه أوس بن حجر فقال:

حتى يلف نخيلهم وبيوتهم لهبٌ كناصرية الحصان الأشقر

وبيته معدود عند أهل البديع من عجب ما وقع فى باب التبع^(١)؛ لأنهم يقولون إنه أراد الحرب التى هى المقصود بالصفة.

وبمقدار ما أحسن امرؤ القيس فى هذا القول أساء فى قوله:

كان على لَبَّاتها جَمْرٌ مُصْطَلٍ أصاب غَضاً جَزْلاً وكُفَّ بأجزاء
وهبَتْ له ريح بمختلف الصَّوى صَباً وشمالاً فى منازل قُفَّالِ

وهى على طريقته تلك؛ فإنه أراد أن يصف توقد الحلى وصفاءه على لبات تلك الحسنة، فخلص إلى ذلك من طريق الشياطين والزبانية... إذ لم يكفه أن جعله على صدرها كالجمر، بل خصه بجمر المصطفى، لأنه لا يزال يُذْكيه ويقبله فهو يتوقد ويظهر جمرة جمرة، ثم كأنه استقل هذا كله على صدرها فجعل الجمر من الغضا، وهو شجر معروف يقال إن جمره أبقى الجمر وأحسنه، ثم جعل لهذا

(١) العمدة: ٢١٧/١.

الجمر كفافاً من أصول الشجر، وهى الأجزاء، حتى تزيد فى وهجه وتوقده، ثم لما كان قد تلك الحسناء لابد أن يكون ممشوقاً فقد جعل هذه النار من صدرها على مثل البفاع من الأرض، لتكون الريح أشد تمكناً منها، ثم جعلها فى منازل راجعين من الأسفار فهى توقد لهم ويحتفل فيها على ما هو معروف من عوائدهم. فليت شعرى هل يبقى بعد هذا الحريق من لبات الحسناء ما يُنَاطُ به الحلى، فضلاً عما يظهر حسنه وتوقده...؟

وأعجب شىء فى أوصاف امرئ القيس وهو ابن ملك، أنه يصف الجميلة بحسن الغذاء، ويصف سنا البرق بمصاييح راهب أهان فى ذُبَالِها السَّلِيط، وهو الزيت، فلم يعزه لكثرته عنده... وهكذا مما لا يؤخذ منه إلا أنه كان صعلوكاً يصف للصعاليك، وهو دليل أيضاً على ما قدمناه من أن شعره صورة غير مرتبة من حياته.

ومن بدائع التشبيه التى اتفقت له قوله:

سموتُ إليها بعد ما نام أهلها سُمُو حَبَابِ الماءِ حالاً على حال

المراد بحباب الماء: إما طرائقه، أو فقائعه؛ فمن ذهب إن الحباب الطرائق فإنما أراد: أنى جئت أتدفعُ إليها كما يتدفع الماء شيئاً بعد شىء حتى صرت إلى ما أريد، ومن ذهب إلى أن الحباب الفقائيع، فإنه أراد خفة الوطاء وإخفاء الحركة؛ وكلا المعنيين غاية فى تصوير تلك الحال، مع اللطف والرقّة وبراعة التشبيه؛ وقد تقدم أنه من مخترعاته التى سلمها له الشعراء، وهو أحد المعانى التى تلمّ بها خواطرم فتختلس منه ما تختلس الألفاظ، وكثيرون قد ألوا به، ولكن الغاية فى ذلك قول ابن شهيد الأندلسي^(١):

ولما تملأ من سُكرِهِ	ونام ونامت عيون الحَرَسِ
دَنَوْتُ إليه على قَرِبِهِ	دَنُو رَفِيقِ درى ما التمسِ
أَدَبَ إليه ديبَ الكرى	وأسمو إليه سُمُو النَّفْسِ

(١) نفع الطيب : ١٤٣/٢.

ومن هذه القصيدة قوله يذكر العقاب حين شبه فرسه بها، وهو من المخترعات أيضاً في معناه، وأسلوبه طريقة من طرائقه المبتكرة:

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العنابُ والحشف البالى

العنابُ ثمر أحمر، والحشف ما ييس من الثمر ولم يكن له طعم ولا نوى. وقد أجمع الرواة على أن هذا أحسن بيت جاء فى تشبيه شيئين بشيئين فى حالتين مختلفتين. وتقديره: كأن قلوب الطير رطباً والعنابُ ويابساً الحشفُ البالى؛ فشبه الطيرىء من القلوب بالعناب، والعنابُ بالحشف؛ وخص قلوب الطير، لأن فرخ العقاب فيما يقال يأكل لحم الطائر ما خلا قلبه، فلذلك كثرت قلوب الطير عندها، وقيل غير ذلك. والتشبيه كما ترى ليس بشيء، غير أن الطريقة التى جاء بها هى دليل من الأدلة على فضل صاحبها، ولم يُحفظ قبل امرئ القيس بيت على هذا النمط، فهو أول من جاء بذلك من الشعراء، وقد رووا أن بشار بن برد قال: ما قرّبى قرار بعد أن سمعت بيت امرئ القيس حتى صنعتُ:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا، ليلٌ تهاوى كواكبه

فقد اتبع الطريقة نفسها؛ وقالوا فى بيته إنه لم يقع بعد بيت امرئ القيس فى الترتيب أحسن منه؛ ولكن البيت الأول يُفضله بأنه أورد التشبيه فى حالتين مختلفتين، إذ قلوب الطير واحدة، ولكن التشبيه إنما وقع على حالتها من الطرأة واليؤسة، وقد غفل عن ذلك بشار؛ وبالجملة فإن امرأ القيس وسط بين شعراء التشبيه؛ وإن كان قد أكثر منه واحتذى فيه فعل أبى دؤاد والمهلهل وغيرهما، إلا أن له طرقة فى هذا التشبيه هى من مبتكراته، وهى كل ما فى يدنا من الأدلة على براعته وحسن تصرفه ورجحانه على غيره من متميزى الشعراء. وقد عدل المولدون عن تشبيهات الجاهلية إلى ما هو أليق بأزمانهم وأدنى شبهاً منها، ولكنهم مع ذلك لا يزال فى مجموع أشعارهم موضع لبعض أبيات امرئ القيس، كقوله: سموت إليها... وغيره، على أن أكثر شعراء الجاهلية قد خرجوا من هذا الباب، ولم يرض المولدون أن يقفوا عليه ولا وقفة الحُجّاب!

تمة الانتقاد :

بقى علينا - بعد أن تكلمنا فى استعارات امرئ القيس وتشبيهاته - أن نأتى على بقية هذا الكلام مما يصف معانيه وألفاظه وما يقع عليه الناقد فى سائر كلامه ويصبيه من حسناته المتفرقة فى كتب البيان، وقد أشرنا إلى بعض مبتكراته تلك ونحن مُستوفون سائرهما هنا: قالوا: إنه أول من فتح باب الاحتراس، وذلك فى نحو قوله:

إذا ركبوا الخيل واستلأموا تحرّقت الأرض واليوم قر^(١)

أى واليوم بارد، فاحترس وكان الاحتراس بالقافية التى هى تمام البيت وهذا من أبدع ما يجىء، لأنه يزيد فى تمكين القافية ويكسبها عزة لا تكون لكلمة غيرها فى البيت بجملته.

وقد رأينا هذا الشاعر يبالح فى استقصاء جزئيات المعانى مبالغة هى طبع فيه، وهى عند التى هيات له مثل هذا الاحتراس، وقد مر من ذلك ما وصف تَوَقُّدُ الحلى، ومثله فى كلامه كثير وسيمرّ بك شىء من بديعه، وكذلك قالوا فى التتبع، وهو من أنواع الإشارة، وذلك أن يريد الشاعر ذكر الشىء فيتجاوزه ويذكر ما يتبعه فى الصفة وينوب عنه فى الدلالة عليه. قال ابن رشيق: وأول من أشار إلى شىء من ذلك امرؤ القيس يصف امرأة^(٢):

يُضْحى فَتَيْتُ الْمَسْكِ فوق فراشها نَزُوم الضُّحَى لم تنتطق، عن تَفَضُّلٍ

فقوله (يضحى فتيت المسك) تتبع، وقوله (نزوم الضحى) تتبع ثان، وقوله (لم تنتطق عن تفضل) تتبع ثالث، وإنما أراد أن يصفها بالترف والنعمة وقلة الامتهان فى الخدمة، وأنها شريفة مكفّية المؤنة، فجاءها بما يتبع الصفة ويدل عليها أفضل دلالة.

وقال ابن رشيق أيضاً فى باب التمثيل الذى هو من ضروب الاستعارة - وذلك أن تمثل شيئاً بشىء فيه إشارة إليه - إن امرأ القيس أول من ابتكره، ولم يأت أملح من قوله فيه:

(٢) العنبة: ٢١٥/١.

(١) ديوانه: ص ٦.

وما ذرفت عيناك إلا لتضربى بسهميك فى أعشار قلب مُقتل

فمثل عينيها بسهمى الميسر، يعنى المُعلّى وله سبعة أنصباء، والرقيب وله ثلاثة أنصباء، فصار جميع أعشار قلبه للسهمين اللذين مثل بهما عينيها، ومثل قلبه بأعشار الجزور، فتمت له الاستعارة والتمثيل^(١).

وقال فى الإيغال: وهو ضرب من المبالغة إلا أنه فى القوافى خاصة لا يَعدوها: وليس بين الناس اختلاف أن امرأ القيس أول من ابتكر هذا المعنى بقوله يصف الفرس:

إذا ما جرى شأوين وأبتلَّ عِظْفُهُ تقولُ هزيرُ الريح مرّتْ بأثاب

فبالغ فى صفته وجعله على هذه الصفة بعد أن يجرى شأوين ويبتلَّ عِظْفُهُ بالعرق، ثم زاد إيغالاً فى صفته بذكر الأثاب، وهو شجر للريح فى أضعاف أغصانه حفيف عظيم وشدة صوت، ومثل ذلك قوله:

كأن عيونَ الطير حول خبائنا وأرحلنا الجزعُ الذى لم يُثَقِّبِ

فقوله (لم يثقب) إيغال فى التشبيه، واتبعه زهير فقال:

كأن فئات العهن فى كل منزل نزلن به، حَبُّ الفنا لم يُحَطِّم

فأوغل فى التشبيه إيغالاً، بتشبيهه ما يتناثر من فئات الأرجوان بحب الفنا الذى لم يُحَطِّم، لأنه أحمر الظاهر أبيض الباطن؛ فإذا لم يحطم لم يظهر فيه بياضُ ألبته وكان خالص الحمرة؛ وتبعهما الأعشى فقال يصف امرأة:

غَرَاءُ فَرَعَاءُ مصبِقولُ عوارِضها تمشى الهوينا كما يمشى الوحى الوجِلُ

فأوغل بقوله (الوجِل) بعد أن قال الوحى؛ وبهذا تستدل على أن الشعراء كانوا يهتدون فى الصنعة بامرئ القيس، فكان شعره لهم أشبه بكتب البلاغة للمتأخرين؛ وما من نوع من الأنواع التى سلفت إلا وقد اتبعوه فيها وانسحبوا على أثره. وعلى تقليب المولدين لهذه الأنواع حتى لم يغادروا فيها مطمعا - بقى من

(١) كانت الجزور تقسم على عشرة أعشار، والمراد أنها ضربت على قلبه بالسهمين فاخترته كما تختار بهما أعشار الجزور.

شعر هذا الرجل ما هو فى بعض نسيج وحده، والمثال الأول فى الدلالة على حده.

أما ما جاء فى شعره من أنواع البديع غير ما ذكرناه، مما مثلوا له فى كتبهم بشىء من قوله: كالاتفات، والتقسيم، والمقابلة، والغلو، ونفى الشىء بإيجابه فى قوله:

* على لاحب لا يهتدى بمناره *

أى لا منار له فيهدى به؛ والاتساع، والاشتراك، والإشارة، والإرداف، والترصيع، وجمع المؤنث والمختلف، وغيرها - فلم ينص أحد من علماء البديع على أنه أول من جاء به، على أنهم فى أكثر ذلك لا يستدلون بشعر شاعر معروف قبله أو معاصر له، فإن لم يكن وقع من ذلك شىء فهو مبتكره ولكن شعره على الجملة فى ذلك مثال حسن؛ وبعضه لا يعدلون به شيئاً، كما ذكروا فى التكرار الذى لا يكون إلا على جهة التشويق والاستعذاب إذا كان فى تغزل أو نسيب - أنه لم يتخلص أحد تخلص امرئ القيس، ولا سلم سلامه فى هذا الباب إذ يقول:

ديارٌ لَسَلِمَى عافياتٌ بذى الخال	أَلَحَّ عليها كلُّ أسحَمٍ هَطَالٍ
وتحسبُ سلمى لا تزال كعهدنا	بوادى الخُزَامَى أو على رأس أو عالٍ
وتحسبُ سلمى لا تزال ترى طَلاً	من الوحش أو يَبِضاً بِمِثاءٍ مَحَلالٍ
ليالى سُلَيْمَى إذ تريك مُنْضداً	وجيداً كجيد الرُّثم ليس بمَعطالٍ

ولكن بعض تلك الأنواع اتبع فيها امرؤ القيس غيره، كما احتذى فى الغلو على قول مهلهل:

فلولا الريح أسمع من بحجر صليل البيض تفرع بالذكور

وهو الذى قالوا فيه إنه أكذب بيت قالته العرب، لأن بين حجر - وهى قصبة اليمامة - وبين مكان الوقعة عشرة أيام، فقال امرؤ القيس يصف النار:

تَنَوَّرَتْها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نَظَرٌ عالٍ

وفاضلوا بين البيتين فقالوا إن مهلهلاً أشد غلواً من امرئ القيس، لأن حاسة

البصر أقوى من حاسة السمع وأشد إدراكاً، ثم اتبع امرؤ القيس النابغة فى قوله
يصف السيوف:

تقدّ السلوقي المضاعف نسجه وتوقدن بالصقّاح نار الجباب

قالوا: وهو دون بيت امرئ القيس فى تنوّر صاحبة إفراطاً، ودون بيت النابغة
قول النمر بن تولب فى صفة السيف أيضاً:

تظل تحفر عنه إن ضربت به بعد الذراعين والساقين والهادى

إذ ليس خارجاً عن طباع السيف أن يقطع الشىء العظيم ثم يغوص بعد ذلك
فى الأرض؛ فالغلو فيه ضعيف؛ وقد كدنا نخرج عما نحن بصدد منه؛ والآن فقد
تبين أن هذا الشاعر بصير بصنعة الكلام؛ وأن فضله إنما هو فى طريق إيراد المعنى
مما يلتحق بتأليف اللفظ وتصريف الأسلوب؛ وانظر إلى قوله:

كأننى لم أركب جواداً للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال

ولم أسبأ الزقّ الروى ولم أقُلْ لخليّ كرى كره بعد إجفال

فقد اعتّرض فى هذين البيتين وقيل: خالف وأفسد ولو جمّع الشىء وشكله،
فذكر الجواد والكر فى بيت، والنساء والخمر فى بيت، لكان أصوب، وإنما غفلوا
عما قصد إليه من هذا الترتيب، وذلك أن اللذة التى ذكرها فى البيت الأول إنما
هى الصيد، ثم حكى عن شبابه وغشيانه النساء، فجمع المعنيين للتضاييف بينهما،
ولو نظم البيت كما قالوا لنقص فائدة تدل عندهم على الملك والسلطان، وكذلك
لو فعل فى البيت الثانى لكان ذكره اللذة رائداً فى المعنى، لأن الزق لا يسبأ إلا
للذة، وإنما وصف نفسه بالفتوة والشجاعة بعد أن وصفها بالتملُّك والرفاهية. وقد
أتبعه المتنبي فى قوله:

وقفت وما فى الموت شك لواقف

كأنك فى جفن الردى وهو نائم

تمرُّ بك الأبطالُ كلمى هزيمة

ووجهك وضاحٌ وثغرك باسم

وذكر الواحدى فى شرحهما اعتراض سيف الدولة عليه وعلى امرئ القيس
وتخلص المتنبي لنفسه وله، غير أن ترتيب امرئ القيس أبداع وفيه من الفائدة ما
ليس فى بيتى أبى الطيب.

بقى أن نذكر بعض المآخذ التى أصبناها فى شعر هذا الشاعر، فمن ذلك أنه
له استعانة ضعيفة بالحروف والكلمات، كقوله:

* ألا ربّ يوم لك منهمّ صالح *

وإن له تكراراً قبيحاً فى الألفاظ والمعانى يجىء بها على وجه واحد فى
مواضع مختلفة من غير أن يتصرف فى ذلك بما يخفى قبح هذا التكرار وينفى عنه
الظنة.

ومنها دخوله فى وجوه المناقضة والإحالة فى بعض الكلام، وذلك مما يدل
على أنه يرسله إرسالاً كما اتفق، لا يبتغى به إلا لذه المنطق، وإلا مواتاة ما فى
نفسه من الميل إلى القول؛ وبهذا كان ختام قصائده مقتضباً، وقلما قطع الشعر
على كلمة بديعة إلا فى القليل كختام قصيدته السينية:

ألا إن بعد العُدم للمرء قنوةً وبعد المشيب طولَ عُمرٍ وملبساً

فكان الشعر يُقترَحُ عليه اقتراحاً فتى فرغ من المعنى الذى يريده سكت دون أن
ينظر إلى موضع السكوت وأن الإصابة فيه كأحسن الكلام.

ومنها استعمال الكلام المؤنث فى شعره، كقوله لك الويلات إنك مُرجلى،
ونحوه، دون أن يوطئ لذلك بما يحسن التضمين ويخرج الكلمة المؤنثة مخرجاً لا
يكفى فيه أن يكون حلقياً فقط...

أما ما وقع له غير ذلك من اضطراب بعض القوافى وثقل الألفاظ مما يكدر
لسان الناطق المتحفظ، فذلك متجاوزٌ عنه بعذر البداوة، والغريب عندنا مألوف
عند أهله.

المنازعة بين امرئ القيس وعلقمة :

لما نزل امرؤ القيس فى طيء تزوج امرأة منهم تسمى أم جندب، وكان مُفرَّكاً

وكانت تكرهه، فنزل به علقمة بن عبدة فتذاكر الشعر وادّعاه كلُّ واحد منهما على صاحبه، فقال علقمة: فقل شعراً تمدح فيه فرسك والصيد، وأقول في مثل ذلك، وهذا الحكم بيني وبينك - يعنى تلك المرأة - فبدأ امرؤ القيس يقول:

خليليّ مرّاً بى على أمّ جندب نُقْضُ لُباناتِ الفؤادِ المعذب

فنعت فرسه والصيد حتى فرغ، وقال علقمة:

ذهبت من الهجران فى غير مذهبٍ ولم يك حَقّاً كل هذا التجنبِ

فنعت فرسه والصيد حتى فرغ، وكان فى قول امرئ القيس:

فللسّاقُ ألُهوْبٌ وللسّوطِ درّة وللزّجرِ منه وقعُ أهْوَجٍ مُنْعَبِ

وفى قول علقمة:

فأقبل يهوى ثانياً من عنانه يَمُرُّ كَمَرُ الرّائحِ المُتَحَلِّبِ

فتحاكما إليها، فقالت: هو أشعر منك، لأنك ضربت فرسك بسوطك وامترته بساقل وزجرته بصوتك وأدرك فرس علقمة ثانياً من عنان^(١).

وفى رواية أخرى أنهما احتكما إلى أم جندب لتحكم بينهما، فقالت: قولاً شعراً تصفان فيه الخيل على روى واحد وقافية واحدة، فأنشدها جميعاً، فلما حكمت لعلقمة قال امرؤ القيس: ما هو بأشعر منى ولكنك له وامقة^(٢)؛ فطلقها فخلفه عليها علقمة. (ابن قتيبة)

وما رأيت أحداً من أهل النقد وازن بين القصيدتين، بل كلهم متبعون كلمة هذه المرأة، وبعضهم لا يعرف ما كان بينها وبين امرئ القيس فيقول إنهما تحاكما إليها فى المفاضلة بينهما لأنها من ذوات العقل والمعرفة. مع أن علقمة معدود من الشعراء المغلّبين وامرؤ القيس يقول فى قصيدته:

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف، ولم يغلبك مثل مُغَلِّبِ

وما أرى أم جندب إلا أرادت ما تريد الفارك من بعلمها، فقرعت أنفه على

(١) ديوان امرئ القيس: ص ٧٧.

(٢) قلت: ومق: أحب، وتومق تودد كما فى القاموس.

حَمِيَّةٌ ونخوةٌ وهى تعلم أنها لابد مُسَرَّحةٌ فى زمام هذه الكلمة، وإلا فالبيت الذى توافيا على معناه ليس بموضع تفضيل، لأن فى قصيدة امرئ القيس ما هو أبلغ فى هذه الصنعة من بيت علقمة، وهو قوله:

إذا ما جرى شاورين وأبتلَّ عِظْفُهُ تقولُ هزيرُ الريحِ مرَّتْ بأثابِ

وقد مر شرحه وبيان وجه البلاغة فيه، ولكن من التمس عيباً وجده، ومن تدبر صنعة امرئ القيس للخيال فى شعره وجد السوط لا يفارقه، فلعلها كانت عادته.

وقصيدة علقمة بجملتها ليست بشيء، لأن كل ما فيها من الألفاظ البارعة والمعانى الحسنة مأخوذ من قصيدة امرئ القيس، حتى ليأخذ البيت برمته والشرط بحاله، ومع ذلك فقد أبرّ عليه امرؤ القيس، فى الصنعة، وما أدرى كيف هذا، فلولا أن الرواة مجمعون على أن قصيدة علقمة مما صح له لقلت إنها مصنوعة، ثم إن الذين رووا خبر هذه المنازعة منهم، وهم عمرو بن العلاء؛ وأبو عبيدة، والأصمعى، لم يزدوا شيئاً على ما سبق، وكان طبيعياً أن يتكلم امرؤ القيس فى ذلك كلمة، لأن علقمة إنما رد إليه بضاعته، ولن يبلغ التوارد بين الشاعرين هذا المبلغ وأحدهما يسمع من الآخر، إلا أن يكون الاثنان قد اتفقا فى الأخذ عن ثالث، وهو أغرب؛ وإن صح خبر هذه المنازعة فيكون ذلك هو السبب فى تعفف امرئ القيس على الشعراء وإدلاله بشعره وذهابه إلى الظنة فيه، لأنه رأى من استخذاء علقمة واستجدائه ما ينفخ مثله إلى حد الورم، وما زال على ضلالة حتى لقى التوأم البشكرى فقال له: إن كنت شاعراً كما تقول فملط لى أنصاف ما أقول فأجزها، قال نعم، فقال امرؤ القيس:

أحارِ ترى بريقاً هَبَّ وهناً

فقال التوأم:

كنار مجوس تستعر استعاراً

وهى أبيات ستجىء فى بحث الصناعات، فلما رآه امرؤ القيس قد ماتته، ولم

يكن في ذلك العصر من يطاوله، ألى أن لا ينزع الشعر أحداً آخر الدهر. كذا رواه أبو عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء^(١) وعلى ذلك يكون علقمة إنما غلب امرأ القيس بكلمة امرأته لا بقصيدته.

وقد رأينا أن نروى القصيدتين هنا ليكون وجه المقابلة فيهما بيئاً، ولا بد أن ننبه على أن أكثر ما في قصيدة امرئ القيس مفرق بالفاظه ومعانيه في قصائد أخرى له، ومنها أبيات لم يغير منها إلا القافية، وذلك بعض ما أخذناه على شعره^(٢).

وقد رأينا أن نقف من الكلام على امرئ القيس عند هذا الحد؛ ففي بعض الكفاية كفاية؛ وما يكون دون غاية من الغايات فرجاً كان في نفسه غاية.

(١) العمدة : ١٣٥/١.

(٢) الوسيلة الأدبية: ص ٥٠٤، شعراء النصرانية : ٢٣/١، وديوان امرئ القيس.

قصيدة امرئ القيس

خليلي مرأى على أم جندب
 فإنكما إن تنظراني ساعة
 ألم ترياني كلما جئت طارقاً
 عقلية أتراب لها لا دمية
 ألا ليت شعري كيف حدث وصلها
 أقامت على ما بيننا من مودة
 فإن تنا عنها حقة لا تلاقها
 تبصر خليلي هل ترى من طوائن
 علون بانطاكية فوق عجمة
 فله عينا من رأى من تفرق
 فريقان منهم جازع بطن نخلة
 فعيناك غرباً جدول في مفاضة
 وإنك لم يفخر عليك كفاخر
 ومرفقة لا يرفع الصوت عندها
 غزرت على أهوال أرض أخافها
 ودوية لا يهتدى لفلاتها
 تلافيتها والبوم يدعو بها الصدى
 بمجفرة جرف كأن قنودها
 يغرد بالأسحار في كل سدفه
 أقب رباع من حمير عماية

لتقضى لبانات الفؤاد المعذب
 من الدهر تنفغني لدى أم جندب
 وجدت بها طيباً وإن لم تطيب
 ولا ذات خلقت إن تأملت جانب
 وكيف تراعى وصلة المتغيب
 أميمة أم صارت لقول المخيب
 فإنك مما أحدث بالمجرّب
 سؤالك نقباً بين حزمي شعيب
 كجرمة نخل أو كجثة يثرب
 أشت وأناى من فراق المحصب
 وآخر منهم قاطع نجد ككب
 كمر الخليج في صفيح المصوب
 ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب
 مضم جيوش غامين وخيب
 بجانب منفوح من الحشو شرحب
 بعرفان أعلام ولا ضوء كوكب
 وقد ألبست أقراطها ثنى غيب
 على أبلق الكشحين ليس بمغرب
 تغرد مياح الندامى المطرب
 يمج لعاع البقل في كل مشرب

بِمَحْنَةٍ قَدْ آزَرَ الضَّالَّ نَبَتْهَا
وَقَدْ اغْتَدَى قَبْلَ الشُّرُوعِ بِسَابِحِ
بَذَى مَيْعَةٍ كَأَنَّ أَدْنَى سِقَاطِهِ
عَظِيمٌ طَوِيلٌ مَطْمَئِنٌّ كَأَنَّهُ
يُبَارَى الْخَنُوفَ الْمُسْتَقِلَّ زِمَاعُهُ
لَهُ أَیْطَلَا ظَبًى وَسَاقَا نَعَامَةٍ
كَثِيرٍ سَوَادِ اللَّحْمِ مَا دَامَ بَادِنًا.
لَهُ جَوْجُو حَشْرٌ كَانَ لَجَامِهِ
وَعَيْنَانِ كَالْمَاوِيَّتَيْنِ وَمَحْجَرِ
وَيَخْطُو عَلَى صُمٍّ صِلَابَ كَأَنِّهَا
لَهُ كَفْلٌ كَالدَّغْصِ لَبْدَهُ النَّدَى
وَمُسْتَفْلِكُ الذُّفْرِى كَانَ عِنَانَهُ
وَأَسْحَمُ رِيَّانُ الْعَسِيبِ كَأَنَّهُ
وَبَهْوٌ هَوَاءٌ تَحْتَ صُلْبِ كَأَنَّهُ
يَدِيرُ قَطَاةَ كَالْمَحَالَةِ أَشْرَفَتْ
إِذَا مَا جَرَى شَاوَيْنِ وَابْتَلَّ عِطْفَهُ
إِذَا مَا رَكَبْنَا قَالَ وَلَدَانِ أَهْلُنَا
فِيَوْمًا عَلَى سَرَبٍ نَقَى جُلُودَهَا
وَيَخْضَدُ فِي الْآرَى حَتَّى كَانَمَا
خَرَجْنَا نُرِيغُ الْوَحْشَ حَوْلَ ثُعَالَةٍ
فَأَنْسَتْ سَرَبًا مِنْ بَعِيدِ كَأَنَّهُ
فَكَانَ تَنَادِينَا وَعَقْدَ عِذَارِهِ
فَلَايَا بِلَايِ مَا حَمَلْنَا غَلَامَنَا

مَجَرَّ جِيوشٍ غَائِمِينَ وَخَبِيبِ
أَقْبَ كَيْعَفُورِ الْفَلَاةِ مُجَنَّبِ
وَتَقْرِيهِ هَوْنًا دَالِيلُ ثَعْلَبِ
بِأَسْفَلِ ذِي مَآوَانِ سَرَحَةٍ مَرْقَبِ
تَرَى شَخْصَهُ كَأَنَّهُ عَوْدُ مِشْجَبِ
وَصَهْوَةٌ عَيْرٍ قَائِمٍ فَوْقَ مَرْقَبِ
وَفِي الضَّمَرِ مَمْسُوقِ الْقَوَائِمِ شَوْدَبِ
سُعَالَى بِهِ فِي رَأْيِ جَذَعِ مُشْدَبِ
إِلَى سِنْدٍ مِثْلَ الصَّفِيحِ الْمُنْصَبِ
حَجَارَةِ غَيْلٍ وَارِسَاتٍ بَطْحَلِبِ
إِلَى حَارِكٍ مِثْلَ الْغَبِيطِ الْمَذَابِ
وَمَثْنَاتِهِ فِي رَأْسِ جَذَعِ مِشْدَبِ
عَثَاقِيلِ قِنَوٍ مِنْ سُمْنِيحَةٍ مُرْطَبِ
مِنْ الْهَضْبَةِ الْخَلْقَاءِ رُحُلُوقُ مَلْعَبِ
إِلَى سِنْدٍ مِثْلَ الْغَبِيطِ الْمَذَابِ
تَقُولُ هَزِيزِ الرِّيحِ مَرَّتْ بِأَثَابِ
تَعَالَوْا إِلَى أَنْ يَأْتِيَ الصَّيْدَ نَحْطَبِ
وَيَوْمًا عَلَى بَيْدَانَةٍ أُمَّ تَوَلْبِ
بِهِ عُرَّةٌ أَوْ طَائِفٌ غَيْرُ مُعْقَبِ
وَبَيْنَ رُحِيَّاتٍ إِلَى فَجٍّ أَخْرَبِ
رَوَاهِبُ عِيدٍ فِي مُلَاءٍ مُهْدَبِ
وَقَالَ صَحَابِي قَدْ شَاوَنَكَ فَاطِلِبِ
عَلَى ظَهْرِ مَحْبُوكِ السَّرَاةِ مُحَنَّبِ

فَقَفَى عَلَى آثَارِهِنِ بِحَاصِبٍ
وَوَلَّى كَشُوبُوبَ الْعَشَى بُوَابِلَ
فَلِلْسَاقِ أَلْهَوْبُ وَلِلْسُوطِ دَرَّةٌ
فَأَذْرَكَ لَمْ يُجْهَدْ وَلَمْ يَثْنِ شَاوَهُ
تَرَى الْفَارَ فِي مُسْتَنْقَعِ الْقَاعِ لَاحِبًا
خَفَاهُنَّ مِنْ أَنْفَاقِهِنَّ كَأَنَّمَا
وَضَلَّ لَصِيرَانِ الصَّرِيمِ غَمَاطُ
فَكَابَ عَلَى حُرِّ الْجَبِينِ وَمُتَّقٍ
فَفَتَنَّا إِلَى بَيْتِ بَعْلِيَاءِ مُرَدِّحٍ
وَقَلْنَا لِفَتَيَانِ كَرَامٍ أَلَا أَنْزِلُوا
وَأَوْتَادُهُ مَارِيَّةٌ وَعِمَادُهُ
وَأَطْنَابُهُ أَشْطَانُ خَوْصٍ نَجَاطِ
فَلَمَّا دَخَلْنَاهُ أَضْفَنَّا ظَهْرَنَا
فَظَلَّ لَنَا يَوْمَ لَذِيذُ بَنِعْمَةٍ
كَأَنَّ عَيُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خَبَائِنَا
وَرَحْنَا كَأَنَّا مِنْ جُؤَانِي عَشِيَّةٍ
نَمَشُ بِأَعْرَافِ الْجِيَادِ أَكْفَنَا
إِلَى أَنْ تَرَوْحَنَا بَلَا مَتَعَتِّبٍ
وَرَاحَ كَتِيسِ الرِّبْلِ يَنْغِصُ رَأْسَهُ
حَبِيبٌ إِلَى الْأَصْحَابِ غَيْرِ مُلْعَنٍ
فِيَوْمًا عَلَى بُقْعِ دِفَاقِ صَدُورِهِ
كَأَنَّ دِمَاءَ الْهَادِيَاتِ بَنَحَرِهِ
وَأَنْتَ إِذَا اسْتَدْبَرْتَهُ سَدَّ فَرْجَهُ

وَعُغْبِيَّةٍ شُوبُوبٍ مِنَ الشَّدِّ مُلْهَبٍ
وَيَخْرُجْنَ مِنْ جَعْدِ ثَرَاهِ مُنْصَبٍ
وَلِلزَّجْرِ مِنْهُ وَقَعُ أَهْوَجِ مُنْعَبٍ
يَمُرُّ كَخَذْرُوفِ الْوَلِيدِ الْمُثْقَبِ
عَلَى جَدَدِ الصَّحْرَاءِ مِنْ شَدِّ مُلْهَبٍ
خَفَاهُنَّ وَذَقُ مِنْ عَشَى مُجَلَّبٍ
يُدَاعِسُهَا بِالسَّمْهَرِيِّ الْمَعْلَبِ
بِمَدْرِيَّةٍ كَأَنَّمَا ذَلَقُ مِشْعَبٍ
سَمَاوَتُهُ مِنْ أَتْحَمِيٍّ مُعْصَبٍ
فَعَالُوا عَلَيْنَا فَضْلَ ثَوْبٍ مَطْنَبٍ
رُدَيْنِيَّةٍ فِيهَا أَسِنَّةٌ قَعُضَبٍ
وَصَهْوَتُهُ مِنْ أَتْحَمِيٍّ مُشْرَعَبٍ
إِلَى كُلِّ حَارَى جَدِيدٍ مُشْطَبٍ
فَقُلْ فِي مِيلٍ نَحْسُهُ مَتَغِيبٍ
وَأَرْحَلْنَا الْجَزْعَ الَّذِي لَمْ يُثْقَبِ
نُعَالِي النَّعَاجَ بَيْنَ عِدْلٍ وَمِحْقَبِ
إِذَا نَحْنُ قَمْنَا عَنْ شَوَاءٍ مُضْهَبِ
عَلَيْهِ كَسِيدُ الرَّدْهَةِ الْمُتَاوَبِ
أَذَاةً بِهِ مِنْ صَائِكَ مَتَحْلَبِ
يَفْدُونَهُ بِالْأَمْهَاتِ وَبِالْأَبِ
وَيَوْمًا عَلَى سَفْعِ الْمَدَافِعِ رَبْرَبِ
عُصَارَةِ حَنَاءٍ بِشَيْبٍ مَخْضَبِ
بِضَافٍ فَوْيَقَ الْأَرْضِ لَيْسَ بِأَصْهَبِ

قصيدة علقمة بن عبدة

ذهبت من الهجران فى كل مذهب
ليالى لا تبلى نصيحة بيننا
مبتلة كان انضاء حلميها
محال كاجواز الجراد ولؤلؤ
إذا لحم الواشون بالشر بيننا
وما أنت أم ما ذكرها ربعة
أطعت الوشاة والمشاة بصرمها
وقد وعدتك موعداً لو وفّت به
وقالت متى يبخل عليك وبعثل
فقلت لها فيئى فما تستفزنى
ففأت كما فأت من الأدم مغزل
فعشنا بها من الشباب ملاوة
فإنك لم تقطع لبانة عاشق
بمجرة الجنين حرف شملة
إذا ما ضربت الدف أو صلت صولة
بعين كمرأة الصنّاع تديرها
كان بحاذيقها إذا ما تشدّرت
تذب به طوراً وطوراً ثمره
وقد أغتدى والطير فى وكناتها
بمنجرد قيد الأوابد لاحة
بعوّج لبانه يتم بريمه

ولم يك حقاً كل هذا التجنب
ليالى حلوا بالستار فعرّب
على شادن من صاحة مترّب
من القلعى والكيس الملوّب
تبلى راسى الحب غير المكذب
تحل بإير أو بأكناف شرب
فقد أنهجت حبالها للتقضب
كموعود عرقوب أخاه يثرب
تشك وإن يكشف غرامك تدرب
ذوات العيون والبنان المخضب
بيشة ترعى فى أراك وحلب
فأنجح آيات الرسول المحب
بمثل بكور أو رواح مؤوب
كهّمك مرقال على الأين ذعلب
ترقب منى غير أدنى ترقب
لمحجرها من النصف المثقب
عثاكيل قنو من سميحة مرطب
كذبّ البشير بالرداء المهذب
وماء الندى يجرى على كل مذنب
طراد الهوادى كل شأو مغرب
على نفت راق خشية العين مجلب

كُمَيْتِ كلونِ الأرجوانِ نشرته
مُحَرَّرٌ كَعَقْدٍ الأندريُّ يَزِينُهُ
له حُرَّتَانِ تَعْرِفُ العِتْقُ فيهما
وجوفُ هواءٍ تحت متن كأنه
قطاة ككُرْدوسِ المحالة أشرفت
وغلبُ كاعناقِ الضباعِ مُضِيفُهَا
وسُمُرٌ يُفَلِّقْنَ الظَّرَابِ كأنها
إذا ما اقتنصنا لم نخاتل بجَنَّةٍ
أخا ثقةٍ لا يلعن الحى شخصه
إذا أنفدوا زاداً فإن عِنانَه
رأينا شياها يَرْتَعِينِ خَمِيلَةَ
فبيننا تَمَارِينَا وعقد عِذاره
فاتبع أدبار الشُّبَاهِ بصادق
ترى الفأر عن مُسْتَرْغِبِ القدر لائحاً
خفا الفأر من أنفاقه فكأنما
فظل لثيران الصريم غماغمُ
فهاو على حُر الجبين ومتق

لبيع الرِّوَاءِ فى الصُّوَانِ المكعب
مع العِتْقِ خلقُ مُفْعَمٍ غير جانب
كسامِعَتَيْنِ مدعورة وسط رَبَّرب
من الهَضْبَةِ الخَلْقَاءِ رَحْلُوقِ ملعب
إلى كاهل مثل الغبيط المذاب
سِلَامُ الشَّطَى يَغْشَى بها كل مركب
حجارةٌ غيلٍ وارساتٍ بطُحْلِبِ
ولكن ننادى من بعيد: ألا اركب
صبوراً على العلات غير مسبب
وأكرعه مستعملاً خير مكسب
كمشى العذارى فى الملاء المهذب
خرجن علينا كالجُمانِ المثقب
حَيْثِ كغيثِ الرياحِ المتحلب
على جَدَدِ الصَّحراءِ من شد ملهب
تَجَلَّلَهُ شَوْبُوبِ غيثِ مثقب
يُدَاعِسُهُنَّ بالنَّضَى المِعلَبِ
بمذراته كأنها ذَلَقَ مِشْعَبِ

طرفة بن العبد^(١)

هو طرفه بن العبد بن سفيان، نسبة المفضل إلى معد بن عدنان، ويقولون إنه أشعر الشعراء بعد امرئ القيس، وإنما نظروا إلى مرتبة قصيدته في الطوال على الترتيب المشهور؛ وإلا فامرؤ القيس مختلف في تقديمه عندهم، وقد أورد صاحب الجمهرة قصيدة طرفة آخر السبع، فقدمهم عليه جميعاً، وهو على رأى المفضل من أن أصحاب السبع هم: امرؤ القيس، وزهير، والنابعة، والأعشى، وليبد، وعمرو، وطرفة؛ ولما كانت مثل هذه الأقوال المتضاربة لا تعدو الآراء المرتجلة التي لا ثبت لها، فقد اخترنا إهمالها، لأن الرأى لا يزال يعارضه مثله إلى أن ينقطع عند البرهان.

كان طرفة ابن أخت الشاعر المتلمس، وابن أخى الشاعر المعروف بالمرقش الأصغر، فالتقى إليه الشعر من طرفيه؛ وكان فى حسب من قومه، جريئاً على هجائهم وهجاء غيرهم، ولا يُعرف من تاريخ نشأته إلا القليل مما لا يتهيأ به الحكم على مبلغ تأثير نشأته فى شعره، غير أن جملة ما يؤخذ من ذلك أنه كان أيباً معتداً لنفسه، مدلاً على قومه، واثقاً بمنزلته منهم، جريئاً بمقدار ما تدفع هذه الثقة، مترفعاً إلا عن الملوك، يروجهم ويهجوهم؛ فهو يذهب إليهم بنفسه ولكنه يمثل لديهم وكأن فى برديه حاشيتى قومه. ولا يعلى ذلك إلا بأنه كان غراً لم تسلم به السن بعد إلى مذهب عن نزق الحداثة وسكرة الشباب لأنه مات وله خمس وعشرون سنة بدليل قول أخته الخرنق فى رثائه:

عددنا له خمساً وعشرين حجةً فلما تَوَقَّأها استوى سيِّداً ضحماً

فُجِعْنَا به لما استتمَّ تمامه على خير حالٍ لا وليداً ولا قحماً

القحم: المتناهى فى السن. ويروى: ستاً وعشرين حجة. وقال بعضهم: إنما بلغ عمره نيِّماً وعشرين سنة، فلا يبعد أن تكون ثَمَّ رواية: إحدى وعشرين حجة،

(١) ذكر الأمدى فى المؤلف والمختلف: من اسمه طرفة من الشعراء أربعة: أولهم هذا. والثانى طرفة بن الألاء بن نضلة. والثالث طرفة الجذمى أحد بنى جذيمة العيسى. والرابع طرفة أخو بنى عامر بن ربيعة (ص ٤١٧ ج ١: الخزائن).

وعلى أى هذه الأقوال فقد خَبَّ هذا الشاعر وركض بسنيه القليلة فى مثل الأعمار الطوال، وكان منصّباً على اللّهُو، يعاقر الخمر ويتلف بها ماله، فأورثته جنون الكبرياء وقتلته بلسانه الذى انتضى منه سيف الهجاء. روى الجاحظ (البيان: الجزء الأول): قيل لامرئ القيس بن حجر: ما أطيب عيش الدنيا؟ قال: بيضاء رعبوبة، بالطّيب مشبوبة، بالشحم مكروبة! وسئل الأعشى فقال: صهباء صافية تمزجها ساقية، من صوب غادية وقيل مثل ذلك لطرفة فقال: مطعم شهى. ومركب وطى!

وفى سبب قتله أقوال متقاربة؛ أمثلها ما رواه يعقوب بن السكيت فى شرح ديوانه؛ قال^(١): إن طرفة لما هجا عمرو بن هند بأبياته التى أولها:

فليت لنا مكان الملك عمرو رَغوثاً^(٢) حول قبتنا تخور

لم يسمعها عمرو بن هند؛ حتى خرج يوماً إلى الصيد فأمعن فى الطلب، فانقطع فى نفر من أصحابه حتى أصاب طريدته؛ فنزل وقال لأصحابه: اجمعوا حطباً، وفيهم ابن عم طرفة، فقال لهم: أوقدوا، فأوقدوا ناراً وشوى، فبينما عمرو يأكل من شوائه وعبد عمرو يقدم إليه، إذ نظر إلى خصر قميصه منخرقاً فأبصر كشحه وكان من أحسن أهل زمانه جسماً، وقد كان بينه وبين طرفة أمر وقع بينهما منه شرٌّ فهجاه طرفة بأبيات فقال له عمرو بن هند، وكان سمع تلك الأبيات: يا عبد عمرو، لقد أبصر طرفة حسن كشحك، ثم تمثّل فقال:

ولا خير فيه غير أن له غنى وأن له كشحاً إذا قام أهضماً

فغضب عبد عمرو مما قاله وأنف فقال: لقد قال للملك أقبح من هذا! قال عمرو: وما الذى قال؟ فندم عبد عمرو وأبى أن يسمعه، فقال: أسمعنيه وطرفة آمن، فأسمعه القصيدة التى هجاه بها... فسكت عمرو بن هند على ما قرر فى نفسه، وكره أن يعجل عليه لمكان قومه فأضرب عنه - وبلغ ذلك طرفة - وطلب غرته والاستمكان منه، حتى آمن طرفة ولم يخفّه على نفسه، فظن أنه قد رضى

(١) ذكر البغدادى فى خزنة الأدب أن لديوان طرفة شرحاً آخر للأعشى الشتمى. انظر خزنة الأدب

عنه، وقد كان المتلمس - وهو جرير بن عبد المسيح - هجا عمرو بن هند، وكان قد غضب عليه، فقدم المتلمس وطرفة على عمرو بن هند يتعرضان لفضله، فكتب لهما إلى عامله على البحرين وهجر... وقال لهما انطلقا إليه فاقبضا جوائزكما، فخرجا، فزعموا أنهما لما هبطا النجف قال المتلمس: يا طرفة، إنك غلام غرّ حديث السن، والملك من قد عرفت حقه وغدره، وكلانا قد هجاه، فلست آمناً أن يكون قد أمر فينا بشر، فهل ننظر في كتابنا، فإن يكن أمر لنا بخير مضيئنا فيه، وإن يكن أمر فينا بغير ذلك لم نُهلك أنفسنا، فأبى طرفة أن يفك خاتم الملك، وحرص المتلمس على طرفة فأبى، ثم كان من أمرهما أن قتل طرفة، قتله عامل عمرو بن هند على البحرين ويقال إنه لما قرأ العامل الصحيفة عرض عليه فقال: اختر قتلة أقتلك بها، فقال: اسقني خمراً، فإذا ثملتُ فافصد أكحلي، ففعل حتى مات، وذكر ذلك البحترى بقوله:

وكذاك طرفة حين أوجس خيفة في الرأس، هان عليه فصد الأكحل

قال المرتضى في أماليه^(١): ويقال إن صاحب هذه القصة هو النعمان بن المنذر، وذلك أشبه بقول طرفة:

أبا منذرٍ كانت غروراً صحيفتي ولم أعطكم بالطوع مالى ولا عرضي

أبا منذرٍ أفنيت فاستبقي بعضنا حنانيك، بعضُ الشر أهون من بعض

وأبو المنذر هو النعمان بن المنذر، وكان النعمان بعد عمرو بن هند، وقد مدح طرفة المتلمس في النعمان، فلا يجوز أن يكون عمرو قتله، فيشبه أن تكون القصة مع النعمان.

وقالوا إن طرفة نطق بهذين البيتين (أبا منذر...) لما أيقن بالموت، وقد عدّوه بهما فيمن شعره في رويته وبديهته سواءً عند الأمن والخوف، لقدرتة وسكون جأشه وقوة غريزته، كهديبة بن الحشرم ومرة بن محكان السعدي^(٢).

ويقال إن ذلك كان سنة ٥٥٢ بعد الميلاد، وقيل سنة ٥٦٤.

(١) المرتضى في أماليه: ١/١٣١.

(٢) العمدة: ١/١٢٩.

شعره :

لم ينص أحد على مقدار ما صحت به الرواية عن طرفه، إلا أن بعضهم ذكر أن ما يصح من ذلك أحد عشر شعراً؛ فلا يميز من المنحول في شعره إلا القليل، وإلا ما جاءت بسببه رواية من الروايات؛ كبعض القصائد التي نسبتها له حماد، وستعرف شيئاً منها في بحث الرواية والرواة^(١)، غير أن طويلته من شعره الذي لا خلاف في نسبته، وإن كانت لا تخلو من تهذيب الرواة وزيادتهم فيها، وهي التي فضله الناس بها وجعلوها واحده وقالوا فيه من أجلها إنه أجودهم طويلاً؛ وتكاد هذه القصيدة تكون ديوانه؛ لأنها جمعت محاسن صنعته وضمت أطراف معانيه واطردت اطراء الماء، وهي التي جعلت صاحبها أضرب شعراء الجاهلية مثلاً عند قتيبة فيما أجاب به الحجاج حين كتب إليه يسأله عن أشعر الجاهلية وأشعر أهل زمانه، وقد عدّ العلماء أكثر مخترعات طرفه منها. كقوله فيها^(٢).

ولولا ثلاثٌ هنّ من لذة الفتى	وجدّك، لم أحفل متى قام عودى
فمنهن سبقي العاذلات بشربة	كميت متى ما تُعل بالماء تُزبد
وكررى إذا نادى المضاف مجنباً	كسيد الغضا ذى الطخية ^(٣) المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن مُعجب	بيهكنة تحت الطراف المعمد

ولم يجدوا له مخترعاً في غيرها إلا قليلاً.

وروى بعضهم في سبب قولها، أنه كان لطرفة أخ اسمه معبد، وكان لهما إبل يرعانها يوماً ويوماً، فلما أغيبها طرفة قال أخوه معبد: لم لا تسرح في إبلك؟ ترى أنها إن أخذت تردّها بشعرك هذا؟ قال: فإنى لا أخرج فيها أبداً، حتى تعلم أن شعري سيردّها إن أخذت! فتركها وأخذها ناس من مضر.

وقيل: بل إن الإبل التي ضلّت هي إبل معبد فسأل طرفة ابن عمه مالكا أن يعينه في طلبها فلامه وقال: فرطت فيها ثم أقبلت تتعب في طلبها! فقال

(١) بحث «الرواية والرواة» يشكل الباب الثانى من أبواب الكتاب، وقد ورد في الجزء الأول ص ٢٦٩.

(٢) العمدة : ١٧٦/١.

(٣) قلت: الطخية: الظلمة الشديدة .

قصيدته؛ وهى تربي على مائة بيت، وتختلف بعد المائة باختلاف الروايات، ذكر فيها الأطلال واستوقف بها ثم شبه قباب النساء بسفين الماء، ووصف ذات هواه فى الحى فبسط من ذلك صورة رائعة من صور الطبيعة، ثم التفت إلى ناقته فأمضى بها الهم عند احتضاره، واستأمن بها على وضح الطريق من عثاره، ووصف من توثيق خلقتها وطيب مرعاها وكرم العتق فيها وتراصف عظامها وتداخل أعضائها؛ فبنى على ذلك بناء يحسن أن يكون باباً من علم التشريح البيطرى فى الجاهلية... ثم ذكر نشاطها وإسراعها وسهولتها، ونقل من ذلك إلى نفسه فوصف نفاذه ومضيه على الهول وأنه يتقلب على جنبى السيادة واللهو، ونسج من ذلك حاشيته، ثم كأنما سكر كلامه فوصف من سفهه ما تحامته من أجله العشيبة حتى أفرد أفراد البعير الأجرب المذل... وبعد أن انتهى إلى المذلة صحا على لائمه وأخذ يعدّ لذاته مما صفه بالمخيلة والفتوة ونضرة العيش، ثم خرج من ذلك بالسوداء، فذكر الموت ووازن بينه وبين الحياة، ليدل على أن ربح الحياة هو الربح وصار كلامه من ذكر الموت إلى النزع، غير أنه هجم بهذا الموت يعاتب ابن عمه مالكا الذى ضيّع إبله، فكأنه يذكره أن ضياع إبله خطب يسير، إذ يحمّ القضاء فتضيع روحه فى الوادى الذى لا يتقدم فيه يطلبها ولا تشد فيه عند ربها، ثم جعل يذكره بالقربى ورعايتها كأنه يستعطف، ولكنه اتخذ من ذلك وسيلة تخلص بها إلى عمرو بن مرثد أحد سادات العرب، فقال:

فلو شاء ربى كنت قيس بن خالد ولو شاء ربى كنت عمرو بن مرثد

وكان عمرو هذا كثير الولد، فقالوا إنه لما بلغه قولُ طرفة وجه إليه وقال: أما الولد فالله يرزقك، وأما المال فسنجعلك فيه أسوتنا، فأمر سبعة من ولده فدفع إليه كل واحد عشرةً من الإبل، وأمر ثلاثة من بنى بنيه فدفع إليه كل واحد عشرةً.

ثم عاد طرفة فنفض غبار الذلة، واتكثر بعد القلة، وتميَّح فى شعره وهدرت هذه الكماتُ فى أشدّاقه، حتى قطع القصيدة على حكمة بالغة لا تزال تدور فى الناس فهو بها على الفناء يتجدّد، وكأنها كانت نفساً من أنفاس المخلود فقرنت باسمه من هذه القوافى الدالية قافية «المخلّد».

ومن مختار تلك القصيدة قوله:

إذا القومُ قالوا مَنْ فتى؟ خِلْتُ أنى
وإن يَلْتَقِ القومُ الجميعُ تلاقى
أرى قبرَ نَحَّامٍ بخيلٍ بماله
أرى الموتَ يعتامُ الكرامَ ويصطفى
لعمرك إن الموتَ ما أخطأ الفتى
وقوله مفتخراً فيها:

أنا الرجلُ الضربُ الذى تعرفونه
فأليتُ لا ينفكُ كشجى بطانةُ
إذا ابتدرَ القومُ السلاحَ وجدتني
وختامها:

عُنيتُ، فلم أكسلُ ولم أتبلدِ
إلى ذروة البيت الرفيع المصمّد
كقبر غَوِيٍّ فى البطالة مفسدِ
عقيلة مالٍ الفاحشِ المتشددِ
لكالطُولِ المرخى وثنياء فى اليدِ

خَشاشٌ^(١) كراس الحية المتوقدِ
لعضبٍ رقيقٍ الشفرتين مُهندِ
منيعاً إذا بَلَّتْ بقائمه يدي

ستبدى لك الأيام ما كنتَ جاهلاً
ويأتيك بالأنباء من لم تبع له
ويأتيك بالأخبار من لم تُزود
بتأتاً ولم تضربْ له حين موعد

مذاهبه فى الشعر :

ليس فيما وقع إلينا من شعر الجاهلية ما ينطق بأن صاحبه شاعر قبيلةٍ بمجموع
هذا المعنى، غير شعر طرفة؛ فهو إذا فخر رأيته يتكلم بلسان ملك قد ضمن طاعة
قومه واستمسك بميثاقهم؛ وما كان أحق امرئ القيس بمثل هذا الفخر فيقيم به جهة
من شعره قد تركها وهى تريد أن تنفض.

وقد وصف طرفة النوق وصفاً شعرياً، ولكنه قصر فى صفة الخيل وجاءت فى
كلمه متفرقات من الحكم والأمثال، وهى أبدع ما فى شعره، ثم هو قد ضرب فى
الهجاء بالسهم الصائب ورجم فيه بالشهاب الثاقب، ولكنه قليل المديح نازل الطبقة
فيه؛ ولم يؤثر له فى ذلك إلا ما يرد على قومه، وهو مدحه لقتادة بن سلمة

(١) قلت: الخشاش: الخفيف الروح الذكى.

الحنفى حين أصاب قومه سنةً فأتوه فبذل لهم؛ وثم أبياتٌ قالوا إنه مدح فيها سعد
ابن مالك حين أطرده فصار فى غير قومه وقد ذكرهم فيها بقوله:

وليس امرؤ أفنى الشباب مجاورا سوى حسيه إلا كآخر هالك

ولعل مديحها منحول إذ يقول فيه:

رأيت (سعوداً) من شعوب كثيرة فلم تر عيني مثل سعد بن مالك

وليس مثل هذا مما يقوله طرفه.

ويمتاز هذا الرجل بالمبالغة والإغراق، فكأنه ينظر إلى دقائق الوصف بعين من
البلور... وذلك كقوله فى وصف الناقة:

كان جناحى مضرحى تكتفاً	حفافيه شكا فى العسيب بمسرداً (١)
فطوراً به خلف الزميل، وتارة	على حشف كالشن ذاو مجدداً (٢)
لها فخذان عولى النحض فيهما	كأنهما باباً منيف ممرداً (٣)
كان كناسى ضالة يكتفانها	وأطر قسى تحت صلب مؤيد (٤)
لها مرفقان أفتلان كأنما	أمرا بسلمى دالج متشدداً (٥)
كقنطرة الرومى أقسم ربها	لتكتفن حتى تشاد بقرمداً (٦)

فقد أراد أن يصف ذنب الناقة بكثرة الهلب، وهو الشعر الكثير، فشبهه
بجناحى النسر، وجعل فخذيهما كبابى الصرح الممرد، وشبه تباعد ما بين مرفقيها
وزورها بكناس الظبي حول الشجر، ثم شبه الناقة فى ارتفاعها بقنطرة الرومى

(١) المضرحى: النسر. وتكتفا: أحاطا. وحفاياه: جانباه. والعسيب: عظم الذنب. والمسرود: المخفض
الإشقى.

(٢) الزميل: الرديف، والحشف: الضرع الذى لا لبن فيه. والشن: القربة الخلقة. والذارى: اليابس.
ومجدد: أى لا لبن فيه ولا لبن.

(٣) عولى: رفع بعضه على بعض. والنحض: اللحم. والمنيف: المشرف. والمرد: المجلس.

(٤) الكناس: بيت الظباء. والضال: الصدر البرى. وأطر القسى: عطفها وانحناؤها. والمؤيد: الموثق، من
الأيد، أى القوة.

(٥) أمرا: أى قتلا. والسلم: الدلو لها عروة. والدالج: الذى يمسى بالدلو من البشر إلى الخوض. والمتشدد:
المتكلف الشدة.

(٦) القنطرة: الجسر. وتشاد بقرمداً: أى ترفع بجص... (ص ٨٥: الجمهرة).

الذى جعله يقسم على قنطرته لثُحاطنّ بالبناء ، وتشادنّ بالقرمد؛ ولعمري ليس هذا القسم بأكثر من اللغو. وقد مر في مثل هذه التشبيهات حتى وصل إلى عيني الناقة فجعلهما من حجّاجيهما في مثل غارين من الجبل، ولو أنه مد في عنق هذه الناقة فشبهه بأطول من خراطيم السحاب...

وإنما تحسن المبالغة إذا لم يكن التشبيه منكشفاً هذا الانكشاف فيكون في إحدى جهاته سبب الأسباب التي يصح أن تتعلق عليه المبالغة؛ وسيأتيك هذا في موضعه مفصلاً.

ومن نوع قسم الرومى في شعر طرفة قوله متغزلاً يصف الأبقحوان:

وتبسم عن ألمى كأن منوراً تخلل حرّ الرمل دِعْصُ له ندى^(٢)
سَقَتَه إياة الشمس إلا لثاته أسفّ ولم تكدم عليه بإئمد^(٣)

فحاصل البيتين أنه يشبه ثغر التي يتغزل فيها بالأبقحوان الندى، ويقول إنها قد ذرّت الإئمد على لثاتها (وسائر العرب يفعلن ذلك في الشفاه واللثات ليكون أشد للمعان الأسنان) غير أن تخلل الدعص الندى من الأبقحوان المنور لحرّ الرمل، والوصول من ذلك كله إلى تشبيه الثغر بالرفيف واللمعان لا يُعدّ فلاحاً في الغزل وأولى به أن يكون فلاحاً...

والصنعة في شعر طرفة قليلة إلا أنها جيدة، وأرى شعر هذا الرجل كالشباب: حقيقة جماله في القوة والمتانة؛ فإن اتفق معه شيء من ظواهر الجمال كان ذلك بمجموعه كمالاً، فمن مشهور استعاراته قوله:

فإذا ما شربوها وانتشوا وهبوا كل أمون وطير
ثم راحوا عبّق المسك بهم يلحفون الأرض هُدَابَ الأزّر

(١) اللّمي: سواد في الشفة، والمنور: الأبقحوان. وحر الرمل: النقى منه، والدعص: الكتيب الصغير من الرمل.

(٢) الإياة: ضوء الشمس. واللثة: مغزّر الأسنان. يقول: أسنانها بيض، ولثاتها ررق. وأسف: أى ذر عليه. ولم تكدم: أى لم تعض فتختلف نبتته وأصوله؛ والإئمد: الكحل.

وهى غاية من غايات هذا الجواد: فإن البيت يصور الجمال والقوة والكبرياء،
ويكاد يريك الناس مطرقين قد تعلقت أعينهم بهُدَّاب تلك الأزر. ومن هذه
القصيدة بيت دائر فى كتب اللغة والأدب، وهو قوله:

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى لا نرى الأدب فىنا ينتقر

غير أن حياة هذا البيت تاريخية لا شعرية، لأنه إنما سار وبقى للاستشهاد
بألفاظه؛ ومن كلماته الجميلة قوله: (وعامت بضبيعتها). إذ يصف الناقة بأنها تمد
يديها كهيئة السابح، وقوله: (طرَّاد الغرام) فى صفة قومه بالبذل والسفَه، وقوله
فى صفة الحرب يذكر قومه:

لا ترى إلا أخا رجل آخذاً قرناً فملتزمه

فهذه الكلمة (أخا رجل) فى موضعها من أبلغ الكلم، بل هى من جوامعها،
لأنها تدل على كثرة قومه وإقدامهم، وتوزعهم فى الحرب توزع الآجال
واستغراقهم أعداءهم، إلى نحو ذلك؛ ومن هذه القصيدة الحكمة السائرة:

للفتى عقل يعيش به حيث تهدى ساقه قدمه

ومما اختاره له فى الحماسة قوله:

وأعلم علماً ليس بالظن أنه إذا ذك مولى المرء فهو ذليل

وأن لسان المرء ما لم يكن له حصاة على عوراته لدليل

ولا يزال الكتاب لعهدنا يكتبون «علم ليس بالظن» وهم يظنون أنها معربة...
وقد جاءت فى شعر إسلامى من شعر المائة الأولى: وأعلم غير الظن، وهى أبلغ
وأوجز.

زهير بن أبي سلمى

هو زهير بن أبي سلمى - قال فيه الصحاح: ليس في العرب سلمى (بالضم) غيره - ابن رباح، يرتفع نسبه إلى نزار، كان ورعاً حكيماً يعدونه من مترهبة العرب، قالوا: وهو أحد الثلاثة المتقدمين على سائر الشعراء، وإنما اختلف في تقديم أحدهم على صاحبه، فأما الثلاثة فلا اختلاف فيهم، وهم: امرؤ القيس، وزهير، والنابغة الذبياني، وما أرى ذلك عن جماعة، فإن الأقوال مختلفة في التفضيل بين الشعراء، وقد جاءت روايات بتقديم أوس بن حجر، وعلقمة بن عبدة، وغيرهما، ولكن أصل ذلك الخبر فيما أراه ما أتت به الرواية عن يونس بن حبيب النحوى أن علماء البصرة كانوا يقدمون امرأ القيس، وأن أهل الكوفة كانوا يقدمون الأعشى، وأن أهل الحجاز والبادية كانوا يقدمون زهيراً والنابغة، وكان أهل العالية لا يعدلون بالنابغة أحداً، كما أن أهل الحجاز لا يعدلون بزهير أحداً^(١)

وإلى هذه الرواية يرجع كل ما ورد عن ابن عباس وعمر بن الخطاب وغيرهما من الحجازيين في تقديم زهير وأنه أشعر الشعراء.

وقد ورث زهير الشعر عن أبيه وخاله، وورثه ولده، قال ابن الأعرابي: كان لزهير في الشعر ما لم يكن لغيره؛ كان أبوه شاعراً، وخاله شاعراً، وأخته سلمى شاعرة، وابناه كعب وبجير شاعرين، وأخته الخنساء شاعرة، وابن ابنه المضرب بن كعب شاعراً..

وفي رواية حماد وابن الكلبي عن أبيه قال: كان بسامة بن الغدير خال أبي سلمى، وكان زهير منقطعاً إليه معجباً بشعره.. وكان بسامة أحزم الناس رأياً، فكانت غطفان إذا أرادوا أن يغزو أتوه فاستشاروه وصدروا عن رأيه، فإذا رجعوا قسموا له مثل ما يقسمون لأفضلهم، فمن أجل ذلك كثر ماله، فلما حضره الموت جعل يقسم ماله في أهل بيته وبين بنى إخوته فأتاه زهير فقال: يا خاله، لو قسمت لى من مالك! فقال: والله يا ابن أختى لقد قسمت لك أفضل ذلك

(١) العمدة : ٦٢/١.

وأجزله. قال: وما هو؟ قال: شعري ورثتيه؛ وقد كان زهير قبل ذلك قال الشعر. وكان أول ما قاله، فقال له زهير: الشعر شيء ما قلته فكيف تعتدّ به على؟ فقال له بسامة: ومن أين جئت بهذا الشعر؟ لعلك ترى أنك جئت به من مزينة؟ - هي قبيلة من مضر ينسبونه إليها، قال ابن قتيبة: وإنما نسبته في غطفان، ورده ابن عبد البر في الاستيعاب - وقد علمت العرب أن حصاتها وعين مائها في الشعر لهذا الحى من غطفان، ثم لى منهم، وقد رويته عنى.

غير أن الثابت الذى يُدفع، أن زهيراً كان راوية أوس بن حجر، وطفيل الغنوى جميعاً^(١) وكان أوس زوج أم زهير^(٢) فإذا صح أنه روى شعر بسامة أيضاً، وأن بسامة كان بالمتزلة التى وصفوا من أصالة الرأى، فيكون زهير قد احتذاه فى حكمه وأمثاله؛ لأنه لا يُعرف لشاعر جاهلى ما عُرف من ذلك لزهير.

وكان زهير يمدح هرم بن سنان سيد غطفان وأحد أجواد العرب المشهورين، وهو الذى وقع به إلى صميم المديح وأراه من جوده موضع الاختراع، حتى قالوا إنه حلف أن لا يمدحه زهير إلا أعطاه، ولا يسأله إلا أعطاه، ولا يسلم عليه إلا أعطاه - عبداً أو ليدة أو فرساً، فاستحيا زهير مما كان يقبل منه، فكان إذا رآه فى ملا قال: عموا صباحاً غير هرم وخيركم استنيت؛ وقد سلف لنا الكلام فى الارتجال والبدئية عن حوليات هذا الشاعر والأسباب التى بعثته على الصنعة والتفقيح حتى صار مثلاً فى ذلك للمتأخرين، وخرج شعره مُصقّى مستوياً؛ إذ كان لا يعاظم بين الكلام، ولا يتبع الوحشى منه^(٣).

حتى قال أبو عبيدة: إن لشعره ديباجة إن شئت قلت شهد إن مسته ذاب، وإن شئت قلت صخر لو ردّيت به الجبال لأزالها.

وعمر زهير طويلاً، وتوفى قبل البعثة بسنة، وديوان شعره معروف وعليه شروح طبع منها فى «ليدن» شرحه للأعلم الشتمرى سنة ١٨٨٩ للميلاد.

(١) العمدة : ١٣٢/١ .

(٢) العمدة : ٥٥/١ .

(٣) قالوا: المعاطلة ترديد الكلام فى قافية بمعنى واحد، وقال صاحب المثل السائر: هى مأخوذة من قولهم تعاظلت الجرادتان، إذا ركبت إحداهما الأخرى، فسمى الكلام المترابك فى الفاظه وفى معانيه بالمعاطلة، وله فى تقسيمها كلام حسن فالتسمه هناك.

مختاراتها وسببها :

كان ورد بن حابس العبسى قتل هرم بن ضمضم المرى الذى يقول فيه عترة
وفى أخيه :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدرُ - للحرب دائرة على ابنى ضمضم

فتشاجر عبس وذبيان قبل الصلح، وحلف حصين بن ضمضم أن لا يغسل
رأسه حتى يقتل ورد بن حابس أو رجلاً من بنى عبس؛ ثم من بنى غالب.. [ولم
يطلع على ذلك أحد؛ وقد حمل الحمالة الحارث بن عوف بن أبى حارثة،
فأقبل... حتى نزل بحصين بن ضمضم، فقال له حصين: من أنت أيها الرجل؟
قال: عيسى، قال: من أى عبس؟ فلم يزل ينتسب حتى انتسب إلى بنى غالب،
فقتله حصين، وبلغ ذلك الحارث بن عوف وهرم بن سنان فاشتد عليهما؛ وبلغ
بنى عبس فركبوا نحو الحارث، فلما بلغه ركوبهم إليه وما قد اشتد عليهم من قتل
صاحبهم وأنهم يريدون قتل الحارث، بعث إليهم بمائة من الإبل معها ابنه، وقال
لِلرّسول: آلإبل أحب إليكم أم أنفسكم؟ فأقبل الرّسول حتى قال لهم ذلك، فقال
لهم الربيع بن زياد: يا قوم إن أخاكم قد أرسل إليكم: آلإبل أحب إليكم أم ابنى
تقتلونه مكان قتيلكم؟ فقالوا: نأخذ الإبل ونصالح قومنا ونتم الصلح .

فقال زهير هذه القصيدة يمدح الحارث وهرما، وتلك منقبة ليس لها إلا المديح
من شاعر ورع حكيم كزهير، وقد ذكرهما بها فى قصيدته الأخرى التى مطلعها:

* صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو *

وكانت تلك أول قصيدة مدح بها هرما، ثم تابع بعد ذلك . والرواة يختلفون
فى عدد أبياتها؛ ولكنهم لا يزيدون منها على أربعة وستين بيتاً، ولا ينقصون عن
تسعة وخمسين؛ وقد استهلها بكلام عن الديار والآثار كان شائعاً فى العرب، ولم
يحسن فيه إحسان غيره، ثم وصف الظعائن فى الهوداج وما طرحن عليها من
الأنماط العتاق والكلل التى تشبه حواشيها لون الدم، وذكر بكورهن وأنهن لا
يخطئن الرادى كما لا تخطئ اليد الفم... واستمر يصف رحيلهن، ثم اقتضب
المديح فى الحارث وهرم، فذكر مساعيها ومداركتها عبساً وذبيان، وما احتملا

من غرامة لم يجزما لها، ثم أقبل على الأحلاف: أسد وغطفان وطىء، يندرهم
 أن يحتثوا فيما تحالفوا عليه من السلم أو يكتموا الله ما فى صدورهم ويذكرهم
 بالحرب ما علموا وذاقوا، ويصفها لهم وقد لقحت وأنتجت كل غلام أشام،
 وأغلّت ما لا تُغلّ قرى العراق من قفيز ودرهم، ثم ذكر ما جره عليهم حصين؛
 وتخلص من ذلك إلى الذين تحملوا الديات ووطأوا أكناف^(١) المكارم لهذه المغارم،
 فوصف كرمهم وعزهم، ثم خرج إلى ما يشبه كلام الأنبياء؛ فاستخلص مما قصه
 حكماً يصف بها الحياة السياسية والاجتماعية؛ ولقد أبرزها فى موضعها سياسة فى
 الشعر وفلسفة فى السياسة؛ وهى جملة المختار من هذه القصيدة؛ ومنها:

ومن لا يصانع فى أمور كثيرة	يُضْرَسُ بَأَنِيَابٍ وَيُوطَأُ بِمَنْسِمٍ
ومن يجعل المعروف من دون عِرضه	يَقِرُّهَ وَمَنْ لَا يَتَّقِ الشُّتْمَ يُشْتَمُ
ومن يك ذا فضلٍ فيبخلُ بفضله	على قومه يُسْتَغْنَى عَنْهُ وَيَذْمُ

إلى أن يقول

ومهما تكن عند امرئ من خليفة	وإن خالها تخفى على الناس تُعْلَمُ
وكائن ترى من صامت لك مُعْجِبٌ	زيادته أو نقصه فى التكلم
لسان الفتى نصفٌ ونصف فؤاده	ولم يبق إلا صورة اللحم والدم

وهذا البيتان من الروحانيات التى لا تزال تطير بين السماء والأرض.

شعره:

قد تقدم أن زهيراً أشهر من عُرف من العرب باستثبات اللفظ وتخير الكلمة
 وتنقيح العبارة؛ فلا جرم كان أحصفهم شعراً، وأفصحهم لفظاً؛ ولا يزال قد رمى
 فى شعره بالحكمة الرائعة، والمثل السائر، والمعنى اللطيف، واللفظ الفخم الجليل،
 والقول المنسق النبيل، وقد سلس له النظام، وأطاعه عصى الكلام، فلا تتبين فى
 ألفاظه ذلة الاستكراه، ولا هوان الاعتساف، بل تراها من الروعة والفخامة
 وحسن الاستواء كأنما كانت تهدر فى قلبه لا فى شذقه، ولكأننى أرى أبياته

(١) قلت : أكناف: مفردا (كنف) وهو جانب الشيء أو الظل.

موازين، فلا تكاد اللفظة تميل في الكفة حتى تقع أختها في الكفة الأخرى
فتساويا، ومن أجل ذلك قل المنحول في شعره لأنه ديباجة غير ممزقة، ونسيج غير
مخرق، ولا يأخذه نظر الناقد حتى ينفيه، وقد نحلوه أبياتاً يقال إنها لصرمة
الأنصاري يقول في أولها:

ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى من الأمر أو يبدو لهم ما بدا ليا^(١)

فنفاها الأصمعي لأنها لا تشبه كلامه؛ إذ كانت ألفاظ رهير طريقة بيّنة، وكان
شعره نَقْصاً لا فتور فيه ولا تلبُّث، وحسبه بمثل هذا الدليل: إذا كان الدخيل في
القوم لا يُستَدَلُّ بغير انقطاع نسبه على أنه دخيل.

ويظهر لمن تدبر شعر رهير أنه ضعيف الابتكار والاختراع، لا يعارض في
ذلك الفحول المعدودين كامرئ القيس وغيره، ولكن ألفاظه وصنعتة غطّت على
هذا النقص؛ فقلما ينكشف إلا لمن عارض وتتبع؛ وقد تراه يأخذ في صفة من
الصفات كنعت الناقة أو حمر الوحش أو طراد الصيد، فلا يزال ينحتها من ألفاظه
حتى تتمثل كأنها دمية مصور إن لم تكن فيه حياة فإن الحسن في تمثالها حي.

وترى الرأي يغلب شعر هذا الرجل، فكأنه شعر سيد لا شعر شاعر، وأكثر
ما يظهر ذلك في أبياته الهمزية التي يقال إنه هجا بها آل بيت من كلب من بني
عُليم بن حبان وذلك حيث يقول فيها^(١).

وما أدري وسوف إخال أدري	أقوم آل حصن أم نساء؟
فإن قالوا النساء مخبّات	فحق لكل محصنة هداء
وإما أن يقول بنو مَصَادٍ	إليكم، إننا قوم برّاء
وإما أن يقولوا قد وفينا	بذمتنا فعادتنا الوفاء
وإما أن يقولوا قد أبينا	فشر مواطن الحسب الإباء
وإن الحق مقطعه ثلاث	مين، أو نفار، أو جلاء

(١) شعراء النصرانية: ص ٥٨٢. (٢) شعراء النصرانية: ص ٥٥٢.

وبهذا البيت الأخير سمى زهير قاضى الشعر. أما قوله وما أرى... إلخ فهو الذى اختاره علماء البلاغة مثلاً فى باب التشكك، وهو من مَلَح الشعر وطُرف الكلام، وله فى النفس حلاوة وحسن موقع، بخلاف ما للغر والإغراق؛ لأنه يدل على قرب الشبهين حتى لا يفرق بينهما؛ فقد أظهر زهير أنه لم يعلم أهم رجال أم نساء؛ وهذا أملح من أن يقول هم نساء؛ وأقرب إلى التصديق، وأبلغ فى التهكم والازدراء والتقص^(١) ومن هذه القصيدة:

ولولا أن ينال أبا طريف إسارٌ من مليك أو لحاء^(٢)

لقد زارت بيوت بنى عُليم من الكلمات آتية ملاء

ولعمري إن هذه الآتية الملاء لطرفة من طرف الاستعارة، وإن حسنها إنما تم بذكر البيوت فى صدر الشعر. وفيها أيضاً:

وإنى لو لقيتك فاجتمعنا لكان لكل مُنْدية لقاء

ويروى: لكل منكرة كفاء، وهى لمحة دالة أشار بها لقبح ما كان يصنع به لو لقيه، وهذا البيت عند قدامة أفضل بيت فى الإشارة التى لا يأتى بها إلا الشاعر المبرز والحاظق الماهر.

ولا بأس أن ننسحب على هذا الأثر من البديع، فإن ذلك من متممات زهير، ولولاه لما كان لصنعتة شأن، وقد كان يتوكأ فى هذه الطريقة على من تقدمه من الفحول ويلوذ بهم، كامرئ القيس وأوس بن حجر وأبى دؤاد الأيادى، كما أتبع فى صفتة امرأ القيس قوله:

كأن فتات العهن فى كل منزل نزلن به حب الفنا لم يحطم

فإنه أوغل فى التشبيه إيغالاً؛ بتشبيهه ما يتناثر من فتات الأرجوان بحب الفنا الذى لم يحطم لأنه أحمر الظاهر أبيض الباطن، فإذا لم يحطم لم يظهر فيه بياض ألبة، وكان خالص الحمرة، وقد أتبع بيت امرئ القيس:

(١) العمدة ٥٣/٢.

(٢) أبو طريف: كان مأسوراً عندهم، والإسار: سوء الأسر وشدة، والمليك: الأمير لأنه يملكهم، واللحاء: الملاحة واللوم.

كَانَ عَيُونُ الطَّيْرِ حَوْلَ خَبَائِنَا وَأَرْحَلُنَا الْجَزَعُ الَّذِي لَمْ يَنْقُبِ
وَكَذَلِكَ أَتْبَعَ فِي نَفْسِ الشَّيْءِ بِإِيجَابِهِ حَيْثُ يَقُولُ:

بِأَرْضِ خَلَاءٍ لَا يَسْدُ وَصِيدُهَا عَلَى وَمَعْرُوفِي بِهَا غَيْرُ مُنْكَرٍ
فَأُثْبِتَ لَهَا فِي اللَّفْظِ وَصِيداً، وَإِنَّمَا أَرَادَ لَيْسَ لَهَا وَصِيدٌ فَيَسْدُ، وَلَهُ فِي الْمُبَالَغَةِ
وَالْتَّمِيمِ الْعَجِيبِ قَوْلُهُ:

مَنْ يَلْقَى يَوْمًا عَلَى عِلَاتِهِ هَرِمًا يَلْقَى السَّمَاحَةَ مِنْهُ وَالنَّدَى خُلُقًا
فَإِنَّهُ يَرِيدُ بِقَوْلِهِ (عَلَى عِلَاتِهِ) مَا يَكُونُ مِنْ قَلَّةِ الْمَالِ وَالْعُدْمِ، أَيْ فَكَيْفَ بِهِ وَهُوَ
عَلَى خَيْرِ تِلْكَ الْحَالِ، وَقَدْ جَاءَ لَهُ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ:

يَطْعَنُهُمْ مَا ارْتَمَوْا حَتَّى إِذَا أَطْعَنُوا ضَارِبٌ، حَتَّى إِذَا مَا ضَارَبُوا اعْتَنَقَا
قَالُوا: إِنَّهُ أَتَى بِجَمِيعِ مَا اسْتَعْمَلَ فِي وَقْتِ الْهِجَابِ وَزَادَ مَعْدُوحَهُ رَتْبَةً وَتَقَدَّمَ بِهِ
خُطْوَةً عَلَى أَقْرَانِهِ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ التَّقْسِيمِ تَأْتِي فِيهِ الزِّيَادَةُ تَدْرِيجًا وَتَرْتِيبًا، وَلِلذَلِكَ
يَصْعَبُ عَلَى مُتَعَاظِيهِ وَيَقِلُّ جَدًّا حَتَّى إِنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا مِنَ الشَّعْرِ عَدِيلَ هَذَا
الْبَيْتِ (١).

ذَلِكَ بَعْضُ صِنْعَتِهِ، أَمَّا مَعَانِيهِ فَإِنْ أَكْثَرَ مَا قُدِّمَ بِهِ زَهِيرُ الْمَدِيحِ، وَهُوَ الَّذِي
أَلْقَى عَنِ الْمَادِحِينَ فَضُولَ الْكَلَامِ، وَلَهُ فِي ذَلِكَ أَيْبَاتٌ لَمْ يَسْبِقْ إِلَيْهَا، كَأَيْبَاتِهِ
الْقَافِيَةِ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا:

* مَنْ يَلْقَى يَوْمًا عَلَى عِلَاتِهِ هَرِمًا *

وَنَحْوُ قَوْلِهِ:

مَنْ ضَرِيبَتُهُ (٢) التَّقْوَى، وَيَعْصِمُهُ مِنْ سَيِّئِ الْعَثَرَاتِ اللَّهُ وَالرَّحِمُ
مَوْرَثُ الْمَجْدِ لَا يَغْتَالُ هِمَّتَهُ عَنْ الرِّيَاسَةِ لَا عَجْزٌ وَلَا سَأْمٌ
وَقَصِيدَتُهُ اللَّامِيَّةُ الَّتِي مَطَّلَعَهَا:

* صَحَا الْقَلْبُ عَنْ سَلَمَى وَقَدْ كَادَ لَا يَسْلُو *

(٢) الضَّرْبَةُ: الْخَلِيقَةُ.

(١) الْعَمْدَةُ ٢٠/٢.

وفيهما يقول:

على مكثريهم رزق من يعتريهم وعند المقلين الساحة والبذل
وما يك من خير أتوه فإنما توارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطي إلا وشيعة وتغرس إلا في منابتها النخل؟

كذلك أبياته التي استجمع فيها ضروب المديح من العقل والعفة والعدل والشجاعة، وهي التي يقول فيها، وهي من المديح المنصوص عليه، وقد عدوها شرفاً لمن قيلت فيهم.

أخى ثقة لا تتلف الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله
تراه إذا ما جتته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله

وقد اختارها قدامة في نقد الشعر وشرحها على ذلك التقسيم.

ونحن لسنا في سبيل الاختيار، وإنما نسوق ما لا يزيلنا عن طريق البحث؛ ولزهير طريقة في تقريب المبالغة والبلوغ إلى الإفراط والإغراق من طريق الحقيقة، كراهية للكذب الثقيل، وبغضة لسوء التأليف الذي يجيء من ناحية الإغراب، فتراه يداور المعاني حتى يبصر لها طريقاً إلى الحقيقة، ويجد لها مخلصاً إلى الواقع كقوله:

لو كنت من شيء سوى بشر كنت المنور ليلة البدر

وقوله أيضاً:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا

وعلى هذه الطريقة يُحمل قول عمر: إنه لا يمدح الرجل إلا بما فيه، ولا ترى زهيراً يشذ عنها في شيء، حتى لقد بلغ من معرفتهم ذلك له أنهم حملوا عليه الجواب المروى عن أوس بن حجر حين سأله رجل وقد سمعه يقول:

ولأنت أشجع من أسامة إذ دُعيت نزال ولج في الدعر

فقال له: أنت لا تكذب في شعرك، فكيف جعلته أشجع من الأسد؟ فقال

أوس: إنى رأيت فتح مدينة وحده، وما رأيت أسداً فتحها قط - وذلك لتخصص
زهير بتلك الطريقة والتزامه إياها.

على أن سبب هذا الالتزام قد يكون من ضعف الخيال، لأنه لم تستقل له
طريقة فيه، ولا هو كان من المتبسطين في فنون المجاز، كما قد يكون أنفة ونزوعاً
إلى مذاهب السيادة، وتورعاً عن أمثال تلك التكاذيب، وهو الأرجح عندنا لما
قدمنا من أن هذا الرجل خلق سيّداً قبل أن يُخلّق شاعراً؛ ولذلك قصر مديحه ولم
يجعله تجارة كما جعله الأعشى، ولا انحط فيه إلى تساقط الهمة كما فعل النابغة،
ولا زين باطلاً، ولا اختلق موضوعاً، بل كان مديحه تاريخاً صحيحاً.

ومن أجل هذا كان لا يحتال إلى التخلص في قصائده، بل يقتضب المديح،
أو يتخلص بمثل قوله:

* دع ذا وعدّ القول في هرم *

ولو شاء ذلك تفتقت له الحيلة؛ ثم كان يتناول البسيط من معاني المديح وما
لا يُمدح به عادة، فتدفعه سلامة النية إلى إقحامه في شعر كقوله:

لعمر أيبك ما هرم بن سلمى بمُلْحِي إِذَا اللُّؤْمَاءُ لِيَمُوا

فهذا البيت لا يرضى أحق العرب أن يُمدح به، ولكن زهيراً يعرف أن هرماً
يرضاه، بل يعرف كيف يرضيه به، ومثله قوله في معناه:

إن البخيل ملومٌ حيث كان ولكنّ الجواد على علاته هرم

وكلمة «على علاته» هذه لا تزال تدور في الناس إلى اليوم، وكذلك كلمته
في قوله:

* لدى حيث أَلَقْتُ رَحْلَهَا أم قشعم *

يعنى المنية، فقد أجراها الظرفاء على الحذف، فيقولون إلى حيث أَلَقْتُ...
لمن يودّعون وجهه ويستقبلون قفاه...

خشونة الشعر الجاهلي

ليس الذى نجده نحن فى شعر الجاهلية من جفاء المعنى وخشونة اللفظ و
وعثرة بعض الأساليب - مما كانوا يجدونه هم أو يأخذونه على أنفسهم، فإن
الألفاظ صورة معنوية من الاجتماع، وإن الزمن يفعل فى إحالة هذه الألفاظ عن
مدلولاتها ما تفعل أطوار العمر فى معانى النشأة فالشباب فالكهولة؛ إذ لا يكون ما
يسرك وأنت طفل مثلاً بالذى يسرك وأنت شاب نفس ذلك السرور الأول فى معناه
وموقعه.

ولما كانت ألفاظ اللغة لا تؤدى أكثر من الصور، ومعانٍ منتزعة من حياة أهل
تلك اللغة المبنية على مصطلحات ومواصفات مألوفة بينهم، كان تبدل هذه الحياة
بما يصور الاجتماع من الأسباب الكثيرة ذاهباً بحقائق تلك الألفاظ، إذ يعطيها
صوراً ومعانى معدومة أو معلومة علماً تاريخياً لا سبيل معه إلى تحقيق الوصف
بالمشاهدة أو بالعادة والألفة ونحو ذلك؛ فمن ثم تنزل الألفاظ منزلة الغريب،
ويغرق بعضها فى الغرابة إذا انعدمت صورته الذهنية من الاجتماع، فيجرى مجرى
الألفاظ المماتة.

والعرب يذكرون فى أشعارهم أسماء كثير من الحشرات ومن صفات الدواب
وأشهرها الخيل والإبل على جهتي المدح والذم، وكثير مما يعدّ من مألوف
اجتماعهم، وكل ذلك عندنا منكر قد لا يعرفه منا علماء الحيوان وأهل البيطرة،
ثم هم لا يرون فيه ما نراه نحن وما رآه أهل الدول من بعدهم، وذلك شأن كل
الأمم على السواء فيما يختلفون فيه جميعاً وما تختلف فيه أطوار الأمة الواحدة من
الاجتماع، فتلك الخشونة فى شعر الجاهلية بأسبابها هى جماع خصائصه المميزة له
عن سائر أطوار الشعر العربى، وقد مرّ شيء من تفصيل ذلك فى تاريخ الأنواع
التي بوّينا لها.

وقد يتعاطى الشعراء من البلديين وأهل الحضارة تقليد أهل البادية فى
بعض خصائص شعرهم فيخطئون، قال العجاج فى الكميت والطرماح..... (١)

(١) الأغاني : ١٨/٤ .

وضحك أبو كلدة الأعرابي حين أنشد شعر ابن النطاح الذي يقول فيه:

* والذئب يلعب بالنعام الشارد *

قال: وكيف يلعب بالنعام... إلخ^(١)؛ وكذلك عابوا على أبي نواس وهو المقدم في المحدثين صفته لعين الأسد بالجحوظ في قوله:

كأن عينه إذا التهبت بارزة الجفن عينٌ مخنوق

ولعله لم يكن رآه فقام عنده أن هذا أشنع وأشبه [بشناعة] وجه الأسد وهم يصفون عينه بالغثور كقول أبي زهير:

وعينان كالوقيين في ملء صخرة ترى فيهما كالجمرتين تسعر

وكان الأصمعي يخطئ قوماً من المخضرمين والمحدثين في تعسفهم مثل هذه الطرقات المجهولة مما لا يعرفونه عياناً ولا يخالطون صفته بالحقيقة التي تعرفها المشاهدة. وقد أسلفنا أن العرب كانوا علماء في أشعارهم، فسبيل هذه الأشعار عندنا سبيل كل علم يحتاج إلى درس وتلقين، وإلى الأخذ عن أهله أو القوام عليه. قال الجاحظ: قل معنى سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة وقرأناه في كتب الأطباء والمتكلمين إلا ونحن قد وجدنا قريباً منه في أشعار العرب والأعراب.

وعلى ما رواه من تلك الأشعار بنى أكثر ما في كتابه الحيوان، وإن كان قد ترك فيه تفسير شواهد كثيرة مما لا يعرفه إلا الرواة، للتحرز من خوف التطويل كما قال^(٢):

وحتى ذكر في الجزء السادس من هذا الكتاب أنه لم يجعل لما تسكن الملح والعدوبة والأنهار والأدوية والمناقع من السمك وما يعيش معه - باباً مجرداً؛ لأنه لم يجد في أكثره شعراً يجمع الشاهد ويوثق منه بحسن الوصف^(٣). وما نبه عليه في ذلك الكتاب مما يعد فيما نحن بسبيله، أن شعراء العرب قد تواضعوا في

(١) الحيوان: ١٠٩/٢.

(٢) قرأنا في شرح بغية الوعاة للسيوطي في ترجمة أبي بكر الخياط الأصبهاني النحوي أوجد أهل زمانه في النحو ورواية الشعر: أن أبا الفضل بن العميد قدم له يوماً نعله فاستشرف منه ذلك فقال أبو الفضل: الأم على تعظيم رجل ما قرأت عليه شيئاً من الطبائع للجاحظ إلا عرف ديوان قائله وقرأ القصيدة من أولها إلى آخرها حتى ينتهي إليه (ص ٣٢١: بغية الوعاة).

(٣) الحيوان: ٦/٦.

صفتهم قتال الكلاب ويقر الوحش على أنه إذا كان الشعر مرثية وموعظة، جعلوا الكلاب هي التي تقتل البقر، وإذا كان الشعر مديحاً وقال كأن ناقتي بقرة من صفتها كذا، أن تكون الكلاب هي المقتولة، ليس على أن ذلك حكاية عن قصته بعينها، ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب، وربما قتلتها؛ وأما في أكثر من ذلك فإنها تكون هي المصابة والكلاب هي السالمة والظافرة. نَبَّهَ على ذلك الجاحظ^(١).

ثم إن شعر العرب إنما بقي من بعدهم للحاجة إلى ألفاظه لا إلى معانيه، إذ هو مادة الشاهد والمثل في العلوم الدينية واللسانية، وكان الرواة لا يطلبون منه أكثر من ذلك، كما لا يطلبون من الخبر إلا الأيام والمقامات، فهم من أجل هذا يروونه على ما هو لا يبالون وافقت ألفاظه المعاني المألوفة في عصورهم أو خالفت، فتلك في جانب بعيد من الغرض الذي يستهدفونه؛ وهذا معنى قول ابن فارس: قد يكون شاعر أشعر وشعر أحلى وأظرف، فأما أن تتفاوت الأشعار القديمة حتى يتباعد ما بينها في الجودة فلا، ويكل يَحْتَجُ وإلى كل يُحْتَاج^(٢).

هذا سبب ما تجده من خشونة الشعر الجاهلي.

أما السبب في أن العرب لم ينظروا في تصفية معانيهم ونحت ألفاظهم^(٣) الشعرية حتى تخرج رقيقة تنهالك ونحيفة لا تتمالك، فذلك راجع إلى فطرة الاستقلال وحالة البداوة، فإن شئت قلت إن ألفاظهم إنما تقطر من سيوفهم أو تسيل من رماحهم أو تجذب في رمالهم أو تخصب في أوديتهم أو تدب في حشراتهم أو تسعى مع دوابهم أو تعذب في أمطارهم أو تأسن في غدرانهم، ولكنك لا تستطيع أن تقول إنها تتردد الحاظاً مذعورة أو تتمثل وهي معبودة، أو تنهالك رقة دينية ونحو ذلك مما لا يلائم نشاط البداوة ولا يكون إلا وهناً من هرم الحضارة وتماوت الحياة الاستقلالية بما يفشو في أطرافها من جرائم الانقراض، وأظهر ما تجده في الشعر العبراني؛ فإن الذلة والمسكنة والرعدة الدينية أخص مميزاته.

(١) الحيوان: ٨/٢.

(٢) الزهر: ٢٣٥/٢.

(٣) قلت: النَّحْتُ: نحت الكلمة: أخذها وركبها من كلمتين أو كلمات يقال «بَسَمَلٌ» إذا قال «بسم الله الرحمن الرحيم»، وحوقل أو حوَلَق «إذا قال» لا حول ولا قوة إلا بالله».

البابُ السابعُ
أدبُ الأندلس
إلى سقوطها ومصرع
العربيّة فيها

الأدب الأندلسي

هنا مشرّع القلم ومصرعهُ، والمورد الذي يُرويه ماؤه تُظمّته أدمغه، فلو كان القلم سحاباً لا احترق من أسى البكاء بما فيه من البرق، ولو كانت الصحيفة صحيفة الشمس وهي تندب مجد المغرب لأظلم بها الشرق. أيام أدب مرّت كنور النهار أصبح به حيناً ويات، بل كانت خفقات قلب الزمان عاش بها دهرأ ومات؛ فنضّر الله سعداً لا عيب له إلا أنه من الزمن وآخر الزمن شقي، ورحمه الله عهداً لا نقص فيه إلا قول المؤرخ بعده: لو بقي!

الأدب وتأثره بالتاريخ السياسي:

لما قرأنا تاريخ الأندلس وأخذنا في درس أدبها واستخلاصه من جملة التاريخ، رأينا ما أذهلنا من إغفال المؤلفين في الأدب والعلوم وتراجم رجالها لهذا الفرع الفينان من الحضارة العربية، فإنك إن جهدت أن تتمثل صورة مجملته لأدب الأندلسيين، فكأنما تجهد أن ترجع إلى خيالك شاباً أنخلقت عهده، وكأنك خلقت بعده؛ فمهما تأت من ذلك لا تزيد على الذكرى التي يبلغ من ضعفها أن لا يكون فيها إلا بعض أنقاض التاريخ، وأنت تريد الانقراض كلها، بل صورة البناء قبل أن ينقض.

لذلك رأينا أن نضع هذه الصفحة جديدة في تاريخ الأدب العربي؛ ولما شرعنا في ذلك رأينا أن لا بد من أن يأخذ الكلام في طريقه: فالأول في ظاهر الأدب وتأثره بالتاريخ السياسي، والثاني في حقيقته وتأثر التاريخ السياسي به؛ وهذا مما انفرد به الأدب الأندلسي، لأنه بدأ عربياً وانتهى أعجمياً - كما ستري - ومن أجل ذلك قسمنا الكلام إلى قسمين.

القسم الأول: الأندلس من العراق.

إن الأدب الأندلسي لا يبيزه^(١) في التاريخ إلا الأدب العراقي؛ ولقد يكون في الأندلس ما ليس في العراق من بعض فروع الحضارة والصناعة، غير الفرق ما بين

(١) قلت: يبيزه: بزا (بزوّا): يطاول ويقهر.

الموطنين في زينة الطبيعة ونضارة الإقليم، إلا أن الأدب العراقي ممتاز بمثانة اللغة، لقربه من البادية، ولاستفحال الرواية هناك، وبكونه أصلاً؛ حتى إن الأندلسيين أنفسهم كانوا يلقبون نابغيهم بأسماء المشاركة، فيقولون في الرصافي: إنه ابن رومي الأندلس، ومروان بن عبد الرحمن: ابن معتز الأندلس، وابن خفاجة: صنوبري الأندلس، وابن زيدون: بحترى الأندلس، وابن دراج: متنبى الأندلس، ومحمد ابن سعيد الزجالي الأديب الحافظ: أصمعي الأندلس، لحفظه وذكائه؛ وأبي بكر الزبيدي الشاعر اللغوي: ابن دريد الأندلس؛؛ كما يقولون في الفيلسوف ابن باجه الشاعر الموسيقى: إنه فارابي المغرب^(١)، وحمة بنت زياد الشاعرة الأدبية: خنساء المغرب؛ وكان منشأ ذلك أن العلماء والأدباء من أهل ذلك الصقع كانوا يرحلون إلى المشرق فيلقون الأئمة ويأخذون عنهم، ثم ينقلون إلى الأندلس برواية ما أخذوه فيثبته في أهلها مسنداً إلى أدباء العراق، كسوار بن طارق القرطبي مولى عبد الرحمن بن معاوية، فإنه حج ودخل البصرة ولقى الأصمعي ونظر أمره، ثم انقلب إلى الأندلس وأدب الحكم؛ ومن ولده محمد بن عبد الله بن سوار، حج أيضاً ولقى أبا حاتم بالبصرة والرياشي وغيرهما، وأدخل الأندلس علماً كثيراً، وقاسم بن أصبغ البياضي (نسبة إلى بيانة من أعمال قرطبة) فقد سمع بالأندلس ممن كان بها، ثم رحل إلى المشرق سنة ٢٧٤ فسمع بمكة والكوفة وبغداد من أئمة الفقه والحديث، وكتب عن ابن أبي خيثمة تاريخه، وسمع من ابن قتيبة كثيراً من كتبه، ومن المبرد وثلعب وابن الجهم، في آخرين، وسمع بمصر من محمد بن عبد الله العمري، ومطلب بن شعيب، وبالقيروان من أحمد بن يزيد المعلم وبكر بن حماد التاهرتي الشاعر، وانصرف إلى الأندلس بعلم كثير، فمال الناس إليه في تاريخ أحمد بن زهير وكتب ابن قتيبة وأخذوا ذلك عنه^(٢)، ومحمد بن عبد الله بن يحيى من قضاة الناصر (توفي سنة ٣٣٧) وكان شاعراً مطبوعاً، فقد رحل إلى المشرق وسمع من ابن الأعرابي وغيره، ثم حدث عنه بالأندلس؛ وسيأتي ذكر آخرين في الكلام على علماء الأندلس.

(١) هو أبو بكر بن الصائغ يعرف بابن باجه، وإليه تنسب الألحان المطرية التي كان عليها الاعتماد في الأندلس، توفي سنة ٥٣٣.

(٢) نفح الطيب: ٣٤٥/١.

وكانت أمهات كتاب الأدب التي تُولف بالعراق تُروى في الأندلس بالسند إلى مؤلفيها، على تفاوت بين الأسانيد قوة وضعفاً، ومن ذلك قول الأمير الحكم المستنصر: لم يصح كتاب الكامل عندنا من رواية إلا من قبل ابن أبي قلاعة^(١)، وكان ابن جابر الأشبيلي قد رواه قبلُ بمصر، وما علمتُ أحداً رواه غيرهما، وكان ابن الأحمر القرشي يذكر أنه رواه، وكان صدوقاً، ولكن كتابه ضاع، ولو حضر ضاهى الرجلين المتقدمين أه^(٢).

وقد يكون دخول العراق عند بعض العلماء من قبيل قولهم «مَنْ حفظ حجة على من لم يحفظ» لأنه عندهم زيادة في الاطلاع وتحقيقُ الثقة في الرواية، ولما قدم عليهم أبو على القالى سنة ٣٣٠ في زمن الناصر، أمر ابنه الحكم وكان يتصرف عن أمر أبيه، أن يجيء مع أبي على إلى قرطبة، ويتلقاه في وفد من وجوه رعيته، ينتخبهم من بياض أهل الكورة تكرمةً له، وباسم الحكم طرز أبو على كتاب الأمالى المشهور، وكان قبل ولاية الأمر وبعدها ينشطه ويعينه على التأليف بواسع العطاء ويشرح صدره بالإفراط في الإكرام، وقد اعتنى الأندلسيون بكتاب الأمالى فشرحوه وألفوا على منزعه، كما فعل الشَّقُورَى رئيس كتاب الأندلس في كتابه سراج الأدب، وحفظه كثير منهم حتى في النساء - كما سيمر بك - ومن أجله جعلوا أبا على أندلسياً بالموطن دون المنشأ، ليصح لهم الاختصاص به، مع أن القالى لم يكن في قرطبة أعرابياً في أعاجم، ولا كان وحده فيهم كالذهب في تراب المناجم، بل كان في قرطبة كثير منهم، وحسبك بمحمد بن القرطبة، وهو الذى كان يبالغ القالى في تعظيمه، وشهد له بأنه أنبل أهل الأندلس في اللغة، وكان إمام الأدب في ذلك الزمن أبا بكر الزبيدي.

غير أن التاريخ قد فسر هذا التفاوت؛ فإنه عدّ أبا على حسنة من حسنات الدولة الأموية في الأندلس، حتى وقع ذلك موقع المنافسة من المنصور بن أبى عامر المتوفى سنة ٣٩٣، فإنه لما قدم عليه أبو العلاء صاعد بن الحسين البغدادي

(١) هو محمد بن أبى قلاعة البواب، سمع من أبى الحسن على بن سليمان الأخفش عن المبرد كتابه الكامل المشهور، وأخذ أيضاً عن أبى إسحاق الزجاجي، وأبى بكر الأنباري، ونقطويه وغيرهم.

(٢) نفح الطيب: ٣٩٢/١.

اللغوى عزم على أن يعنى به آثار أبى على الوافد على بنى أمية، ليفوز بإحدى الحسينين، ولكنه لم يجد عنده ما يرتضيه، وكان الرجل يتنقق بالكذب - وقد مرَّ من ذلك شيء فى بحث الرواية - فأعرض عنه أهل العلم، وقدحوا فى روايته وحفظه، ولم يأخذوا عنه شيئاً لقلة الثقة.

ولم يكن الشغف بالأسماء والألقاب العراقية مقصوراً على العلماء والأدباء وحدهم، بل تجاوزهم إلى الخلفاء، فإن ألقاب الأول منهم كانت: الأمراء أبناء الخلائف، ثم الخلفاء وأمراء المؤمنين، إلى أن وقعت الفتنة بحسد بعضهم لبعض، وابتغاء الخلافة من غير وجهها الذى ترتبت عليه، فتوَّج ملوك الطوائف على الألقاب العباسية، وترفعوا إلى طبقات السلطنة العظمى، بما فى جزيرتهم من أسباب الترفه والفخامة التى تتوزع على ملوك شتى فتكفيهم وتنهض بهم للمباهاة، وفى هذه الألقاب يقول ابن رشيق:

* كالهَرُّ يحكى انتفاخاً صورة الأسد *

وكان بنو حمود الذين توثبوا على الخلافة فى أثناء الدولة مارونية بالأندلس يتعاضمون ويأخذون أنفسهم بما يأخذها خلفاء بنى العباس، فكانوا إذا حضرهم منشد يمدح أو من يحتاج إلى الكلام بين أيديهم، تكلم من وراء حجاب والحاجب^(١) واقف عند الستر يجاوب بما يقول له الخليفة؛ ولما حضر أبو يزيد عبدالرحمن بن مقانا الأشبوني الشاعر أمام حاجب إدريس بن يحيى الحمودى الذى خطب له بالخلافة فى مالقة وأنشده قصيدته النونية المشهورة التى مطلعها:

البرق لائح من أندين ذرفت عينك بالماء المعين

وبلغ فيها إلى قوله:

انظرونا نقتبس من نوركم إنه من نور رب العالمين

فرفع الخليفة الستر بنفسه وقال: انظر كيف شئت؛ وكذلك انتحل وزراء

(١) لم يكن الحاجب على المعنى المصطلح عليه اليوم، بل كان هذا اللقب خاصاً بكبار الوزراء، فإن قاعدة الوزراء بالأندلس كانت فى مدة بنى أمية مشتركة فى جماعة يعينهم صاحب الدولة للإعانة والمشاورة، ويخصهم بالجلاسة، ويختار منهم شخصاً ينوب عنه فيسميه بالحاجب، وقد عظمت هذه السمة حتى كانت أعظم ما تنوفس فيه.

الأندلس لقب ذى الوزارتين امتثالاً لاسم صاعد بن مخلد وزير بنى العباس ببغداد، وأول من تسمى به منهم وزير الناصر، أبو عامر بن شهيد الكاتب الشاعر الكبير، أول وزير فى الإسلام^(١) .

ولما احتفل المأمون بن ذى النون، من أعظم ملوك الطوائف فى إعداده المشهور الذى عمله بطليطلة وبالف فى ذلك بما يناسب ما بلغت إليه دولتهم من البذخ والترف، وهو الإعذار الذنونى - ضرب أهل المغرب به المثل وفاخروا به المشاركة فى عرس بوران بنت الحسن بن سهل التى بنى بها المأمون العباسى . وهو من أكبر الاحتفالات التى حفظها التاريخ .

ذلك طرف من تهافت الأندلسيين فى تقليد مشاهير العراقيين، وقد بلغوا من ذلك أنهم لما وفد زرياب المغنى تلميذ إسحاق الموصلى على عبد الرحمن بن الحكم ورأوا من ظرفه وفنون أدبه ما رأوا، اتخذوه خواصهم قدوة فيما سنه لهم من آدابه فى اللباس والفرش والطيب والطعام، ثم امتثلهم عامة الناس . وقد ذكر من ذلك نفح الطيب أشياء قال إنها صارت إلى آخر أيام الأندلس منسوبة إليه معلومة به، فكان عربية الأندلسيين كانت صغيرة فى أنفسهم لنزولها عن العربية العراقية بالمنشأ فهم يحققونها دائماً بالتقليد؛ ويتشبتون من بقاء قدمها بهذا الجديد، ولا جرم فقد كان أصل حضارتهم أموياً لأن أول من سنّ سنن الآداب وأقام حالة الملك بالأندلس هو عبد الرحمن الداخل المتوفى سنة ١٧٢ فل بنى أمية بالشام، وكان يسميه عدوه أبو جعفر المنصور العباسى: صقر قريش، لرقى همته وبعد مطمححه، وقد طرز ثوب ملكه حفيده الحكم بن هشام فحل بنى أمية المتوفى سنة ٢٠٦، فكان أول من جند الأجناد واتخذ العدة، وأول من جعل للملك بأرض الأندلس أبهة واستعد بالممالك حتى بلغوا خمسة آلاف، منهم ثلاثة آلاف فارس وألفا راجل .

عربية الأندلس :

كان أول احتلال طارق بن زياد لأرض أندلسية فى سنة ٩٢، وبعد أن ضرب

(١) التمدن الإسلامى : ١١٩/١ .

فيها قليلاً رحل إليها مولاه موسى بن نصير فدخلها في سنة ٩٣ وافتتح جانباً منها ثم قفل عنها سنة ٩٥، وتتابعت الولاة والفتوح بعد ذلك مما ليس في هذا الكتاب موضع بسطه؛ غير أنه لما استتم الفتح وعصفت ريح الإسلام، صرف أهل الشام وغيرهم من العرب همّهم إلى الحلول بها، فنزل بها من جرائيم العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم، وهم بدء تاريخ الأدب فيها، فكان منهم القبائل المختلفة من العدنانية والقحطانية^(١) ولم يتركوا في الأندلس عاداتهم المشرقية من الغزو والحروب، فطرات بذلك الفتن بين الشاميين والبلديين والبربر والعرب، من المضربة واليمانية، حتى كان زمن الداخل في سنة ١٣٨، ولم يزل أولئك العرب يتميزون بالعمائر والقبائل والبطون والأفخاذ إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبي عامر الداهية الذي ملك سلطنة الأندلس سنة ٣٦٦ وقصد بذلك تشييتهم وقطع التحامهم وتعصّبهم في الاعتزاء، وقدم القواد على الأجناد، فيكون في جند القائد الواحد فرّق من كل قبيل، فانهحست بما فعل مادة الفتن بالأندلس التي كانت تثيرها تلك الجاهلية الرقيقة...

وقلما تجدد في الأندلسيين شاعراً مفلحاً أو كاتباً بليغاً أو عالماً ضليعاً إلا ونسبه في قبيلة من تلك القبائل العربية، فكان يحيى الغزال أول شعراء الأندلس الفلاسفة من بني بكر بن وائل، وكان يوسف بن هارون الرمادي معاصر المتنبي من كندة، وأبو بكر المخزومي هجاء الأندلس من بني مخزوم، وكذلك أبو بكر بن زيدون، وابنه أبو الوليد بن زيدون الشهير، وكان أبو بكر بن عمار ينسب إلى مهرة من قضاة، وغير هؤلاء كثيرون، فضلاً عما لم يُعرف سبيل اعتزائهم من الأدباء لأن الانتساب إلى العرب كان محفوظاً بالأكثر في العلماء والفقهاء والأشيان، متميزاً فيهم، كبنى سراج الأعيان من أهل قرطبة، ينسبون إلى مذحج، وبنو المنتصر العلماء من أهل غرناطة، إلى مرة بن أود بن زيد بن كهلان، وبنو أسماك القضاة من أهل غرناطة أيضاً، إلى عاملة، وقيل هم من قضاة، وبنو عباد أصحاب أشبيلية، إلى لحم بن عدى، وهم من ولد النعمان بن المنذر صاحب الحيرة؛ إلى غير هؤلاء ممن أفردت لهم كتب الأنساب الأندلسية؛ وكان يقال لنساء غرناطة

(١) قد مر الكلام عن معنى هذين اللفظين وما يرادفهما في الجزء الأول.

المشهورات بالحسب والجلالة: العربيات، لمحافظتهن على المعانى العربية^(١) فكان الطبيعة بتلك الوراثة العربية قد تعاون باطنها وظاهرها على إيجاد الأدب الأندلسى وإجاده.

أولية الأدب والعلوم :

فمن لدن فتح الأندلس إلى زمن الداخل - أى نحو ٤٦ سنة - لم يكن فى الأندلس ضرورة شعراء ولا كتاب من أهلها، بل كانوا من الطارئین، وهم مع ذلك لم يتميزوا ولم يبلغوا مبلغ أدباء العراق والشام، ومن هؤلاء أبو الحظار صاحب اليمانية، والصميل بن حاتم شيخ المضربة، وهما كبشا الفتنة العمياء؛ غير أنه كان فى تلك المدة أبو الأجرى جعونة بن الصمة الكلابى، وكان معاصراً لجرير والفرزدق وشعره على مذهب الأوائل من جاهلية العرب لا على طريقة المحدثين، وكذلك بكر الكنانى، وهذا وحدهما هما اللذان عرفا بالشعر فى ذلك الزمن؛ ولما توجه عباس بن ناصح الشاعر من قرطبة إلى بغداد ولقى أبا نواس استنشدته من شعرهما^(٢) وهذا يدل على أن شهرتهما ترامت إلى العراق. واستمرت تلك الحال إلى منتصف القرن الثانى، فعرف بالشعر حبيب بن الوليد الذى ينتهى نسبه إلى عبد الملك بن مروان، وقد توفى بعد المائتين^(٣) وحوالى ذلك الزمن كان من قضاة الداخل معاوية بن صالح الحضرمى الحمصى، وكان له أدب وشعر، وكان عباس ابن ناصح الثقفى قاضى الجزيرة الخضراء فى أواخر هذا القرن يفد على قرطبة فيأخذ عنه أدباؤها، ومنهم يحيى الغزال أول المشاهير من شعراء الأندلس المفلقين، وكان يومئذ حدثاً^(٤) وفى تلك الأيام عرف شاعر اسمه بكر بن عيسى.

هذه أولية الشعر فى الأندلس؛ أما الكتابة فلعل أول من اشتهر بها أمية بن يزيد مولى معاوية بن مروان، وذلك لأنه لزم الكتابة لعبد الرحمن الداخل، وكان يكتب قبله ليوسف الفهرى، وقد جعله الأمير عبد الرحمن فى عديد من مشاوره

(١) نفح الطيب: ٤٩٢/٢.

(٢) نفح الطيب: ١٥٦/٢.

(٣) نفح الطيب: ٥٧٤/١.

(٤) نفح الطيب: ٤٤٥/١.

ويفضل آراءه^(١) ولم يكتب أحد قبله لهذا الأمير إلا أبو عثمان النقيب وصاحبه عبد الله بن خالد، إلا أن فضل الخصوصية والمشاورة كان لأمية دونهما.

أما أولية العلوم فإن أقدم ما اشتغلوا بمداسته من العلوم إنما هو الفقه، حتى كان الأمراء الذين وُلوا الحكم في القرن الثاني، وهم: الداخل، وهشام ابنه، والحكم بن هشام - لا يعنون إلا بالقضاة، ويقربونهم، ولا يألون الناس جهداً في إقامتهم على الحق وحملهم بالسنة الواضحة، ولهم في ذلك الأخبار العريضة.

وقد كانت حركة الحياة الأندلسية حركة غزو وحرب واضطراب فتن سياسية عليها صفة الدين إلى آخر تاريخها العربي - كما ستعرفه - فكان طبيعياً أن يكون من مقتضيات فطرة ذلك الشعب، الحماسة الدينية، ولا يدل عليها كالأحساس الشديد باحترام الفقهاء، ولذلك كانت سمة الفقيه عندهم جليلة، حتى إن المسلمين كانوا يسمون الأمير المعظم منهم الذي يريدون التنويه به: فقيهاً، وقد يقولون للكاتب والنحوى واللقوى: فقيه، لأنها عندهم أرفع السمات^(٢) وفي تاريخ وزرائهم وشعرائهم وأدبائهم ما يدل على ذلك، وسنأخذ في هذا المعنى في موضع آخر. وقد كان الأندلسيون يتفقهون على مذهب الأوزاعي حتى رحل زياد ابن عبد الرحمن بن زياد اللخمي المعروف بشيطون المتوفى سنة ٢٠٤ إلى الحجاز فسمع من الإمام مالك بن أنس كتاب الموطأ، وهو أول من أدخل مذهبه الأندلس، وكان ذلك زمن الأمير هشام بن عبد الرحمن المتوفى سنة ١٨٠ في فجر تلك الحضارة، وذلك طبعاً؛ لأن الناس في أدوار التاريخ الإسلامي لم يتفرغوا لعلم الأدب إلا إذا استكملوا علوم الدين أو أهملوها والعياذ بالله؛ وقد أجمع الأندلسيون قاطبة على مذهب مالك، ولا يزال ذلك في أهل المغرب لعهدنا؛ قال الحافظ ابن حزم: «مذهبنا انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان: مذهب أبي حنيفة، فإنه لما وُلّي القضاء أبو يوسف كانت القضاة من قبله من أقصى المشرق إلى أقصى عمل إفريقية، فكان لا يولى إلا أصحابه والمتسبين لمذهبه، ومذهب مالك عندنا بالأندلس، فإن يحيى بن يحيى - يعنى يحيى بن يحيى الليثي، وقد روى الموطأ عن زياد المذكور آنفاً قبل أن يدرك مالكا، ثم أدركه فروى عنه - كان مكيناً عند السلطان مقبول القول في القضاة، وكان لا يلى قاض في أقطار الأندلس إلا

(١) نفع الطيب: ٧٢/٢. (٢) نفع الطيب: ١٠٣/١.

بمشورته واختياره، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه، والناس سراع إلى الدنيا، فأقبلوا على ما يرجون أغراضهم به، على أن يحيى لم يل قضاءً قط، ولا أجاب إليه، وكان ذلك زائداً في جلالته عندهم، وداعياً إلى قبول رأيه لديهم». وابن حزم هذا هو أول من خالف مذهب مالك بالمغرب واستبدَّ بعلم الظاهر، ولم يشتهر به مثله أحد^(١).

وليس اشتغال الأندلسيين بالفقه ورسائله بمانعهم أن يتدارسوا علوم اللغة والإعراب؛ إلا أنهم لم يستقصوا هذه العلوم ولم يستغرقوها، لأن ذلك إنما كان في الطارئ على الجزيرة وفي قليل من أهل البلاد كما مرَّ بك بعضه؛ وقد كان الأمير عبد الرحمن الداخل شاعراً محسناً ولَسناً فصيحاً، وكان ابنه الأمير هشام إذا حضر في مجلسه امتلاً أدباً وتاريخاً؛ وفي زمن هشام هذا وقد تقدمت سنه ودنت وفاته؛ كان بالجزيرة الخضراء منجمٌ يُعرف بالضبي؛ قال صاحب نفح الطيب عندما ذكر أن هشاماً أشخصه^(٢) من وطنه إلى قرطبة: «وكان في علم النجوم والمعرفة بالحركات العلوية بطليموس زمانه حذقاً وإصابة»^(٣).

وكان في زمن الحكم بن هشام، الذي ولى سنة ١٨٠، شاعر اسمه العباس معروف بالشعر؛ أورد له صاحب نفح الطيب بعض أبيات غير جيدة^(٤).

فتلك جملة تاريخ الأدب الأندلسي في القرن الثاني وما أدركه الفتح من بقية القرن الأول، وهي لا تعدّ شيئاً في جنب ما كان يومئذ بالشام والعراق في الدولتين الأموية والعباسية؛ حيث انتهى القرن الثاني بقيام المأمون العباسي الذي بويغ سنة ١٩٨؛ ولكنها كالجاهلية للأدب الإسلامي؛ ولم تزل سنة أن لا يتم آخر شيء إلا إذا كان النقص في أوله!

(١) المعجب: ص ٣٢.

(٢) قلت: أشخص فلاناً من بلده: أخرجه، وأشخص فلاناً إليه: بحث به.

(٣) نفح الطيب: ١٥٧/١.

(٤) نفح الطيب: ١٦٠/١.

الأدبُ في القَرن الثالث

استهل القرن الثالث وحضارة العباسيين في أوجها، وقد نفح الأدب العربي بأنفاس الخلود الباقية من عصر المأمون إلى ما شاء الله أن تبقى، ولكن هذا القرن كان في الأندلس تطاحاً ومغالبة في أكثر سنيه، وليس فيه من أمراء الأدب المعدودين إلا الأمير عبد الرحمن بن الحكم المعروف بالأوسط معاصر المأمون العباسي: وكان أندى الناس كفاً، وأكرمهم عطقاً، وأوسعهم فضلاً، ملك من سنة ٢٠٦ إلى سنة ٢٣٨، وكانت أيامه أيام هدوء وسكون، واتخذ القصور والمتنزهات، ولكن سواد الناس لم يهتموا إلا ببناء الجوامع بكور الأندلس ولم تبني إلا في أيامه، وقد جاراها هو في ذلك فزاد في جامع قرطبة رواقين، ويقول بعضهم إنه فعل ذلك لما اتهم بميله إلى الفلسفة. ولما كان هذا الأمير مع علمه بعلوم الشريعة عالماً بالفلسفة^(١) وكان محباً للسمع، كثير الميل للنساء، احتجب عن العامة، وهو أول من فعل ذلك من أمراء الأندلس ليتنفس في الهواء الرقيق... ولولا هذا الأمير لرقد العصر الثالث من الأندلس في كفن الثاني؛ إذ نبغ في أيامه يحيى بن حكم المعروف بالغزال الشاعر المفلق^(٢) الفيلسوف، وكان شاعره، وهو من شعراء الأندلس كامرئ القيس من شعراء الجاهلية، وبشار من شعراء المحدثين، وله الأرجوزة المطوَّلة التي نظمها في فتح الأندلس وذكر فيها السبب في غزوها وفضل الوقائع بين المسلمين وأهلها وعداد الأمراء عليها، وأسماءهم، فأجاد وتقصى، وكان للأندلسيين بها شغف إلى آخر عصورهم، وقد قلده في ذلك أبو طالب المتنبي الشاعر من أهالي جزيرة شقر فنظم كتاباً في تاريخ الأندلس وأورد منه ابن بسام في كتابه الذخيرة.

وكان الغزال من كبار أهل الدولة حتى أرسله عبد الرحمن سفيراً إلى ملك القسطنطينية - حين بعث إليه هدية في سنة ٢٢٥ يطلب مواصلته ويرغبه في ملك سلفه بالمشرق من أجل ما ضيق به المأمون والمعتمد - فأحكم الغزال بينهما

(١) نفح الطيب: ١٦٢/١.

(٢) قلت: المفلق: أفلق الشاعر: أتى بما يُعجب في شعره، فهو مُفلق.

الواصله، وتوفى هذا الشاعر سنة ٢٥٠.

وكان من شعراء الأمير عبد الرحمن وندمائه عبد الله بن الشمر^(١)، وكان يكتب له محمد بن سعيد الزجالى، أصمعى الأندلس، وقد استوزره لشطرة من الشعر، وذلك أنه صنع فى بعض غزواته قسيماً، وهو:

* نرى الشيء مما يُتقى فنهاه *

ثم ارتج عليه وكان عبد الله بن الشمر نديمه وشاعره غائباً عن حضرته، فأراد من يجيزه، فأحضر له بعض قواده محمد بن سعيد هذا، فأنشده القسيم، فقال:

* وما لا نرى مما يقى الله أكثر *

فاستحسنه وأجازه، وحمله استحسانه على أن استوزره.

وامتاز عصر هذا الأمير بشيوع الغناء فى الأندلس، بعد أن قدم عليه زرياب المغنى تلميذ إسحاق الموصلى سنة ٢٠٦، وهو الذى أورث هذه الصناعة الأندلس - وسنذكر أمره فى تاريخ هذا الفن - وكان عبد الرحمن مولعاً بالسماع، مؤثراً له على جميع لذاته، حتى أنه كان يبتاع المحسنات من الآفاق، فاشترت له من المدينة فضلُ المدينة التى كانت لإحدى بنات هارون الرشيد، مع صاحبها عَلم؛ وصواحبَ غيرهما، فأنشأ لهن داراً بقصره سماها دار المدينيات، وكان يؤثرهن لجودة غنائهن ونصاعة ظرفهن ورقة أدبهن، وكان من جواريه أيضاً قلم، وهى ثالثة فضل وعلم فى الحظوة عنده، وكانت أديبة ذاكرة حسنة الخط راوية للشعر حافظة للأخبار عالمة بضروب الآداب، وهى أندلسية الأصل حُملت صبيةً إلى المشرق وتعلمت بالمدينة^(٢) ومن الجوارى اللاتى كن يتصرفن بين يديه منفعة، جارية زرياب التى علمها أحسن أغانيه ثم أهداها له؛ وكان فى زمنه أيضاً من الحاذقات بالغناء حمدونة وعليه ابتا زرياب، ومصابيح جارية الكاتب أبى حفص عمر بن فلهيل^(٣) وغيرهن؛ حتى ليكاد يكون زمن هذا الأمير نساءً. ومن استهتر بهن من جواريه: مدثرة، والشفاء، وطروب، وقد بنى الباب على هذه الأخيرة مرة بيدر الأموال، وكانت غاضبة ثم استرضاها على أن لها جميع ما سد به

(١) نفح الطيب: ٣٤٥/٢.

(٢) نفح الطيب: ١١٨/٢.

(٣) نفح الطيب: ١١٤/٢.

سد به الباب^(١) .

وتولى بعد الأمير عبد الرحمن محمد ابنه من سنة ٢٣٨ إلى سنة ٢٧٣، وكان كثير الغزوات فلم يُعَرَف في عهده تاريخ الأدب على حقيقة بيّنة، بل استمر أهل الأندلس على ما اعتادوا زمن أبيه، ولكن كان من أخصّ شعرائه مؤمن بن سعيد؛ وكان من أعظم الفلاسفة لعهد عباس بن فرناس الحكيم - وسنذكره في موضع آخر - وله فيه شعر أورده صاحب العقد الفريد؛ ثم اهتز حبل الفتن بعده في ولاية ابنه المنذر، وكانت سنتين إلا نصف شهر سنة ٢٧٥؛ وفي زمن عبد الله أخى المنذر اضطربت نواحي الأندلس بالشوار والمتغلبين في تلك السنين، وكان عبد الله شاعراً محسناً إلا أنه زاهد تقى صحيح الإيمان، وفي زمنه نشأ الفقيه الأديب ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، وهو ويحيى الغزال طرفا الأدب في القرن الثالث، وتوفى عبد الله سنة ٣٠٠، وكان وزيره النضر بن سلمة الكاتب المحسن.

ومما امتاز به هذا القرن دخول رسائل المحدثين وأشعارهم في أواخره إلى إفريقية ثم الأندلس على يد أبي اليسر إبراهيم بن أحمد الشيباني المعروف بالرياضى من أهل بغداد وسكن القيروان وكتب لأمير إفريقية إبراهيم بن أحمد الأغلب، ثم لابنه أبي العباس عبد الله، وقد لقي الجاحظ والمبرد وثعلب وابن قتيبة الأدباء، وأبا تمام والبحتري ودعبلاً وابن الجهم الشعراء، وسعيد بن حميد وسليمان بن وهب، وأحمد بن أبي طاهر الكتاب، وغيرهم. وتوفى بالقيروان سنة ٢٩٨.

وكذلك دخول كثير من كتب اللغة ودواوين شعر الجاهلية على يد محمد بن عبد السلام بن ثعلبة المتوفى سنة ٢٨٦ فقد دخل البصرة ولقى بها أبا حاتم السجستاني والعباس بن الفرّج والرياشى وأبا إسحاق الزيادى، فأخذ عنهم رواية عن الأصمعى وغيره، ودخل بغداد وسمع من أئمتها، ثم انقلب إلى قرطبة^(٢).
ثم اختراع التوشيح - وقد استوفينا الكلام عنه في موضعه.

(٢) بغية الوعاة: ص ٦٧.

(١) نفح الطيب: ١/١٦٣.

الحضارة الأندلسية

الأندلس إقليم فى جنوب أسبانيا، وقد أطلق اسمه على البلاد كلها مجازاً، ولهذه البلاد أسبانيا فى تاريخ الحضارة أربعة أعصر: الأول عصر الفينيقيين الذين اكتشفوها، والثانى عصر الرومانيين، والثالث عصر القوطيين... والرابع العصر الإسلامى. وكانت أسبانيا قبل أن يكتشفها الفينيقيون ما بين القرن الرابع عشر والخامس عشر قبل الميلاد، معمورة بقبائل يسمونهم «الأييريين» وقد وقع الخلاف فى أصلهم، قالوا: ومن هذا الاسم اشتق اسم «هباريا» الذى كان الاسم الأول لتلك البلاد، ثم صار أسبانيا بعد ذلك.

فلم تكن حضارة العرب فى الأندلس ابتداءً، وإنما كانت تتميماً، ولولا ذلك لتبينَّ النقص الطبعى فى أدب تلك البلاد، وبلغ الكبر قبل أن يشبَّ شبابه الذى بهر التاريخ، لأن الأدب لا يتبع الحضارة لنفسها، ولكن لفلسفتها وحواشيها الرقيقة، فليس الشأن فى بناء يُقام وبلد يعمر ونهر يثق وأرض تفلح، ولكن الشأن فى فلسفة ذلك جميعه، من جمال الشكل وإحكام الهندسة وجلاء الطبيعة وحسن التنسيق؛ وأنت مع استفحال الحضارة الإسلامية واستبحار عمرانها وسموق مبانيها ودقة فنونها، خصوصاً فى الأندلس، لا تكاد تجد لأفراد الشعراء المعدودين فى وصف المباني إلا ما كان للبحترى فى وصف قصور المتوكل كالجعفرى وغيره، وللشريف الرضى فى وصف ما كان فى الحيرة من منازل النعمان، والصابى فى وصف قصر روح بالبصرة، وشعراء الدَّاريات، وهم الذين نظموا فى وصف دار الصاحب ابن عباد كأبى سعيد الرستمى والخوارزمى وغيرهما، وقد ذكرهم صاحب اليتيمة وأورد قصائدهم، وابن حمدى فى مباني المعتمد على الله وما شاده المنصور بن أعلى الناس وهو أشهر الشعراء فى ذلك، وأبى الصلت أمية الأندلسى فى مباني على بن تميم بن المعز العبىدى بمصر، وأبى محمد المصرى فى وصف قصر المأمون بن ذى النون بطليطلة، وقطع متفرقة لغير هؤلاء، وهم مع ذلك لا يذكرون مادة البناء ولا يصورون هندسته، لأن الشعر ليس مادة جامدة يأتلف مع الجوامد، وإنما هو يتبع زخرف الحضارة وفلسفتها.

وقد وجد العرب فى الأندلس حضارة ممهدة وسبيلاً مطروقة إلى الفنون الدقيقة والجمال الطبيعى، وجاءهم بعد ذلك من بنى أمية أمراء الحضارة المشرقية ومنافسو العباسيين فيها. فجلوا شباباً كاد يوفى على الهرم؛ وكان رأسهم فى ذلك عبد الرحمن الداخل الذى بدأ فى بناء جامع قرطبة الأعظم والقصر الكبير الذى كان فى الأبنية كأنه قصيدة فى الشعر، إذ كان من قصوره التى يحتويها: الكامل، والمجدد، والحائر، والروضة، والزاهر، والمعشوق، والمبارك، والرسق، وقصر السرور، والتاج، والبديع، وغيرها، وهى المعاهد التى كانت مذكورة فى السن الشعراء وفرسان الأدب؛ وكان عبد الرحمن بن معاوية صاحب قصر الرصافة ينقل لجنانه غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية، وأرسل إلى الشام رسوله: يزيد وسفر، فى جلب النوى المختارة والحبوب الغريبة، ولسنا الآن فى شرح مواد هذه الحضارة من أنواع النقش والحيل الصناعية ووصف القصور والمنتزهات وسرد أسمائها، ومجالس الخلفاء وأنواع زينتهم ولهوهم وما سفهوا فيه من السرف والبذخ ونحوها، فليس فى كتابنا موضع يسع مثل هذا، وقد تكفل بذلك الشرح جميعه كتابُ نفح الطيب للمقرئ، فضلاً عن أن فيه أشياء أمسكتها لبحث الصناعة العربية تحىء فى موضعها من هذا الكتاب؛ وإنما غرضنا هنا أن نضع أساس البحث فى الحضارة الأدبية لأنها تابعة للحضارة الفنية، تغذى بمادتها وتشرق بجمالها؛ وإنما الأدباء أقلام التاريخ التى تخلد حضارة الدول وتصف زينة الملك وتراسل عن الملوك بالثناء وحسن الذكر وطيب الأحداث؛ فبد الدولة التى لا تكون لها هذه الأقلام يد شلاء يبرها التاريخ ولا يصفها إلا بالعجز وسوء التعلق والمغالبة على الوجوه بغير حق.

وأساس الحضارة الأدبية فى الأندلس تلك الطبيعة التى كانت ترسل النسمات أنفاساً موسيقية تؤخذ شعراً وتلفظ ألقاً، وبذلك حبب إلى أهلها الأدب وطبعوا على هذه الشيمة، حتى كان ذلك ظاهراً فى مثل وادى الأشات من أعمال غرناطة، وهى مدينة خص الله أهلها بالأدب وحب الشعر، لما أحرق بها من المواضع الفرجة والبساتين الغناء؛ وما زالوا يضربون المثل بأهل أشيلية بلد المنتزهات فى الخلاعة والمجون والتهالك على الشعر والغناء، وإنما كان يعينهم على

ذلك واديها البهيج؛ وبنت أشيلية هذه مدينة شريش، وواديها ابن واديها، وقد قالوا فيها: ما أشبه سعدى بسعيدا! وهي مدينة وصفوها بأنه لا يكاد يُرى فيها إلا عاشق أو معشوق...

ومما خُصت به غرناطة التي تسمى دمشق الأندلس، نبوغ النساء الشعراء منها، كنزهون القلعية وحفصة الركونية وغيرهما، وناهيك بهما من شاعرتين ظرفاً وأدباً، فإذا كانت أنوثة تلك الطبيعة قد أنطقت النساء فكيف بالرجال؟

أدباء ملوك الأندلس :

قال الجاحظ في موضع من كتابه البيان: زعم رجال من مشيختنا أنه لم يقم أحد من بني العباس بالملك - أي إلى زمنه - إلا وهو جامع لأسباب الفروسية. فلو زعم أحد أنه لم يقم أحد من أمراء الأندلس وخلفائها إلى آخر القرن الخامس إلا وهو جامع أسباب الأدب لكان حقيقاً في زعمه بالتصديق، ولولا أدبهم لما نفق الأدب عندهم ولا بلغ مبلغه ذلك، فإن نفاق السوق جلاب، ولم يعرف فيهم من أهل الركاة^(١) والسخف إلى ذلك إلا القليل، كمحمد بن عبد الرحمن المستكفي بالله الذي وزر له حائك يعرف بأحمد بن خالد، وكان صاحب رأيه وتدييره، وقد رأينا أن نذكر أسماء الشعراء وأهل الأدب من أولئك الأمراء والخلفاء؛ فمنهم: عبد الرحمن الداخل، وابنه هشام، وعبد الرحمن بن هشام، وعبد الله بن محمد المتوفى سنة ٣٠٠؛ وله شعر جيد، والمنصور، والمستعين، وعبد الرحمن بن هشام من خلفاء دولة بني أمية الثانية، والمستظهر الشاعر الشاب المجيد، وأولاد الأمير عبد الرحمن الأوسط، وهم المنذر، والمظرف، وهشام، ويعقوب، ومحمد، وأبان، كلهم شعراء، ولمحمد هذا ثلاثة أولاد شعراء أيضاً، وهم: القاسم، والمظرف - المعروف بابن غزلان، وهي أمه، كانت قينة مغنية عوادة أدبية - ومسلم، ومن أولاد الناصر عبد الله بن الناصر، وأخوه أبو الأصبغ عبد العزيز، ومحمد بن الناصر، ومحمد بن عبد الملك بن الناصر، أما أخوهم الحكم المستنصر فهو للعلم والأدب، ولم يكن في ولد الناصر أشعر من محمد بن عبد الملك ومن ابن أخيه مروان بن عبد الرحمن بن عبد الملك بن الناصر، وهو في بني أمية شبيه

(١) قلت: الركاة: الضعف كما في القاموس.

عبد الله بن المعتز في بنى العباس، لنفاسة شعره وحسن تشبيهه، وقد خرج منهم بعد القرن الرابع شعراء كثيرون يتفاوتون في الإحسان، وهي ذرية بعضها من بعض؛ ومن حسناتهم عبيد الله بن محمد المهدي المعروف بالأقرع، والأصم المرواني الذي مدح أمير المؤمنين عبد المؤمن؛ وقد ألف القاضي يونس بن عبد الله ابن مغيب بطلب الحكم المستنصر كتاباً في أشعار خلفاء بنى مروان بالمشرق والأندلس، معارضاً للصولي في تأليفه كتاب أشعار بنى العباس بالعراق. وكتاب الصولي محفوظ بالمكتبة الخديوية.

أما ملوك الطوائف فحسبك بالمعتصم بن صمادح ملك المرية وأولاده الوراق عز الدولة، ورفيع الدولة أبو زكريا يحيى بن المعتصم، وأبو جعفر، وأم الكرام، وكذلك المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية ملك الشعراء، وأولاده: الرشيد، والراضي، وبثينة؛ ثم ملوك بنى الألفطس أصحاب بطليوس وما إليها، ومنهم المظفر صاحب الكتاب المظفري في التاريخ والأدب، - وسياى ذكره - وبنو هود أصحاب سرقسطة، وكان منهم القائمون على الرياضيات والفلسفة، وأشهرهم المقتدر بن هود الذي كان آية في علم النجوم والهندسة والفلسفة؛ فقل في زمن كان يقوم بأمره أمثال هؤلاء: وإنما الأمر بالأمير.

مبلغ عنايتهم بالعلم والأدب :

يخلص مما استوفيناه إلى الآن أن أمراء الأندلس وخلفاءها كانوا فيها كعواطف القلب التي تتحرك إلى المنافسة، فهم من جهة بإزاء العباسيين وأمرائهم في المشرق، ومن جهة أخرى بإزاء الطبيعة التي أنشأت الأندلسيين نشأة عقلية غير النشأة الأولى التي يساهم فيها كل أفراد النوع، وهي النشأة القلبية، فلم يكن بد لأولئك الأمراء من أن يكونوا على الحقيقة رؤوس هذا الشعب الطروب، وهي لا توفق بين اندفاع وكبحه إلا إذا كان منها حيزٌ للسياسة الحكيمة والعزيمة الرحيمة، وهذا لا يتأتى مع جهل ولا جاهلية، وكذلك، ليس العلم المحض بنافع فيه على الإطلاق، وإنما لابد من علم منوع وافتنان يوافق به الأمير أو الخليفة معظم السواد من حاشيته وقومه، فالأمير الفيلسوف لا يصلح للرعية الفقهاء، وحيث لا بد أن يكون الفقه في الكفة الراجحة من ميزان سياسته، فتكون له الفلسفة في خاصة

نفسه؛ والفقه وما يستعان به على تجميل الملك وسياسته كالكتابة والشعر وغيرهما -
فيما ظهر منه للناس .

ولما كانت السيادة لعلم الفقه في أول أمر الأندلس كان الأمراء من بنى أمية
يعنون بشأن الفقهاء والتودد إليهم والانصياع لمشورتهم، ليتألفوا الناس بذلك
ويديروا بهم الرعى الطاحنة التي هي الحرب؛ حتى إن الحكم بن هشام بات
يتململ على فراشه وبعده عنه نومه حين مرض قاضيه وسمع النائحة عليه؛ لأن
هذا القاضى كان يكفيه أمور رعيته بعده وورعه وزهده .

ثم أقبل الأمراء على أهل الأدب واشتغلوا بالفلسفة، ولكنهم لم يظهروا في
ذلك إلا في القرن الرابع، بعد زمن عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) وهو
الذى تجرأ على لقب الخلافة فكان أول من انتحله بالأندلس، وذلك عندما
التا^(١) أمر الخلافة بالمشرق، واستبد موالى الترك على بنى العباس . وقد تعاور
الدولة العباسية في زمن هذا الخليفة المقتدر والقاهر بالله والراضى بالله، وهو
الخليفة الشاعر، والمتقى لله والمستكفى والمطيع الذى غلب على أمره معز الدولة بن
بويه ولم يكن له أمر ولا نهى ولا خلافة تعرف، فكان هذا الاضطراب فى المشرق
علة فى تحريك المدنية والحضارة إلى المغرب، حتى استفحل أمرهما هناك، لأن
الخلافة التى تقوم بعد أن بلغت الحضارة العباسية إلى منقطعها لا تكون خلافة بلا
شئ، بل لا يكفى فيها أن تضاهى الحضارة العباسية، وقد كان اندفاع هذا التيار
سبباً فى ظهور الفلسفة من مغاصتها وجريانها على أعين الناس، وقد أرسل الخليفة
عبد الرحمن إلى القسطنطينية، وكان عاقلها القيصر رومانوس؛ وإلى العراق
والحجاز والشام ومصر وإفريقية - من يشتري له الكتب ويحصل له من ذخائرها
وأصولها المهمة، حتى قيل إن عاقل القسطنطينية وجد من أسباب الحظوة لدى هذا
الخليفة أن يهدى إليه نسخة بديعة من كتاب الحشائش الذى ألفه ديسفوريدس العالم
النباتى المشهور، وقد كانت مكتوبة بالخط الإغريقى مصورة فيها الحشائش كلها
بالذهب، وأهداه كتاباً آخر لهرشيوس صاحب القصص، وهو تاريخ للروم فى أخبار
الدهور وقصص الملوك وطبقات الأطباء فى كتب أخرى، وكان ذلك سنة ٣٣٧ .

ولكتاب ديسفوريدس هذا شأن عند العرب، وقد نقله عن اليونانية اصطفان

(١) قلت: الالتيات : الاختلاط كما فى القاموس .

ابن باسيل أيام المتوكل العباسي وترك أسماء كثير من العقاقير على لفظها اليوناني، إذ لم يحسن تغريبها، ووقعت هذه النسخة العربية إلى الأندلس، فلما أهدى الكتاب إلى الناصر أرسل إلى ملك القسطنطينية في أن يبعث إليه براهب يعرف اليونانية واللاتينية، وكان في الأندلس من يحسن هذه اللغة، فبعث إليه راهباً اسمه نقولا وصل إلى قرطجة سنة ٣٤٠ فتعاونوا على استخراج ما فات ابن باسيل، ثم جاء ابن جلجل الطبيب الأندلسي في آخر القرن الرابع فألف كتاباً فيما فات ديسفوريدس من أسماء العقاقير والأدوية، جعله ذليلاً على ذلك الكتاب.

وبذلك صار من مفاخر الأندلسيين يومئذ اتخاذ المكاتب للمنفعة والزينة معاً، حتى إن الكتاب ربما غُولى فيه جلده ونقشه وحُسن خطه، لأنها مظاهر الزينة، وقد كان الناصر أندى الناس كفاً على الشعراء والكتّاب وأهل الموسيقى وغيرهم، وتولى حماية من يشتغل بعلوم الفلسفة، حتى طارت شهرة قرطبة في أوروبا فأماها الناس أفواجاً في زمنه وزمن ابنه الحكم، واختلطوا بالأندلسيين في حلقات العلم، ولا يتم ذلك إلا في عصر تكون شجرة الفلسفة قد مدّت عليه ظلّها الوارف^(١)، ومن أشهر أولئك الراهب جوبرت (٩٣٠ - ١٠٠٤م) الذي ارتقى بعد ذلك إلى العرش البابوي باسم البابا سليفسترس الثاني وقد وفد في زمن الحكم^(٢).

ولسنا نفيض في وصف زمن الناصر وإقبال الوفود عليه من ملوك أوروبا والملوك المتأخمين له ومخاطبته في أمر الهدنة والسلام والتماس رضاه وتقبييل يده، ولا في وصف المجلس التاريخي العظيم الذي أعدّه لاستقبال تلك الوفود، فإن حواشي التاريخ ليست من شرطنا في هذا الكتاب، وإنما نقول إن زمن هذا الخليفة كان شباب الأدب، ولغلبة العلوم عليه من اللغة والنحو والحديث والفلسفة لم يكثر شعراؤه كثرتهم في أواخر هذا القرن وفي القرنين الخامس والسادس. وقد كان من تأثير ذلك أن صار أكثر الفقهاء وسائر أصناف العلماء رواة للشعر والأخبار، واستفاض ذلك إلى آخر عصور الأندلس، فنشأ من مشاهيرهم مثل أبي مروان عبد الملك الطبي، وأبي الوليد الباجي، وأبي أمية إبراهيم بن عصام، وأبي

(١) قلت: وَرَفَ الظِّلُّ: اتسع وطال وامتد، فهو وَارِفٌ كما في الوسيط.

(٢) تاريخ الأدب عند الإفرنج والعرب: ٩٨/١.

حزم الظاهري، وأبى بكر الطرطوشي، والحافظ الحميدى، وابن الفرضى، وغيرهم؛ حتى إن من لم يكن فيه هذا الأدب من العلماء كانوا يعدونه غفلاً مستثقلاً. ولم يكن يشتهر بذلك قبلهم إلا القليل من الفقهاء، كعبد الملك بن حبيب المتوفى سنة ٢٣٨، والقاضى منذر بن سعيد المتوفى سنة ٣٣٥ وكانوا يقولون فى عبد الملك إنه عالم الأندلس وإن عيسى بن دينار فقيها؛ وأشهر شعراء الناصر: ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد المتوفى سنة ٣٢٨، وهو الذى نظم بعض غزواته فى أرجوزته المشهورة، وحاجبه أحمد بن عبد الملك بن عمر بن أشهب، ووزيره عبد الملك بن جهور، وآخرون.

ولما ولى بعد الناصر ابنه الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦) جرى فى طريق أبيه وأبى على الغاية، فكان جماعاً للكتب فى أنواعها ما لم يجمعه أحد قبله من الملوك، حتى بلغ عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربعة وأربعين، فى كل واحدة عشرون ورقة، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين، وكان يبعث إلى الأقطار فى شراء الكتب أناساً من التجار، وبعث فى كتاب الأغاني إلى مصنفه أبى الفرج، وكان نسبه فى بنى أمية، وأرسل إليه فيه بألف دينار ذهباً، فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرج إلى العراق، وله من أمثاله أشياء؛ وجمع بداره الخدائق فى صناعة النسخ والمهرة فى الضبط والإجادة فى التجليد، فأوعى من ذلك كله، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده، وقد حققوا أنها بلغت سبعين مكتبة إلا ما يذكر عن الناصر العباسى بن المستضىء. قال ابن خلدون: ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة إلى أن بيع أكثرها فى حصار البربر، وأمر بإخراجها وبيعها الحاجب واضح من موالى المنصور بن أبى عامر، ونهب ما بقى منها عند دخول البربر قرطبة واقتحامهم إياها عنوة، وقد أثر ذلك الحكم على لذات الملوك، فاستوسع علمه، ودق نظره، وجمت استفادته، وكان فى المعرفة بالرجال والأخبار والأنساب أحوذاً نسيج وحده؛ وكان ثقة فيما ينقله، وقلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر فى أى فن كان، ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته وغرائب أخرى لا تكاد توجد إلا عنده لعنايته بهذا الشأن. وإذا كان الحكم قد امتاز بشدة النظر فى علم الحدثان -

التنجيم^(١) وهو من اللهو الشبيه بالباطل، فما ظنك به فى غيره من علوم القوم؟ وإن مبلغ العلم لا يكون دائماً إلا مبدأ العناية بالعلم، فعلى قدر ما يستوفى العالم يكون شرهه إلى الزيادة، وعلى مقدار هذا الشره تكون العناية بمن عنده شىء مما يوفى حق الرغبة ويغنى من حاجة الطلب؛ فإذا كانت خزائن الحكم تحفل بأربعمائة ألف مجلد، كما قيل،^(٢) حتى إنهم لما نقلوها أقاموا فى ذلك ستة أشهر؛ فهل يكون عصره إلا عصر العلماء والأدباء الذين هم مصانع الكتب على الحقيقة؟

أما الشعر فى زمنه فإننا إذا ذهبنا نقلب كتب التاريخ التى بين أيدينا لم نكد نعرف من مشاهير عصره غير حاجبه جعفر بن محمد المصحفى رب القلم والبيان؛ وهو فى الطبقة الثانية من شعراء الأندلس، وغير الرمادى الشاعر المتوفى سنة ٤٠٣ ويعدونه فى الطبقة الثالثة^(٣).

وإذا كان التاريخ قد ذهب بكثير من أسمائهم، فقد رأينا فى بعض أنبائه أن من الكتب التى ألفت للحكم المستنصر كتباً فى شعراء الأندلس، منها أخبار شعراء البيرة فى عشرة أجزاء؛ وقد وقف عليه الوزير أبو محمد بن حزم؛ وهو الذى ذكره فى بعض رسائله ولم يذكر اسم مؤلفه (ص ١٢٣ ج ٢)، ولكننا وقفنا فى طبقات اللغويين والنحاة للسيوطى على اسم هذا الكتاب فى ترجمة مطرف بن عيسى الألبيرى المتوفى سنة ٣٥٧؛ وقال إن له كتاباً آخر فى فقائها؛ وكتاباً فى أنساب العرب النازلين بها وأخبارهم (ص ٣٩٢).

ورأينا أيضاً فى هذه الطبقات فى ترجمة محمد بن عبد الرؤوف القرطبى المعروف بابن خنيس المتوفى ٣٤٣ أنه ألف كتاباً فى شعراء الأندلس بلغ فيه الغاية؛ فيكون من ذكرهم فيه إلى ما قبل انتهاء زمن الناصر؛ والبيرة لم تكن إلا مدينة من مدن الأندلس فكيف بسائرهما؟ إلا أن الشعر كان كثيراً فى علماء اللغة والنحو وغيرهما - كما سيجىء فى موضعه - وفى أيام هذا الأمير نبغ محمد بن هانى الشاعر الشهير بأشبيلية، ولكنه انفصل عنها إلى إفريقية ومدح المعز صاحب مصر

(٢) نفح الطيب: ١٨٤/١.

(١) نفح الطيب: ٩٣/٢.

(٣) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب: ص ١٦.

وغيره، وتوفي سنة ٣٦٨؛ وقد توفي الحكم سنة ٣٦٦ وولى بعده ابنه هشام فغلب على أمره ابن أبي عامر المنصور وتولى حجابته، وجرت أحوال عكست قدمه فيها حتى صار صاحب التدبير، فدانت له الأندلس كلها ولم يضطرب عليه شيء من نواحيها، وكان محباً للعلوم مؤثراً للأدب، مفرطاً في إكرام من ينسب إلى شيء من ذلك ويفد عليه متوسلاً به بحسب حظه منه وطلبه له ومشاركته فيه، وقد أفرط في الإحسان على أبي العلاء صاعد اللغوى البغدادى حين قدم عليه سنة ٣٨٠ حتى اتخذ له مرة قميصاً من رقاع الخرائط التى كانت تصل إليه فيها الأموال منه، وجعل ذلك حيلة إلى بلوغ الغاية من كرمه، وقد ألف له كتباً غريبة، منها كتاب الهجفجف بن غيدقان بن يثربى مع الخنوت بنت مخزومة، وكتاباً آخر فى معناه سمّاه كتاب الجواس بن قطعل المذحجى مع ابنة عمه عفراء. قال صاحب المعجب: وهو كتاب مليح جداً انخرم أيام الفتن بالأندلس فنقصت منه أوراق لم توجد بعد، وكان المنصور كثير الشغف بهذا الكتاب - أعنى الجواس - حتى رتب له من يخرج أمامه كل ليلة^(١).

ولعل هذه الكتب مما يساق فيه القصص الموضوع على غرض من أغراض السياسة والأدب؛ ويقول صاحب المعجب: إن كتاب الهجفجف وضعه على نحو كتاب أبى السرى سهل بن أبى غالب، فإسفا على كتب أصبحت أسماؤها تحتاج إلى تفسير... وقد ذكر الفتح بن خاقان فى المطمح فى ترجمة الوزير حسان بن مالك بن أبى عبدة أنه دخل على المنصور وبين يديه كتاب ابن السرى وهو به كلف وعليه معتكف، فخرج وعمل على مثاله كتاباً سماه ربية وعقيل، وأتى به منتسخاً مصوراً فى ذلك اليوم من الجمعة الأخرى (ص ٣١٤ ج ٢) فهذا يفيد أن هذه الكتب جميعها على مثال كليلة ودمنة المشهور.

وكان للمنصور مجلس فى كل أسبوع يجتمع فيه أهل العلم والمناظرة بحضرته ما كان مقيماً بقرطبة، لأنه كان مواصلاً لغزو الروم مفرطاً فى ذلك لا يشغله عنه شيء، حتى إنه ربما خرج للمصلى يوم العيد فحدث له نية فى ذلك فلا يرجع إلى قصره، بل يخرج بعد انصرافه من المصلى كما هو من فوره إلى

(١) المعجب: ص ٢٠.

الجهاد، فتتبعه عساكره وتلحق به أولاً فأولاً؛ وقد غزا في أيام ملكه التي دامت إلى سنة ٣٩٣ نيفاً وخمسين غزوة.

ورأس الشعراء في أيامه عبادة بن ماء السماء المتوفى سنة ٤٢٢ وقيل سنة ٤١٩، وهو أول من أتقن الموشحات بالأندلس حتى كأنها لم تسمع إلا منه، وللرمادى في ذلك يدٌ أيضاً.

ومن مشاهيرهم الرمادى وابن دراج والقسطلى ومحمد بن مسعود الغسانى البجالى^(١) وكان يكتب له هو ومحمد بن إسماعيل وله لطائف في الشعر فكان يخاطب المنصور بلسان النبات الذى يوافق أسماء عقائله ومحاطيه، كاسم بهار ونرجس وغيرهما، والوزير محمد بن حفص بن جابر، وأبو بكر محمد بن نهور، وغيرهم. وكان المنصور معروفاً بالمحاماة عن أهل الشعر والأدب حتى لا يتنقصهم في مجلسه أحد إلا رد عليه وسفّه؛ وقد وقع بعضهم في الرمادى عنده فكلّمه كلاماً كان يغوص دونه في الأرض لو وجد لشدة ما حل به منه؛ غير أنه لما كان المنصور غزاًء موالياً للجهاد، فقد كان غبار حروبه يثور بين العلماء تشدداً في الدين، حتى فشا في العامة اتهام كل من يشتغل بالفلسفة أو يعرف بمذهب من مذاهبها حتى في الشعراء أنفسهم، وكان قليل من ذلك في زمن الحكم وأبيه، فاتهموا ابن هانئ في أشبيلية، وأساءوا المقالة فيه حتى انفصل عنها، ولما وفد الشاعر المشهور أبو عبد الله محمد بن مسعود الغسانى البجالى على المنصور، اتهم كذلك برهق^(٢) في دينه، فسجنه المنصور في المطبق زمناً. وقد بقيت الفلسفة مضطهدة في الأندلس بعد ذلك من عامتها، حتى ظهرت في بر العدو - كما سيجىء - وفشا الأدب في زمن المنصور حتى صار حلية الشباب وزينة النشأة الأندلسية، ومثل ذلك يكون مبدأ عصر عظيم، وقيل إن المخانيث بقرطبة يومئذ كانوا يشتغلون به، فكان منهم فتیان أخذوا بنصيب وافر منه، ومن هؤلاء غلام للمنصور اسمه فاتن توفى سنة ٤٠٢، قالوا: كان لا نظير له في علم كلام

(١) نفح الطيب: ٢٣٨/٢.

(٢) قلت: رَهَقَ فلاناً (ترهقاً): سَهَّ وَحَقَّقَ وجهه، وركب الشر والظلم، وغشى المآثم

العرب (١).

وبعد المنصور بزمان قليل ابتدأت الفتن في الأندلس واستجار بعضهم الإفرنج، ولبثوا على ذلك إلى أن انقرضت دولة بني أمية سنة ٤٢٨، فكانت دولة المنصور آخر دول العلم والأدب في القرن الرابع، وقد وضع ابن الفرضي الحافظ المشهور المتوفى سنة ٤٠٣ كتاباً في أخبار شعراء الأندلس إلى ذلك الزمن^(٢).

وسار الأدب في وجهته غير مبال بقيام الملوك وسقوطهم؛ لأنه لا يقوم بهم ولا يسقط معهم إلا في أوائل نشأته، إذ يحوطونه ويكفلون نموه؛ وإلى أن انفرطت دولة بني أمية وانتشر سلك الخلافة في المغرب كان الأمراء لا ينفكون يتعاهدونه؛ فكان الناصر على بن حمود من البربر - وهو الذي ملك ملك قرطبة بعد الأربعمائة وقيل سنة ٤٠٨ - على عجمته وبُعده من فضائل اللسان، يُصغى إلى الأمداح ويثيب عليها، مظهراً في ذلك آثار النسب العربي والكرم الهاشمي؛ ومن مشاهير الذين امتدحوه ابن الحياط القرطبي، وعبادة بن ماء السماء^(٣). ولما وفي المستظهر سنة ٤١٤ (من خلفاء الدولة الأموية الثانية) عكف على الأدب، وكان شاعراً مصنّعاً بديع الشعر، فاشتغل عن تدبير المملكة بالمباحثة مع أبي عامر ابن شهيد الشاعر الكبير؛ وأبى محمد بن حزم العالم الشهير؛ وعبد الوهاب بن حزم الغزل المترف؛ فكانوا يتباحثون في الآداب ويتجادبون أهداب الشعر؛ حتى أحقد بذلك مشايخ الوزراء والكبراء؛ فأثاروا عليه العامة وهم يومئذ أجهل ما يكون؛ فقتلوه لأدبه وشعره؛ وهذا وحده دليل على أن العامة لا يكرهون الفلسفة ولا يضطهدون القائمين عليها لذاتها؛ ولكنهم مع كل ربح؛ وأتباع كل ناعق؛ وكما تابعوا في إحراق كتب الفلسفة، تابعوا كذلك في إحراق كتب المذهب المالكي في المغرب - كما سنشير إليه فيما يأتي -.

(٢) نفح الطيب: ٣٨٣/١.

(١) نفح الطيب: ٩٠/٢.

(٣) نفح الطيب: ٢٢٥/١.

القرن الخامس وملوك الطوائف

بعد أن انقطعت خلافة بنى أمية ولم يبق من عقبهم من يصلح للملك، استبد بالأندلس أفراد غلب كل واحد منهم على ما يليه، وهم المسمون بملوك الطوائف، فضبطوا نواحيها، وجعلوها عواصم الحضارة، وتنافسوا فى أبهة الملك وفخامة الشأن، فكان منهم بنو ذى النون ملوك طليطلة، وبنو هود ملوك طرطوشة وسرقسطة وغيرهما، وملوك بنى الأفطس أصحاب بطليوس وجهاتها، وبنو صمادخ أصحاب المرية، والفتيان العامرية: مجاهد ومنذر وخيران ملوك دانية^(١) وما منهم إلا أديب أو عالم، فنفتت بهم سوق الأدب، وصار الأديب أينما دار استند إلى ركن وتوجه إلى قبلة، حتى صارت الأندلس كعبة، لهذه العادة، لا للعبادة؛ لا جرم كان هذا العهد حافلاً بالشعراء والأدباء والقائمين على أنواع العلوم من كل من أغلّت قيمته المنافسة، وقد وجدوا الزمن رخاء والعصر حضارة والنفوس متهيئة، فلم يبق لهم وراء ذلك مقترح لقريحة، ثم إن أولئك الملوك لم يخوضوا فى أول أمرهم الفتن، ولم تعصف بهم ريح السياسة، فانصرفوا جهدهم إلى استجماع لذة الملك، وأخذوا بأحلام المباحة التى يهذى بها مرضى الترف اللين وضعفاء العصب السياسى، إلا قليلاً منهم، فصار المدح لغذاء أرواحهم كالملح لطعام أجسامهم؛ وثبتت العادة بذلك، حتى إن يوسف بن تاشفين لما دخل الأندلس توسط له المعتمد بن عباد عند الشعراء ليمدحوه حتى لا يصغر شأنه مع أنه دخل فى نجدة لهم على الإفرنج وكان على يده النصر المبين.

وتبع ذلك من فنون الآداب ما يخلق لهم اللذة فى كل صورة ويبدلها فى كل خلقة، حتى يتداووا بهذه الجدة من سأم القديم وضجر التكرار، فكانت لهم المجالس العجيبة، والأوصاف البارة، والفنون المستظرفة من صور التشبيهات، إلا أن ذلك جميعه قد كان أعوداً على الأدب بالفائدة وأرداً عليه بالمنفعة، فنبغ فى أيامهم من لو خلا الأدب الأندلسى إلا منهم لكانوا زيتته ورواه، وقد كاد يكون بهم القرن الخامس تاريخاً على حدة.

(١) نفح الطيب: ١٣٩/٢.

كان من أعظم مباهاة ملوك الطوائف أن فلاناً العالم عند فلان الملك، وفلاناً الشاعر مختص بفلان الملك^(١)؛ وقد بذل مجاهد العامري ملك دانية لأبى غالب اللغوى ألف دينار ومركوباً وكساء على أن يضع اسمه فى صدر كتاب ألفه فأبى ذلك أبو غالب وقال: كتاب ألفته لينتفع به الناس وأخلد فيه همّتى، أجعل فى صدره اسم غيرى؟ فلما بلغ هذا مجاهداً استحسن ألفته وأضعف له العطاء. وكان من ملوك بنى هود: المقتدر بن هود، وهو آية فى علم النجوم والهندسة والفلسفة، وكان يباهى بالفقيه الأديب العالم الشاعر أبى الوليد الباجى وانهياشه إلى سلطانه؛ ومن ملوك بنى الأفتطس: المظفر، وكان أحرص الناس على جمع علوم الأدب خاصة من النحو واللغة والشعر ونوادير الأخبار وعيون التاريخ؛ وقد انتخب مما جمع من ذلك كتابه المشهور بالمظفرى فى خمسين جزءاً على نحو كتاب الاختيارات للروحى وعيون الأخبار لابن قتيبة^(٢). توفى سنة ٤٦٠، وكان أديب ملوك عصره؛ أما ملوك بنى عباد فقد كانوا هم وبنوهم ووزراؤهم صدوراً فى بلاغتى النظم والنثر، مشاركين فى فنون العلم؛ وكانت دولتهم العبادية بالمغرب كالدولة العباسية بالمشرق، وكان المعتمد منهم لا يستورر وزيراً إلا أن يكون أديباً شاعراً حسن الأدوات؛ وكان من شعراء أبيه المعتضد، أبو جعفر بن الأبار... وأبو الوليد وابنه الوزير ابن زيدون واليماني، وابن جاح البطليوسى الذى يعد من أعاجيب الدنيا لأنه كان أمياً، وقد بلغ من حسن شعره أن ولّاه المعتضد رئاسة الشعراء؛ إذ كانت له دار مخصوصة بهم وديوان تقيّد فيه أسماؤهم، وقد جعل لهم يوماً يفرغ لهم فيه فلا يدخل فيه الملك غيرهم، وربما كان يوم الإثنين^(٣).

فتأمل ما عسى أن يبلغ عدد قوم يُفردَ لأسمائهم ديوان وتخصص بهم دار؟ وكان المعتضد داهية يشبه أبا جعفر المنصور، وقد اتخذ خُشْباً فى ساحة قصره جللها برءوس الملوك والرؤساء عوضاً عن الأشجار التى تكون فى القصور، وكان يقول: فى مثل هذا البستان فليتنزه! ^(٤).

وهذا الخبر ينقله كتبة الأوربيين إلى الشعر المحض فيقولون إنه كان يزرع الورد

(١) نفح الطيب: ١٣٩/٢. (٢) المعجب: ص ٤٩.
(٣) نفح الطيب: ٤٦٨/٢. (٤) المعجب: ص ٥٩.

فى جماجم أعدائه، ولابنه المعتمد شىء من مثل هذا، فقد اتخذ فى بعض وقائعه... من جماجم أعدائه مثذنة ثوب عليها المؤذنون؛ ولم يجتمع من فحول الشعراء وأمرء الكلام بباب أحد من ملوك الإسلام ما اجتمع بباب الرشيد والصاحب بن عباد والمعتمد هذا، فكان بباب الرشيد مثل أبى نواس وأبى العتاهية والعتابى والنمرى وأشجع السلمى ومسلم بن الوليد وأبى الشيص ومروان بن أبى حفصة ومحمد بن منذر وغيرهم؛ وكان بباب الصاحب بأصبهان وجرجان والرى مثل أبى الحسين السلمى وأبى بكر الخوارزمى وأبى طالب المأمون وأبى الحسن البديهى وأبى سعيد الرستمى وأبى القاسم الزعفرانى وأبى العباس الضبى وأبى محمد الخازن وأبى الحسن بن عبد العزيز الجرجانى وبنى المنجم وابن بابك وابن القاشانى وبيدع الزمان والشاشى وكثيرين غيرهم^(١). وكان بحضرة المعتمد مثل ابن زيدون وابن اللبانة وابن عمار وعبد الجليل بن وهبون وأبى تمام غالب بن رباح الحجام وابن جامع الصباغ، وغيرهم؛ ولا أحدث بالمعتمد وأولاده وأمه العبادية، فكلهم شعراء، وكان يناظر المعتمد المتوكل بن الأفظس، وكان فى حضرة بطليوس كالمعتمد بإشبيلية، يترد أهل الفضائل بينهما كتردد النواسم بين جنتين، وينظر الأدب منهما عن مقتلين، والمعتمد أشعر والمتوكل أكتب^(٢) وكان وزيره ووزير أبيه ابن عبدون الكاتب الشاعر الشهير، وهو الذى سير فيهم القصيدة الخالدة التى أولها:

* الدهر يفجع بعد العين بالآثر *

وذكر فيها مصارع الملوك إلى زمنهم، وتوفى سنة ٥٢٠.

وكذلك كان بالمرية يومئذ المعتصم بن صمادح، ومن شعرائه ابن الحداد شاعر الأندلس وعمر بن الشهيد وأبو جعفر الخراز البطرني وأبو الوليد النحلى ومحمد ابن عبادة الوشاح والأسعد بن بليطة والحكيم الفيلسوف أبو الفضل بن شرف القائل فى دولته:

(١) يتيمة الدهر: ٣٢/٣.

(٢) نفح الطيب: ٥٨٣/٢.

لم يبق للجور فى أيامهم أثر إلا الذى فى عيون الغيد^(١) من حور

وقد قصر إمداحه عليه بعد أن مدح المتوكل بن المظفر وأقطعه المعتصم قرية بأحوازها لهذا البيت - وستكلم عن الشعراء الفلاسفة فى موضع آخر - .

ومما امتاز به القرن الخامس شيوخ الأدب فى النساء، حتى كانت مريم بنت أبى يعقوب الأنصارى التى اشتهرت بأشيبيلية بعد الأربعمئة تدارس النساء الأدب^(٢) .

وامتاز أيضاً باختراع الزجل كما امتاز القرن الرابع باختراع التوشيح، والذى اخترع الزجل هو الوزير أبو بكر بن قزمان، وكان مم اشتمل عليهم المتوكل بن المظفر .

وفى آخر هذا القرن نكب ملوك الطوائف وانقرض ملكهم على يد يوسف بن تاشفين الملقب أمير المسلمين ولم يكن على شىء من الأدب العربى؛ ولذلك كان أكثر الشعراء فى بر العدو أيام نكبة ملوك الطوائف من الزعانفة وملحفى أهل الكدية، حتى إنه لما أخذ المعتمد إلى طنجة تعرض له أولئك الصعاليك وألحفوا فى استجدائه، وكان هو أولى منهم بالكدية لولا أنه المعتمد الذى يقول فى ذلك:

لولا الحياء وعزة لَحْمِيَّة طى الحشا ساواهم فى المطلب

ومن مشاهيرهم الحصرى الأعمى، وكانت له عادة سيئة من قبح الكدية وإفراط الإلحاف^(٣) .

عصر الوزراء :

غير أن ملوك الطوائف قد تركوا له إراثاً من الأدب اتصل به بعضه بعد أن استوسق له الأمر، إذ خلفوا من الشعراء والكتاب كالوزراء بنى القبطرنة من أهل بطلبيوس أبى بكر وأبى محمد وأبى الحسن، وذى الوزارتين أبى بكر محمد بن رحيم الشاعر، وأخيه الوزير أبى الحسين بن رحيم، والوزراء أبى بكر الطائى، وأبى الحسن جعفر بن الحاج، وأبى محمد بن القاسم، وأبى عامر بن أرقم، وأبى

(١) قلت: الغيد: مفردا (الغيداء): التى تمايل وتثنى فى لين ونعومة.

(٢) نفع الطيب: ٤٩٣/٢ . (٣) المعجب: ٩٠ .

جعفر بن مسعدة، وأبى محمد بن [...]، وأبى القاسم بن السقاط، وأبى عبد الله ابن أبى الخصال، وأبى الحسين بن سراج، وأبى القاسم بن الجد، وأبى محمد بن مالك، وعبد الله بن سماك، وعبد الحق بن عطية، وعبد الحسن بن أضحي، والكاتب أبى عبد الله اللوشى؛ [...] وأبى الحسن بن زنباع، وأبى محمد بن سارة، ويحيى بن تقى، وأبى الحسن غلام البكرى، وأبى القاسم المتنبى، وأبى الحسن بن [...] وأبى عبد الله محمد بن عائشة، وأبى عامر بن عقال، وعبد المعطى بن مجد، وغيرهم، وما منهم إلا عَلم فى دولة القلم.

وهذا القرن الخامس يصح أن يلقب بزمان الوزراء، لأنهم كثروا فيه كثرة لم تكن فيما قبله ولم تعهد فيما بعده، وإنما كانوا يستوزرون لأدبهم من الكتابة والشعر - وبذلك عرفوا - فكان الوزارة كانت كالشعر منافسة، ثم كانوا يوزعون عليهم الخطط كالمظالم والأحكام والإنشاء وغيرها.

وربما يتهدى الوزير الواحد ملوك عدة؛ ولذهاب هؤلاء الوزراء بجيد الشعر قلّ فى زمنهم من عُرف بالشعر وحده، لأنه لا يتميز به إلا من ميّزته مواهبه وتخطّت به جلاله الوزارة، وقد مر بك أسماء بعضهم، أما الوزراء ممن لم نذكرهم فمنهم أحمد بن عباس وزير زهير الصقلى ملك المرية، وكانت له عناية خاصة بجمع الكتب حتى بلغت دفاتره ٤٠٠ ألف مجلد غير الدفاتر المخرومة، وأبو مروان بن سراج جاحظ الأندلس، وأبو محمد بن عبد البر، وأحمد بن عبد الملك ابن شهيد، وأبو مغيرة بن حزم، ومحمد بن عبد الله بن مسلم، وأبو المطرف بن الدباغ، وأبو حفص بن برد، وأبو عبد الله البكرى، وأبو بكر بن عبد العزيز، وأبو عبد الملك بن عبد العزيز، وأبو جعفر البتى، وأبو جعفر بن سعدون، والحاجب أبو مروان عبد الملك بن رزين، و... محمد بن طاهر، وأبو عامر بن سنون، وأبو بكر بن القصيرة، وأبو الحسن بن اليسع، وأبو الفضل بن حداى، وذو الوزارتين أبو عيسى بن لبون، وأبو محمد بن سفيان، وأبو محمد بن القاسم، وأبو الحسن بن الحاج، وأبو الأصبغ بن الأرقم، وابن الحضرمى، وأبو طالب بن غانم، وأبو بكر بن قزمان؛ وربما كان لكل واحد جمع من هؤلاء، ككتاب وشعراء، يتجمل بهم موكب الوزارة، وينطق بهم لسان المجلس؛ فتأمل

عظمة هذا العصر، وتدبر مقدار ما فيه مع ذلك من الأدب وفنونه.

ونحن نستوفى هذه الكلمة بذكر من اشتهروا قبل من ذكرناهم من وزراء الأندلس، ومنهم حاجب الناصر أحمد بن عبد الملك بن عمر بن أشهب، ووزيره عبد الملك بن جهور، ثم حاجب ابنه الحكم جعفر بن محمد المصحفي؛ وكان في زمنه وزمن أبيه من بيوت الوزراء آل أبي عبيدة وينتهي بيتهم في الوزارة إلى زمن الداخل، وآل شهيد، وآل فطيس؛ وفي زمن المنصور بن أبي عامر: محمد بن حفص بن جابر، وأبو بكر محمد بن نهور، وأبو عبيدة حسن بن مالك صاحب كتاب ربيعة وعقيل الذي سلفت الإشارة إليه.

القرن السادس وما بعده

بعد أن انقرض ملك الطوائف واستوسق أمرها لابن تاشفين بما أظهر من النكاية في العدو والدفاع عن المسلمين وحماية ثغورهم، بلف الجيوش إلى الجيوش، وصدم الخيل بالخيل، عُدَّ من يومئذ في جملة الملوك وسُمِّي هو وأصحابه بالمرابطين. ولم يختلف عليه شيء من الأندلس، فانقطع إليه من أهل كل علم فحوُّله حتى ماجت بهم حضرته، ولم يجد بداً من أن يتبع سنن من قبله في تجميل الملك بهم؛ وبذلك اجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من عصور الأندلس، فكان من كتَّابه كاتب المعتمد على الله الوزير أبو بكر بن القصير، وكان على طريقة القدماء، من إيثار جزل^(١) الألفاظ وصحيح المعاني من غير التفات إلى السجع، إلا ما جاء من ذلك عفواً، وكتب له أيضاً الوزير عبد المجيد بن عبدون، وهو من أبلغ الكتَّاب قاطبة إلى غيرهما من الفحول الذين لم يجدوا لهم ركناً بالأندلس، وقد ذكرنا بعضهم، فإنه لم يشتهر بها بعد نكبة ملوك الطوائف ممن تفضل على أهل الأدب، غير الوزير أبي محمد عبد الرحمن بن مالك المعافري، وكان شاعراً بليغاً - فإنه جرى على سنن عظماء الملوك في ذلك حتى لم يُرَ بعده مثله، وتوفي سنة ٥١٨ - وكان إبراهيم ابن الأمير يوسف المذكور قد عقد في هذه الدرة سماءً، ولما قام بالأمر على بن يوسف بن تاشفين سنة ٤٩٣ - وكان إلى أن يعد في الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يُعدَّ في الملوك والمتغلبين - اشتد إثاره لأهل الفقه، فكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء، وإذا وُلِّيَ أحداً من قضاته كان فيما يعهد إليه ألا يقطع ولا يبت حكمه في صغير من الأمور ولا كبير إلا بحضور أربعة من الفقهاء^(٢) فبلغوا في أيامه ما لم يبلغوه في الصدر الأول من فتح الأندلس، ولم يكن يقرب منه ويحظى عنده إلا من أتقن علم الفروع، أي فروع مذهب مالك، فنفتت في ذلك الزمان كتب المذهب ونبت ما سواها، وكثر ذلك حتى نُسي النظر

(١) قلت: جزل الألفاظ: خلاف الركيك (وهو الضعيف)، والجزيل: العاقل الأصيل الرأي كما في القاموس.

(٢) المعجب: ص ١١٠.

فى الكتاب والسنة، ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض فى شىء من علوم الكلام، وقرر الفقهاء عن أمير المسلمين تقييح هذا العلم وكراهة السلف له وأنه بدعة فى الدين، فى أشباه لهذه الأقوال حتى استحکم فى نفسه بغض الفلسفة وأهلها، فكان يكتب فى كل وقت إلى البلاد بالتشديد فى نبذ الخوض فى شىء من علم الكلام وتوعد من وجد عنده شىء من كتبه؛ ولما دخلت كتب الغزالي إلى المغرب أمر هذا الأمير بإحراقها، وتقدم بالوعيد الشديد، من سفك الدم واستئصال المال، إلى من وجد عنده شىء منها؛ واشتد الأمر فى ذلك؛ فهذه أعظم نكبات الفلسفة، وهذا هو سببها: مغالبة على الرزق وتهالك على السلطة؛ وإذا كانوا قد نسوا النظر فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فلقد هان بعد ذلك أن تحرق كتب الفلسفة وأن يُمثل بها كل تمثيل؛ ولما دخل محمد بن تومرت إلى مراکش؛ وهو أصل دولة الموحدين، أحضر بين يدي هذا الأمير وجمع له الفقهاء للمناظرة، فلم يكن فيهم من يعرف ما يقول، إلا رجلاً أندلسياً اسمه مالك بن وهيب، وكان متحققاً بأجزاء الفلسفة؛ وقد شارك فى جميع العلوم، غير أنه لم يكن يظهر إلا ما ينفق فى ذلك الزمان.

وقد كان من وراء ذلك وتشعب هذه الفروع واستبحار هذا العلم أن الأمير يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن المتوفى سنة ٥٩٥ من أمراء الموحدين - لما نظر فى هذه الآراء المتشعبة التى أحدثت فى دين الله ووجد فى المسألة الواحدة أربعة أقوال وأكثر لا يُعرف فى أيها يكون الحق - حمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث وأراد محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة، فأمر بإحراق كتبه بعد أن يجرّد ما فيها من الحديث والقرآن؛ حتى لقد كان يؤتى منها بالأحمال فتوضع وتطلق فيها النار، وتقدم كذلك إلى الناس بترك الاشتغال فى علم الرأى والخوض فى شىء منه، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة؛ وأمر من عنده من المحدثين باستخراج مجموع من مصنفات الحديث العشرة، كالصحيحين والترمذى والموطأ وغيرها، فكان يمليه بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه، وجعل لمن حفظه الجعل السنّى من الكساء والمال؛ فحفظه الخواص والعوام^(١) وكان ذلك

(١) المعجب : ص ١٨٤ .

فى سنة ٥٨٤ .

غير أن الأمير على بن يوسف لم يكن منصرفاً عن الأدب، إذ لا عداوة بينه وبين الفقه، فكان يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس، وكان عنده من مشاهيرهم أبو القاسم المعروف بالأحذب، وأبو بكر محمد المعروف بابن القبطرنة، وأبو عبد الله محمد بن أبى الحضال وكان صاحب المكانة لديه، لمشاركته فى علوم الفقه، وأخوه أبو مروان، وعبد المجيد بن عبدون وغيرهم.

وكذلك كان أخوه إبراهيم بن يوسف بن تاشفين قد عقد للأدب فى ذلك الجو سماءً أدار فلکها واستوى على عرشها فكان ملكها، وهو الذى ألف له الفتح بن خاقان كتابه الشهير الموسوم بقلائد العقيان، وكان يتودد فى أوائل القرن السادس من خلفتهم ملوك الطوائف ومن تركهم أبوه من العلماء والشعراء والكتاب، وقد ذُكر كثير منهم.

ولم يزل أمر الأدب يتردد بين الأندلس وبر العدو، حتى أعاد أمراء الموحدين مجده وعزه، وكان أولهم عبد المؤمن الذى ولى سنة ٥٣٤؛ وكان من أشهر شعراء الأندلس فى هذا الزمن: ابن حمديس، وابن الزقاق، وابن خفاجة، وابن بقى، والفيلسوف أبو بكر بن الصائغ، وأبو الحسن جعفر بن الحاج الميورقى الشاعر الشهير، وابن الصفار القرطبى، وغيرهم.

الأدب ودولة الموحدين :

لما تفرق أهل الأندلس بعد الفتن التى كانت فى أواخر القرن الخامس، كان منهم الكتاب الوزراء والشعراء الأدباء، فكان لا يُستعمل فى بر العدو بلدى ما وُجد أندلسى^(١)؛ ومن أجل ذلك كان الأمراء يبعثون فى طلبهم ويرغبون فيهم أشد الرغبة، إن لم يكن إحياءً لملك الأدب، فزينة لأدب الملك، وقد مر شئ من ذلك فى دولة المرابطين، ولما ولى عبد المؤمن - من الموحدين - جرى على هذه السنة، فبعث يستدعى أهل العلم من البلاد إلى السكون عنده والحوار بحضرته؛ وأجرى عليهم الأرزاق الواسعة، وأظهر التنويه بهم والإعظام لهم إلا أنه لم يكن

(١) نفح الطيب: ١٢٤/٢.

من شعرائه الخواصّ به من تلقى له أزمة القول، حتى إنه لما تغير على وزيره الكاتب البليغ أبي جعفر بن عطية، امتحن من عنده من الشعراء بهجوه، فلما أسمعوه ما قالوا أعرض عنهم وقال: ذهب ابن عطية وذهب الأدب معه! (١).

ولما خرج بجموعه يقصد الأندلس، وكانت قد اختلّت أحوالها، نزل مدينة سبتة، فعبر البحر ونزل الجبل المعروف بجبل طارق، وسمّاه هو جبل الفتح - وفد عليه فى هذا الموضع وجوه الأندلس للبيعة، فكان له هناك يوم عظيم، استدعى فيه الشعراء ابتداءً ولم يكن يستدعيهم قبل ذلك؛ إنما كانوا يستأذنون فيؤذن لهم، وعلى على بابهم منهم طائفة أكثرهم مجيدون (٢) فأنشده أبو عبد الله محمد بن حبوس من مدينة فاس، وهو الذى كان فى دولة لمتونة مقدماً فى الشعراء، والطلق المروانى؛ وابن سيد اللّص؛ وهو نحوى كان يُغير على أشعار الناس فُبز بهذا اللقب (٣)، والرصافى، وكان يومئذ حدثاً، وغيرهم؛ وقد ولى عبد المؤمن بعض أولاده على جهات الأندلس، فولى غرناطة وأعمالها ابنه عثمان؛ ويكنى أبا سعيد، وكان محباً للأدب مؤثراً لأهلها، يهتز للشعر ويشيب عليه، فاجتمع له من وجوه الشعراء وأعيان الكتّاب عصابة كانت البقية الباقية من ضوء ذلك النهار؛ ثم صارت الدولة إلى يوسف بن عبد المؤمن فى سنة ٥٥٨ هـ وكان فى حياة أبيه قد ولى أشبيلية وأعمالها، نزل منها محل المعتمد ووقف على آثار دولته، فاختلط هناك بعلمائها، كالأستاذ اللغوى ابن ملكون وغيره، وجعل يأخذ عنهم، وصرف عنايته إلى كلام العرب وحفظ أيامهم ومآثرهم وأخبارهم فى الجاهلية والإسلام، حتى صار أسرع الناس نفوذاً خاطر فى غوامض النحو ومسائل العربية، مع مشاركة فى علم الأدب واتساع فى حفظ اللغة، ثم طمع به شرف نفسه وعلوّ همته إلى تعلم الفلسفة؛ فجمع كثيراً من أجزاءها، وبدأ من ذلك بعلم الطب، ثم تخطّاه إلى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة، وأمر بجمع كتبها فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر، وما كان ينتهى إليه خبر كتاب منها عند أحد إلا أخذه وعوّض عليه ما هو خير له؛ ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب،

(١) نفع الطيب: ١٠١/٣. (٢) المعجب: ص ١٣٧.

(٣) بغية الوعاة: ص ١٥٠.

ويبحث عن العلماء وخاصة أهل العلوم النظرية، إلى أن صارت حاضرتة بذلك أشبه بحاضرة خلافة علمية؛ وكان ممن صحبه من فلاسفة الإسلام، أبو بكر محمد بن طفيل، تلميذ أبي بكر ابن الصائغ، وقد كان أمير المؤمنين أبو يعقوب هذا شديد الشغف به والحب له حتى كان يقيم عنده في القصر أياماً ليلاً ونهاراً لا يظهر، وهو الذي تولى جلب العلماء إليه من جميع الأقطار، ونبه على أقدارهم، ولولاه ما كان ابن رشد أعظم فلاسفة الأندلس شيئاً مذكوراً؛ إذ هو الذي ثبّته به حتى عظم قدره، وتقدّم إليه في تلخيص كتب أرسطوطاليس، وقريب أغراضها. وكان من كتاب أبي يعقوب أبو عبد الله محمد بن عياش بن عبد الملك، وهو الذي جرى على طريقة خاصة في الإنشاء توافقت طريقة هؤلاء الأمراء وتصيب ما في أنفسهم، ثم جرى الكتاب من أهل ذلك المصير بعده على أسلوبه وسلوكوا مسلكه، لما رأوا من استحسانهم لتلك الطريقة^(١) وكان أشهر شعرائه وشاعر المغرب في وقته أبو بكر بن مجير الأندلسي المتوفى سنة ٥٨٧؛ ومن شعراء زمنه وزمن أبيه الرصافي، والكندى، وأبو جعفر بن سعيد، وابن الصابوني شاعر أشبيلية ووشاحها، وابن إدريس الرندي.

وتوفى أبو يعقوب سنة ٥٨٠ فقام بعده يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، وكان قد وزر لأبيه فبلغ غاية بعيدة من مطالعة الأمور وتقدير الرجال، فكأنما استوفى حظه من إكرام الفلسفة ووقاها قسطها في ذلك الزمن، لأنه ما كاد يتصل به الأمر حتى أراد أن يرجعها بدوية ساذجة يجرى فيها على سنن الخلفاء الراشدين، فكان يتولى الإمامة بنفسه في الصلوات الخمس ثم كان يقعد للناس عامة لا يحجب عنه أحد، حتى اختصم إليه رجلان في نصف درهم!^(٢) وقد سلف ما كان من نظره في كتب الرأي وتقدمه بإحراقها، وحكوا عنه أنه لما أزمع الخروج إلى بعض غزواته سنة ٥٩٢ كتب إلى جميع البلاد بالبحث عن الصالحين والمنتبين إلى الخير وحملهم إليه، فحصل على جماعة كبيرة منهم كان يجعلهم كلما سار بين يديه، فإذا نظر إليهم قال لمن عنده: هؤلاء الجند لا هؤلاء! مشيراً إلى العسكر؛ ولعله يحكى في ذلك قتيبة بن مسلم الفاتح الشهير، فإنه حين لقي

(١) المعجب: ص ١٧٤.

(٢) المعجب: ص ١٨٩.

الترك وكان فى جيشه أبو عبد الله محمد بن واسع، جعل يكثر السؤال عنه، فأخبر أنه فى ناحية من الجيش متكئاً على سية قوسه رافعاً إصبعه إلى السماء ينضنض بها، فقال قتيبة: لتلك الإصبع... أحب إلى من عشرة آلاف سيف.

نكية الفيلسوف ابن رشد :

وفى أيام يعقوب هذا نالت أبا الوليد بن رشد فيلسوف الأندلس المحنة الشديدة التى أظلمت أسبابها على الأقلام ظلمة المداد، وأقام لها الكتاب من كلامهم مناحة وألبسوها من صحفهم ثياب الحداد؛ وقد تكلم عنها الكتبة من العرب، كالذهبي والأنصارى وابن أبى أصيبعة وعبد الواحد بن على التميمي صاحب كتاب المعجب، وكان يومئذ حياً، ثم تناولها كذلك المؤرخون من الإفرنج وبسطوا فيها العبارة، كالفيلسوف رينان وغيره، وهم إنما حاروا فى أسبابها، لأن ابن رشد كان قاضى القضاة، وكان مقرباً عند يعقوب وأبيه حتى إن يعقوب جاوز به مجلس أخصائه وأدناه فوق ما يؤمل، ولكن أكثر أولئك لم يرجعوا فى سبب هذه المحنة إلى سيرة يعقوب هذا، لأنها لا تخرج عن أن تكون خلقاً من أخلاقه أو نزوة لبعض هذه الأخلاق، وإنما أعمال المرء بخيرها وشرها ميزان، وسيرته موضع اللسان منه، فهى تنطق بصواب التمييز بين الكفتين وتدل على حقيقة الترجيح، وقد أسلفنا من أمر هذه السيرة ما يتعين معه الحكم بأن الأمير يعقوب لا يبغض الفلسفة مستقيمة فى كتبها، ولكنه يبغضها معوجة فى الألسنة، إذ تزيغ بها القلوب الخفيفة، وتضلّ العقول الطائشة؛ فلما نتأ رأس الفتنة، وأصبح الكلام على أن يشيع فى العامة ويتقلب على الألسن ويختلط بالأهواء ووجوه التأويل، لم يكن بدّ من أن يحسم الأمير مادة الفتنة ويتقى الله فى عامته، وهو الرجل الذى يحكمهم بالقلب المطمئن ويحوطهم بالنظرات المحككة، فلا يزال يتحرى العدل بحسب طاقته وما يقتضيه إقليمه والأمة التى هو فيها، ولذلك نستبعد نحن أن يكون سبب هذه المحنة غضباً من المنصور لمن يناوئ الفيلسوف، أو موجدة عليه لأنه ذكر فى شرح كتاب الحيوان لأرسطاطاليس أنه رأى الزرافة عند ملك البربر - يعنى المنصور - فغفل عما يتعاطاه خدّمة الملوك ومتهيلو الكتاب من الإطراء والتقريظ، ولا أن ابن رشد كان يؤثر أبا يحيى على أخيه يعقوب ولا ما أشبه ذلك

مما لا يلتزم مع سيرة المنصور بته؛ إذ هو لا يخرج من جلده ويترك فضلات روحه ويخلق رجلاً جديداً يحب التمليق والمداينة ويؤثر الكبرياء ويفسح من صدره للغيبة والنميمة من أجل ابن رشد ولكي يشد عليه هذه الشدة؛ ولولا ذلك ما جمع فقهاء قرطبة وأخذهم بأن ينظروا في كتب الفيلسوف فإما التحريم وإما التحليل.

وقد كان الأمير أتقى الله من [أن يهين شيعة مسلم] ويلعن رجلاً يقول ربي الله، أو يغمض في رأى من يشير بذلك؛ ولكنه أراد أن يبرأ من هذه التبعة، ويتحلل من عهدة ما عسى أن يكون خطأ، فجمع الفقهاء لتكون كلمتهم الحكم على العامة بالسكوت، فإنهم إذا خاضوا في ذلك وترك الأمر على ما هو، فشت لهم فاشية من الضلال ووَجَدَ الناسُ السَّيْلَ إلى خذلان هذا الأمير في غزواته، وهو الذي كان يذكر البلاد المصرية وما فيها من المناكر والبعد ويقول: نحن إن شاء الله مطهروها! ولم يزل هذا عزمه إلى أن مات (١).

هذا ما نراه من سبب المحنة، وهو الحق لا ريب فيه، أما تفصيلها فهو قار في موضعه من كتب من ذكرناهم في صدر هذا الفصل فلا يفوت من يلتمسه؛ وقد أبعده الفيلسوف بعد ذلك إلى [...] بلدة قريبة من قرطبة يسكنها اليهود، وأبعد من يقول بقوله أو يتكلم في علوم الفلسفة، ومنهم القاضي أبو عبد الله بن إبراهيم الأصولي الذي يقال إنه خرج كلمة (ملك البربر) ونبه على أنها محرفة عن (ملك البرين)، وأبو جعفر الذهبي، ومحمد بن إبراهيم قاضي بجاية، وأبو الربيع الكفيف، وأبو العباس الشاعر؛ ثم كُتِبَ الكتب عن المنصور إلى البلاد بالتقدم إلى الناس في ترك هذه العلوم جملة واحدة، وبإحراق كتب الفلسفة كلها إلا ما كان من الطب والحساب وما يتوصل به من علم النجوم إلى معرفة أوقات الليل والنهار وأخذ سمت القبلة. فاشبع الناس من كتب الفلسفة هذه النار التي بقيت في الأندلس إلى زمن ديوان التفتيش تقول: هل من مزيد؟ ولكن المنصور لما رجع إلى مراکش نزع عن ذلك كله وجنح إلى تعلُّم الفلسفة، وأرسل يستدعي أبا الوليد من الأندلس إلى مراکش للإحسان إليه والعفو عنه، فحضر ولكنه مرض بها مرضه

(١) المعجب: ص ١٨٨.

الذى مات فيه سنة ٥٩٤، وتوفي بعده يعقوب صدر سنة ٥٩٥.

وكان فى زمنه من أمراء الكتاب والشعر: أبو عبد الله بن وزير الشلبى المشهور من أمراء كتاب أشبيلية، وشعره يشبه شعر أبى فراس الحمدانى، وكان أحد فرسان الأندلس، وابنه أبو محمد غير مقصر عنه فروسية وأدباً وشعراً^(١)، وقد كثر الشعر فى زمنه وجَمَّ أهله ولكنه شعر أتباع لا شعر ابتداء؛ إذ لم ينشأ فى الأندلس بعد القرن الخامس من يعدّ فى أوائل شعرائها؛ ومن كثرة الشعر يومئذ أن المنصور لما قفل من غزوة الأراكة الشهيرة سنة ٥٩١ ورَدَّ عليه الشعراء من كل قطر يهنتونه فلم يمكن لكثرتهم أن ينشد كل إنسان قصيدته، بل كان يختص منها بالإشاد البيتين والثلاثة المختارة، فدخل أحد الشعراء فأنشده:

ما أنت فى أمراء الناس كلهم إلا كصاحب هذا الدين فى الرسل
أحييت بالسيف دين الهاشمى كما أحياء جدك عبد المؤمن بن على
فأمر له بألفى دينار ولم يصل أحداً غيره، لكثرة الشعراء، وأخذاً بالمثل: «منعُ الجميع إرضاءً للجميع» وقد انتهت رقاع القصائد إلى أن حالت بينه وبين من كان أمامه^(٢) وهذا وحده ينهض دليلاً على أن الشعر يومئذ كان متجراً حقيقياً لا يتأدّب به، فلا يخرج من روح الشاعر إلى قلبه حتى يبقى أدباً، ولكنه يخرج من لسانه إلى يده فيقلب مادة. وقد كان ذلك قبل زمن عبد المؤمن، لأنه لما مدحه الحسيب أبو القاسم بن سعدة الأوسى، وكان جده ملك وادى الحجارة، كتب اسمه وزير عبد المؤمن فى جملة الشعراء، فلما وقف الأمير على ذلك ضرب على اسمه وقال: إنما يكتب اسم هذا فى جملة الحساب (أصحاب الحسب) لا تدنوه بهذه النسبة؛ فلسنا ممن يتغاضى على غمط حسبه^(٣) إلا أن ذلك لم يمنع أن يكون بينهم نفر قليلون يقومون على الأدب.

ومن ختم بهم القرن السادس من أولئك: محمد بن سفر الشاعر الكبير، وأبو بحر صفوان بن إدريس المتوفى سنة ٥٩٨، وأبو جعفر الحميرى الحافظ أديب الأندلس المتوفى سنة ٦١٠، وغيرهم وإن كانوا قليلين.

(١) نفع الطيب: ٥٨٢/٢. (٢) نفع الطيب: ٤٣٠/٢. (٣) نفع الطيب: ٢٥٣/٢.

بعد القرن السادس :

ابتدأت الفتن بعد هذا القرن تتقلب حتى ذل الأندلسيون سنة ٧٤١ حين اتحد ملوك الأسبانيول وملك البرتغال على العرب فهزموهم، ثم عادوا ثانية مع ملوك إيطاليا واستولوا على الجزيرة الخضراء سنة ٧٤٣ ولم يبق في حوره الأندلسيين إلا غرناطة؛ وكان بعد ذلك الزمن الذي انتهى بجلاء الأندلسيين في أوائل القرن العاشر؛ وفي كل هذه المدة كان ينبغ الشعراء والكتّاب وأهل العلوم، إلا أن المشاهير منهم كانوا يعدون بالنسبة إلى ضعف الزمن وسفاهة التصرف في إرث تلك الحضارة القديمة - على قاعدة المثل السائر: واحد بالمائة، ورجل يفنى بالفتنة؛ وكانوا مع ذلك في الأغلب إنما يقلدون المعاصرين من أدباء المشرق، كالصفدي وغيره، فيتبعونهم في الصناعات اللفظية ونحوها، وكان لأكثرهم رحلة إلى هؤلاء، يجتمعون بهم ويأخذون عنهم، كما فعل ابن جابر صاحب بديعية العميان، ورفيقه الألبيري؛ وابن سعيد المغربي، وغيرهم، خصوصاً وقد كانت دولة الشعر قائمة يومئذ - في القرن السابع - بحضرة الناصر ملك الشام الذي ألبسها من عزه تاجاً، وأحلها من سمائه أبراجاً.

ومن نبغ في القرن السابع أبو جعفر أحمد بن طلحة الوزير الكاتب الذي كتب عن ولادة من بنى عبد المؤمن، ثم استكتبه السلطان بن هود وقتل سنة ٦٣١ وهو مبدع في نثره وشعره معاً، وكان يرى نفسه فوق أبي تمام والبحترى والمتنبي؛ لأن أكثر مدارس الشعر يومئذ كانت منصرفة إلى دواوين هؤلاء الثلاثة كما هي إلى اليوم، وكما تكون بعد اليوم إلى ما شاء الله؛ وابن سهل الإسرائيلي الشاعر الشهير المتوفى سنة ٦٤٩، وأبو المطرف بن عميرة الإمام الكاتب المتوفى سنة ٦٥٨، وابن مرج الكحل الشاعر المتوفى سنة ٦٣٤.

وكان من نابغي القرن الثامن ابن الجياب المتوفى ٧٤٩. وأبو يحيى بن هذيل المتوفى سنة ٧٥٣ - وسيأتي ذكره في فلاسفة الشعراء، وأبو القاسم بن جزي المتوفى سنة ٧٥٠ وكلهم من أشياخ لسان الدين بن الخطيب وزير بني الأحمر، وهو أشهر أدباء هذا القرن شعراً وكتابة وتفناً في العلوم، وقد وضع في شعراء هذا القرن كتاباً سماه الكتبة الكامنة في شعراء المائة الثامنة، إلا أنه على ما أرجح

عدّ فيه طبقات العلماء، إذ كان لا يخلو أحدهم من أن يكون على شيء من الأدب يحمله على شيء من الشعر، وكذلك فعل في الإحاطة، ثم كان شاعرُ ما بقى من الأندلس بعد لسان الدين، هو العربي العقيلي الشاعر الوشاح، واشتهر بعده أيضاً تلميذه ابن زمرك وزير الغنى بالله.

أما القرن التاسع وهو الذي مرّ على أطلال الأندلس، فكان في نصفه الأول الوزير الكاتب القاضي أبو يحيى بن عاصم الذي يقول عنه الأندلسيون إنه ابن الخطيب الثاني، وكان في نصفه الأخير قاضي الجماعة بن الأزرق الشاعر المنشئ الفقيه المتوفى سنة ٨٩٥، وصارت الأندلس بعد ذلك أرضاً صماء لا ترجع الصدى، واستعجم تاريخها فكأنما بدأ غريباً وعاد كما بدأ.

الشعر الأندلسى والتلحين

لقد يخطئ من يزعم أن شعر الأندلسيين يغيب فى سواد غيره من شعر الأقاليم الأخرى كالعراق والشام والحجاز، بحيث يشبه النسيج وتلتحم الديباجة، وذلك زعم من لا يعرف الشعر إلا بأوزانه ولا يميز غير ظاهره؛ ولكن للشعور روحاً كروح الإنسان: تستوى مع الجنس كله فى جملة الأخلاق وتختلف فى مفرداتها، حتى لقد يجد اللبيب الحاذق من التفاوت بين أنواع الأشعار إذا هو استقرأها وتقصص تواريخ أصحابها ما يصح أن يخرج منه علم يسمى علم الفراسة الشعرية.

ومن هذا القبيل يمتاز شعر فحول الأندلسى بتجسيم الخيال النحيف وإحاطته بالمعانى المبتكرة التى توحى بها الحضارة، والتصرف فى أرق فنون القول واختيار الألفاظ التى تكون مادة لتصوير الطبيعة وإبداعها فى جمل وعبارات تخرج بطبيعتها كأنها التوقيع الموسيقى، بل هى تحمل على التلحين بما فيها من الرقة والرنين، ولا يشاركهم فى ذلك إلا من يتزع هذا المنزع ويتكلف ذلك الأسلوب؛ لأن جزالة اللفظ فى شعرهم إنما هى روعة موقعه وحلاوة ارتباطه بسائر أجزاء الجملة؛ وتلك فلسفة الجزالة، ومن أجل ذلك أحكموا التشبيه، وبرعوا فى الوصف، لأنهما عنصران لازمان فى تركيب هذه الفلسفة الروحية التى هى الشعر الطبعى.

وقد يشاركهم فى كثير من ذلك شعراء الشام، ولكن رقة هؤلاء عربية مصفاة؛ ولذلك امتازوا على عرب الحجاز والعراق؛ فهم لا يهلون بالألفاظ المقعقة؛ ولا يغالون فى فخامة التركيب؛ ولكن لا يستقبلك فى شعرهم ما يستقبلك فى شعر الأندلسيين من الشعور الروحى الذى لا سبيل إلى تصويره بالألفاظ؛ والذى تبين معه أن الفرق بين الخياليين كأنه الفرق بين البلادين فى التبعية والاستقلال. وليس يدل ما قدمناه على أن شعر فحول الأندلسيين يمتاز على إطلاقه وأن غيره لا يمتاز عليه؛ بل الأمر فى ذلك كالجمل: كل أنواعه حسن رائع؛ ولكن النحافة اللينة منه تستدعى مع الإعجاب رقة هى بعينها التى يجدها

من يتدبر ذلك الشعر.

وقد كان التلحين ضرورياً عند شعراء الأندلس؛ وما اخترعوا الموشحات إلا لأن أوزانها أحفل به من أوزان الشعر؛ ولذلك لا يقع التوشيح موقعه من السمع إلا إذا خرج الحاناً؛ وقد كان منهم من ينظم ويغنى ويلحن؛ وأكثر ما يكون ذلك فى فلاسفتهم؛ كأبى الصلت أمية بن عبد العزيز الأشبيلي المتوفى سنة ٥٢٣، وكانوا يكتنونه بالأديب الحكيم، وهو الذى لحن الأغاني الأفريقية^(١)، وكالفيلسوف أبى بكر بن باجة الغرناطى؛ وله عندهم الألحان المطربة التى عليها الاعتماد، وهو صاحب كتاب الموسيقى الذى يعدونه الكفاية من هذا العلم، وأعجب شىء فى ذلك أن لأبى عبد الله بن الحداد الذى مر ذكره فى شعراء المعتصم بن صمادح، مؤلفاً فى العروض مزج فيه بين الموسيقى وآراء الخليل، وقد أشرنا إلى ذلك فى الكلام على التوشيح^(٢) فهذه كانت عنايتهم بالألحان، وهى التى جعلت شعرهم كأنه نفوس تقطر أو تسيل.

(١) نفح الطيب: ٣٧٢/١.

(٢) نفح الطيب: ٢٩٣/٢.

الشعراء الفلاسفة

ولم ينشأ من الفلاسفة شعراء مجيدون قدر من نشأ منهم بالأندلس وحدها، ولم يكن للفلسفة تأثير على شعرهم إلا من جهة معانيه الشعرية، فإنها صارت من سمو الخيال وقوة التصور وبراعة الابتكار بحيث تدل على عقل صاحبها دلالة المطابقة، وبذلك زادوا في محاسن الشعر، ولكن غيرهم يخلط بين معاني الفلسفة الفنية وبين معاني الشعر، فيجىء به فلسفة ركيكة ساقطة، أو يجعل فلسفته التزام نوع واحد من مذاهب الشعر، كالحكمة مثلاً، وبذلك يبرد شعره ويثقل، ولا تكاد تجد في غير الأندلسيين من يتحقق بأجزاء الفلسفة فيكون فيلسوفاً، ويبرز في الشعر فيكون شاعراً، ويجمع في شعره الجمال الروحي في المعنيين فيكون شاعراً وفيلسوفاً معاً، ومن هؤلاء يحيى الغزال، وأبو الأفضل بن شرف - وكان عند المعتصم وابنه - وابن باجة، ومالك بن وهب، وكان عند يوسف بن تاشفين، وأبو الحسن الأنصاري الجياني المتوفى سنة ٥٩٣ المعداد من مفاخر الأندلسيين، ويلقبونه بشاعر الحكماء وحكيم الشعراء، وله كتاب شذور الذهب، منظوم في الكيمياء، وقيل في بلاغته التي خضعت لها مادة الفن: إن لم يعلمك صناعة الذهب علمك الأدب^(١) وأبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأشبيلي المتوفى سنة ٥٢٣ وجهه صاحب المهدية إلى ملك مصر فحبس بها عشرين سنة في خزانة الكتب، فخرج إماماً في العلوم وأتقن علوم الفلسفة والطيب والتلحين وقد مر آنفاً؛ وأبو الحكم العربي المتبحر في الفلسفة والأدب وهو الشاعر الهزلي سنة ٥٤٩، وأبو بكر بن زهير المتوفى سنة ٥٩٦ صاحب الموشحات التي امتاز بها، وأبو زكريا يحيى بن هذيل المتوفى سنة ٧٥٣، وكان أعجوبة في الاطلاع على علوم الأوائل، وأبو الحسين علي بن الحمار الغرناطي، وقد برع خاصة في التلحين ويقولون فيه إنه آخر فلاسفة الأندلس^(٢).

ولكن واحد من هؤلاء وأمثالهم النظم المرقص المطرب الذي يقلب النفس

(١) نفع الطيب : ٣٤٢/٢.

(٢) نفع الطيب : ٤١٤/٢.

على جانبى الطرب من الفلسفة والشعر، ولو اتسع لنا المقام لجئنا بالكثير منه، ولكن الاختيار ليس من شرطنا فى هذا الكتاب، وقد اختار الأندلسيون أنفسهم من شعر شعرائهم كتباً ممتعة، منها كتاب الحقائق لأبى عمر أحمد بن فرج، عارض به كتاب الزهرة لأبى بكر بن داود، إلا أن أبا بكر إنما أدخل مائة باب فى كل باب مائة بيت، وأبو عمر أورد مائتى باب فى كل باب مائة بيت ليس منها باب تكرر اسمه لأبى بكر، ولم يورد فيه لغير أندلسى شيئاً، وأحسن الاختيار ما شاء، وأجاد فبلغ الغاية وأتى الكتاب فرداً فى معناه، وهذه الأبواب جميعها إنما هى فى الرقائق وأنواع الوصف، كما يدل على ذلك كتاب الزهرة الموجود قسم منه فى المكتبة الخديوية بمصر.

ولأبى الحسن على بن محمد الكتاب من أهل القرن الخامس كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، ولم تسمُ همة أحد إلى جمع مثله من شعر قوم بعينهم وإنما يجمعون من كل شعر وقع إليهم، كما فعل أبو سعيد نصر بن يعقوب فى كتاب روائع التوجيهات فى بدائع التشبيهات^(١) فقد ضمنه ما اتفق من ذلك لشعراء الشام والعراق والرى وأصبهان وغيرها.

وقد جاء كتاب الذخيرة لابن بسّام كالذيل على كتاب الحقائق لابن فرج، وهى موجودة؛ وفى عصرها صنف الفتح بن خاقان كتاب القلائد، ذكر فيه المعاصرين من الوزراء والكتاب والشعراء، ثم ألف المطمح، وهو نسختان: كبير وصغير، وهذا الأخير هو المطبوع فى الآستانة ومصر، وقلما تنبه قارئه إلى ذلك فلا يزالون يرمونه بالتقصير عن القلائد. ولم يلتزم الفتح فى المطمح ما التزم فى القلائد؛ بل أورد فيه مشاهير الأندلس من كل طبقة فى كل عصر؛ ثم جاء أبو عمر بن الإمام من أهل المائة السادسة، فوضع كتابه سمط الجمان وسفط المرجان، ذكر فيه من أخلت القلائد والذخيرة بتوفية حقه من الفضلاء، واستدرك من أدركه بعصره فى بقية المائة السادسة، ثم ذيل عليه أبو بحر بن صفوان البرسى بكتاب زاد المسافر، ذكر فيه جماعة ممن أدرك المائة السابعة؛ ولابن هانئ اللخمي المتوفى سنة ٧٣٣ كتاب الغرة الطالعة فى شعراء المائة السابعة، وقد مر بنا ذكر كتاب ابن

(١) يتيمة الدهر : ١٢٣/٣.

خنيس، وكتاب شعراء البيرة الذى ألف للحكم المستنصر، وكتاب الكتيبة الكامنة فى أهل المائة الثامنة للسان الدين بن الخطيب؛ وقد رأينا فى طبقات اللغويين والنحاة للسيوطى فى ترجمة ابن خنيس القرطبى المتوفى سنة ٣٤٣، أنه ألف كتاباً فى شعراء الأندلس - إلى عهده - بلغ فيه الغاية^(١)؛ هذا إلى كتب أخرى لم تقيد بالتراجم ولا بالاختيار، وإنما استوعبت فنوناً كثيرة مما يحاضر به من الأدب والتاريخ ككتاب المسهب^(٢) فى فضائل المغرب، ألفه ستة أشخاص فى ١١٥ سنة، آخرها سنة ٦٤٥، وكتاب فلك الأدب لابن سعيد، من شعراء القرن السابع - وكان رحالة إلى المشرق، وهو صاحب كتاب عنوان المرقصات المطبوع فى مصر؛ وقد ألف يحيى الخدج المرسى، وقد أدرك المائة السابعة، كتاب الأغاني الأندلسية، على منزع كتاب أغاني أبى الفرج الأصبهاني؛ فلا بد أن يكون قد ألمّ فيه بتراجم طائفة كبيرة من مشهورى أدبائهم؛ ولمحمد بن عاصم النحوى، من علماء القرن الرابع، كتاب فى طبقات الكتاب بالأندلس. ولو بقيت هذه الكتب جميعها لأمكن استخراج تاريخ واسع للأدب الأندلسى يشرق على الدنيا بذلك النور الذى أسدلت عليه حجب الغيب وترك مكانه فى التاريخ فراغاً مظلماً.

والأندلسيون يختارون من شعرائهم من يقابلون بهم طبقة بشار وحيب والمتنبى، أى الطبقة العالية من شعر الشام والعراق، ويعدون من هؤلاء الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى، وأحمد بن عبد الملك بن مروان، وابن دراج القسطلى، وأغلب بن شبيب، ومحمد بن شخيص، وأحمد بن فرج، وعبد الملك ابن سعيد المرادى^(٣) فهذه هى الطبقة الثانية عندهم، والطبقة الأولى يقابلون بها جريراً والفرزدق والأخطل ومن معهم، ويعدّون منها أبا الأجر جعونة بن الصمة، ويحيى الغزال وغيرهما؛ والطبقة الثالثة يقابلون بها شاعر المولدين عن لم يبلغ مبلغ أولئك فى الاشتهار وبعد الصيت، وقد ذكرنا أسماء الكثيرين من فحولهم.

(١) طبقات اللغويين والنحاة : ص ٦٧ .

(٢) قالوا فى صحة هذا الضبط إنه خاص بحالة الإكثار فى صواب، وأما المسهب (بالفتح) على ما يقتضيه نصهم فهو على الكثير إطلاقه فى لغو أو صواب.

(٣) نفح الطيب: ١٣٥/٢ .

أدبيات الأندلس

سبقت لنا كلمات خفيفة عن الأدب النسائي في الأندلس، وعددنا أسماء بعض جوارى عبد الرحمن الأوسط. وسنعد الآن المشهورات من سائر أولئك الأدبيات، فأولاهن وأولاهن بالتقديم، لبنى كاتبة الخليفة الحكم المستنصر بالله - أى ناسخة - كانت تكتب الخط الجيد، نحوية شاعرة عروضية بصيرة بالحساب مشاركة فى العلم لم يكن فى مصرهم أنبل منها، وتوفيت سنة ٣٧٤، وقد عدها السيوطى فى طبقات اللغويين والنحاة، وكانت تعاصرها حسانة التميمية بنت أبى الحسين الشاعر، والشاعرة الغسانية، وحفصة بنت حمدون، واشتهرت بعدهن عائشة القرطبية المتوفاة سنة ٤٠٠، لم يكن فى زمانها من حرائر الأندلس من يعدلها علماً وفهماً وأدباً وشعراً وفصاحة، تمدح ملوك الأندلس وتخاطبهم بما يعرض لها من حاجة، ثم اشتهرت فى آخر القرن الخامس مريم بنت أبى يعقوب الأنصارى الشاعرة المشهورة، وهى التى كانت تعلم النساء الأدب، وقد كثر... الأدبيات فى هذه المائة فكان فيها أم العلاء بنت يوسف الحجازية، والعروضية مولاة أبى المطرف بن غلبون اللغوى، وقد أخذت عن مولاها النحو واللغة وفاقته فى ذلك وبرعت فى العروض، وكانت تحفظ الكامل للمبرد والنوادر للقالى وشرحهما ^(١) ويؤخذ عنها الأدب، وتوفيت سنة ٤٥٠، وولادة الأديبة الشهيرة المتوفاة سنة ٤٨٤، ومهجة القرطبية صاحبته وتلميذتها، ونزهون الغرناطية البارة، وحمدونة بنت زياد المؤدب التى يلقبونها بخنساء المغرب لقوة شعرها وسمو إبداعها، ولها شعر مطرب ^(٢). والعبادية والدة المعتمد، واعتماد حظيته، وبثينة بنته، وأم الكرام بنت المعتصم بن صمادح، وغاية المنى جاريتها، وغيرهن؛ ثم اشتهر فى أوائل القرن السادس الأديبة الشلبية، وأسماء العامرية، وحفصة الركونية وهى أديبة الأندلس فى هذه المائة.

وانقطاع النساء عن آداب اللغة بعد القرن السادس على ما نرجح يكفى وحده دليلاً على أنهن إنما يشتهرن بذلك ويظهرن به حيث يكون الزمن ترفاً ونعمة، لأنهن بعض الترف والنعمة، فمتى خشت الأيام واضطرب حبل الفتن كان الأدب أول ما ينصرف عن تلك الخدور، كما أن أول ما يجف من أنواع الشجر الزهر!

(٢) نفح الطيب : ٤٩١/٢ .

(١) نفح الطيب : ٤٣٠/٢ .

علوم الأندلسيين

ليس من الممكن أن يقلب العلم الواحد على أنواع متغايرة إلا ما يكون متسعاً بطبيعته لمسابقة الخواطر واستئان القرائح، وهذا شأن أكثر العلوم قبل أن تقرر قواعدها وتمهد طرقها؛ إذ ليس العلم بخصوصه إلا نوعاً من التاريخ يضبط أعمال القرائح ويرتب نتائجها؛ فإذا بلغ أن يكون في حكم المفروغ منه، لبعض الاعتبار، كمفردات اللغة مثلاً من ذهب أهلها المأخوذة عنهم، فذلك هو العلم الذي لا فضل فيه لأحد إلا بإتقانه وحسن القيام عليه والاستنباط منه إذا قبل الاشتقاق والتفريع؛ ولكن من أنواع العلوم ما يتصل بأجزاء الطبيعة؛ فهو أبداً مادة الاكتشاف، وقد يكون هذا الاتصال عاماً كالشعر ونحوه مما لا يقيد بموضوع محدود، وقد يكون خاصاً كعلم النبات مثلاً، وهذه الأنواع هي التي يتفاضل فيها الأقسام وتمتاز القرائح والأفهام؛ فالعلم منها أشبه بالتاريخ السنوي لأمة لا تزال باقية ممدوداً لها في أجل العمران والحضارة.

وقد برز الأندلسيون في جميع الأنواع التي تناولوها وأحسنوا القيام عليها واضطلعوا بها؛ غير أن أكثر تلك العلوم إنما وقع إليهم تاماً أو هو في حكم الذي تم، لأن العراقيين سبقوهم إلى الاشتغال به، كعلوم اللغة والفلسفة بأنواعها، فلم يتركوا لهم إلا فضل التحقيق وما كانت تساعد عليه أحوال تلك الأزمنة من الاكتشافات وما اقتضته طبيعة أرضهم من الاختراعات الهندسية. وكان هذا الشعب كان من فطرته وحكم الطبيعة له أن يكون متفضلاً، فعوضه التاريخ من الفضل على المشرق فضله على أوروبا، وعلى ذلك فلا يكون بحثنا في علوم الأندلسيين علمياً، إذ هم لم يبتدئوها ولم يتمموها، ولكنه تاريخي يسط حقيقة التاريخ لا حقيقة العلم ذاته. ولقد يصح أن يكون للأندلس بحث فني يذهب برأسه في تاريخ الفنون والصناعات عامة - وسنلم بشيء منه في موضع آخر من هذا الكتاب -

اشتغل الأندلسيون بعلوم الفلسفة جميعها المعروفة في التمدن العربي، وهو

علم النجوم والأفلاك، والمقادير - الهندسة - والرياضيات، وآثار الطبيعة، والطب، والموسيقى، والمنطق، والفلسفة الإلهية، والسياسات المنزلية والمدنية، وعلوم اللغة والأدب، من النحو والتصريف والتاريخ والرواية والمحاضرة، وبسائر العلوم الدينية؛ وسنقسم الكلام في ذلك إلى قسمين: العلوم الفلسفية، والأدبية:

العلوم الفلسفية:

سبق لنا فيما أسلفناه من هذا البحث كلام متفرق عن التنجيم وبعض من عرفوا به وعناية الملوك بعلوم الفلسفة وذكر الفلاسفة والشعراء؛ فلا نعيد شيئاً من ذلك هنا، وإنما نستوفى ما يتم به هذا الموضوع، تفادياً من الملل والسآمة.

نقل صاحب نفح الطيب عن ابن سعيد المغربي، أن كل العلوم لها حظ عند الأندلسيين واعتناء، إلا الفلسفة والتنجيم، فإن لهما حظاً عظيماً عند خواصهم ولا يتظاهرون بهما خوف العامة، فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم، أطلقت عليه العامة اسم زنديق وقيدت عليه أنفاسه، فإن زلّ في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره إلى السلطان، أو يقتله السلطان تقريباً لقلوب العامة؛ وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وُجدت؛ وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه، وإن كان غير خالٍ من الاشتغال بذلك في الباطن على ما ذكره الحجاري^(١).

قلنا: وهذا هو السبب في أن أولية الفلسفة تكاد تكون مجهولة في الأندلس لا يُعرف منها إلا القليل، وقد ذكر صاحب نفح الطيب في موضع آخر أن أول من اشتهر في الأندلس بعلم الأوائل والحساب والنجوم، أبو عبيدة مسلم بن أحمد المعروف بصاحب القبلة - توفي في آخر القرن الثالث - لأنه كان يشرق في صلاته، وكان عالماً بحركات الكواكب وأحكامها وكان صاحب فقه وحديث - زمن المزني^(٢) - .

وقال في ترجمة يحيى الغزال الشاعر المتوفى سنة ٢٥٠: إنه حكيم المغرب وشاعرها وعرفها، لحق أعصار خمسة من الخلفاء^(٣). وفي موضع آخر أن أبا

(١) نفح الطيب: ١٠٢/١.

(٢) نفح الطيب: ٢٣٢/٢.

(٣) نفح الطيب: ٤٤١/١.

القاسم عباس بن فرناس حكيم الأندلس أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة، وأول من فك بها كتاب العروض للخليل، وأول من فك الموسيقى؛ وصنع الآلة المعروفة بالمثقال ليعرف الأوقات على غير رسم ومثال، واحتال في تطيير جثمانه وكسا نفسه الريش ومدّ له جناحين وطار في الجو مسافة بعيدة؛ ولكنه لم يحسن الاحتياال في وقوعه فتأذى في مؤخره ولم يدر أن الطائر إنما يقع على زمكه ولم يعمل له ذنباً... وصنع في بيته هيئة السماء وخيّل للنّاظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود^(١) وكان عباس هذا زمن الأمير محمد المتوفى سنة ٢٧٣.

غير أن كل أولئك على ما نرجح لم يشتغلوا بالفلسفة الإلهية ولم ينتحلوا مذهباً من المذاهب اليونانية، ولعلّ أول من عرف بذلك في الأندلس محمد بن عبد الله بن مسرة الباطني من أهل قرطبة (٢٦٩ - ٣١٩) فإنه أكثر من النظر في فلسفة انبذقليس الذي يعده العرب أحد حكماء اليونان الخمسة الذين هم أساطين الحكمة^(٢).

وشاع مذهب ابن مسرة بعده بالأندلس واشتهر به محمد بن أحمد الخولاني المعروف بابن الإمام، توفي سنة ٣٨٠، وهو أديب بليغ، والظاهر أنه كان يُلّاحي به ويعمل على نشره، حتى حمل ذلك أبا بكر الزبيدي واحد عصره في النحو المتوفى سنة ٣٧٩ على وضع كتاب في الرد عليه^(٣).

وذكر ابن القفطى في ترجمة يحيى بن إسحاق الطبيب الأندلسي، أن أباه إسحاق كان طبيباً صانعاً بيده مشهوراً في أيام الأمير عبد الله، وكان يحيى هذا بصيراً ذكياً في العلاج صانعاً بيده، واستورره عبد الرحمن الناصر وولاه الولاية الجليلة بعد إسلامه، ونال عنده حظوة؛ وألّف في الطب كُنْاشاً في خمسة أسفار ذهب فيه مذهب الروم بحكم أن هذا النوع لم يكن استقر بالأندلس ولا اشتهر شهرته الآن - أى في القرن السابع -^(٤) فإذا كان ذلك شأن الطب في أوائل القرن

(١) نفح الطيب: ٢٣١/٢. (٢) القفطى: ص ١٢.
(٣) بغية الوعاة: ص ٣٤. (٤) القفطى: ص ٢٣٦.

الرابع وما هو بموضع الظنة ولا بالذى يستغنى عنه، فغيره من أنواع الفلسفة أولى بأن لا يكون مستقراً ولا مشتهراً.

وقبل هذين الطبييين رحل من المشرق إلى الأندلس يونس الحرائى الطيب فى أيام الأمير محمد، واشتهر هناك؛ ثم انقلب ولداه أحمد وعمر الأندلسيان إلى المشرق وأخذوا عن ثابت بن سنان وأمثاله، وابن وصيف الكحال^(١).

ولكن الأندلس كانت مشهورة فى زمن الحكم المستنصر، أى فى أواخر القرن الرابع، بالرياضيات، حتى كان يتقاطر إليها طالبو هذا العلم من أوربا، وفى ذلك العهد نبغ مسلمة بن أحمد المجريطى المتوفى سنة ٣٩٨ وهو إمام الرياضيين بتلك البلاد، وأعلم من كان قبله بعلم الأفلاك وحركات النجوم، وكانت له عناية بأرصاد الكواكب وشغف بتفهيم كتاب المجسطى، هو الذى عنى بزيج محمد بن موسى الخوارزمى ونقل تاريخه الفارسى إلى التاريخ العربى، ووضع أوساط الكواكب لأول تاريخ الهجرة وزاد فيه جداول حسنة^(٢) وقد تخرج عليه أجلة من علماء هذا الشأن، أشهرهم أصبغ بن السمح البارع فى النجوم والهندسة، وأبو القاسم بن الصفار أستاذ الرياضيات فى قرطبة، وأبو الحسن الزهراوى؛ وكان للحكم نفسه منجم مختص به، وهو ابن زيد الأسقف القرطبى، وألف فى ذلك كتاب تفضيل الأزمان ومصالح الأبدان^(٣).

ومن أشهر أئمة الفلك بالأندلس إبراهيم بن يحيى النفاش المعروف بولد الزرقىال. قال ابن القفطى إنه أبصر أهل زمانه بأرصاد الكواكب وهيئة الأفلاك واستنباط الآلات النجومية، وله صحيفة الزرقىال المشهورة فى أيدي أهل هذا الفرع التى جمعت من علم الحركات الفلكية كل بديع مع اختصارها، ولما وردت على علماء هذا الشأن بأرض المشرق حاروا لها وعجزوا عن فهمها إلا بعد التوقيف، وله أرصاد قد رصدها ونقلت عنه.

واشتهرت علوم الحكمة بعد زمن الحكم، وكان من أشهر الأطباء فى زمانه محمد بن عبدون العذرى القرطبى الذى اتصل به وبابنه المؤيد، وهو من علماء

(١) القفطى: ص ٢٥٩. (٢) القفطى: ص ٢١٤.

(٣) نفح الطيب: ١٣٨/٢.

العدد والهندسة، ولم يكن بقرطبة من يلحقه فى صناعة الطب ولا يجاريه فى ضبطها وحسن دريسته فيها وإحكامه لغوامضها^(١) وكثر نبوغ الأندلسيين فى القرن الخامس؛ وفى هذا القرن نبغ الكرمانى القرطبى المتوفى سنة ٤٥٨ وكان فرداً فى الهندسة وللعدد، وهو الذى أدخل رسائل إخوان الصفا إلى تلك البلاد، ولم يعلم أن أحداً أدخلها الأندلس قبله^(٢) وكان لها شأن مهم فى تنويع الفلسفة الأندلسية.

وكما كان القرن الخامس أشهر عصور الأدب فى الأندلس، كان القرن السادس أشهر عصور الفلسفة فيها، ظهر فيه الحكيم أبو بكر بن الصائغ الذى كان يحدث عن نفسه أنه يُحسن اثنى عشر علماً أيسرها النحو الذى هو أشهر علوم الأندلسيين؛ وابن طفيل، وابن رشد، وأبو العلاء بن زهر فيلسوف عصره وحكيمة المتوفى سنة ٥٣٥ وأمىة بن عبد العزيز بن أبى الصلت، وقد مرّ ذكره، وأبو بكر ابن زهر الطبيب المتوفى سنة ٥٩٥، وقد كاد هذا الرجل يكون تاريخ القرن السادس كله، لأنه ولد سنة ٥٠٧؛ وهو مع طبه اللغوى الأديب الذى امتاز بالموشحات الطائفة بين المغرب والمشرق، وله أخت كانت هى وبنتها نابغتين فى الطب. وأبو الحكم المغربى المتبحر فى الفلسفة والأدب، وقد مرّ ذكره فى الشعراء الفلاسفة، وتوفى سنة ٥٤٩، وإن الواحد من هؤلاء ليكفى أن يكون فخر أمة، فكيف بهم مجتمعين فى قرن من الزمن؟

وقد كان لكل منهم تلامذة جلة، ولم تنجب الأندلس بعدهم من يضاهيهم إلا أفراداً قليلين، كمحمد بن الحسن المذحجى، وابن عياش الزهراوى ومطرف الأشبلى فى القرن السابع.

على أن من الأندلسيين أفراداً آخرين اشتهروا بفنون أخرى كالنبات والفلاحة وخواص العقاقير والسموم وعلم الحيوان وغيرها فضلاً عما نبغوا من أصحاب المنطق والموسيقى، ومن كانوا هناك من أئمة الفنون ومهرة الصناعات، فلم نر أن نصلهم بهذا الفصل؛ إذ استقصاء ذلك كله مما يقتضى كتاباً برأسه، وهو فرع إن كان مهماً فى بسط الحضارة فليس كذلك فى تاريخ الأدب.

(١) نفح الطيب: ٤٣٧/١.

(٢) القفطى: ص ١٦٣.

مقاومة الفلسفة العربية الطبيعية فى أوربا وانتشارها :

وهنا موضع هذه الكلمة، لأن الأوربيين لم يعرفوا الفلسفة العربية إلا من طريق الأندلس أولاً، وسنأتى على أمر النقل والترجمة إليهم فى فصل آخر من هذا البحث.

أول ما دخل إلى أوربا من الفلسفة العربية كتب ابن سينا وبعض كتب الفارابى والكندى ثم دخلت كتب الغزالى وابن رشد، وكانت فلسفة أوربا يومئذ بعض تعاليم لاهوتية مستخرجة من كتب مختلفة لأصحاب المذاهب اللاتينية؛ فلما دخلت إليها فلسفة العرب فى القرن الثانى عشر للميلاد وما بعده لم تلبث أن انتشرت فى المدارس والمجتمعات وأقبل عليها الناس، فرأى المجمع الاكليركى الذى عقد فى باريس سنة ١٢٠٩م أنها ستذهب بالتقاليد الدينية المعروفة التى لا قرار لها على مذاهب العلم الطبيعى فحكم على المستغلين بها يومئذ من الأوربيين وهم أمورى ودفيدوى دينان وتلامذتهما، وفى سنة ١٢١٥ حرهم الإكليروس تعاليم أرسطو وخصوصاً تلاخيص ابن سينا، وفى سنة ١٢٣١م حرم البابا غريغوريوس التاسع كل من يشتغل بفلسفة العرب.

كانوا يرمون بذلك إلى محو هذه الفلسفة ولكنهم لفتوا إليها الغافلين ونهبوا إلى هذه الشكوك من يسمونهم أهل اليقين، فاضطر علماء اللاهوت بعد ذلك إلى درسها، ليتخذوا من الداء دواءً وليضربوا العلم فى أرق مقاتله؛ فقام منهم غيلوم دوفرن وحمل على فلسفة ابن سينا ثم خفف من حملته قليلاً وانعطف برفق ظنه قاتلاً إلى فلسفة ابن رشد، وقد كان يشنى عليه بعض الثناء؛ وبعده قام اللاهوتى البير الكبير، وهو من المعجيين بابن سينا والمزدرين لابن رشد، وله ردود كثيرة على الفلسفة العربية، ثم قام بعدهما ألد أولئك الأعداد، وهو القديس توما الشهير أعظم حكماء الكنيسة الغربية وأكبر فلاسفة اللاهوت فى العصور المتوسطة. ولكن كل أولئك لم يقووا على نقض الفلسفة العربية، فإنهم إنما كانوا يروون بالأسنة على القلوب، والحجج اللسانية قد تخرج القلب فى مبادئه التى يصبو إليها ولكنها لا تصرفه عن هذه المبادئ ما دامت قوتها لفظية؛ ومن أجل ذلك حاول بعد هؤلاء ريمون مارتينى أن يضرب اليقين بالشك ويدخل إلى تلك القلوب من بعض

جوانبها، فجعل ينشر كتب الغزالي للرد على فلسفة ابن سينا وابن رشد، ثم تتابع جيل دى ليسين وبرناردى تريليا وهرفه نديليك ودانت الشاعر الإيطالى المشهور صاحب رواية الجحيم وجيل دى روم، وهو الذى بلغ فى ذلك قريبا من القديس توما، وجاء بعدهم الأرعن الأخرق ريمون لول الذى صرف عمره خصوصاً من سنة ١٣١٠ إلى سنة ١٣١٢م فى التجوال بين باريز وفيينا ومونبليه وجنوى ونابولى وبيزه، محرّضاً الناس على ازدراء العرب ونبد فلسفتهم، حتى إنه لما اجتمع مجمع فيينا سنة ١٣١١م رفع إلى البابا اكليمنضس الخامس كتابة يقترح فيها إنشاء مجتمع يخول من السلطة ما يساعد على إسقاط الإسلام وإقامة كليات لدرس اللغة العربية وحرّم المسيحيين الذين يتصرون لفلسفة ابن رشد وطرح كتبه من المدارس الأوربية!

وفى هذا القرن الرابع عشر كانت كتب ابن رشد قد انتشرت فى أوربا، خصوصاً فى فرنسا وإيطاليا وأسبانيا، حتى غطت عندهم على ابن سينا وأخملت من شهرته بعد أن كان هو المتميز فى القرن الثالث عشر، ثم أصبحت تلك الفلسفة فى القرن الخامس عشر وهى روح العلم الطبيعى فى أوربا، وذلك بعد أن صارت من الدروس الحافلة فى كلية بادو المشهورة بإيطاليا التى استتبع حركه الفلسفة الأوربية يومئذ؛ وأول ناشرى تعاليم ابن رشد فيها بطرس دانو الذى لم يجد ديوان التفتيش سبيلاً إلى عقابه إلا بحرق عظامه من بعده...

وقد شرح أساتذة هذه الكلية فلسفة الحكيم القرطبى، ونبغ فيها منهم كثيرون أكسبوها الاحترام وعلو الرأى؛ ولا جرم أنهم بذلك قد رفعوا أنفسهم أيضاً.

ولما أراد لويس الحادى عشر ملك فرنسا، إصلاح التعليم الفلسفى فى سنة ١٤٧٣م، طلب من أساتذة المدارس تعليم فلسفة أرسطو وشرح ابن رشد عليها لأنه استثبت فائدة هذا الشرح وأيقن بصحته.

آخرة الفلسفة العربية :

ثم حدثت مسألة خلود النفس فى أواخر القرن الخامس عشر وخاض فيها علماء إيطاليا، وكانوا يجدون فى شروح ابن رشد لفلسفة أرسطو أن النفس خالدة بعد الموت، ولكن «بومبوتا» العالم المشهور أثبت من كتب «اسكندر دفروريزياس»

الفيلسوف اليوناني الذي شرح أرسطو قبل ابن رشد، أنه لا خلود غير الخلود
الإنساني النوعي في الأرض؛ فانشق العلماء وطار الجدل في هذه النازلة حتى
انعقد مجمع لاتران في سنة ١٥١٢ وحرم كل من يقول بأن النفس غير خالدة،
وبعد هذا الانتصار للفلسفة العربية طبعت كتب ابن رشد وطارت إلى أيدي طلابها
والمعجبين بها من كل جهة؛ غير أن ذلك كان مبدءاً للرجوع إلى النص اليوناني في
فلسفة أرسطو، ثم انتبه العلماء إلى فائدة ذلك، ففي إبريل من سنة ١٤٩٧م صعد
الأستاذ «نقولا ليونيكوس توموس» منبر التعليم في كلية بادو، وألقى أول مرة
فلسفة أرسطو باللغة اليونانية؛ وما كاد أمره يذيع حتى أخذوا ينهضون في ذلك،
ثم عادت بادو والبندقية وشمال إيطاليا إلى نص أرسطو، وعادت فلورنسا إلى نص
أفلاطون؛ واستمر ذلك إلى أن ظهرت الفلسفة الطبيعية الحديثة في أواخر القرن
السادس عشر، فأتت على الفلسفة العربية، حتى لم تحي سنة ١٦٣١ م حتى
انقلبت تاريخاً يذكر بعد أن كانت علماً يُنشر، وذلك بوفاة آخر القائمين عليها في
أوربا وهو «قيصر كريمونتي» المتوفى في تلك السنة.

العلوم الأدبية

رأس هذه العلوم عند الأندلسيين النحو والشعر، ولا بد في كليهما من الحظ الصالح من اللغة والرواية؛ قال ابن سعيد المغربي، وقد نقل كلامه صاحب نفح الطيب: النحو عندهم في نهاية من علو الطبقة؛ حتى إنهم في هذا العصر (القرن السابع) فيه كأصحاب عصر الخليل وسيبويه، لا يزداد مع هرم الزمان إلا جِدَّةً، وهم كثيرون البحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه، وكل عالم في أي علم لا يكون متمكناً من علم النحو بحيث لا تخفى عليه الدقائق فليس عندهم بمستحق للتميز ولا سالم من الازدراء... وعلم الأدب المنشور - من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستطرفات الحكايات - أنبل علم عندهم، وبه يُتَقَرَّب من مجالس ملوكهم وأعلامهم، ومن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفل مستثقل... وإذا كان الشخص بالأندلس نحويّاً أو شاعراً فإنه يعظم في نفسه لا محالة ويسخف ويظهر العُجْب، عادة قد جبلوا عليها^(١).

وقد سلف لنا كلام في أسباب براعتهم في الشعر، أما سبب ما ذكره ابن سعيد من حالهم في النحو وتميزهم به مع انحرافهم في اللغة العامة عن الأوضاع العربية، فهو على ما نرى أن أولئك القوم كانت لهم فطرة عجيبة في قوة الذاكرة والحفظ، ولو كانت الأندلس مكان العراق وفي جهة من البادية ما ضاع حرف من اللغة ولحفلت الكتب بفنون الأدب العربي، وذلك دأبهم قديماً وحديثاً، مما يرجح معه أن تلك الذاكرة أثر من جمال الطبيعة في أنفسهم، ومن أجل ذلك قلّ أن تجد في علمائهم صاحب علم واحد أو علمين، بل فيهم من يعد في الفقهاء والمحدثين والفلاسفة والشعراء والكتّاب والمؤرخين واللغويين والنحاة والأدباء، وقد يتميز في ذلك كله على اختلاف الفنون أو في أكثره وقد ذكرنا بعضهم فيما سلف، وسنشير إلى آخرين. وإذا كان من مفاخر العراقيين أن الأصمعي يحفظ أربعة آلاف أرجوزة، وهم يعدونه أذكى العرب وأجمعهم، فقد كان من الأندلسيين في المائة

(١) نفح الطيب: ١٠٣/١.

الثالثة سعيد بن الفرّج مولى بنى أمية المعروف بالرشاشى يحفظ مثل هذا العدد للعرب خاصة، وكان يُضرب به المثل فى الفصاحة على كثرة ما يتقعر فى كلامه^(١)، وأعجب من إنشاد حماد الراوية بين يدى الوليد ليلة كاملة (وقد مر ذلك فى بحث الرواية والرواة) ما ذكروا من أن أبا المتوكل الهيثم الأشبلى حافظ الأندلس فى عصره، وكان فى المائة السادسة، حضر ليلة عند أحد رؤساء أشبيلية فجرى ذكر حفظه، وكان ذلك فى أول الليل، فقال لهم: إن شئتم أن تختبرونى أجبتكم، فقالوا له:

بسم الله، إنا نريد أن نحدث عن تحقيق. فقال: اختاروا أى قافية شئتم لا أخرج عنها حتى تعجبوا، فاختاروا القاف، فابتدأ من أول الليل إلى أن طلع الفجر وهو ينشد وزن «أرقّ على أرقّ ومثلى يارقّ» وسمّاهُ قد نام بعض وضجّ بعض وهو ما خرج عن قافية القاف^(٢).

وكان من حفاظهم أبو الخطاب بن دحية المتوفى سنة ٦٣٣، بلغ من حفظه اللغة أن صار حوشها مستعملاً عنده غالباً، ولا يحفظ الإنسان حوشى اللغة إلا وذلك زكاةً محفوظاً من مستعملها؛ ولأبى الخطاب هذا رسائل ومخاطبات كلها مغلقات مقفلات، على أنه يرسلها عفو الساعة وفيض البديهة، ولما ارتحل إلى المشرق فى دولة بنى أيوب، جمعوا له علماء الحديث فذكروا أحاديث بأسانيد حولوا متونها، فأعاد المتون المحوطة وعرف عن تغييرها، ثم ذكر الأحاديث على ما هى عليه من متونها الأصلية^(٣).

ولو شئنا أن نطيل فى حفظ الأندلسيين لأتينا بالكثير من الأدباء واللغويين والنحاة، ولكننا نذكر من ذلك شيئاً مما نحن بسبيله ولا نظير له فى غير الأندلس، وذلك عنايتهم بكتاب سيبويه فى النحو البصرى، وهو أحد الكتب الثلاثة التى يقال إنه لا يُعرف كتابٌ ألّف فى علم من العلوم قديمها وحديثها فاشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزاء ذلك الفن غيرها، وهى: كتاب سيبويه فى علم النحو العربى، وكتاب المجسطى فى علم هيئة الفلك وحركات النجوم، وكتاب

(٢) نفح الطيب: ٢٣٣/٢.

(١) بغية الوعاة: ص ٢٥٦.

(٣) نفح الطيب: ٣٦٩/١.

أرسطوطاليس فى علم صناعة المنطق^(١).

كتاب سيبويه عندهم :

لا نعرف أول من أدخل هذا الكتاب الأندلس، وقد عرفت أول من أدخل كتاب الكسائى، وهو جودى بن عثمان العبسى الذى كان يؤدب أولاد الخلفاء بالعربية، وقد رحل إلى المشرق وأخذ عن الرياشى والفراء والكسائى وأدخل كتابه إلى الأندلس (توفى سنة ١٩٨)؛ ولكن أقدم من وقفنا عليه ممن حفظوا كتاب سيبويه، هو حمدون النحوى المتوفى بعد المائتين، ولعله أول من عرف به ثم كان من أشهر حفاظه فى القرن الثالث الألفين القرطبى المتوفى سنة ٣٠٩، وقد أخذه بمصر عن أبى جعفر الدينورى رواية، ولكن الهم لم تنصرف إلى استظهاره إلا فى القرن الخامس كأنهم جعلوا ذلك منافسة، وقد ذكروا أن عبد الملك بن سراج إمام أهل قرطبة المتوفى سنة ٤٨٩ عكف عليه ثمانية عشر عاماً لا يعرف سواه^(٢) ومن ذلك العهد ابتدأوا يقررونه ويشرحونه ويلون عليه التعليقات، ومن شراحه أبو بكر الحشنى الجياني المتوفى سنة ٥٤٤، وكان الناس يرحلون إليه لتقدمه فى الكتاب، وهو من مفاخر الأندلسيين^(٣)؛ ولابن الطراوة النحوى الذى سيأتى ذكره فى علماء القرن السادس كتاب سمّاه المقدمات على كتاب سيبويه، وشرحه ابن خروف المتوفى سنة ٦٠٩ وقد أملى إبراهيم بن عيسى المعروف بابن المناصف المتوفى سنة ٦٢٧ على قول سيبويه هذا باب علم الكلم من العربية، وهو فى بضعة أسطر - عشرين كراساً^(٤) وكذلك كان لابن الحاج إملأ عليه، وكان يقول: إذا متّ يفعل ابن عصفور فى كتاب سيبويه ما شاء، وابن عصفور توفى سنة ٦٦٩، وكثر حفاظ هذا الكتاب فى القرن السادس، فكان فيه غير من ذكرناهم: محمد بن عبد المنعم، يسرده بلفظه، وهو أحفظ أهل زمانه؛ وجابر بن محمد الحضرمى الذى كان زعيم وقته بإقراءه والتقدم فيه؛ وخلف ابن يوسف الذى كان يحفظ مع هذا الكتاب كتباً أخرى كأدب الكاتب والمقتضب والكامل للمبرد وغيرهما؛ وأبو عامل ابن عبد الله الأشبلى المعروف بابن الجلد الذى قال فيه ابن

(٢) بغية الرعاة: ص ٣١٢.

(١) القفطى: ص ٦٩.

(٤) بغية الرعاة: ص ١٨٤.

(٣) بغية الرعاة: ص ١٠٥.

ملكون: من قرأ كتاب سيبويه على ابن الجدد فما عليه أن لا يقرأه على سيبويه؛ وفي هذا العصر كان أحمد بن عبد النور النحوى المتوفى سنة ٧٠٢ لا يقرأ الكتاب فكانوا يقولون لا يعرف شيئاً^(١) وزادوا على ذلك فى القرن السابع حتى انتهت الرئاسة إلى أبى الحسن الأشبلى المعروف بابن الصائغ المتوفى سنة ٦٨٠ وقد شرحه وكان له فى مشكلاته عجائب. قال فى بغية الوعاة: وأما فهمه وتصرفه فى كتاب سيبويه فما أراه سبقه إلى ذلك أحد. وكان يعاصره إمام الأدب الأصمى المتوفى سنة ٧٧٦، وله شرح على هذا الكتاب؛ ثم كان فى القرن الثامن جماعة أشهرهم أبو حيان، - وسيأتى ذكره - وله تعليقات مهمة على هذا الكتاب وتجرى لأحكامه واختصار فيه للطلبة المبتدئين.

علماء العربية والأدب:

بقى أن نذكر أسماء المشاهير من علماء العربية بالأندلس غير من ذكرناهم وقد أبقينا لهذا الموضع أسماء الشعراء وأئمة الأدب، لأننا إنما نتفادى من الإطالة بسرد الطائفة الواحدة، ولا نعتد إلا أن يكون وفاء البحث فى جملة أجزائه لا فى بعضها، وهى طريقتنا التى نجري عليها فى هذا الكتاب:

كان فى القرن الثانى حمدون النحوى بعد المائتين - وقد سبق ذكره - وكان هو والمهدى متعاصرين ولهما زعامة النحو واللغة، إلا أن المهدى امتاز باللغة وامتاز حمدون بالنحو... فكان فيه الغاية التى لا بعدها، وقد أخذ عن علماء ذلك العصر ابن وضاح والخشنى ومطرف بن قيس.

واشتهر فى القرن الثالث الخشنى القرطبى، وهو نحوى لغوى شاعر لقي بالمشرق السجستانى والرياشى والزيادى، وأدخل الأندلس كثيراً من اللغة والشعر الجاهلى، وتوفى سنة ٢٨٦ عن ثمانين سنة.

وكان يعاصره محمد بن عبد الله القرطبى وهو الذى أخذ عنه أهل الأندلس الأشعار المشروحة.

ومحمد بن عبد السلام بن ثعلبة؛ وقد أدخل الأندلس أيضاً كثيراً من كتب

(١) بغية الوعاة: ص ١٤٢.

اللغة والشعر الجاهلى.

وجابر بن غيث اللبلى النحوى الشاعر الأديب المتوفى سنة ٢٩٩.

ومحمد بن أصبغ المتوفى سنة ٣٠٦ وهو مولى الوليد بن عبد الملك.

وهشام بن الوليد النحوى العروضى الأديب، وهو مؤدب أولاد الناصر توفى سنة ٣١٧.

ومحمد بن يحيى المعروف بالرياحى مؤدب المغيرة بن الناصر، وهو إمام فى العربية والأدب، فقيه شاعر.

وأحمد بن إبراهيم بن أبى عاصم، حافظ للعربية والغريب، متقدم فى النقد، شاعر منفرد، شرح أكثر دواوين العرب، توفى سنة ٣١٨.

وقاسم بن أصبغ (٢٤٧ - ٣٤٠) وهو فرد فى النجو والغريب والشعر، وكانت إليه الرحلة بالأندلس كما كانت بالمشرق يومئذ لأبى سعيد بن الأعرابى.

ثم أبو عبد الله المعروف بابن خنيس، وكان كاتباً بليغاً عالماً باللغة والغريب والأخبار والتاريخ توفى سنة ٣٤٣.

ومحمد بن أصبغ المتفنن فى العلوم من النحو واللغة والحساب والفرائض والشعر وغيرها، وتوفى سنة ٣٤٤.

وممن نبغ فى القرن الرابع محمد بن أبان المتوفى سنة ٣٥٤، وكان فرداً فى اللغة والعربية والأخبار والتواريخ؛ فكان مكيماً عند المستنصر.

وابن القوطية القرطبى إمام اللغة والعربية فى زمنه، توفى سنة ٣٦٧.

وأبو بكر القرطبى المعروف بابن العريف النحوى، قيل إنه صنع لولد المنصور

ابن أبى عامر مسألة فيها من العربية ٢٧٢٠٩ أوجه، وتوفى سنة ٣٦٧.

والحسين بن الوليد من مؤدبى أولاد المنصور أيضاً، وهو شاعر أستاذ فى

الأدب إمام فى العربية.

وأبو بكر الزبيدى الأشيبلى واحد عصره فى النحو واللغة، وقد أدب ولد

المستنصر، توفي سنة ٣٧٩.

وأحمد بن أبان بن سعيد صاحب شرطة قرطبة، الإمام فى العربية واللغة صنف كتاب السماء والعالم فى اللغة، مائة مجلد، وقد رأينا هذا الاسم فى كتب أرسطاطاليس التى ذكرها ابن القفطى، وقال: هو أربع مقالات فى الطبيعة نقله ابن البطريق (ص ٣٠) وتوفى ابن أبان سنة ٣٨٢.

ومحمد بن عاصم النحوى من كبار الأدباء، توفي سنة ٣٨٢.

وقد أوردنا فيما سبق أسماء أكثر علماء القرن الخامس، ولكننا نذكر منهم هنا محمد بن سليمان المعروف بابن أخت غانم، وهو من أحفظ أهل زمانه للنحو واللغة، لا سيما كتب أبى زيد والأصمعى وغانم بن غالب بقية شيوخ اللغة الضابطين لحروفها الحاذقين بمقاييسها، وكان إماماً فيها ثقة فى إيرادها توفي سنة ٤٣٣.

وابن سيده صاحب كتاب المخصص وغيره، وهو فرد فى اللغة والنحو متوفر على علوم الحكمة، توفي سنة ٤٥٩.

وغانم بن وليد الملقى المتوفى سنة ٤٧٠، وكان أهل الأندلس يعدون أئمة الأدب فى ذلك الوقت ثلاثة: أبو مروان بن سراج بقرطبة، والأعلم الشتمرى بأشبيلية، وغانم هذا بمالقة، لكن زاد غانم عليهما بالفقه والحديث والطب والكلام، أما أبو مروان فهو الشاعر النحوى الإمام فى الأدب، توفي سنة ٤٨٩، وكان الأعلم عالم اللغة والعربية والشعر، وقد توفي سنة ٤٧٦.

ومن ختمت بهم هذه المائة سراج بن عبد الملك بن سراج النحوى، كان يجتمع إليه أربعون وخمسون من مهرة النحاة، كابن أبى فرس، وابن الأبرش، وكلهم إليه مفتقرون، لوقوفه على مواد النحو وأشعار العرب ولغاتها وأخبارها، وقد توفي سنة ٥٠٨.

المائة السادسة :

ثم كان من مشاهير القرن السادس محمد بن عبد المنعم أبو عبد الله السبتي

من صور الحفاظ لم يستظهر أحد في زمانه من اللغة ما استظهره، آية تتلى ومثالاً يضرب، وقد امتاز عن سائرهم بأنه كان يعرب أبداً كلامه.

وأبو محمد اللوشى البارع فى الأدب والنحو واللغة والكتابة والشعر والخطابة، وقد أخذ أدباء عصرهم عن الثلاثة الذين مرّ ذكرهم، وتوفى سنة ٥١٨.

وأبو محمد البطليوسى المتبحر فى اللغات والآداب، وله يد فى العلوم القديمة، وهو شارح أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتابه الاقتضاب مشهور، توفى سنة ٥٣١، وقد رأينا فى بغية الرعاة للسيوطى فى ترجمة أبى العباس بن بلال اللغوى المتوفى سنة ٤٦٠ أن ابن خلدونة النحوى نسب إليه شرح أدب الكاتب المسمى بالاقتضاب، وذكر أن ابن السيد البطليوسى أغار عليه وانتحلته^(١) وهذا عجيب، والله أعلم بحقيقته.

وجعفر بن محمد بن مكى، وكان عالماً باللغات والآداب، ذاكراً لهما، معتنياً بما قبله منهما ضابطاً لذلك، وعنى بهما العناية التامة، وجمع من ذلك كتباً كثيرة كان له بها اليد الطولى الباسطة فى علم اللسان.

وأبو الحسين بن الطراوة، نحوى ماهر وأديب بارع، يقرض الشعر وينشئ الرسائل البليغة، وله آراء فى النحو تفرّد بها وخالف فيها جمهور النحاة، وعلى الجملة كان مبرزاً فى علوم اللسان كلها، وتوفى سنة ٥٢٨ عن سن عالية.

ومحمد بن يوسف المعروف بابن الاشتراكوانى، المتوفى سنة ٥٣٨، كان لغوياً أديباً شاعراً معتمداً فى الأدب فرداً فى وقته، وهو صاحب المقامات اللزومية الشهيرة - وسيأتى ذكرها فى موضعها - وقد اعتمد عليه أبو العباس بن مضاء فى تفسير كامل المبرد لرسوخه فى اللغة العربية.

والوزير ابن أبى الخصال (سنة ٤٦٥ - ٥٤٠) وكان على براعته فى الفقه وصناعة الحديث والمعرفة برجاله والتقيد لغريبه، فرداً فى اللغة والأدب والنسب والتاريخ، إماماً متفقاً عليه، متحاكماً إليه فى الكتابة والشعر، لم يكن فى عصره

(١) بغية الرعاة : ص ١٧٥ .

مثله، حتى قال بعضهم إنه كان آخر رجال الأندلس علماً وفهماً وذكاءً وتفناً في العلوم.

ومحمد بن أحمد أبو عامر الوزير الكاتب، كان لغوياً أديباً شاعراً عارفاً بالتاريخ والأخبار، وهو من المؤلفين في ذلك كله، وكان موجوداً بعد سنة ٥٥٠.

وأبو العباس الجراوى الملقى المتوفى سنة ٥٦١، وكان على بلاغته في الشعر والكتابة من كبار النحاة والأدباء بالأندلس، درس هذين الفنين كثيراً وأدب في آخر أيامه بنى عبد المؤمن بمراكش.

وأبو بكر بن قبال الأديب اللغوى الكاتب الشاعر النحوى الطيب توفى سنة ٥٧٣.

وأبو بكر الأشبيلي المعروف بالحدب أستاذ ابن خروف قريباً من سنة ٥٨٠، وكان من حذّاق النحويين وأئمة المتأخرين، يُرحل إليه في العربية، واشتهر بكتاب سبويه وطرره المدونة عليه. والحدب: الرجل الطويل.

ومحمد بن جعفر المرسى الأديب الكاتب النحوى الذى كان إليه المرجع في إيضاح مبهم الكتب وفتح أقفالها، توفى سنة ٥٨٧.

وداود بن يزيد الغرناطى المتوفى سنة ٥٧٣، كان يقرئ العربية واللغة والأدب، وهو على المرتبة فى ذلك رفيع الطبقة، قيل فيه إنه كان آخر النحاة بقرناطة.

وعبد الرحمن بن محمد المعروف بالمكناسى، المتفنن فى ضروب الآداب واللغات، الحافظ لأيام العرب وفرسانها، الكاتب البارع الشاعر البليغ، واشتهر بعمل المقامات خصوصاً اللزومية منها - وسيأتى ذكره فى بحث الصناعات اللفظية - توفى سنة ٥٩١.

وقاضى الجماعة أبو العباس الجياني القرطبي، كان من أصحاب الآراء فى العربية وخالف فيها جمهور أهلها، وكان رحلة فى الرواية وعقلاً فى الدراية، عارفاً بالأصول والكلام والطب والحساب والهندسة، شاعر بارع كاتب بليغ، وتوفى سنة ٥٩٢.

وأحمد القرطبي المشهور بالوزغى، المبرز فى العربية والأدب، شاعر راوية
مكثراً، وتوفى سنة ٦١٠.

وأبو الحسن بن خروف، إمام العربية فى زمنه، وهو أحد الذين ملئت كتب
العربية بأسمائهم، وتوفى سنة ٦٠٩، وهو على التحقيق خاتمة هذا العصر.
المائة السابعة :

كان فى أول هذه المائة، أبو بكر الأشبلى المعروف بابن طلحة، وهو شاعر
أديب إمام فى العربية والكلام، توفى سنة ٦١٨.

وأبو العباس الشريشى صاحب الشروح الثلاثة على مقامات الحريري، وقد
طبع منها الشرح الكبير، وهو أديب مبرز فى العربية ذاكر للأدب، كاتب بليغ
فاضل ثقة، توفى سنة ٦١٩.

وأبو العباس الأشبلى المعروف بابن الحاج، وكان متحققاً بالعربية حافظاً
للغات مقدماً فى العروض، وقد برع فى لسان العرب حتى لم يبق فيه من يفوقه
أو يدانيه، وهو الذى كان يقول: إذا مت يفعل ابن عصفور فى كتاب سيبويه ما
شاء! كأنه يرى نفسه خلفاً من سيبويه، وقد مات سنة ٦٤٧.

وأبو يحيى محمد بن رضوان الوادى آشى، وكان مضطرباً بالعربية والفقه،
والنسب، إماماً فى ذلك، مشاركاً فى علوم أخرى من الحساب والهيئة والهندسة
وغيرها، وتوفى سنة ٦٥٧.

وأبو على الأشبلى المعروف بالشكوبين - ويخطى النحاة المتأخرون كثيراً فى
ضبط هذا اللقب - إذ يلفظونه بضم اللام - وقد ضبطه السيوطى وقال: إن معناه
(بلغة الأندلس: الأبيض الأشقر) وإلى أبى على هذا انتهت إمامة العربية بالشرق
والغرب، فكان آخر آئمة هذا الشأن، وكان مع ذلك نقاداً للشعر بصيراً بمعانيه،
وقد أقرأ نحو ستين سنة، حتى لم يتأدب بالأندلس أحد فى وقته إلا وأسند إليه
مباشرة أو بواسطة، وتوفى سنة ٦٤٥ وكان مولده سنة ٥٦٢.

وأبو المطرف المخزومى البلسنى وهو خزانة من خزائن العلوم، كان إماماً فى

الفقه عالماً بالمعقولات والنحو واللغة والأدب والطب، متبحراً في التاريخ والأخبار، بصيراً بالحديث، رواية مكثراً حجة، ناظماً ناثراً، يعدّونه ثاني بديع الزمان في الكتابة، وتوفي سنة ٦٥٩.

وعبد الله بن أبي عامر الكاتب الشاعر الأديب النحوي اللغوي الفقيه المشارك في العلوم، وقد توفي سنة ٦٦٦.

وابن الدباغ الأشبيلي؛ وهو على انفراده في ذلك العصر يحفظ مذهب مالك؛ كان عالماً بالنحو واللغة كاتباً شاعراً مؤرخاً، توفي سنة ٦٦٨.

وأبو الحسن بن عصفور، وهو وإن كان لم يكن عنده ما يؤخذ عنه غير النحو إلا أنه كان فيه كوكب سمائه وحامل لوائه، ولا يزال اسمه خالداً في كتب هذا الفن، توفي سنة ٦٦٩.

وكان خاتمة أدباء هذا العصر حازم بن محمد القرطبي، شيخ البلاغة والأدب، وأرشد زمانه في النظم والنثر والنحو واللغة والعروض والبيان، لم يجمع أحد من علم اللسان ما جمع، ولا أحكم من معاقد البيان ما أحكم، وكانت له يد في العقلية؛ وذكروا أنه روى عن جماعة يقاربون ألفاً، بين أديب وعالم وحكيم، وقد حوى جملة التاريخ في هذه المائة، لأنه ولد سنة ٦٠٨ وتوفي سنة ٦٨٤.

نكت الأندلسيين :

وكان في هذه المائة الفقيه أبو الحجاج يوسف بن محمد البياسي المؤرخ الشاعر الأديب، ولم تقف على سنة وفاته. وقد عنى أتم العناية بفرع لطيف من العلم هو أدب التاريخ؛ فكان يحفظ نكت الأندلسيين قديماً وحديثاً إلى زمنه، ذاكراً لفكاهاتهم؛ وهم أكثر الناس دعابة وأملحهم نادرة، خرجوا في ذلك صنائع إقليمهم فكانهم أزهار طبيعتها الحساسة، تقابل أزهار الطبيعة الساكنة.

المائة الثامنة :

وهي بقية مجد الأندلس، لأن القرن التاسع كان حشجة ونزعاً، وهذه المائة شحيحة بالأئمة عقيمة بالأفراد، وقد أخذنا من فحولها ثلاثة غير من ذكرناهم من

قبل فى أدبائها، وهم:

محمد بن على بن هانىء اللخمى، كان أديباً إماماً فى العربية لا يشق غباره
فى استحضار الحجج، وهو صاحب كتاب «الغرة الطالعة فى شعراء المائة
السابعة»، وتوفى سنة ٧٣٣.

وأثير الدين أبو حيان الأندلسى الغرناطى نحوى عصره، ولغويّه ومفسّرّه
ومحدثه ومقرّنه ومؤرخه وأديبه، وكان الإمام المطلق فى النحو والتصريف، خدم
هذا الفن أكثر عمره حتى صار لا يدركه أحد فى أقطار الأرض، وتوفى سنة
٧٤٥.

ومحمد بن على المعروف بابن الفخار كان سيبويه عصره، وعده لسان الدين
فى الإحاطة آخر الطبقة من أهل هذا الفن، وقال فيه: إنه متبحر الحفظ يتفجّر
بالعربية تفجّر البحر، قد خالطت لحمه ودمه، لا يشكل عليه منها مشكل، ولا
يعوزه توجيه، ولا تشذ عنه حجة... وقلّ فى الأندلس من لم يأخذ عنه من
الطلبة، وتوفى سنة ٧٥٤.

كلمة فى تراجم هذا البحث :

وبعد؛ فإننا لم نورد هذه الأسماء لأنها أسماء فقط؛ إذ ليس كتابنا هذا من
سجلات الإحصاء، وإنما أوردناها على أنها معانى ذلك التاريخ، يظهر منها سير
الفنون والعلوم إلى كمالها، فإن قيمة العصر بمن يمتازون من أهله، وعلى حسب
كثرتهم وقلتهم يكون وزن اعتباره ومنزلته من المقارنة بينه وبين سائر العصور، وإنما
الدولة أمة، والأمة على مقدار الرءوس التى تعمل لها، وهذه الرءوس على مقدار
العقول التى تضبطها، وتلك العقول على مقدار الأرواح التى تتميز بالاستثمار
والزعامة فى أصول الحضارة وفروعها، وما هذه الأرواح الكبيرة إلا أرواح
النابعين.

من أجل ذلك أسقطنا من هذه الترجمة التى سقناها فى هذا البحث كثيرين
ممن لم يتحققوا بالفنون، واقتصرنا على الأئمة والأقطاب، وما منهم إلا من تكتب
فى ترجمته الأسطر الكثيرة على تحرّى الإيجاز ومعاناة الاختصار، هذا إذا لم

تبسط تلك الترجمة بسطاً يتناول حالة النشأة العلمية وكهولتها في كل مترجم، وذلك بدرس المذاهب والآراء، وإيراد الشواهد عليها من مواد العلوم المختلفة، وهو منزع بعيد الشقة يحتاج إلى مصابرة ومطاوله، ويخرج إلى أن يكون كتاباً برأسه.

ونحن إنما عُنينا بما جئنا به في هذا البحث خاصة، لأن أكثر العلماء والأدباء أهملوا الأندلسيين وخلطوا مشاهيرهم بغيرهم، غير مميزين بين عصر وعصر، ولا مفرقين بين طبقة وطبقة؛ واقتصروا مع ذلك على أفراد منهم لا تكافئ جملتهم حضارة تلك الأمة، ولا يستدل بها على شيء من ذلك المجد فأردنا أن نشير تلك الدفائن؛ ونفتح من كنوز التاريخ تلك الخزائن؛ وجملة من ذكرناهم تكشف أشعتهم عن ذلك النور الذي غطته ظلمات التاريخ من الجو العربى فألقت عليه سحابة من النسيان، وتركته قطعة مظلمة كأنه من مهملات الزمان.

مصرع العربىة فى الأندلس

من قواعد الاجتماع أن الأفراد يموتون ولكن الأمة تبقى، فكأنهم بموتهم يفسحون مكاناً للسمو الذى يكون مظهره تجدد الحوادث وتبدل العقول، ولكن ذلك شأن الأمة حين تكون أمة بالمعنى الاجتماعى أيضاً، فتكون بمنجاة من أسباب الانقراض، بعيدة عن عفونة التاريخ القديم وجرائمه التى تهب بها الفتن والنكبات؛ وما أصيبت أمة بها إلا اضطربت أحوالها الاجتماعية وعم أجزاءها الخلل والفساد، فلا تزال تتقلب حتى تصيب مصرع الحبيب^(١)، وتعرف العقوبة من قبل أن تعرف الذنب!

وكذلك كان شأن الأندلسيين: أخذتهم الفتن الأخيرة حتى كاد الفرد منهم يموت فيموت به جزء من الأمة، حتى صاروا فى آخره أمرهم نسلأ شاذاً وحثالة رديئة، فلفظتهم تلك الأرض كما يُلْفِظُ ألقىء، وذهبوا بعد ذلك كما يذهب كل شىء.

ونحن نريد الآن أن نبين كيف صرعت العربىة بعد أن صارعت طويلاً، فنأتى على تاريخها فى تلك البلاد فى الطفولة والكهولة، لأننا لم نذكر فى كل ما سبق إلا ظاهراً من حياتها، وبقي تشريح باطنها لتعرف الأسباب والعلل فى الحياة والموت:

دخلت العربىة الأندلس، وكانت هذه البلاد يومئذ زاهرة بآداب اللغة اللاتينية التى كان يقوم عليها رجال الدين، حتى كانت إشبيلية يومئذ مركزاً علمياً ثابت الدعائم بعناية أسقفها القديس إيزيدورس، فصدمتها العربىة صدمة فزع لها أولئك الأساقفة؛ فكانوا يعملون على تقوية ماذتها والاحتفاظ بها، فصارت بغيرتهم كأنها من الدين، حتى أصبحت البيع والأديار مدارس تلك الآداب، ولا سيما طليطلة وقرطبة وإشبيلية؛ فكانت تدرس فيها الآداب اللاتينية مع علم اللاهوت.

(١) قلت: الحبيب (بكسر أو ضم الحاء) ومفرداً (الحبة) أى: بطن الوادى.

غير أن ذلك كله إنما كان عمل أفراد لا عمل أمة؛ وقد غفل أولئك المنتطعون عن هذه الحقيقة، وتناسوا ما كانت تغلى به قلوب الشعب الأسباني من النعمة على حكومته والخروج عليها؛ وقد كان اليهود يومئذ - وهم خزائن الذهب وأقطاب التجارة - فى أشد الظمأ إلى بريق سيوف العرب، حيث كان الملك ورجال الدين الكاثوليكى يسومونهم سوء العذاب ويبلونهم بالعنت الشديد؛ إذ خشوا امتداد سلطانهم وشوكة أموالهم، خصوصاً بعد أن دبر الإسرائيليون مكيدة ظاهرهم عليها قبائل البربر واليهود من أهل إفريقية، فكادوا بها يضبطون زمام المملكة الأسبانية، وذلك قبل فتح طارق بسبع عشرة سنة (٦٩٤ للميلاد). غير أن أمرهم انكشف وانكشفت معه رقابهم للسيوف، حتى كادوا ينقرضون، لو لم يستخلصوا أرواح بقيتهم بسيوف العرب؛ ولذلك مالأوهم واطمأنوا إليهم ونصبوا أنفسهم لحماية المدن التى يفتحها الغزاة؛ وكذلك شأن العبيد فى النعمة على الأسبانين، حتى إن قرطبة سلمها للعرب راهب منهم، وقد غمسوا أيديهم فى دماء وفتن كثيرة، فكان كل ذلك مما حملهم على تلقف العربية وبثها فى سواد الأمة وتهيتهم للاستعراب.

ولما رأى المسيحيون الأحرار أناة العرب وتسامح الإسلام، وأن أعناقهم لا تحملها الأكتاف إلا بفضل هؤلاء القوم، دخل أكثرهم فيما دخل فيه العبيد واليهود استسلاماً وإسلاماً، وحببت إليهم الأخلاق العربية حتى صار أشرفهم ممن أمسكوا عليهم دينهم يحجبون النساء ويقلدون المسلمين فى الزى وكثير من العادات؛ ثم اندفعوا فى ذلك بعد أن صارت الدولة للعرب، فلم تمض على الفتح ثلاثون سنة حتى أصبح الناس يخطون الكتب اللاتينية بأحرف عربية، كما كان يفعل اليهود بكتبهم العبرية، وما انقضى عمر رجل واحد حتى ألجأتهم الحاجة إلى ترجمة التوراة وقوانين الكنيسة إلى العربية، ليتمكن رجال الدين أنفسهم من فهمها.

وبعد أن ظهرت أبهة الملك فى زمن الأمويين وسما فرع الحضارة العربية فى تلك البلاد؛ تحول أهلها فيما تحول من طبيعتها، حتى كانت الغيرة يومئذ على الآداب اللاتينية أسخف ما يرمى به أهل السخف؛ وقد نقل روزى فى كتابه تاريخ المسلمين فى أسبانيا أن بعض رؤساء الدين المسيحى كان يضطرم سخطاً على أدباء

المسيحيين أنفسهم لأنهم بالغوا فى تعصبهم للعربية حتى تناولوا الشعر والأدب والفلسفة تقويماً لآلستهم وتهذيباً لملكاتهم بدلاً من أن يتذرعوا بذلك إلى تسفيه الأدب العربى ونقض المدنية الإسلامية، قال: «وكيف السبيل إلى إيجاد رجل من العامة يقرأ التفاسير اللاتينية على الكتب المقدسة، ومما يؤسف له أن نشره المسيحيين الذين نبغت قرائحهم لا يعرفون غير العربية وآدابها فهم يتداولون الكتب العربية ويجمعونها بالأثمان الغالية يؤلفون بها الخزائن الممتعة، وإذا حدثتهم بكتب دينهم وآداب لغتهم أعرضوا عنك ازوراراً وأنغضوا رؤوسهم استهزاء؛ وهى أشد وأعظم من أن ينسى المسيحيون لغتهم وهى بقية الجنسية حتى لا تجد فى الألف منهم واحداً يحسن أن يكتب كتاباً إلى صديق له بأسط عبارات اللغة اللاتينية؟».

وما جاء القرن الخامس حتى كان المجاورون للعرب من أهالى فرنسا وشمال أسبانيا يَنْكَبُونَ عن تناول الشعر اللاتينى ويكْبُونَ على التأديب بالشعر الغربى، حتى صار فقراؤهم بعد ذلك وأهل الكدية منهم يمدحون بالقصائد والموشحات العربية على الأبواب ويستعطون بها الطرق، فاعتبر كيف يكون وسط الأندلس إذا كانت هذه حال أقاصيها الأعجمية؟ ومنذ سقطت طليطلة سنة ٤٧٨ وكانت فى يد يحيى بن ذى النون ودخلها ألفونس السادس الذى كانوا يلقبونه بملك الدينين، أراد أن يستبقى ذماء الحياة العربية فى روح مملكته، وساعدته الفتن والنكبات فقذفت إليه من مضطهدى الفلاسفة وغيرهم، وبهم نبغ رجاله، كالسيد كامبدور الذى كان يجيد المنطق العربى كأنه عريق فيه؛ وكان يومئذ فى طليطلة مدرسة عربية كان من أساتذتها محمد بن عيسى المقامى وأحمد بن عبد الرحمن الأنصارى وغيرهما، وبهذه المدرسة تماسكت العربية حتى أنشأ ريمون رئيس الأساقفة مدرسة الترجمة بطليطلة، وبها رجعت العربية إلى الحياة.

اليهود بالأندلس وترجمة كتب الفلسفة :

ليهود الأندلس شأن مهم فى تاريخ الفلسفة لأنهم حفظوها لأوروبا - كما ستعرف - وقد كان منهم فى القرن السادس موسى بن ميمون الإسرائيلى الحكيم، وهو رجل يتحقق بالفلسفة والرياضيات والهيئة والطب، ويسميه اليهود، موسى الثانى، لأنه من كبار أجيالهم؛ وقد نزع عن الأندلس بأهله فراراً من الاضطهاد

بعد أن أظهر فيها الإسلام زماً، والتجأ إلى مصر، فاشتمل عليه القاضي الفاضل المتوفى سنة ٥٩٠ ونظر إليه وقرر له رزقاً؛ فتناول هذا الحكيم فلسفة ابن رشد وقابلها بلغة أرسطو اليونانية، ثم استخلص من مزيجهما فلسفة صنع بها الشريعة لقومه، ولذلك أنكرها عليه مقدمو اليهود، وأشار المقرئ إلى ذلك بأنه يعلم قومه الكفر والتعطيل.

ولا محل هنا لبسط هذه الآراء، ولكننا نقول إن هذا الرجل هو أول من أذاع فلسفة ابن رشد بين اليهود بما بثه منها في كتبه. وأخذ عنه في قراءته، ولما بالغوا في اضطهاد اليهود التجأ أكثرهم إلى طليطلة وما وراءها، ومنهم تلامذة الفلاسفة، ومن بقي منهم كان يظهر الإسلام ويصلى في المساجد ويقرئ أولاده القرآن، وما كان ذلك كله لينفعهم، فأمر أبو يوسف المتوفى سنة ٥٩٥ من ملوك الموحدون أن يتميزوا بلباس يختصون به. فظهروا فيه بأشنع صورة إذ كانوا يتخذون بدلاً من العمائم كلوتات كأنها البراديع تبلغ إلى تحت آذانهم^(١)، وذلك لأن أبا يوسف كان يشك في إسلامهم، ولو صح عنده لتركهم. ثم تناسى أكثرهم العربية فشعروا بالحاجة إلى نقل كتب الفلسفة إلى لغتهم العبرانية، وقد أخذوا في ذلك، وأول من شرع منهم فيه أسرة تدعى أسرة طييون، كان أصلها من الأندلس ثم هاجرت إلى لوند في فرنسا، فترجم اثنان من رجالها وهما موسى بن طييون وصموئيل بن طييون بعض تلاخيص ابن رشد من فلسفة أرسطو، وهما أول من نقل فلسفة حكيم قرطبة إلى غير العربية.

ووافق ذلك عهد الامبراطور فردريك الثاني عاهل ألمانيا؛ وكان يعرف العربية، تلقاها من بعض أهلها في صقلية، والعرب يومئذ منتشرون فيها وفي نابولي.

وقد احتذى فردريك هذا مثال الامبراطور شارلمان الذي كان معاصراً لهارون الرشيد في بث المعارف وإنشاء المدارس ومحبة العلم وحماية أهله فكانت حضرته غامضة بالترجمين والعلماء الوافدين حتى من بغداد. وهو الذي عهد إلى اليهود في ترجمة الفلسفة العربية إلى العبرانية واللاتينية، وقد ألف له يهوذا بن سليمان الطليطلى في سنة ١٢٤٧م كتاب طلب الحكمة واعتمد فيه على فلسفة ابن رشد،

(١) المسجب : ص : ٢٠٣ .

وأخرج له يعقوب بن أبى مريم حوالى سنة ١٢٣٢م عدة كتب من تأليف حكيم قرطبة، وتقدم إلى ميخائيل سكوت بترجمة فلسفة أرسطو عن العرب، فنقلها عن ابن رشد، ولذلك اعتبروه أول من أدخل فلسفته إلى أوروبا، وكذلك فعل هرمان الألماني فى عهد هذا الامبراطور، إلا أنه على ما يقال، اعتمد فى ترجمة كتبه على بعض عرب الأندلس ممن يعرفون مصطلحات تلك الفنون.

ثم أخذ اليهود فى إخراج هذه الكتب وغيرها إلى العبرانية واللاتينية، كما فعل كالوتيم فى أوائل القرن الرابع عشر للميلاد، فقد ترجم كتباً لابن رشد إلى العبرانية، وترجم كتابه تهافت التهافت إلى اللاتينية سنة ١٣٢٨م، وفى هذا القرن ظهر الفيلسوف اليهودى لاوى بن جرسون المعروف عند الإفرنج بلاون الإفريقى، وقد صنع بفلسفة ابن رشد ما صنعه ابن رشد بفلسفة أرسطو، فأخرجها شرحاً وتلخيصاً ثم كان آخر فلاسنتهم فى القرن الخامس عشر إلیاس دل مديجو الذى كان أستاذاً فى كلية بادو - التى أومأنا إليها فى بعض ما سلف - وضعفت بعد ذلك فلسفة اليهود المستخرجة من فلسفة ابن رشد العربية، إذ قام أعداؤها فى أوائل القرن السادس عشر يزيفونها، ومن أجل ذلك نشر موسى المتسينو كتاب تهافت الفلاسفة للغزالي سنة ١٥٣٨م.

ترجمة الفلسفة العربية فى أوروبا :

كان مبدأ ذلك فى طليطلة فى القرن الثانى عشر للميلاد، حين أنشأ دريموند رئيس الأساقفة مدرسة للترجمة، وهى المدرسة الأولى من نوعها، وذلك من سنة ١١٣٠ إلى ١١٥٠م، وقد جعل رئيس الترجمة فيها الأرشيدوق باكر دومينيك لتحقيق الألفاظ اللاتينية المترجم بها.

وكان أشهر ترجمة اليهود فى هذه المدرسة يوحنا الاشيللى، فأخرجوا إلى اللاتينية كتباً كثيرة من مؤلفات ابن سينا، ثم نقلوا بعض كتب لأبى نصر الفارابى والكندى؛ وقبل هذه المدرسة كان بعض الأفراد قد نقلوا كتباً من الرياضيات والطب والفلك، مثل قسطنطين الإفريقى وجربرت وأفلاطون دى تريفولى وغيرهم.

وفى القرن الثالث عشر للميلاد كان اليهود فى الأندلس أقدر التراجمة وذلك فى عهد ألفونس العاشر ١٢٥٢م - ١٢٨٤م خليفة القديس فرديناند الثالث، إذ كان هذا الألفونس من أوفر الملوك عقلاً، فأراد أن يصنع بأسبانيا مثل ما صنعه العرب، فأسس بأشبيلية مدرسة عربية لاتينية، وترك مدينة مرسية على ما كانت عليه من الرونق العربى، واستدعى إلى عاصمته العلماء والأدباء من العرب واليهود وغيرهم، وأسس بهم مدرسة طليطلة الثانية التى كانت تجمع إلى التقاليد اللاتينية فنون الحضارة العربية والعلم العبرانى؛ وظل اليهود يترجمون كتب الفلسفة والتاريخ والفلك العربية بما عليها من الشروح، وكان زان بن زاكب، ويهوذا هاكون والريان زاك، هم الذين نقلوا لألفونس جمهرة تلك الكتب العربية.

وقد نشأ من علماء المسلمين من يعلم بتلك الألسن المختلفة؛ كمحمد بن أحمد القرموطى المرسى وكان من أعرف أهل الأندلس بالعلوم القديمة: المنطق والهندسة والعدد والموسيقى والطب وغيرها، آية الله فى المعرفة بالأندلس، يقرئ الأمم بالسنتهم فنونهم التى يرغبون فيها وفى تعلّمها، وقد بنى له ألفونس فى مرسية مدرسة يقرئ فيها المسلمين والنصارى واليهود.^(١) ولم نذكره فى الفلاسفة لأن هذا الموضع أليق به.

وقد نشأ من اليهود بالأندلس شعراء وأدباء، من أشهرهم نسيم الإسرائيلى، وابن سرى، وابن الفخارى اليهودى^(٢)، وإلياس بن المدور الطيب الرندى^(٣)، وإسماعيل اليهودى وابنته قسمونة^(٤) وغيرهم، وكانوا يكتبون، ولكن لم ينبغ منهم أحد فى الكتابة على ما نعلم، إلا أن يكون ممن ذكرناهم، وما كانت براعتهم فى الترجمة إلا من معرفتهم للسانين اللاتينى والعبرانى، وهو أمر انصرف عنه المسلمون حتى لم نكد نقف على اسم واحد منهم غير القرموطى.

(٢) نفح الطيب: ٣٠٤/٢.

(١) نفح الطيب: ٤٠٩/٢.

(٣، ٤) نفح الطيب: ٣٠٥/٢.

تَنْصُرُ الْعَرَبِيَّةَ

ليس يتم الغلب على أمة من الأمم بتسخير أفرادها واسترقاقهم، ولا بقلب حكومتها من جنس إلى جنس؛ فإن الأشخاص لا يتغيرون وهم هم بما فيهم من الطباع والأخلاق الوراثية، ولكن الغلب إنما يكون باندماج المغلوب في جنسية الغالب أو مذهبه استدراجاً لجنسيته، ومن أجل ذلك تجهد الأمم الفاتحة والمستعمرة في نشر لغتها وآدابها، فإن لم يكن لها من ذلك ما يوازن آداب المغلوبين عملت على تحويل قلوبهم بالدين، وذلك ما فعله الأسبانيون في أواخر القرن السابع، حيث عملوا على تنصير المسلمين، ولكن بقيتهم يومئذ كانت إلى التماسك والشدة، لأن الإسلام والملك لم يزل في جانب من الأندلس وعلى أبوابها، فعمدوا إلى أخذهم بالإقناع والمجادلة، ووكّلوا هذا الأمر إلى رهبانهم، فأكب هؤلاء على العربية، ووضع رامون مارتى أحد الرهبان الدومانيكيين أول معجم عربى باللغة الأسبانية سنة ١٢٣٠م، وفى أواخر القرن الثامن كان فى سلامنكة مدرسة تضم خمساً وعشرين حلقة للدروس، منها واحدة لليونانية، وأخرى للعبرانية، وثالثة للعربية؛ أقاموها لتلك الغاية؛ ولم ينجل المسلمون على أرض أسبانيا فى القرن الحادى عشر حتى كان فى هذه المدرسة سبعون حلقة للدرس، وطارت شهرتها فى أوربا، وكانت شهرة عربية، لأنها بفضل علوم العرب استطاعت أن تقرر العلوم الطبيعية والطبية على القاعدة العملية التى كان العرب أول من جرى عليها، وبينما كانت تلك العلوم فى أوربا لذلك العهد مبنية على التجارب البسيطة مستندة إلى أنواع من الشعوذة والحيل المضحكة. ثم تتابع إنشاء المدارس فى القرن الثامن لتعليم الرهبان من الدومينيكيين والفرنسيسكيين فى جهات من أسبانيا للغاية عينها، ولكن هذه اللغة العربية التى تشبه السحر أخذت أولئك الرهبان بآدابها حتى كانوا هم أنفسهم سبب حياتها والقائمين بالدعوة إليها إلى القرن الثانى عشر للهجرة.

وفى أوائل القرن العاشر (سنة ٩٠٤) بعد أن سقط ما بقى من الملك الإسلامى فى الأندلس ووهنت تلك الجامعة بين المسلمين، أخذ الأسبانيون

يحملونهم على التنصر كرهاً، فمن خافهم عمّده ومن خالفهم طردوه، ثم تكفل ديوان التفتيش بالمراقبة على عقائد المنتصرين وتطهير مسيحياتهم الحديثة... وبذلك بطلت حاجة الرهبان إلى البرهان فسقطت الغاية الأولى الباعثة على تعلّم العربية وبقيت العربية بلا غاية عند بعضهم إلا نفسها، وبذلك انصرف عنها الطلبة، حتى إن الكردينال إكسيملس عندما أسس كلية (الكالادى هنار سنة ١٤٩٩) استنكف أن يضيف إلى دروسها حلقة لتعليم العربية، مع أنه احتذى في تأسيسها مثال مدرسة سالامنكة، وجعل فيها حلقتين للعبرية واليونانية، وبعد ذلك كان الأستاذ الأعظم فى سالامنكة فى القرن السادس عشر للميلاد، وهو فرى لويس دى ليون شاعراً لاهوتياً وفيلسوفاً يحسن اللغة العبرانية كل الإحسان ولكنه يجهل العربية كل الجهل.

ديوان التفتيش :

أنشئ هذا الديوان سنة ١٤٨١م بطلب الراهب توركماندا، للتفتيش بين الناس عن أهل العلم والفلسفة، فإن لم يعثر على أحد منهم فالتفتيش بين الظنون والأوهام، لأنهم اتقوا صولة العلوم العربية على المذهب الكاثوليكي.

وقد اتخذوا فيه من أنواع التعذيب والاتهام المريب ما ترك فى الكتب من بعدهم صفحة من تاريخ جهنم... وليس من حق كتابنا تفصيل ولا إجمال لتلك الفظائع والمنكرات التى اقترفها رجال محكمة التفتيش وملوك الكتلثة لذلك العهد، مثل شارلكان وفيليب الثانى وفيليب الثالث، ونالوا بها المسلمين واليهود والمستأمنين؛ فذلك مما خلد لهم الخزى فى تاريخ قومهم أنفسهم؛ ولكننا نجتزئ بذكر ما نال العربية من أولئك المتنطعين، فإنهم بعد أن طردوا اليهود من الموت إلى الجوع والفقر سنة ١٤٩٢ وأباحوا أموالهم، وطرّدوا المسلمين من الموت إلى الموت سنة ١٥٠٢؛ إذ حرم عليهم أن يأخذوا فى طريق تقضى إلى بلد إسلامى - قرر مجمع لاتران فى هذه السنة (١٥٠٢) أن يعلن كل من ينظر فى فلسفة ابن رشد - وهم يريدون بهذه التسمية كل ما لديهم من علوم الفلسفة العربية - وطفى الدومينكان يتخذون من ابن رشد ولعنه ولعن من ينظر فى كلامه صفة من صفات الزلفى والعبادة؛ وبعد ذلك أحرق الكردينال إكسيملس فى غرناطة ثمانية آلاف

كتاب خطى، ثم صدر أمره سنة ١٥١١ أن تباد كتب العرب من عامة البلاد الأسبانية، فتم ذلك فى زهاء نصف قرن، وكأنما كانت حرارة تلك القلوب هى التى تحرق الكتب... ولولا المنقولات منها إلى العبرية واللاتينية لما بقى من أثر العلوم العربية مشيد ولا طلل.

وبقيت بعد ذلك كتب عربية فى خزانة دير الأسكوريال فأراد ديوان التفتيش أن يزيد بها شعلة من شعل نغمته، لولا أن تلتطف الماركيز فيلادا فحال دون إحراقها، ولا يزال أكثرها باقياً الى اليوم.

وكان المتنصرون من المغاربة فى ذلك العهد يكتبون العربية بأحرف أسبانية، وهم أذلاء محتقرون من أنفسهم ومن المسيحيين، فحظر عليهم فيليب الثانى سنة ١٥٥٦ استعمال العربية، وأرادهم على أن يتزعوا من أسمائهم التراكيب العربية وأن يقلدوا المسيحيين فى زيهم حتى لا يعلم بهم إلا أنفسهم؛ ولبثوا يسومون المغاربة عذاب الهون حتى طُرِدَت آخر فئة منهم سنة ١٠١٧هـ وقد فصل ذلك المقرئ فى نفح الطيب (١).

آخرة العربية :

وبعد ذلك زهاء قرن من الزمن صار فيه تعلم العربية مظنة الإلحاد ولم تُبق مدرسة فريلك لطغمة الفرنسييسكان فى أشبيلية من أساليب تعلمها إلا أثراً ضئيلاً وكثُر أن يكون قليلاً؛ فكان حسيب الطالب منها أن يُحسن لفظ بعض الأسماء العربية حتى يخرج بذلك إلى أفريقية داعية للنصرانية، وإن كان قد بقى من الأسبانين من يشتغل من ذلك بشيء فهو يضيفه إلى الأعمال التى بينه وبين الله ولا يأخذ فى ذلك إلا سراً.

جاء عصر شارل الثالث (١٧٥٩ - ١٧٨٨) ويلقبونه ملك الفلاسفة؛ فأراد أن يصل آخرة العربية بأولها ويعيد زمناً رآه مريضاً لم يمت، فاستدعى لذلك رهباناً موارد من سورية وبسط لهم يده فى البذل والعطاء، وتقدم إليهم فى تعليم الأسبانين لغتهم الدارسة، ولكن ما عسى أن تكون تسع وعشرون سنة فى تغيير

(١) نفح الطيب : ٦١٧/٢ .

الأفكار وتبديل الألسنة؟ ولذلك لم يكد شارل يمضى لسييله حتى انقطع ذلك العمل، غير أنه بثّ حياةً وخصباً في تلك الأرض الميتة فلم يمض عمرٌ كهل حتى كان في أسبانيا من يجيدون العربية، أمثال القصير وكامبومان والأب بلانكرى وغيرهم من الأساتذة المعدودين، ثم انقطع حبل العربية إلى أن اتصل بالمدارس القديمة منتكثاً على عهد إيزابيلا الثانية، فكان على ضعفه ذلك حتى سنة ١٨٤٥، إذ شرعوا في إصلاح التعليم على يد المسيو جيل دى زارات، وبإخلاص هذا الرجل عادت العربية تدرس في الكليات درساً مقررًا.

ثم تسلمت الحكومة الأسبانية سنة ١٨٥٧ زمام التعليم وتولت إصلاحه فزهت العربية وكثر طلبتها والمقبلون عليها، خصوصاً بعد أن فقدت أسبانيا مستعمراتها في أمريكا وآسيا وعلقت آمالها بمراكش في عصرنا هذا، فنبغ فيها المستشرقون واحتفظوا بما خلفه التاريخ من كتب العرب، ولا يزال ذلك في مكتبة الإسكوريال، ومكتبة الأمة، ومكتبة المجمع العلمى التاريخى، غير المكاتب الخاصة التى جمعها أهل العلم منهم، وقد برز من متأخريهم أفراد مشهورون في فرع اللغة العربية، وامتاز بعضهم بالبراعة في قراءة الخطوط وتأريخها، ونبغوا كذلك في درس الحضارة الإسلامية والنظر في أصول الآداب العربية، واعتنت فئة منهم بدرس اللغات العامية التى تفرعت من العربية الفصحى، وهم بعد في حدّ التزايد إلى يومنا هذا، وقد صار كثير من البلاد الأسبانية كمجريط (العاصمة) وغرناطة وبرشلونة وبلنسية وغيرها زاهياً فيهم بهذه الآداب، مذكراً لهم بالمجد العربى القديم. وإنما يتذكر أولو الألباب !

البابُ العاشرُ
التأليفُ وتاريخه عند
العرب
ونوادِر الكُتبِ العربيَّةِ

انظر المقدمة ص ٨ عن العلامة *
ص ١٨ انظر نظم امر فضيلته
ص ١٩٢٢ وضمها مع الباب الخامس

كُتُبُ الشَّعْر

من هذه الكتب ما يخصون فيه الكلام بالشعر نفسه؛ فيبينون عن وجه المعنى ويكشفون عن طريقة الصنعة؛ ككتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر الكاتب المتوفى سنة ٣٣٧، وكتاب العمدة لابن رشيق القيرواني، المتوفى سنة ٤٦٣، وهو أحسن ما وضع في صناعة الشعر ونقده وعيوبه؛ وقد ذكر صاحب نفح الطيب أن للأعلم الشتمري المتوفى سنة ٥٤٩ كتاباً في مختصر العمدة والتنبيه على أغلاطه^(١).

ومن هذا القبيل كتب البلاغة: كالصناعتين للعسكري وما كان قبله وما وضع من بعده - كما سنذكره عند الكلام على البديع - ومن كتب الشعر ما هو مخصوص بالطبقات والتراجم، ومنها كتب المختارات والدواوين.

الطبقات والتراجم.

وهذه هي الكتب التي يخبرون فيها عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم في أشعارهم وقبائلهم وأسماء آبائهم ومن كان يعرف باللقب أو الكنية منهم، ويذكرون فيها ما يستحسن من أخبار الشاعر وما يستجد من شعره، ومن أخذ عليه من الغلط والخطأ في ألفاظه وما سبق إليه المتقدمون فأخذوه عنهم المتأخرون.

وعلى أن هذه هي أركان النقد فهم لا يفيضون فيها ولا يسطرون الكلام عنها، وقليل ما يؤمنون إلى المهم منها وخصوصاً المتأخرين، لأنهم لا يريدون إلا جهة التاريخ فلا ينظرون إلى الموازنة والترجيح، لأن هذا تاريخ عملي لا يكون إلا بين النظراء من طبقة واحدة في العصر، أو استقراء الإجابة الغالبة على شعرهم، وهم إنما يريدون مجموع العصور المختلفة، وكل ما جاء من أقوالهم وكتبهم في الموازنة والتنظير لم يعد أفراداً معدودين، هم جرير والفرزدق ویشار ومروان بن أبي حفصة ومسلم بن الوليد وأبو نواس وأبو تمام والبحري ثم المتنبي.

ومما ننبه عليه أن الرواة لم يكونوا يتكلمون في الشعراء إلا بعد موتهم، اتقاء لمعة اللسان والوقوع فيه؛ وقد جهدوا بأبي عبيدة أن يفضل بين مسلم والناسي

(١) نفح الطيب: ٤٣٥/١.

فكان يقول: أنا لا أحكم بين الأحياء. وهذا الأخفش قد طعن على بشار في كلمة لم يسمع وزنها عن العرب، فهجاه بشار حتى استوهبوا منه عرضه، فكان الأخفش بعد ذلك يحتج بشعره في كتبه ليلغّه^(١)، وكذلك فعل بسبيوه حتى تَوَقَّاه واستكفَّ شره.

ولم يدون من ذلك شيء مقصود بالتأليف إلا كتاب الموازنة بين الطائيين للآمدى المتوفى سنة ٦٠٨، وما كُتِبَ عن المتنبي كالرسالة الحاقمية للحاقمي، وذكر مقدمتها ابن خلكان في تاريخه؛ ورسالة الصاحب بن عباد في إظهار مساوئ المتنبي، وقد عمل بعدها القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه في شعره، قال الثعالبي: إنه استولى بها على الأمد في فصل الخطاب^(٢) وسنستوفي ذلك في ترجمة المتنبي.

أما كتب الطبقات فأشهرها طبقات أبي عبيدة الراوية المتوفى سنة ٢٠٩، ومحمد بن سلام الجمحي المتوفى سنة ٢٣١، ومحمد بن حبيب النحوي المتوفى سنة ٢٤٥، وطبقات ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٩٦ (أو ٢٧٦) وهي المعتمد عليها في هذا الباب، قصد فيها إلى المشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جلُّ أهل الأدب والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب والنحو، وعدَّ من هؤلاء ١٨٠ شاعراً، وقد جرى في ناحيته السيوطي المتوفى سنة ٩١١، فوضع كتاباً جمع فيه الذين يحتج بكلامهم من شعراء العرب.

وأما كتب الأخبار فكتاب الباهر لابن المنجم نديم المكتفى بالله المتوفى سنة ٣٠٠، وهو في أخبار شعراء مخضرمي الدولتين، ابتداءً فيه ببشار بن برد؛ وآخر من أثبت فيه مروان بن أبي حفصة؛ ولم يتمه، وتممه ولده أبو الحسن أحمد بن يحيى، وعزم على أن يضيف إلى كتاب أبيه سائر الشعراء المحدثين، فذكر منهم أبا دلامة ووالبة بن الحباب ويحيى بن زياد ومطيع بن إياس وأبا علي البصير^(٣). وكتاب الأغاني الشهير لأبي الفرج الأصبهاني المتوفى سنة ٣٥٦، وهو نادرة الكتب جمع فيه أخبار ٣٩٥ شاعراً بين جاهلي ومخضرم وإسلامي ومحدث؛ وهو منقول

(١) الأغاني: ٥٤/٣. (٢) يتيمة الدهر: ٢٣٩/٢. (٣) فوات الوفيات: ٣١١/٢.

عن كتب كثيرة وُضعت قبله .

وأما كتب التراجم التى تجمع من التاريخ والخبر وبعض المختارات، فهى مازالت تتصل مع الزمان، لم تنقطع إلا فى القرن الثالث عشر، وأول ما وضع منها كتاب البارع فى أخبار الشعراء المولدين، لهرون بن على المنجم البغدادى المتوفى سنة ٢٨٨ جمع فيه ١٦١ شاعراً، وافتتحه بذكر بشار بن برد وختمه بمحمد بن عبد الملك بن صالح، وسنشير إليه فى كتب المختارات؛ وهذا الكتاب هو الأصل الذى احتذاه من جاء بعده، فذيل عليه أبو منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ بكتابه يتيمة الدهر الشهير، وترجم فيه شعراء عصره من بلاد كثيرة وأورد من محاسنهم؛ ثم ذيل على اليتيمة أبو الحسن الباخزرى المتوفى سنة ٤٦٧ بكتابه دمية القصر وعصرة أهل العصر. ووضع عليه أبو الحسن بن زيد البهى كتابه وشاح الدمية، ثم ذيل عليه أيضاً الوراق الخضيرى المتوفى سنة ٥٦٨ بكتابه رينة الدهر فى لطائف شعراء العصر، قال ابن خلكان جمع فيه كثيراً من أهل عصره ومن تقدمهم، وأورد لكل واحد طرفاً من أحواله وشيئاً من شعره (ص ٤٥٢) ووضع معه أيضاً عماد الدين الكاتب الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ كتاب خريدة القصر وجريدة العصر؛ وترجم فيه الشعراء من سنة ٥٠٠ إلى سنة ٥٧٢؛ ثم صنع بعده كتاب السيل على الذيل، جعله ذيلاً للخريدة. ثم جاء ياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦؛ فوضع كتابه معجم الشعراء، وله أيضاً كتاب آخر هو إرشاد الألباء فى معرفة الأدباء، وهو المعروف بمعجم الأدباء، وقد طبعت منه بعض أجزاء، ثم وضع ابن خلكان كتابه وفيات الأعيان الشهير، وعد فيه طائفة من الشعراء فى كل عصر، وذيل عليه أقوام، حتى وضع الكتبى فوات الوفيات؛ ثم وضع صلاح الدين الصفدى كتابه الوافى بالوفيات، انتهى فيه إلى آخر سنة ٧٦٠ وذكره صاحب كشف الظنون وقال إنه جمع فيه أعيان كل فن. ولا نعرف للمائة التاسعة كتباً مفردة إلى أن وُضع كتاب سلافة العصر؛ ووضع الخفاجى كتابه ريحانة الألباء؛ ووضع المحبى نفحة الريحانة وخلاصة الأثر، وكلها تترجم أدباء القرنين العاشر والحادى عشر؛ ثم وضع المرادى سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر، وهو ذيل على الخلاصة. وقد وضعت كتب أخرى مقصورة على بعض الأمصار،

ككتاب النموذج لابن رشيق جمع فيه شعراء القيروان والكتب التي صنفها الأندلسيون وهي أبلغ ما كتب من نوعها، وسنذكرها في بحث الأدب الأندلسي إن شاء الله، لأنها مقصورة عليهم لم تتناول غيرهم؛ وكذلك صنفوا كتباً على الأسماء ككتاب من نسب إلى أمه من الشعراء لأبي هاشم السجستاني؛ وكتاب الموشح في أسماء الشعراء لغلام ثعلب المتوفى سنة ٣٤٥ وكتاب المختلف والمؤتلف في أسماء الشعراء لحسن بن بشر الأمدى المتوفى سنة ٧٣١.

ومما يذكر في هذا الموضع ما يستوفيه المؤرخون في الكتب الخاصة ببعض البلاد، إذ يستوعبون شعراء البلد الذي يؤرخونه بما لا يوجد في غير تلك الكتب، ككتاب بغداد لابن أبي طاهر، وقد وجد منه جزء واحد، وهو غير تاريخ بغداد للخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣، وكتاب أصبهان لأبي عبد الله حمزة بن الحسين الأصبهاني فقد ذكر فيه شعراء أصبهان والكرخ وساق عيون أشعارهم وملح أخبارهم^(١).

وغير ذلك مما يكون في المعجمات المطولة، وهي كثيرة، أعجب ما وقفنا عليه من أسمائها كتاب مجمع الآداب في معجم الأسماء والألقاب لابن القوطي البغدادي المتوفى سنة ٧٢٣ ذكروا أنه في خمسين مجلداً^(٢).

كتب المختارات :

وهي الكتب التي وضعت لانتقاء عيون الشعر أولاً، ثم دخلتها صناعة التبويب بعد ذلك، وقد أطنبوا في صعوبة الاختيار المرضي الذي يؤتى الأذواق على رغائبها، ويتابع النفوس بمطالبها، حتى قالوا: دل على عاقل اختياره، واختيار الرجل من وفور عقله. وقالوا: شعر الرجل قطعة من كلامه، وظنه قطعة من علمه، واختياره قطعة من عقله؛ وحتى أنكروا فيه معارضة المختارات المجمع عليها والأخذ في سبيلها، كما أنكر محمد بن سعيد الكاتب في القرن الرابع على محمد بن علي العجلي تأليفه كتاباً في الحماسة وأعظم ذلك حتى رد عليه أبو الحسين بن فارس علامة همذان وأستاذ بديع الزمان برسالة أورد الثعالبي منها

(١) يتيمة الدهر : ١٢٥/٣ . (٢) كشف الظنون : ٣٨١/٢ .

فصلاً^(١).

ليس ذلك على أن الاختيار فى نفسه محظور على أكثر الناس، ولا هو صناعة من الصناعات القائمة بنفسها فىكون للعقل فيه عمل يلزمه التبعة ويأخذه بالعهد، ولكن الشعر من عمل القرائح، وهى متفاوتة، فالاختيار منه لا يحسن إلا من ذى قريحة تشعر، ثم يكون له من البصر بالتقد ما يكشف له مواضع هذا التفاوت، حتى تكون قريحته التى تختار كأنها مجموع القرائح التى نظمت؛ وليس من شاعر سمى به طبيعته إلا وهو يتوهم فى نفسه أنواعاً من القول قد لا يسمح بها الطبع إلا الفئنة بعد الفئنة^(٢)، فهو إذا أصاب صفتها فى أقوال الشعراء استدلل عليها بطبعه وأمضى فيها اختياره ومن هاهنا كان الاختيار على التحقيق من وفور العقل.

وأول اختيار مدون عند العرب القصائد المعروفة «بالمعلقات» اختارها حماد الراوية المتوفى سنة ١٥٥، ثم جمهرة أشعار العرب لأبى زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى المتوفى سنة ١٧٠.

ثم المفضليات للمفضل وهى مشهورة، قال أبو على القالى فى أماليه إن المفضل أخرج منها ثمانين قصيدة للمهدى، ثم قرئت على الأصمعى فصارت مائة وعشرين؛ وقال فى أصحاب الأصمعى إنهم قرءوا عليه المفضليات ثم استقرءوا الشعر فأخذوا من كل شاعر خيار شعره وضموه إلى المفضليات وسألوه عما فيه مما أشكل عليه من معانى الشعر وغريبه، فكثرت جداً^(٣). وكان المفضل يؤدب المهدى فتقدم إليه أبو جعفر المنصور أن يعمد إلى أشعار الشعراء المقلين ويختار لفتاه لكل شاعر أجود ما قال، فاختر هذه القصائد، وهى مشهورة، وقد طبع منها كذا قصيدة.

ثم اختار الأصمعى القصائد المعروفة بالأصمعيات، وكل هؤلاء لم يختاروا فى كتبهم شيئاً للمولدين، حتى جاء هارون بن على المنجم الذى أومأنا إليه فى

(٢) قلت: الفئنة بعد الفئنة: أى الحين بعد الحين.

(١) يتيمة الدهر: ٢١٥/٣.

(٣) الأمالى: ١٣١/٣.

الفصل السابق ووضع كتاب البارع في أخبار الشعراء المولدين، وهو الذى ينقل عنه صاحب الأغاني كثيراً ويشير إلى ذلك بقوله نقلت من كتاب هارون بن على، ونحو هذا اللفظ؛ قال ابن خلكان: وذكروا في أوله أن هذا الكتاب مختصر من كتاب ألفه قبله في هذا الفن، وأنه كان طويلاً فحذف منه أشياء فاقتصر على هذا القدر، ثم قال: إنه يغنى عن دواوين الجماعة الذين ذكرهم، فإنه اختصر أشعارهم وأثبت منها ريدتها وترك زبدها. أهـ. وقد تابعه على ذلك من جاء بعده ممن صنفوا في الأخبار والمختارات كما مر في موضعه.

ومما ننبه عليه أن الرواة إذا توافى اثنان منهم على اختيار قصيدة واحدة، ذهبوا مثلاً في الجودة كقصيدة...

* بكرت سمية غدوة فتمننى *

فإن أبا عبيدة لم يجد في وصفها أبلغ من قوله: إنها من مخار الشعر: أصمعية مفصلية^(١).

الحماسة:

ولكن الذى رزق حظ الشهرة في اختياره وجاء بما غطى على من سبقه، أبو تمام الطائي المتوفى سنة ٢٣١ فيما جمعه من كتاب الحماسة الشهير الذى قالوا إنه في اختياره أشعر منه في شعره، وتأويل ذلك ما قدمناه من معنى إصابة الاختيار؛ قالوا: وسبب جمعه أنه قصد عبد الله بن طاهر وهو بخراسان فمدحه فأجازه، وعاد يريد العراق، فلما دخل همدان اغتنم أبو الوفاء بن سلم فأنزله وأكرمه، وأصبح ذات يوم وقد ثلج عظيم قطع الطريق، فغم ذلك أبا تمام وسراً أبا الوفاء، فأحضره خزانة كتبه فطالعها واشتغل بها، وصنف خمسة كتب في الشعر، منها كتاب الحماسة، والوحشيات، وفحول الشعراء، ومختار شعراء القبائل (الخزانة) فبقى الحماسة في خزائن آل سلم يضنون به، حتى تغيرت أحوالهم وورد أبو العواذل همدان من دينور فظفر به وحمله إلى أصبهان، فأقبل أدباؤها عليه ورفضوا ما عداه مما هو في معناه من الكتب، ثم شاع حتى ملأ الدنيا.

(١) الأغاني: ٨٢/٣.

وقد رتب أبو تمام في عشرة أبواب هي فنون الشعر التي عددها، واقتصر فيه على شعر العظماء مما يخلص على السبك، واحتال في تخليده بما جود فيه من اختيار القطع والأبيات القليلة التي لا تكذب المتحفظ ولا يداخلها سقط، على غير ما ذهب إليه الذين سبقوه، فإنهم لم يختاروا إلا القصائد الطويلة، ولم يقصروا اختيارهم على المأنوس دون الغريب؛ ولهذا السبب عينه سقط الوحشيات ولم يكتب له البقاء مع الحماسة، وإن كان كلامهما اختياراً واحداً، ولكن الوحشيات مبنية على اختيار القصائد والقطع الطويلة، وهي باقية إلى يومنا هذا، وقد وجد منها بعض الفضلاء نسخة في إحدى مكاتب الآستانة ورأى عليها أنها الحماسة الصغرى، وهو اسم موضوع لم يذكره أحد ممن دلوا عليه، كالتبريزي في شرح الحماسة وغيره.

وقد انتقد كتاب الحماسة حمزة بن الحسين، فزعم أن فيه تكريراً وتصحيفاً وإبطاءً ونقلًا لأبيات عن أبوابها إلى أبواب لا تليق بها ولا تصلح لها، إلى ما سوى ذلك من رايات مدخولة وأمور غريبة^(١) ولكن هذا ومثله لم يغض من الكتاب ولم يصرف المتأدبين عنه، فقد ذهبت حسناته بما دونها حتى اتخذوه أصلاً يحتذون عليه، وجعلوا من شهرة اسمه وسيلة لشهرة كتبهم، فلما اختار الخالديان كتابهما المعروف بالأشياء والنظائر، سمياه حماسة الخالدين، وألف البحترى قبلهما الحماسة الثانية (وقد مر ذكر حماسة العجلي) وفي تاريخ ابن خلكان أن ابن الشجري اللغوي المتوفى سنة ٥٤٢ ضاهى الحماسة بكتاب غريب أحسن فيه.

ولعلى بن الحسن المعروف بشميم الحلى المتوفى سنة ٦٠١ حماسة رتبها على أربعة عشر باباً؛ وللبياسى الأندلسي المتوفى سنة ٦٥٣ حماسة عارض بها أبا تمام ولكنه اختار فيها لكل الطبقات إلى زمنه ورتب كترتيب أبي تمام، وهي عند المغاربة في شهرة الحماسة عند المشاركة؛ وألف قبله من الأندلسيين الأعلام الشنتمري وذكر حماسته البغدادى في خزانة الأدب؛ وآخر ما عُرف من هذه الكتب: الحماسة البصرية التي ألفها على بن أبي الفرج سنة ٦٤٧ برسم الملك الناصر صلاح الدين، وفي المكتبة الخديوية الجزء الأول منها.

(١) يتيمة الدهر : ٤١٦/٣ .

ولكن كل هذه الحماسات لم تنازع حماسة أبي تمام قليلاً ولا كثيراً، فلا يعرف لإحداها شرح واحد وقد وضع لتلك عشرون كتاباً سَمَّى أصحابها مُلاً جليبي في كشف الظنون، فبعضهم عنى بذكر إعرابها، ومنهم من عنى بالمعاني وشرح المعلقات، وبعضهم تناول ذلك وأضاف إليه تراجم شعرائها وأخبارهم في أشعارهم، وأشهر هذه الكتب شرح الخطيب التبريزي، وهو متداول مشهور.

وكان الكتاب يتصنعون في نثر أبياتها، وربما جعلوا ذلك مراناً على الكتابة، ولكن على بن محمد الكاتب المتوفى سنة ٤١٤ نثرها في كتاب سماه منشور البهائي، لأنه نثره لبهاء الدولة بن بويه، وذلك لم يتهياً لكتاب في الشعر غير الحماسة.

مختارات أخرى :

ولا سبيل إلى حصر المختارات، لأن التاريخ العربي ترك إلى اليوم شعراً كثيراً جداً، لا يقل المأثور عنه في الدواوين وغيرها عن بضعة ملايين من الأبيات، وقد أتت روايات كثيرة بما لا يصدق عن استطالة الشعر الجاهلي وحده، فكيف بغيره مما نظم ليدون واشتغرق نظمه ثلاثة عشر قرناً؟ ولكننا نعين أشهر كتب المختارات، ثم لا نعدو في ذلك كتب المتقدمين من أئمة الأدب، لأن المتأخرين قد ابتذلوا هذا النوع وقصروه على حظ أنفسهم من الحفظ، ويسمون ما يجمعونه من ذلك بالتذكرة أو المجموع، ومن أشهرها تذكرة الصفدي؛ وهي في عدة مجلدات لا يزال بعضها في مكاتب الآستانة، ويقال إن فيها دواوين برمتها.

فمن أشهر تلك الكتب، منتهى الطلب من أشعار العرب، لمحمد بن المبارك ابن الميمون البغدادي. وهو كتاب يشتمل على أكثر من ألف قصيدة خلا المقاطيع، قال صاحب كشف الظنون: وعدة ما فيه أربعون ألف بيت. وديوان المعاني للعسكري، وهو ديوان ضخمة رتبته على اثني عشر باباً وجمعه من شعر الشعراء إلى زمنه، وقد أحسن الاختيار في كثير منه، ولا يقل فيه عن عشرة آلاف بيت. وكتاب مختارات شعراء العرب لابن الشجري المتوفى سنة ٥٤٢ جمع فيه خمسين قصيدة وقسمه ثلاثة أقسام: جعل في القسم الأول ١٢ قصيدة لشعراء مختلفين،

وفى الثانى ٢٥، منها ٧ لزهير، و ٦ لبشر بن أبى حازم، و ١٢ لعبيد بن الأبرص، قال: وهى مختار شعره ومعظمه.... ولا يذهبن عنك ما ذكرناه عن شعر عبيد فى الكلام عن المقلّين؛ والقسم الثالث مختار أشعار الخطيئة وأخباره، وهو ١٣ قصيدة غير المقاطيع. وكل هذه الكتب موجودة فى المكتبة الخديوية، ولابن الشجرى هذا كتاب الأمالى على نحو الأمالى المعروفة ذكر ابن خلكان أنه فى ٨٤ مجلداً.

وكان للصاحب بن عباد كتاب سماه سفينة الملح، فكلما أنشد شعراً جيداً وقرأ أبياتاً رائعة أثبتتها فيه، على كثرة ما يتبها له من ذلك^(١) وأعجب من هذا الكتاب المرمزة لابن سعيد المغربى فى القرن السابع؛ قال صاحب نفح الطيب: إنه وقر بعير من الرزم والكراريس وفيه شعر وأدب كثير. ومن هذا النوع كتاب راملة التنف لأحمد بن محمد البغوى الكاتب، من رجال اليتيمة؛ قال الثعالبي: إنه يشتمل على محاسن الأخبار والأشعار، ولطائف الآداب، ويقع فى ثلاثين مجلدة بخطه^(٢)؛ هذا إلى كثير من أمثاله عما لا فائدة فى استقصائه لأن أكثره عندنا كأسماء الأموات لا حقيقة لها، وإنما ذكرنا بعضه دلالة على سائره، وتوفية لفائدة هذا البحث.

(١) يتيمة الدر: ٢٠٧/٣. (٢) اليتيمة: ٦٩/٣.

البابُ الحادى عشر

الصناعات اللفظية التى أولع
بها المتأخرون
فى النظم والنثر وتاريخ أنواعها

الصناعات

مر بك من أمر الصناعتين فى النظم والنثر ما تستخرج منه تاريخ الارتقاء فى الكلام وتعرف به مدلوله؛ إذ يعطيك من حوادثه الأدبية ما تعطيك الحوادث المادية من القياس الذى تُضبط به النتائج وتجتمع الحدود؛ ولا بد لمن أراد أن يستقرئ حوادث الانحطاط من معرفة تاريخ الارتقاء، لأنه ضدٌ معلق على ضده، فلا ننحط الأمة حتى تكون قد ارتقت.

والارتقاء فى كل شيء إنما هو تغيرٌ فى مادته على مقادير تعطيه من القوة بنسبة الزيادة فى ذلك التغير فى مجموعه؛ فالطفل يرتقى بتغير مادة جسمه إلى مقادير القوة حتى يصير رجلاً، ولكن إذا أخذ جسمه فى النماء والزيادة وأخذت حاسة من حواسه فى النقص والانحطاط، لم يكن ذلك النماء فى مجموعه ارتقاءً مطلقاً، بل احتاج أن يفصل فيه.

وكذلك الشأن فى هذه الصناعات الأدبية؛ فإنها ليست فى مجموع اللغة ارتقاءً ولا انحطاطاً، وإنما يوصف كل جنس منها بأثره؛ فإنك إذا نظرت إلى أن من أنواع البديع ما يورث اللغة حسناً فى الألفاظ، وحلاوة فى مخارج الكلام، حتى تحول فى العيون عن مقادير صورها، وتربى على حقائق أقدارها بمقدار ما زينت وعلى حسب ما زخرفت، وحتى تكون هذه الزيادة بعينها فيما لها من قوة الهوى والتعشق، وأن تلك الأنواع تقتضى الكاتب أو الشاعر لطافة الحيلة وحسن التأني وتمكين الأسباب ونحو ذلك مما هو أدخل فى باب التكلف - لم يَجْزُ لك أن تعدّها فى اللغة إلا من أسباب الارتقاء؛ لأن اللغة لم تقع لأهلها على الكفاية فى كل شيء، وإنما سبيلها تحول المادة وتغير القوة فى كل عصر.

وإذا نظرت إلى أن من أنواع البديع أيضاً ما يكسب اللغة هجنة ويلحقها بضروب الصناعات والحرف، ويصير بها إلى حال مضیعة وكلال، وهو على ما يقتضيه من الكد والاستكراه وكثرة التكلف زينة عاطلة وفتنة باطلة، وأن هذه الأنواع مصائد للأقلام وحصائد للألسنة - لم يَجْزُ لك أن تحتسبها فى اللغة إلا من

أسباب الانحطاط؛ لأنها وإن كانت زيادة فى المادة إلا أنها نقص فى القوة؛ فمثلها مثل ما يزيد فى الجسم من الأمراض كالسرطان وغيره.

ومن تدبر تاريخ العلوم رأى أن لكل علم ثلاثة أدوار: فهو يبدأ بدرس حقائقه التى أفردته فاعتبر بها علما، ثم يودى هذا الدرس إلى الاكتساب والاستنباط وما يتبعهما من تمحيص الحقائق الأولى، ثم ينتهى الاكتساب إلى الدور الذى يبلغ فيه العلم أن يكون جزءاً من أجزاء الوحدة العلمية؛ فإن العلوم كلها دعامة للعمران يشد بعضها بعضاً، وليس ينزل فيها إلا ما يشترك فى هذه الغاية، وعلى هذا لا تكون الصناعات قد نشأت فى علم الأدب إلا فى الدور الثانى، وهو دور الاكتساب والتزيد، غير أنها نشأت على قدر الحاجة إليها، وكان يتولاها النقد ويحاسب عليها البيان، فخرج أكثرها مهذباً غير ملتبس ولا معقد؛ حتى جاء القرن الرابع فأخذوا يتوسعون فى ذلك لا يعدون مقدار التلمح والظرف وما يجرى مجراهما؛ لأن معدة اللغة يومئذ كانت تسيع ذلك وتمثله، حتى إن أبا الفتح البستى لما شغف قريبا من ذلك العهد بالتجنيس، قالوا إنها الطريقة الأنيقة والتجنيس الأنيس، واستظرفوها ولم ينكروا عليه ماننكر نحن على أهل هذه الطريقة فى المتأخرين؛ فلما أخذت اللغة تضعف بعد ذلك فشت الصناعات فيها وضربت لها عروق الحياة، ووجد الأدباء من جهل الخاصة وانصرافهم عن الأدب الصحيح ما صرفهم إلى أنفسهم وجعل بأسهم بينهم، فتنافسوا فى الاكتساب والإغراب، وصارت الصناعات مقصودة لذاتها، فتبعته اللغة بعد أن كانت متبوعة، وصار أول ما يجيد الشاعر أن يطرح مَعْمَى أو ينظم لغزاً أو يبرع فى بعض أنواع الجناسات وغيرها مما يسمونه بالمعجز والعويص؛ وكذلك كان شأن الكاتب؛ وصار ذلك من حظ الأدباء وأهل البلاغة عند الخاصة والأمراء، وقد ذكر ابن الطقطقى فى كتاب الغزى^(١) أن عز الدين بن عبد العزيز بن جعفر النيسابورى - لمجالسة أهل الفضل وكثرة معاشرتهم له - صار يتنبه على معان حسنة «ويحل الألغاز المشكلة» أسرع منهم، ولم يكن له حظ من علم. وكذلك قال فى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل إنه لمثل ذلك كان يستنبط المعانى الحسنة ويتنبه على

(١) الغزى : ص ١٥ .

النكت اللطيفة مع أنه كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ.

وكان انتشار الصناعات من ابتداء القرن السادس، وظلت إلى أواخر القرن التاسع - وهو زمن سقوط الأندلس - لا تستبد بالأدب وإن كان لها عليه فى بعض ذلك سلطان؛ لأن أفراد الكتاب والشعراء الذين نبغوا فى تلك الأيام لم يكونوا يتناولون منها إلا على سنة التملح والظرف، كاهل القرن الرابع، فكانت فضلاً من القوة، ولا حساب على الفضل، حتى إن صفى الدين الحلى لما دخل إلى مصر فى سنة ٧٢٦ أنشده صاحب شمس الدين بن السندى أبيات سليم الهوى المصغرة ألفاظها التى أولها:

* بَرِّقْ بِالْأَبْرِقِ فى الفُجَيْرِ *

وذكر له أن ناظمها نظمها لصاحب الديوان علاء الدين الجوشنى ولم يمكنه نظم بيت واحد مديحاً؛ إذ شزن المديح التعظيم، فنظم الصفى قصيدته^(١) التى أولها:

نُقِيطَ من مُسِيكِ فى وَرِيدِ خَوَيْلِكَ أو وَسِيمٍ فى خُدَيْدِ

واحتال للمدح احتيالا لطيفاً، فلم يذكر صفات المدوح ولكنه ذكر عطفه عليه وصغر نفسه ووصف حساده وصغرهم، فكان هذا التصغير مضمناً معنى التعظيم، وخلص بذلك إلى ما أراد؛ والقصيدة على عقدها لا تغض من قدر الصفى، لأنها فى سبيل ما وصفنا، والرجل مع ذلك أنبغ المتأخرين فى جملة الصناعات بعد الحريرى.

ولكنهم ورثوها للخلف العاق فتجاوزوا إليها حقائق المعانى وتعبدوا للألفاظ؛ وساعدتهم أحوال الزمان، فكان الواحد منهم إذا نظم قصيدة أو كتب رسالة فتح بقلمه قبرا من قبور اللغة، ولم تزل تلك حالهم حتى انتصف القرن الثالث عشر، فأخذت تلك الجرائم تضعف ثم تقل ثم تتلاشى، إلى النهضة الحديثة، فماتت إلا فى بعض زوايا المساجد وبقيت فى الزوايا خبايا.

وإنما حملنا على الاهتمام بهذا البحث والصبر على مطاولة التعب فى جمعه

(١) وقد تابعوه عليها وسمعوا هذه القصائد بالمصغرة ومنها قصيدة لابن حجة: [ص ١٩٧ : الخزائن].

والتفتيش عنه، أن هذه الصناعات قد طُوِيَ زمنها ومات شأنها أو دُفِنَ بعد هذه الآونة الأخيرة التي نهضت بها اللغة وآدابها، وانصرف أهلها إلى غير هذا التسخير في القرائح، فلا تكاد تجد في أدباء اليوم من يعرف تأريخ نوع واحد منها؛ وإذا ابتعد الزمن بعصرنا هذا أصبحت في الأدب كالأثار المستعجمة، إلا قليلاً مما استوعبت الكتب بعض تاريخه .

وقد برع أدباء اللسانين الفارسي والتركي في هذه الأنواع وفاقوا العرب في أشياء منها؛ ومن أعجب ما قرأته أن علاء الدين بن شمس الدين الفقازي من علماء الروم المتوفى سنة ٩٠٣ كان يقرئ تلامذته شرح المطول في علوم البلاغة، فلما انتهوا إلى فن البديع صار يورد لكل صنعة عدة أبيات من الفارسية، قالوا: وكانوا يقرءون كل يوم من الضحوة إلى العصر سطرّاً أو سطرين، فلما طال عليهم ذلك قال لهم: هذه قراءة الكتاب فاقروا الفن، وصار يُقرئهم كل يوم ورقتين. وذلك علم كثير.

وسنأتى على شرح ما عثرنا عليه من الصناعات وتأريخه على مقدار ما وسعه الجهد وبلغ إليه الاطلاع ومكنت منه الفرصة؛ وإن هذا المبحث لحقيق أن يكون كتاباً برأسه، ولكنه فضلاً عن ذلك لم يجتمع إلى الآن في كتاب.

وقد كان يقع في هذا الفصل كلام في مقارنة هذه الصناعات بعضها ببعض ونسبة أثرها في اللغة وأشياء نحو ذلك، ولكننا سنفرقه على مواضعه ونجى به عند مقاطعه.

لزوم مَا لَا يَلْزَم

هذا نوع فى الصناعة يعدونه من البديع، وقد سُمى الالتزام والإعانات والتضييق والتشديد، وبهذه الأسماء يدور فى كتبهم، والمراد بذلك عندهم أن يعنت الناظم أو النائر نفسه فى التزام حرف أو أكثر قبل حرف الروى، وهو إنما يفعل صاحب الكلام لقوته ولو تركه لم يدخل عليه ضعف؛ غير أنى أرى أن الحروف تتساق وأن اللسان ميزان، فربما كان موضع لا يجد فيه البليغ المطبوع بدءاً من الالتزام فيفعل ذلك طبعاً لا صناعة لأنه يرى اللسان يثبت فى الكلمات، فإذا لم يقع من كلمة على الحرف الملتزم أخلى فلم يصب الرتبة، وكان ذلك فى الكلام شبيهاً بالعوائير التى تكون فى الطرق، ومن أجل ذلك لا يتم حسن هذا النوع إلا فى الكلمات المتوازنة بالألفاظ، كقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَّارِ الْكُنَّسِ﴾^(١) وهو أكثر ما يتفق، أو بالمقاطع، لأن كلتا الكلمتين التى يلتزم فيها قد لا تكون وزان الأخرى بنفسها ولكنها توازنها مع بعض مقاطع الكلمة التى قبلها، أو هما يتوازنان فى بعض مقاطعهما لا فى جملتها، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ . وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾^(٢) فإن وَسَقَ لا توازن اتَّسَقَ، ولكنها يتوازنان إذا قلت «ما وسق» و«إذا اتسق» أو قلت «وسق وتسق»؛ فإذا لم يتفق هذا التوازن، كما ترى فى مجنون ومفتونون مثلاً، فهو حينئذ الإعانة والتضييق والتشديد إذا كان يحتسب التزاماً، لأنه غير طبعى فى الكلام، بل لو اطرده لكان ثقيلاً وخماً تثب به السليقة^(٣) وثبة أحشاء المتقضى، ولذلك السبب عينه كان الالتزام طبعياً فى الشعر، لأنه أعارىض متوازنة، وكان من كماله ذلك النوع الدقيق منه، وهو التزام الحركة قبل الروى، إلا أن هذه الحركة قد ينكر السمع تغيرها. وذلك فيما يقع بعد ألفات التأسيس، كسالم وظالم، فإذا جاء فيها عالم (بالفتح) فذلك هو السناد، وهو معيب لما بيناه، وقد لا ينكر السمع تغير الحركة، كما تقول: يرعدُ وأرعدُ، وهو كثير فى الشعر؛ ولا يلتزم هذه الحركة إلا الفحول المبرزون، كابن الرومى،

(٢) سورة الانشقاق: (١٧، ١٨).

(١) سورة التكوين: (١٥، ١٦).

(٣) قلت: سبق تعريفها.

وهو أولع الناس بها، حتى إن قصيدته التي يقول فيها:

لِما تُؤْذِنُ الدنيا به من صُروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولَدُ

قد التزمه فيها ففتحها ما قبل الروى، على طولها وامتداد النفس فيها، وشبيه بذلك ما فضّلوا به العجاج؛ إذ زعم بعضهم أنه أشعر أهل الرجز والقصيد. وذكر أنه صنع أرجوزته:

* قد جبر الدين الإله فجبّر *

فيها نحو مائتى بيت وهى موقوفة مقيدة، ولو أطلقت قوافيها وساعد فيها الوزن لكانت منصوبة كلها^(١).

ولا نعرف أول من نبه على الالتزام، ولكن قدامة وابن المعتز والعسكري - وهذا توفي سنة ٣٩٥ - لم يشيروا إليه فى كتبهم ولا ورد ذلك فى كلام من نبّه على البديع من قبلهم من الرواة؛ لأن الالتزام فى أكثر مواضعه المستحسنة طبعى - كما قدمنا - ولكن أبا العلاء المعرى المتوفى سنة ٤٤٩ نظم على هذا النوع ديوانه المشهور باللزوميات، وقال فى مقدمته: «وجمعت ذلك كله فى كتاب لقبته لزوم ما لا يلزم، ومعنى هذا اللقب أن القافية تلتزم لها لوازم لا يفتقر إليها حشو البيت، ولها أسماء تعرف، وسأذكر منها شيئاً مخافة أن يقع هذا الكتاب إلى قليل المعرفة بتلك الأسماء... أه» فى كلامه رائحة ضعيفة من الاختراع؛ ولعله أول من نبّه عليه، فإن كان ذلك فهو لم يدّعه؛ لأنه نهج مطروق وشرعة مورودة، والاختراع لا يكون فيما هذه سبيله بين أهله؛ غير أنه لا مرأى فى أن المعرى أول من اتخذ هذا النوع صناعة احترفاً شطراً من عمره، فتكلف فى تأليفه (كما قال) ثلاث كلف: الأولى أن ينتظم حروف المعجم عن آخرها، والثانية أن يجىء رويّه بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك، والثالثة أنه لُزم مع كل رويّ فيه شيء لا يلزم من باء أو تاء أو غير ذلك من الحروف.

ولم نعرف بعد المعرى من تكلف تأليفاً مستقلاً فى لزوم ما لا يلزم إلا ما وقفنا عليه فى ترجمة عبد العزيز بن قاضى حماة، من فوات الوفيات، وقد توفي

(١) العمدة : ٥٦/١.

سنة ٦٦٢، فقد قال فيه الشيخ صلاح الدين الصفدى:

«لا أعرف فى شعراء الشام بعد الخمسمائة من نظم أحسن منه ولا أجزل ولا أفصح ولا «أصنع» ولا أكثر» فإن له فى لزوم ما لا يلزم مجلداً كبيراً».

وقبل عبد العزيز هذا تكلف الوزير جمال الدين أبو الطاهر محمد بن يوسف التميمى السرقسطى المعروف بابن الاشتركوانى المتوفى سنة ٥٣٨ - فى مقاماته التى عارض بها الحريرى - أن يلتزم فى نظمها ونثرها هذا النوع؛ ولذلك تعرف بالمقامات اللزومية، وقد اشتهر بأسلوبه هذا فى الأندلس حتى احتذاه من مشاهيرهم عبد الرحمن بن محمد المعروف بالمكناسى المتوفى سنة ٥٩١، فقد كان رأساً فى الكتابة، وكان ينشئ الرسائل اللزومية، وبلغ فى اللزوم مبلغاً أعجز فيه غيره^(١).

الشيئية والسينية :

أما الحريرى فقد طبخ أحمض أصناف الإعانات والتصويق فى رسالتين له، وهما المعروفتان بالشيئية والسينية، كتب بالأولى منهما إلى الشيخ الإمام شمس الشعراء طلحة بن أحمد بن طلحة النعمانى، والثانية وهى السينية على لسان الأمير أمين الملك أبى الحسن بن فطير المرادى، وكان يتولى ديوان الاستيفاء بالبصرة، إلى الأمير الأجل الحسام، وكان قد دعاه الأسفهلار^(٢) الأجل النفيس سيد الرؤساء سيف السلاطين، وشرباً جميعاً فى دار بالبصرة فى المحلة المعروفة ببني حرام، وهى محلة الشيخ الحريرى، وكان أمين الملك جاره وصديق الأسفهلار النفيس، فلم يدعه، فكتبها إليه يداعبه على لسانه.

وقد التزم أن لا يخلى كلمة من الشين فى الأولى ومن السين فى الثانية؛ وأشار صاحب المثل السائر إلى هاتين الرسالتين فى باب المعاظلة من كتابه ووصفهما؛ ثم قال: فجاءنا كأنهما رُقى العقارب! وهو من تحامله على الحريرى؛ لأن الصناعات كانت مشهورة لذلك العهد مرغوباً فيها، ولأن مقام الرسالتين

(١) بقية الرعاة : ص ٣٠٣ .

(٢) الأسفهلار: لفظ فارسى معناه رئيس الجيش . والنفيس: اسمه .

استدعى هذا الالتزام، وليس ما ترسل فيه السجية ويستجم له الطبع كالذى يكون من الشاذ والنادر، ولم يأخذ الحريرى فى ذلك النمط إلا قصداً وهو لا يجهل ما فيه، وإنما نبهه إلى ذلك مراعاة النظير؛ فإن الشينية مكتوبة بها (للشيخ الإمام شمس الشعراء) والأخرى «للأسفهسالار الأجل النفيس سيد الرؤساء إلخ» فكان أولى بذلك أن يُعجب به لا أن يعجب منه، لأن الكتابة لم تكن إلا على جهة التطرف والتملح؛ ومثل هذا لا يعاب إلا إذا بولغ فى استكراهه والإلحاح بالكثير منه (١).

(١) مجلة الضياء: ٤٩٦/٧، ٥٢٧.

القوافى المشتركة

من الكلام ألفاظ تشترك فى معان كثيرة، وهى هى فى الدلالة على كل تلك المعانى المختلفة، وقد اختلف أهل اللغة فى سبب ذلك، ولكنهم اتفقوا على أنه: «لا خلاف أن الاشتراك على خلاف الأصل» وهذا الموضوع مما لا سبيل إلى تحقيقه وبيان وجه الصواب فيه؛ لأن الألفاظ المشتركة سماعية إلا ما استخرج منها بالقياس، كالحال مصدر خال مثلاً، وقليل ما هو، فلا يمكن ردها إلى لغة واحدة ولا إلى لغات مختلفة من لغات العرب، لذهاب أصولها.

وقد تناول المتأخرون تلك الألفاظ واستعملوها قوافى للشعر على طريقه الجنس التام، وأشهرها الذى تخرج منه القصائد، ألفاظ معدودة، وهى العين، والخال، والغرب، والهلال، والعجوز، ولم يرد للمتأخرين قصائد على غيرها، وقد زاد بعضهم فى معانيها ما لم يسمع ولم يجئ به نص فى اللغة ليلغ من ذلك مبلغ الكثرة، ولكن الشأن إنما هو فى سهولة انقياد القافية وتمكينها على غير تكلف.

وأول ما جاء من الشعر فى ذلك ثلاثة أبيات للخليل، وهى:

يا ويح قلبى من دواعى الهوى إن رحل الجيران عند الغروب
أتبعته طرْفى وقد أزمعوا ودمعُ عينيَّ كفيضِ الغروب
بانوا وفيهم طفلةٌ حرةٌ تفتُرُ عن مثل أقاحي الغروب

فلفظ «الغروب» الأولى غروب الشمس، والثانى جمع غرب، وهو الدلو العظيمة المملوءة، والثانى جمع غرب، وهو الوهاد المنخفضة.

ثم نظم الحريرى فى إحدى مقاماته خمسة أبيات أولها:

سَلَّ الزمان على عَضْبَةٍ لِيرُوعْنِي وَأَحَدَ غَرْبَةٍ

ولكن النظم على هذا النوع لم يشتهر إلا فى القرن الحادى عشر؛ قال الزبيدى

لبديع زمانه على بن تاج الدين القلعي المكي ما نصه: في سانحات دمي القصر
للعلامة درويش أفندي الطالوي رحمه الله: كتب إلى الأخ الفاضل داود بن عبيد
خليفة نزيل دمشق عن بعض المدارس في لفظ مشترك الغرب طالباً مني أن أنسج
على منوالها وأحذو على مثالها، وهي «أربعة أبيات» قال:

فكتب إليه هذه الأبيات التي هي لا شرقية ولا غربية... ونقل الزبيدي ٢٧
بيتاً أولها:

أَمِنْ رَسْمِ دَارٍ كَانَ يَشْجِيكَ غَرْبُهُ نَزَحْتُ رَكِيّ الدَّمْعِ إِذْ فَاضَ غَرْبُهُ

ولكن الشهاب الخفاجي أورد هذه القصيدة في آخر ريحانته - وهي هناك ٢٩
بيتاً - وقال هناك: إن الطالوي عارض بها أبيات الحريري، والطلالوي هذا من أدباء
القرن الحادي عشر؛ وكذلك نقل الزبيدي أيضاً في شرح مادة «عجز» عن شيخه
أن الأدباء أكثروا في جمع معاني العجوز في قصائد كثيرة لم يحضره منها وقت
تقييد كلماته إلا قصيدة واحدة للشيخ يوسف بن عمران الحلبي وساقها هناك،
ومطلعها:

لحَاطَ دُونَهَا غَوْلَ الْعَجُوزِ وَشَكَّتْ ضِعْفَ أَضْعَافِ الْعَجُوزِ

العجوز في الأولى: المنية وفي الثانية: الإبرة. وهي ستون بيتاً فيها تكلف
كثير، والشيخ يوسف هذا من المترجمين في الريحانة، ولكن الشهاب لم يشر في
ترجمته لهذه القصيدة. ثم قال الزبيدي بعد أن أورد هذه القصيدة: قال شيخنا:
وكنيت رأيت أولاً قصيدة أخرى كهذه للعلامة جمال الدين محمد بن عيسى بن
أصبغ الأزدي اللغوي... وهي طويلة وأعظم انسجاماً وأكثر فوائد من هذه...
وهناك قصائد غيرها لم تبلغ مبلغها. أهـ.

وقال الشهاب الخفاجي في ترجمته السيد عبد الله الوفائي المصري: وقصيدته
التي التزم فيها تجنيس قوافي الخال، مشهورة. وأولها:

يَا سَلْسَلَةَ الصَّدْغِ مَنْ لَوَاكَ عَلَى الْخَالِ (كذا)

ولم يذكر منها غير هذا الشطر؛ فلعله أول من نظم في الخاليات.

ثم نظم نفر من أدباء القرن الثالث عشر فى العينية والهلاليات وتابعوا من قبلهم فى الخاليات والغربيات وأهملوا العجوزيات، ولعل العجوز ماتت قبل أن تلد قرائحهم...

ومهما يكن فالنظم فى هذه الأنواع مما يجوز أن يحاضر به فى اللغة على وجه المعاياة؛ وكان هذا من فائدته قبل أن يشيع، أما بعد ذلك فهو لغو يحسبونه لهواً، وعناء يظنونه غناء؛ وصناعة من الباطل يرون فيها صياغة لتحلية العاطل؛ وإنما الفرق بين ذلك فرق بين الأضداد.

القصائد المعرّاة

يراد بهذا النوع من المنظوم أن تكون القصيدة بجملتها خالية من أحد حروف الهجاء، فحيث التمسته كنت كطالب ما لا يوجد، أو كملتسمس حرف أجنبي في الحروف العربية.

والأصل في هذا على ما أعلم ما يروى من خبر واصل بن عطاء المتوفى سنة ١٨١. قال الجاحظ: إنه لما علم أنه ألغى^(١) فاحش اللغ، وأن مخرج ذلك منه شنيع، وأنه كان داعية مقالة ورئيس نحلة، وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل، وأنه لا بد له من مقارعة الأبطال ومن الخطب الطوال، وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة، وإلى ترتيب ورياضة، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة، وإلى سهولة المخرج المنطق وتكميل الحروف وإقامة الوزن؛ وأن حاجة المنطق إلى الطلاوة والحلاوة كحاجته إلى الجلالة والفخامة، وأن ذلك من أكبر ما تستمال به القلوب وتشتى إليه الأعناق وتزين به المعاني، وعلم واصل أنه ليس معه ما ينوب عن البيان التام واللسان المتمكن والقوة المتصرفة... رام أبو حذيفة إسقاط الراء من كلامه وإخراجها من حروف منطقته، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه، ويناضله ويساجله، ويتأتى لسره والراحة من هجته، حتى انتظم له ما حاول، واتسق له ما أمل، حتى صار لغرابته مثلاً، ولظرافته معلماً. قال: ولولا استفاضة هذا الخبر وظهور هذه الحال لما استجزنا الإقرار به والتأكيد له... إلى آخر ما يتعلق بخبر واصل مما ليس هذا موضعه.

وكان هذا الأمر مقصوراً على المنشور ولا يتعدى مع ذلك ما ينسب إلى أبي حذيفة، حتى جاء صاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٣٥ فجعله في المنظوم. قال الثعالبي في ترجمة أبي الحسين علي بن الحسين الحسنى الهمداني: وكان صاحب صاهره بكريمته التي هي واحدته... ولما قال صاحب قصيدته المعرّاة من الألف التي هي أكثر الحروف دخولاً في المنظوم والمنثور، وأولها:

(١) قلت: اللثغة: بالضم: تحول اللسان من السين إلى الثاء أو من الراء إلى الغين أو اللام أو الياء أو من حرف إلى حرف أو أن لا يتم رفع لسانه وفيه ثقل كما في القاموس.

قد ظلَّ يجرح صدرى من ليس يعدوه فكرى

وهى فى مدح أهل البيت «لأنَّ الصاحب كان علويّاً» تبلغ سبعين بيتاً - تعجب
الناس منها وتداولتها الرواة:

فسارت مسير الشمس فى كل بلدة وهبت هبوب الريح فى البر والبحر
فاستمر الصاحب على تلك المطية، وعمل قصائد كل واحدة خالية من حرف
من حروف الهجاء، وبقيت عليه واحدة تكون مُعْراً من الواو، فانبرى أبو الحسين
لعملها، وقال قصيدة فريدة ليس فيها واو، مدح الصاحب فى عرضها، وأولها:

برق ذكرت به الحبابُ لما بدا فالدمع ساكبُ
أمدامعى منهلاًة هاتيك أم غُزُّ السحابِ
نثرت لآلىء أدمع لم تفتَرعْها كفُّ ثاقب

وكلها من هذا النمط يتحامل بعضها على بعض، ولعل قصائد الصاحب لا
تعدوه فى التقدير، لأنه لم يقع لنا منها شيء، حتى إن الثعالبي نفسه لم يذكرها
فى ترجمته.

ولم نعلم أن أحداً بعد الصاحب تعاطى هذا الشاؤ، مع غلبة هذه الصناعات
على شعر المتأخرين وتكلفهم لما هو أكثر استغلافاً وأصعب مراساً من النظم
المُعْرى، ولعل شيئاً من ذلك اتفق لبعضهم ثم درست به آثاره، أو لعل الاطلاع
قصر بنا: ومهما يكن فقد بحثنا فى الأصل، وما بقى فهو مما يردّ إليه، والأمر فى
ذلك سهل إن شاء الله.

محبوك الطرفين

ويريدون أيضاً بهذا النوع من المنظوم أن تكون كل أبيات القصيدة أو القطعة مبتدأة ومختتمة بحرف واحد من حروف المعجم؛ وأول من جاء بشيء من ذلك أبو بكر محمد بن دريد المتوفى سنة ٣٢١، وقد ذكر المسعودى أنه كان شاعراً كثير الشعر يذهب فى كل مذهب، غير أنه لم يشتهر من شعره إلا مقصورته التى مدح بها ابن مical، وهى مشهورة، وقد نظم ابن دريد المذكور قطعاً مربعاً على عدد الحروف لم يلتزم فيها بحراً واحداً بل جعل كل قطعة منها مستقلة عن سائرهما فى الوزن كما هى مستقلة فى الرومى، وأولها قوله فى حرف الألف:

أبقيت لى سقما يمازج عبرتى	من ذا يلذ مع السقام بقاء
أشمت بى الأعداء حين هجرتنى	حاشاك مما يُشمتُ الأعداء
أبكيته حتى ظننت بأننى	سيصير عمرى ما حيت بُكاء
أخفى وأعلن باضطرار إننى	لا أستطيع لما أُجنُّ خفاء

وفىها أبيات جيدة لأن الشعر مع هذا القيد ولا جرم قريب من الانطلاق، إلا حيث تكون الألفاظ المستكرهة فى بعض الأحرف المعدودة كالخاء والظاء.

ثم جاء بعد ابن دريد وأبو الحسن على بن محمد الأندلسى البرزى فانسحب على آثاره ونسج على منواله، ولكنه أبلغ أبيات كل قطعة إلى العشرة، ولذلك تعرف منظومته بالقصائد المعشرة.

وتلاههما صفى الدين الحلى الشاعر الشهير المتوفى سنة ٧٥٠ فنظم من هذا النوع تسعاً وعشرين قصيدة على عدد الأحرف الهجائية، والتزم هذا العدد بعينه فى نسق كل قصيدة، فجاء من ذلك بالشىء العجيب، ولو كان ابن دريد من المصنّعين ولم يكن حيث هو من العربية وفنون الأدب لأخمله الصفى.

وقد مدح الحلى بقصائده تلك السلطان الأرتق المنصور نجم الدين أبا الفتح ولذلك تعرف بالأرتقيات ومطلع القصيدة الأولى منها:

أبست الوصالَ مخافة الرُّقاء وأتتكَ تحت مدارع الظلِّماءِ
أصفَّتكَ من بعد الصدود مودةً وكذا الدواءُ يكون بعد الداءِ

وهي مشهورة في ديوانه، ثم ختمت به الإجادة في هذا النوع على ما أظن، إذ لم يتفق لغيره من ذلك إلا القليل، كأبيات أبي جعفر الألبيري الأندلسي - وكان معاصراً للصفى - فيما التزم في أوله حرف الدال، وقد أوردها صاحب نفح الطيب^(١) وكذلك جرى بعضهم على نمط ابن دريد في قصائد مسدسة في المديح النبوي، وذكر المقرئ من ذلك قصيدتين في آخر كتابه، وساق هناك قصيدة أخرى للشيخ أبي عبد الله بن عمران في المديح، وهو يذكر في أول كل بيت حرفاً من حروف المعجم منطوقاً به على أن يكون جزءاً من عروضه، ومطلعها:

ألف، يا خير البرية هذى مدحى وما أنا في مقامى هاذى
باءٌ بها أظهرتُ صدقَ محبتى وبذلك الجاه الكريم لياذى

ومن هذا النوع أخذ المتأخرون ما يسمونه التطريز، وذلك أنهم إذا أرادوا أن ينظموا في مدح أحمد مثلاً جعلوا أوائل الأبيات على حسب حروف هذا الاسم فيبتدئون بالالف، ثم بالحاء، ثم بالميم، إلخ.

وهو نوع كان يعرف في القرن الحادى عشر بالمشجر وأورد منه ابن معصوم في السلافة بعض مقاطيع، وربما جاءوا بالتشجير في المصراعين فتكون أوائل الشطور الأولى على حروف الاسم المشجر به، وكذلك أوائل الشطور الثانية؛ وليس في ذلك كله من البراعة إلا ما اصطلحوا عليه من أنه صناعة.

وللصفى أيضاً أبيات تقرأ طولاً وعرضاً فلا يتغير وضعها، ولم أر غيرها لغيره إلا ما سيجىء في القصائد التى تقلب على وجوه كثيرة؛ لأن ذلك يكون من قراءتها طولاً وعرضاً وطرذاً وعكساً، والأبيات هي:

ليت شعرى لك علم من سقامى يا شفائى
لك علمٌ من زفيرى ونحولى وضنائى
من سقامى ونحولى داوينى إذ أنت دائى
يا شفائى وضنائى أنت هلى ودوائى

(١) نفح الطيب: ٤٢/٢.

ذَوَاتُ الْقَوَافِي

هذا نوع من النظم يعطيك أنواعاً من البحور والقوافي كلما قلبته على جهة من جهات الاستخراج نظم عليها. والأصل فيه النوع البديعي الذي سموه التشريع وسماه ابن أبي الإصيص في كتابه بالتوعم، لأن شرطه عندهم أن يبنى الشاعر بيته على وزن من أوزان القريض وقافيتين فإذا أسقط من أجزاء البيت جزءاً أو جزأين صار من وزن آخر غير وزنه الأول، وعلى هذا النوع بنى الحريري قصيدته في المقامة الثالثة والعشرين، وهي من ثاني الكامل، وأولها:

يا خاطب الدنيا الدنية إنها شَرَكُ الرَّدَى وقرارة الأكدارِ
دارٌ متى ما أضحكتُ في يومها أبكتُ غداً، بُعداً لها من دار
وهي تنتقل بالإسقاط إلى ثامن الكامل فتصير:

يا خاطب الدنيا الدنية إنها شرك الردى
دارٌ متى ما أضحكتُ في يومها أبكت غدا
وقد تنبه الحريري إلى استخراج هذا النوع من قول بعض العرب:

وإذا الرياح مع العشي تناوحت هوج الرماح بكشهن شمالا
الفيتنا نفرى الغبيط لضيفنا قبل القتال ونقتل الأبطالا
فإن هذا الشعر بعد الإسقاط يخرج منه:

وإذا الرياح مع العشي تناوحت هوج الرماح
الفيتنا نفرى الغبيط لضيفنا قبل القتال
فالحريري هو أول من قصد له، ثم وطئ عقبه فيه أصحابُ البديع والمتكلفون لمثل ذلك، وقد وجدوا الرجز أوسع البحور فيه، فإنه يقع مستعملاً تاماً،

ومجزوءاً، ومشطوراً، ومنهوكاً. فيمكن أن يعمل البيت منه أربع قواف، فإذا أسقطت ما بعد القافية الأولى بقي البيت منهوكاً، وإذا أسقطت ما بعد الثانية بقي مشطوراً، ويبقى إذا أسقطت ما بعد الثالثة مجزوءاً، ثم هو تام إذا كان على حاله من غير إسقاط، وعلى ذلك قول أبي عبد الله محمد بن جابر الضرير الأندلسي «صاحب البديعية»:

يرنو بطرف فاترٍ مهما رنا فهو المنى لا أنتهى عن حبه
يهفو بغصنٍ ناضرٍ حلو الجنى يشفى الضنى لا صبر لى عن قربه
وهى أربعة أبيات، والأوجه الثلاثة التى تستخرج منها غير التام هى:

يرنو بطرف فاتر	مهما رنا	فهو المنى	(وهو المجزوء)
و يرنو بطرف فاتر	مهما رنا		(وهو المشطور)
و يرنو بطرف فاتر	فهو المنى لا أنتهى عن حبه		(وهو المنهوك)

قالوا: ولكن القوة فى ذلك والمكنة فى ملكة الأديب أن يأتى بالتشريع فى بيت واحد، والإعجاز فيه أن يخرج من البيت بيتان كقول ابن حجة الحموى فى بديعته مورياً بتسمية النوع:

طاب اللقا لذ تشريع الشعور لنا على النقا فنعمنا فى ظلالهم
فإنه يستخرج منه:

طاب اللقا على النقا

وهو من منهوك الرجز، ويكون الباقي من البيت:

لذ تشريع الشعور لنا فنعمنا فى ظلالهم

وهو من المديد، والبيت كله من البسيط، ثم تنبه المتأخرون حين بالغوا فى الصناعات وفتقت لهم منها حيلة المنافسة إلى أن يجيئوا بأبيات أو قصيدة من هذا النوع الذى قلد فيه ابن حجة الشيخ عز الدين صاحب البديعية المشهورة،

ويقصدوا في قوافيها المقصورة إلى نوع من الترتيب، وبذلك تخرج القطعة أو القصيدة وهي تُقرأ طويلاً وعرضاً وطرذاً وعكساً، ثم تقرأ بالشرطة الواحدة من القوافي الثلاث على وجوه كثيرة لا تحصر إذ لا فائدة في حصرها... وأقدم ما وقفنا عليه من هذا النوع قطعة للشاعر الملقب بابن معنوق يمدح بها، وهي مثبتة في ديوانه (ص ٥٦) وأولها:

فخر الورى حَيْدَرِيٌّ عَمَّ نائِلَةٌ	فجر الهدى ذو المعالي الباهراتِ على
نجم السها فلكيَّاتٌ مراتبه	بادى السنّا نير يسمو على رُحَلِ
ليث الشَّرَى قيس تهمل أنامله	غيث الندى موردٌ أشهى من العسل
بدر البها أفق تبدو كواكبه	شمس الدنا صبح ليل الحادث الجلل

وهكذا زواج في ترتيب القوافي كما ترى، وليس يخفى أن هذا التشكيك في أجزاء القصيدة هو علة تركيب القصائد الكثيرة من القصيدة الواحدة، حتى إن بعضهم عمل قصيدة واشتغل بإحصاء الوجوه التي تنظر بها فبلغت في عينه ميلون وجه، وذلك عالم من الأرقام في قفر من الكلام.

وهذا التجزئ في الشعر ليس حديثاً، بل يرجع عهده إلى عصر سلم الخاسر، فإنه أول من ابتدعه، وذلك أنه رأى أن أقصر ما خصه القدماء من الرجز ما كان على جزءين، كقول دريد بن الصمة:

ياليتنى فيها جَدَعُ أخبُ فيها وأضعُ

فعمل قصيدة على جزء واحد مدح بها موسى الهادي، وسمى الجوهري هذا النوع من النظم بالمقطع^(١) ومن قصيدة سلم:

مرسى المطرُ	غيثٌ بكرُ
ثم انهمرُ	ألوى المرُ
كم اعتسرُ	ثم ايتسرُ
وكم قدرُ	ثم غفرُ

(١) العمدة: ١/١٢٣.

ومن ذوات القوافى فى نوع من النظم سماه أهل البديع التخيير، وقالوا هو أن يأتى الشاعر بيت يسوغ فيه أن يقفى بقواف مختلفة فيتخير منها قافية يرجحها على سائرها ويرسل بها البيت، فيكون ذلك دليلاً على حسن اختياره، وهو تعليل لا معنى له، لأن تمكن القافية شرط فى الشعر، وسواء بعد ذلك ساغ أن يقفى بقواف أخرى أو كان أمره مقصوراً على القافية الواحدة.

وإذا تفقدت الشعر فى أى عصوره لم تعدم أن تجد البيت أو الأبيات مما يقلب على القوافى، ولكن الحسن من ذلك قول ديك الجن، وأكثر من يرويه يسنده إلى أبى نواس، وهو:

قُولى لطيفك ينثنى	عن مضجعى عند المنام
فَعَسَى أَنام فتتنطفئ	نارٌ تَأْجَّجُ فى العظام
جسدٌ تُقْلِبُهُ الأكف	على فراشٍ من سقام
أما أنا فكما علمت	فهل لوصلك من دوام؟

فالقوافى التى يمكن أن ينشد بها هذا الشعر هى:

عند المنام الرقاد	الهجوع الهجود الوَسَن
فى العظام الفؤاد	الضلوع الكبُودُ البدَن
من سقام قتاد	دموع وقود حزن
من دوام معاد	رجوع وجود ثَمَن

ولست أشك فى أن البيت الأخير مقحم وليس من نظم صاحب الأبيات، وإنما ألحقوه بها توسعاً فى الاحتمال، وزيادة من البيان فى المثال؛ وقد وصلوا فى هذا النوع إلى جعل البيت على سبع قواف، واطراد ذلك فى قطعة واحدة، وإنما يحسن هذا متى اتفق استخراجها فى شعر لا ما قُصِدَ إليه، فإن القصد هنا محمل التكلُّف، وهو يخرج الشعر إلى الصنعة فيسقط بها عن درجته قليلاً أو كثيراً كما مرَّ بك فى الصناعات

القوافي الحسية

هذا نوع عجيب، تنوب فيه الحركة أو الإشارة عن اللفظ في موضع القافية موقعة على عروضها، وهو نهاية في الظرف والملاح، لأن من المعاني ما قد تكون الحركة أو الإشارة فيه أبلغ من اللفظ دلالة وأبدع موقعاً وأحسن إطراباً، وإنما يكون لها ذلك إذا كان فيها معنى من معاني القلب، فكأن القلب هو الذي ينطق؛ ولذلك لا يبدو أن يصيب مواقع الهوى ويحرك في النفوس العجب والاستحسان؛ وذلك كقول بعضهم:

ظفرتُ بمعشوق له الحسن حُلّة فقبَلته شفعاً وقلتُ له
فقال أتهوانى؟ فقلت له نعم فقال ومن غيرى؟ فقلت له

البيتان من الطويل، وقد جعل قافية البيت الأول صوت القبلة مكرراً مرتين كما يدل عليه قوله (شفعا) وقافية الثاني الصوت الدال على النفي مكرراً أيضاً، وهو ينشأ عن القرع بطرف اللسان على أطراف الثنيتين المتقدمتين من أعلى الشفر، وليس في البيتين من الحسن أكثر من هذه الحركة كما ترى، ولما كانت مما لا سبيل إلى تصوير حروفه بالخط كانت إلى الطبيعة أقرب وكانت لذلك أملح.

وللعرب في بعض ذلك تعبير يؤدي معنى الإشارة اصطلاحاً، كتعبيرهم عن صوت النفي في البيت الثاني بقولهم مَضْ، قال في لسان العرب: هو أن يقول الإنسان بطرف لسانه شبه لا، وأنشد:

سألته الوصل فقالت مضّ وحركتُ لى رأسها بالنفض^(١)

ومن هذه القوافي قول الآخر:

ولقد قلت للمليحة قولي من بعيد لمن يحبك

فأشارت بمعصم وبنان أيها العاشق المتيّم

(١) قلت: نفض برأسه: حركه كالمتعجب من شيء، فالنفض: من يحرك رأسه ويرجف في مشبه.

والبيتان من الخفيف، وعَجَزُ كل منهما ينقص سببين خفيفين، فجعل تمام
الاول حركة اليد التى يُشار بها بمعنى (أقبل) مكررة، وهى توازن السببين فى امتداد
الزمن، وجعل تمام الثانى الحركة التى يُشار بها بمعنى (اذهب) مكررة كذلك،
والقافيتان مما يُتناوَل بالبصر وما لا سبيل إلى تصويره بغير أداته الطبيعية، وقد روى
البيتين وزاد فيهما ثالثاً الحسن بن رشيق صاحب العمدة، قال: وقد جاء أبو نواس
بإشارات آخر لم تجر العادة بمثلها، وذلك أن الأمين ابن زبيدة قال له مرة: هل
تصنع شعراً لا قافية له؟ قال: نعم، وصنع من فوره ارتجالاً:

ولقد قلت للمليحة قولى من بعيد لمن يحبك... (إشارة قُبلة)
فأشارت بمعصم ثم قالت من بعيد خلاف قولى... (إشارة لا لا)
فتنفست ساعة ثم إنى قلت للبغل عند ذلك... (إشارة امش)

والإشارات فى هذه الأبيات إما أن تكون باليد أو بحركات الشفة على نحو ما
سبق، وعلى ذلك تكون الإشارة للبغل كما يفعل المُكَارُونُ عندنا حين يستحثون
الدابة فيطبقون الفكين ويقرعون بطرف اللسان على الثنايا السفلى.

ولابد لتمام الحسن فى هذا النوع أن يكون البيت موقوفاً بمعناه على الحركة أو
الإشارة فى القافية، وإلا انصرف عنه الذهن وجاءت الطبعة فيه تابعة فكان ذلك مما
يكسبه معنى سخيفاً ويحيله عن وجه الإبداع فيه، إذ تكون الإشارة فى مثل ذلك
عبارة لا بياناً.

ولا تبلغ مثل هذه القوافى أن تكون اختراعاً فى الصناعة، لأنها لا تَحْسُنُ فى
كل حال، وإنما يقضى بها سبب من الأسباب أيها كان، وما لا يحسن أن يجيء
إلا بسبب يقبح إذا جاء من غير سبب، على أنه شئ طبيعى مبذول يتناوله كل من
بُعْث عليه فلا معنى فيه لحقيقة الاختراع، ولعلك إذا تتبعت مواقع ذلك فى الشعر
رأيت كثيراً منه يصلح أن تكون قوافيه حسية، ولكن الصعوبة فى أن تكون هذه
القوافى الحسية موزونة حركاتها على الأوزان التى تقابلها من العروض، وهذا هو
وجه الصنعة الغريبة فيما تقدم.

وها هنا بديعة أخرى، وهى ما يُروى من أن الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل كان إذا مُدِح لا ينظر إلى وجه مادحه، فتلطف ابن مطروح الصاحب جمال الدين الشاعر المتوفى سنة ٦٤٩ وعمل قصيدة بنى قافيتها على الإشارة فكان كلما انتهى إلى قافيته أشار بما يدل عليها فنظر إليه الملك، ومن هذه القصيدة قوله:

تَعَشَّقْتُ ظِيباً وَجْهَهُ مُشْرِقٌ كَذَا إِذَا مَاسَ خَلَّتَ الْغَصْنَ مِنْ قَدِّهِ كَذَا
لَهُ مَقْلَةٌ كَحَلَاءُ نَجْلَاءُ إِنْ رَنَّتْ رَمَتْ أَسْمَهَا فِي قَلْبٍ عَاشِقِهِ كَذَا
ومنها:

أَيَا نَسَمَاتِ الرُّوَضِ بِاللَّهِ بَلَّغْنِي سَلَامِي إِلَى مَنْ صَرَتْ مِنْ أَجَلِهِ كَذَا
وَقَوْلِي لَهُ ذَاكَ الْغَرِيبُ أُمْلِنِي إِلَيْكَ سَلَاماً مِنْ تَحِيَّتِهِ كَذَا
عَسَاهُ إِذَا وَافَتْ تَحِيَّةَ عَبْدِهِ يَسْأَلُ عَنْ حَالِي بِأَنْمَلِهِ كَذَا
وهذا النوع من الإشارة وارد بعضه فى الحديث الشريف كقوله ﷺ: «بُعِثْتُ وَالسَّاعَةُ كَهَذَيْنِ»^(١) وهو كذلك شائع فى كثير من الكلام؛ ومن أعجبه أنه لما اجتمع الناس عند معاوية بن أبى سفيان وقامت الخطباء لبيعة يزيد وأظهر قوم الكراهة، قام رجل يقال له يزيد بن المقنع، فاخترط من سيفه شبراً ثم قال: هذا أمير المؤمنين (وأشار بيده إلى معاوية) فإن مات فهذا (وأشار بيده إلى يزيد) فمن أبى فهذا (وأشار بيده إلى سيفه) فقال معاوية: أنت سيد الخطباء!

(١) متفق عليه: البخارى فى التفسير (٤٩٣٦) وفى الطلاق (٥٣٠١) وفى الرقاق (٦٥٠٣) ومسلم فى الجمعة (٤٣/٨٦٧) وفى الفتى (١٣٣/٢٩٥١).

التاريخ الشعري

ويسمونه التاريخ الحرفي أيضاً، لأن المرجع فيه إلى حساب الأحرف الأبجدية، ولا يعرف بالتعيين أول من استعمله في الشعر، وقد ذكر بعضهم أنه كان مستعملاً في الجاهلية الأولى عند شعرائها، وهو وهم، ولكن أقدم ما وقفت عليه من ذلك قول بعضهم في تأريخه لسنة ٨٢٢:

تاريخه: خير بدا مع كمال العفة

ويريد بقوله (مع كمال العفة) حرف التاء الذي هو تمام لفظ العفة، وحسابه في الجمل هاء، وهذا النوع يسمونه المذيل، وهو أن يكون جملة ناقصاً فيكمل بحرف أو أكثر مع التنبيه على ذلك، وهذا شبيه ببعض أنواع المعنى.

وأقدم من ذلك - ولكنه ليس على طريقة التأريخ، بل على طريقة الإشارة والرمز - قول ابن الشيب من أهل القرن السادس في الإمام المستنجد بالله وهو الخليفة الثاني والثلاثون من خلفاء العباسيين:

أنت الإمام الذي يحكى بسيرته من ناب بعد رسول الله أو خَلَفَا

أصبحت «لب» بنى العباس كلهم إن عُدَّتْ بحروف الجُمْل الخُلَفَا

وجمل حروف (لب) ٣٢؛ ولصلاح الدين الصفدى من أدباء القرن الثامن في قلم ممدوحه بدر الدين:

لصفات بدر الدين فضل شائع تصبو له الأفكار والأسماع

انظر إلى «القلم» الذي يحوى فقد صح الحساب بأنه «نفاع»

وذلك أن جُمْل (القلم) ٢٠١ و (نفاع) كذلك، ومتهى التنطع قول بعضهم وهو من هذا القبيل:

من كان «آدم» جُمْلًا فى سنّه هجرته «حواء» السنين من الدمى

وهو يعنى أن من كان عمره كجُمْل (آدم) أى ٤٥ سنة، هجرته من كان

عمرها كجمل (حواء) وهو ١٥ .

وقد ذكر القرمانى فى تاريخه عند الكلام على فتح القسطنطينية سنة ٨٥٧ وأن السلطان محمد فاتحها حباه الله هذا الفتح لكونه أعلم الملوك وأعدلهم وأحسنهم سيرة وأخلصهم نية وطوية - قال: وضمن بعضهم هذا المعنى فى تأريخ الفتح فقال:

رام أمر الفتح قوم أولون حازه بالنصر قوم آخرون
وقعت لفظة (آخرون) تاريخ فتح المدينة، وقيل فى تاريخها أيضاً (بلدة طيبة) اهـ.

وعندى أن هذا كان منشأ التاريخ فى الشعر، وأن البيت الذى سبق ذكر تاريخه لسنة ٨٢٢ مصنوع للمثال لا غير . ويرجح ذلك أننا لم نجد كتاباً ذكرت فيه التواريخ الشعرية القديمة فى الوفيات وأمثالها إلا كتاب الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية، وأقدم تاريخ ذكر فى هذا الكتاب هو ما أرخوا به وفاة الشيخ تاج الدين بن إبراهيم المتوفى سنة ٧٨٢ وقد ذكر صاحب الشقائق هذه العبارة: «وقال المؤرخ فى تاريخ وفاته:

انتقل الشيخ وتاريخه «قد سلك الله بسر رفيع»

وهو يذكر تراجم العلماء من سنة ٦٩٩؛ فلو كان التاريخ شائعاً قبل ذلك لكان فيهم من لا تسقط به قيمته عن أن يستحق تأريخاً شعرياً وقد مرت عليهم ٧٣ سنة وهى الفرق ما بين العهدين .

وقد أخذ العرب اصطلاح الدلالة بالأحرف على الأعداد قديماً عن السريان، فإنهم كانوا يعبرون عن الأعداد بالحروف، كالبرانيين واليونانيين؛ والحروف عند السريانيين مرتبة ترتيب حروف (أبجد...) غير أن العرب زادوا عليها كلمتى (ثخذ وضظغ) وهى التى سموها الروادف، وأعدادها من ٥٠٠ إلى ١٠٠٠؛ لأن هذه الأحرف الستة لا توجد فى لغة السريان ولا فى لغة العبرانيين؛ ولكن يوجد فيها ما يقابلها، وهى ستة أحرف فرعية نوعوا بها الأحرف الأصلية التى هى: الباء والجيم والdal والكاف والفاء والشاء، فهذه الأحرف عندهم إما جاسية جافية وإما

مخففة لينه، وتعرف باصطلاح السريانيين بالمقساة والمركّخة، فإذا كانت جاسية تلفظ كما تلفظ في العربية وتعلّم بنقطة فوقها عند السريانيين في وسطها عند العبرانيين، وإذا كانت مخففة فإن الباء تلفظ كالفاء الفارسية والجيم كالغين العربية، وتلفظ الدال ذالاً، والكاف خاء، والفاء باءً فارسية، والثاء تاءً.

وزعموا أن أبجد هوز إلخ أسماء لبعض ملوك مدين، وقيل غير ذلك، وهو خلاف لا فائدة في إيراده، لأنه مما لا ثبت له من التاريخ ولا من أقوال المحققين، غير أن بعض المتأخرين يرجح أن هذه الأحرف جمعت كذلك بقصد حصرها في ألفاظ يسهل استظهارها ولو لم تكن ذات معان، كما حصروا بعض أنواع الحروف مثل أحرف القلقلة في قولهم (قُطِبُ جد) ونحوها.

وهو اصطلاح فاش في أكثر الفنون، كالنحو والفقه والعروض وغيرها.

والأنواع التي اصطُلح عليها في هذا التاريخ هي:

المستوفى وهو ما لا تحتاج كلماته ضميمة غيرها، كأكثر التواريخ المتداولة.

والمذيل، وقد مرّ مثاله؛ وعكسه أن يكون التاريخ زائداً فينبه فيه على حرف إذا أسقط جُمْلُهُ من المجموع كان الباقي هو التاريخ، كقول جمال الدين العصامي في تاريخ وصول قاضي مكة وكان اسمه حسناً، وذلك سنة ١٠٧٤ وهو: «حسن قاضيينا حسن بلا كلام، فإذا أسقطت جُمْلَ «بلا كلام» من جمل «حسن قاضيينا حسن» كان التاريخ ما بقي.

والمتوّج وهو ما تحسب أوائل كلماته دون باقيها، كقول بعضهم لسنة ١١٠٢:

قد جاء عام جديد لكل خير يحوز

أرّخ أوائل «قولى بكل خير تفوز»

والممثل وهو ما كان بالتمثيل، كقولهم لتاريخ ٩٨٩ «إنه محمل بين علمين» لأن صورة هذه الأرقام تماثل صورة المحمل بين العلمين؛ ومثله «علم بين محملين» لسنة ٨٩٨.

ومن عجيب هذا النوع قول بعضهم يؤرخ وفاة بعض العلماء سنة ٨٨٨ وهو

«انقلب محراب الديانة والدين والزهد» والمراد حروف الدال في هذه الكلمات، والدال كما لا يخفى ترسم هكذا (د) فإذا انقلبت الدالات الثلاث، صارت هكذا (٨٨٨) وهو عدد السنة المؤرخ بها، وهذا النوع قل أن يتفق في المنظوم إلا بتكلف سمج.

ومن أنواع التاريخ المقابلة، وهو أن يقابل حساب جمل الشيء المؤرخ اسماً أو نعتاً أو نحوهما بجمل جملة مناسبة للحال مع التصريح بالمقابلة، كما يقال في تاريخ مولود اسمه ضياء (تاريخه مقابل لاسمه) أى سنة ٨١٢.

وبقيت أنواع أخرى قليلة لا طائل تحتها بل هي من التفنن المزدول، وقد استعمل التاريخ في بديعية الشيخ عبد الغنى النابلسي؛ ثم جاء تلميذه الشيخ شاکر النحلاوي ويقولون إنه ابتكر في التاريخ طريقة جديدة، وهي جعل كل شطرة من القصيدة تاريخاً، وأنه نظم في ذلك قصيدة في مدح أستاذه تواريخها لسنة ١١٣٦هـ.

ولكن صاحب الشقائق النعمانية ذكر في ترجمة المولى الشهير بابن الشيخ الشبستري^(١) وقد اشتهر بهذه الكنية ولم يعرف اسمه، أنه نظم قصيدة فارسية في ستين بيتاً مصراع كل بيت تاريخ لسنة ٩٢٦، والقصيدة تهنته بجلوس السلطان سليمان بن السلطان سليم، وكان المصراع الأخير تاريخاً لفتح قلعة رودس؛ وهذا الأديب نفسه صنّف أيضاً بالفارسية رسالة في المعنى وجعل أمثلة قواعده كلها على اسم السلطان سليم خان اهـ.

... فيكون النحلاوي ناقلاً لا مخترعاً وإن كان أول من أدخل ذلك في النظم العربي.

ثم اخترع بعده الشيخ أحمد البدير الشاعر طريقة المعجم والمهمل، فأرخ وفاة الأمير منصور الشهابي سنة ١١٨٨ في بيت حروفه المهمة تاريخ وحروفه المعجمة كذلك.

وتفنن المتأخرون بعد ذلك فجمعوا في البيت الواحد تاريخين متفقين أو

(١) الشقائق النعمانية: ٦٠ / ٢ .

مختلفين من الهجرى والميلادى، وثلاثة وأربعة أيضاً، ووضعوا طريقة يجتمع بها فى بيتين ثمانية وعشرون تاريخاً، وذلك أن تنصف السنة المؤرخ بها، ولا بد أن تكون زوجاً ليكون لها نصف صحيح، ويجعل كل شطر من الأبيات نصفين يكون مجموع جمل معجمه نصفاً ومجموع المهمل نصفاً آخر، فيكون فى كل شطر من البيتين تاريخ، ويضم معجمه أو مهمله إلى معجم أى شطر أو مهمله، يخرج بقية العدد.

وقد زاد أدباء الترك فى هذه الطريقة أن يكون كل شطر مهمله فى الحساب على آحاد وعشرات ومئين، وكذلك معجمه، فيؤخذ أى عدد من هذه الأعداد ويضم له ما عدا مماثله من أى شطر بعده، فيكون المجموع تاريخاً، وبهذه الطريقة تضمن الأبيات القليلة كثيراً من التواريخ، وذلك لعمرى هو العناية الناصب والعلم الكاذب، وما لا ينبغي أن يكون له طائل ولا طالب.

وها هنا غريبة فى التاريخ، وهى القصيدة التى نظمها الشيخ محمد قيادو التونسى، وهى مؤرخة لسنة ١٢٧٦هـ، ويستخرج منها تواريخ كثيرة جداً لتلك السنة، ويتولد منها قصيدة ثانية يستخرج منها نفس التاريخ، فى عدد كثير، وعدة أبيات القصيدة (الأم) ستة وثلاثون بيتاً، والمولدة منها ثمانية عشر، فيخرج من كل بيتين من الأولى بيت من الثانية، ومطلع الأولى:

خير حام مجد مجير العبيد حاط خير الجرى لعبد المجيد
حاطه عن عثار جعد برجف منتج جحد عرف ربى العهود
ومن هذين يستخرج مطلع المولدة وهو:

خير حام مجير عبد المجيد عن عثار برجف جحد عهود

فكل شطر برمته تاريخ، ومهمل كل شطر مع مهمل غيره أو معجمه تاريخ، وكذا معجم كل شطر مع معجم غيره أو مهمله تاريخ، وقس على ذلك اعتبار القصيدة بعضها ببعض مما يكون خيراً منه للشاعر أن يشتغل فى (مصلحة الإحصاء)...

فإن هذا كما يقول صاحب فى قول المتنبي :

أحاد أم سداس فى أحاد ليلتنا المنوطة بالتنادى

إنه من عنوان قصائده التى تحير الأفهام وتنفوت الأوهام وتجمع من الحساب ما لا يدرك بالأرثيماتبقى...

وقد يظن أن المتأخرين هم الذين انفردوا بالتفنن فى التاريخ الشعرى على النحو الذى سلف، وهم أهل لذلك فى كثير، ولكن هناك عجيبة أخرى، وهى قصيدة لعبد القادر بن محمد الحسينى الطبرى من أدبار الجيلين العاشر والحادى عشر، وهى تسعة عشر بيتاً يستخرج منها سبعة أبيات تكون تواريخ لسنة ٩٩٨ بطريفة لم أر مثلاً للمتأخرين على كثرة ما تكلفوا من ذلك؛ أما القصيدة فهى مدح الحسن بن أبى ندى بركات. قال ناظمها - بعد أن أوردها فى كتابه المسمى عيون المسائل من أعيان الرسائل ^(١) المطبوع بمصر -: وطريفة استخراج تلك التواريخ بضم الأحرف التى هى أوائل الأبيات مرة، وبضم الأحرف التى هى أوائل بعض الأجزاء (أى التفاعيل) مرة أخرى، وقد شرحها صاحبها فى كتابه فتلتبس هناك.

ثم نظم على هذه الطريقة شهاب الدين أحمد بن الفضل بن محمد المكى من أدباء القرن الحادى عشر، ولكن قصيدته تستخرج منها تسعة تواريخ، وقد ذكرها ابن معصوم فى السلافة ^(٢) وذكر أبيات التواريخ التى تستخرج منها، وقال هناك: إنه منى بعد نظمها لشدة الفكر بعملها وبقي مرثناً بها أربعة أهلة، وأن علماء عصره قد قرظوا عليها؛ ثم ذكر منهم عبد القادر الطبرى صاحب القصيدة الأولى ^(٣).

(١) عيون المسائل من أعيان الرسائل : ص ٣٨ .

(٢) السلافة : ص ٢٠٤ .

(٣) السلافة : ص ١٨٧ .

التخميس والتشطير وَمَا إِلَيْهِمَا

سلف لنا كلام فى باب الأوزان العربية ومقدار وفائها بالحاجة الشعرية ومبلغ معونتها فى ذلك، وأن القوافى نقرات ونغمات ليس الغرض منها إلا استقامة اللحن واتفاقه مع اهتزازات الطرب، وأن الشأن فى ذلك أن لا يشذُّ بها اللحن عن قاعدة الذوق التى لا قيد لها إلا ما يشعر به الإنسان فى خاصة نفسه، فهى لذلك تابعة لا متبوعة، ثم هى على ما يشاء الشاعر فى تقليبها، والشاعرُ قَيِّمُ الصناعة، فحظ القافية منه على مقدار حظ الغرض الشعرى منها، وقد بسطنا ذلك هناك وأمسكنا لهذا الموضع كلاماً نجريه الآن، وذلك فى أصل التخميس والتشطير وما إليهما مما صرفه المتأخرون عن وجهه فى الإمتاع، وأحالوه عن حظه من الفائدة، فجاءوا بالمسطرَّ والمربع والمخمس والمسدس والمسبع والمثمن، ولم يَنَلْ حقيقة الشعر من كل ذلك إلا هذا المسخ من صورة إلى صورة، وهى جناية الصناعة وكم لها من جنيات.

أصل ذلك فى الشعر العربى النوع الذى سموه قديماً بالمسمط وقالوا فيه هو أن يبتدئ الشاعر بيت مصرع - ذى قافيتين - ثم يأتى بأربعة أقسمة على غير قافيته، ثم يعيد قسيماً واحداً من جنس ما ابتدأ به، وهكذا إلى آخر القصيدة، والقافية اللازمة فى القصيدة التى تكرر فى التسميط تسمى عمود القصيدة، ويقال للقصيدة من ذلك النوع مسمطة وسمطية، وهو نوع محدث لم يصح وروده عن أحد من العرب، ولذلك يورد الرواة ما يسوقونه منه غير معزو، إلا ما نحلوا امرأ القيس من ذلك، ولعلهم أرادوا به التمهيد والتوطئة للثقة - وذلك سبب من أسباب الوضع كما بسطنا فى بحث الرواية والرواة -.

قال الجوهري: لامرئ القيس بن حجر قصيدتان سمطيتان، وقد ذكر إحداهما وهى التى سنأتى ببعضها - ولم يذكر الأخرى وقال الصاغاني ليس هذا المسمط فى شعر امرئ القيس بن حجر، ولا فى شعر من يقال له امرئ القيس سواه، وأول

هذا المسمط^(١) :

توهمت من هندٍ معالمٍ أطلال عَفَّاهن طولُ الدَّهرِ فى الزمنِ الخالى
مربعٍ من هندٍ خلت ومصائِفُ يصيحُ بمغناها صدَى وعوازِفُ
وغيرها هوجُ الرياحِ العواصفُ وكلُّ مُسِفٍ ثم آخرٍ رادِفُ

بأسحَمَ من نوءِ السماكين هَطَّالٍ

وهكذا يأتى بأربعة أقسمة على أى قافية شاء، ثم يكرر قسيماً على قافية اللام؛ وكأن التزام اللام فى هذا المسمط استدراج للتصديق بأنه لامرئ القيس حقيقة؛ إذ يذكر بقصيدته الشهيرة التى أولها:

* ألا عم صباحاً أيها الطللُ البالى *

وبين النَّفسِ فى الشعرين ما بين ستين سنة قبل الهجرة ومائة وتسعين بعدها...

ولا يلتزم فى التسميط هذا النوع الخمس، بل قد يجاء به على ثلاثة أقسمة، كهذا الذى يروونه لغير مُسمى:

خيالٌ هاج لى شجنا فبِتْ مكابداً حَزَنا
عميدَ القلبِ مرثَنا بذكرِ اللهو والطربِ
سَبَتْنى ظبيةٌ عطلُ كانَ رضاها عَسَلُ
ينوءُ بخصرِها كَفَلُ ثَقيلِ روادِفِ الحَقَبِ

وهى أربعة قطع أوردها فى تاج العروس. وربما جاءوا فى مطلع القصيدة بخمسة أبيات أو أربعة على قافية واحدة، ثم يأتون بالأقسمة الأربعة بعد ذلك ويتبعونها بالقسيم الذى فيه عمود القصيدة، كنحو الذى ينسب لامرئ القيس، ولا فائدة من التمثيل لذلك؛ إذ هى قطع معدودة تنفس قوافيها بشيء من الضعف

(١) العمدة : ١١٨/١ .

ومرض الذوق، ولم ينسحب على أذيالها إلا المتأخرون؛ ولكنهم خصوا التخميس بما كان على خمسة أجزاء، وسموا ما كان على أربعة مربعا، وما كان على ستة مسدسا، وهكذا إلى الثمانية.

وقد نقل الزبيدي في تاجه عن أبي إسحاق أن كل ما اختلطت قوافيه فهو الخمس، فالتأخرون إنما رتبوا الأسماء، وكان ذلك لإكثارهم من هذه الأنواع، حتى يكون كل نوع مميزاً باسمه؛ ولكنهم هجموا من ذلك على شئعة مرذولة^(١)، وهى تناولهم أشعار الناس وتخصيصها بالتشطير والتخميس؛ وما لذلك قصد الذين وضعوا هذه الأنواع، ولا هو شيء فى أصل الفطرة الشعرية، ولكنها المنافسة فى الصناعة جعلت النابغين منهم ينهجون هذا المنهج، ليظهروا أن فيهم فضلاً وبقية من المتقدمين، بما يزيدون فى معانيهم التى ربما يكون صاحبها قد أماتها ولم يترك فيها مطمعا، ويلمّون ويشدّون فى ألفاظهم وتراكيبهم، من أجل ذلك كانوا لا يقصدون إلا القصائد الشهيرة المجمع على بلاغتهم، والأبيات النادرة، كما فعل الصنفى الحلى وغيره.

ولكن الزمن طمس على هذا الأصل، وصارت تلك الأنواع فى الشعر الجيد أشبه بالزيادة فى تراب الميت: لا يجدد موته ولكنه وسواس وعيث.

أما أصل التشطير فلم نقف على كلام فيه للمتقدمين، ولا نظنهم تكلموا فى ذلك، إذ هو مقصور على تعلق الشاعر بكلام غيره، وذلك من صنع المتأخرين، أما المتقدمون فكانت لهم المعارضة ونحوها مما لا يضطلع به إلا قوى جرىء، وهو أدلّ على حقيقة المقارنة والتنظير بين الكلامين - ولكننا نظن أن أصله ما يسميه العرب بالتمليط والممالطة، وذلك كالذى رواه أبو عمرو بن العلاء من أمر امرئ القيس، وكان يُدلّ بشعره ويتعنّت به على الشعراء، فلا يزال ينازع من قيل له إنه يقول الشعر، حتى نازع التوعم جد قتادة بن الحارث بن التوعم^(٢). فقال له: إن كنت شاعراً فملّط لى أنصافاً ما أقول فأجزها. فقال: نعم.

(١) قلت: مرذولة: رديئة وضد الفضيلة كما فى القاموس.

(٢) فى رواية العمدة لابن الرشيق (ص ١٣٥ ج١) أنه التوعم البشكري، واسمه الحارث بن قتادة، والرواية التى أوردناها لصاحب تاج العروس، نقلها عن أبى عمرو، ونقل صاحب العمدة عن أبى عبيدة عن أبى عمرو. والاختلاف بينهما عجيب كما ترى!

فقال امرؤ القيس: أَحَارِ تَرَى بَرِيقاً هَبَّ وَهَنَا

فقال التوهم: كَنَارٍ مَجُوسٍ تَسْتَعِرُ اسْتَعَارَا

ولم يرد التشطير فى شىء من المأثور عن الأدباء الذين نبغوا فى الصناعات، كالصنفي ومن فى وزنه إلى أواخر القرن الثانى عشر .

والعجيب أن أصحاب البديع يعرفون التشطير البديعى، وهو أن يقسم الشاعر بيته شطرين ثم يصدع كل شطر منهما، كقول أبى تمام:

تدبير معتصم، بالله منتقم لله مرتقب، فى الله مرتغب

ثم لا نجد أحداً من أصحاب الشروح والحواشى إلى الغبانى الذى فرغ من حاشيته سنة ١٢١١ يشير إلى هذا النوع، مع أنهم ابتدءوا يسطون التأليف فى أنواع البديع من القرن الثامن، ومع رغبة المتأخرين فى الخلوص إلى المناسبات والإفاضة فيما يكتبون، وهذا قطع فى أن تسمية الطريقة المعروفة فى النظم بالتشطير لم تعرف إلا فى القرن الثالث عشر، أما الطريقة نفسها فكانت معروفة فى أواخر القرن العاشر وما بعده، ولكنهم كانوا يسمونها «التصدير والتعجيز» وأورد ابن معصوم فى السلافة أشياء من ذلك، وذكر فى ترجمة القاضى تاج الدين ابن إبراهيم المالكى^(١) أنه كتب تقریظاً على تصدير وتعجيز الشيخ تقى الدين السنجارى لقصيدة المتنبى التى مطلعها:

* أجاب دمعى وما الداعى سوى طلل *

ومن هذا التقریظ قوله: لعمرى لقد نسق ذلك التصدير، نسق التشطير، وسبك ذلك التعجيز، سبك الإبريز؛ فتراه إذا أخرج بيتاً عن معناه، تلاعب به فيما اخترعه من مبناه، وإذا طبق المعنى بالمعنى وأبقاه على أصله، أوصله إلى غاية الإعجاب بفصله اهـ.

فإما أن يكون المتأخرون أخذوا لفظة التشطير من النوع البديعى، أو يحتمل أن يكون بعضهم وقف على هذا التقریظ وتحرفت عليه كلمة التشطير بالتشطير، أو نهته الأولى إلى الثانية. والله أعلم.

(١) السلافة : ١٣٣/٢ .

مَا يَقْرَأُ نَظْمًا وَنَثْرًا

ليس يخلو طبع أحد من أوزان القريض، ولا ينفك متكلم من أن يعرض له ما قد يتزن بها في الكلمة الطويلة أو الفقرة القصيرة على غير اجتلاب ولا استكراه؛ قال الجاحظ في نحو هذا ردًّا على من زعم أن قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾^(١) شعر لأنه في تقدير مُسْتَفْعِلُنْ مَفَاعِلُنْ -: أنك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم لوجدت فيها مثل مستفعِلُنْ مفاعِلُنْ كثيرًا، وليس أحد في الأرض يجعل ذلك المقدار شعراً، ولو أن رجلاً من الباعة صاح: من يشتري باذنجان! لقد كان تكلم بكلام في وزن مستفعِلُنْ مفعولان، فكيف يكون هذا شعراً وصاحبه لم يقصد إلى الشعر؟ ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيا في جميع الكلام؛ وإذا جاء المقدار الذي يعلم أنه من نتاج الشعر والمعرفة بالأوزان والقصد إليها كان ذلك شعراً. وسمعت غلاماً لصديق لى وكان قد سقى بطنه يقول لغلمان مولاه: «اذهبوا بى إلى الطبيب وقولوا قد اكتوى!».

وهذا الكلام يخرج وزنه فاعلاتن مفاعِلن مرتين، وقد علمت أن هذا الكلام لم يخطر بباله قط أن يقول بيت شعر أبداً.

فإذا تعمّل الكاتب لمثل ذلك في بعض كلامه فأخرجه على الصناعتين، كان قد حذا على ما تقدم وقصد غير مقصود، وليس يعسر ذلك فيما يخرج منه البيت والبيتان، أما ما يكتب على أن يكون قصيدة في رسالة ورسالة في قصيدة، فهو ما لم يتفق لأحد أن يجيده على حقيقته ولا يتفق؛ لأن شرط هذا النوع أن لا يُحذف من الرسالة حرف واحد، بل تُقرأ كما هي على الإرسال والتقيد.

وشرط آخر: أن لا تتبين فيها ما يظهر على القصيد من إيقاع الوزن ونغم القافية وما يكون من شأنه أن يخصصها بالشعر، لأنه هنا مقصود من حيث تنوع الصناعة لا من حيث استقلالها فهو وجه آخر للكلام، وأنت لو تناولت إحدى القصائد وجهت أن قلبها مثوراً على أن لا تحذف منها حرفاً ولا تقدّم ولا تؤخر؛ وكانت هي في سردها ومعانيها مواتية مطاوعة؛ وهو مما يندر في الشعر،

(١) سورة المسد: ١

لكنك مع ذلك مغلوباً لطبعك، ولظهر في منطقك الوزن والتقطيع، فكيفما قلبت القصيدة جاءت شعراً خالصاً لا مظهر للنثر في جملة، ولا موضع فيها لاحتمال أن تكون من الصناعتين، ولهذا السبب كان ما ورد مما يقرأ منظوماً ومنثوراً على ما ستعرف الوجه فيه.

أقدم ما عُرِف من هذا النوع ما أورده ابن خلكان في ترجمة الشاعر المصري مظفر - الملقب بموفق الدين المتوفى سنة ٥٤٤ - قال: أخبرني أحد أصحابه أن شخصاً قال له رأيت في بعض تأليف أبي العلاء المعري ما صورته «أصلحك الله وأبقاك...».

وليس بعجيب أن تصح نسبة تلك الجملة إلى المعري، فإن له من هذه الغرائب أشياء، ولم نعثر على غير جملة حتى تناول هذا النوع شيخ الإسلام إسماعيل المقرئ فكتب رسالة إلى الملك الأفضل. قال عبد القادر بن محمد الحسيني الطبري من علماء القرن العاشر وعن استقبلوا القرن الحادي عشر أيضاً: اتفق لنا في بعض المجالس أن الوزير جمال الدين الحريري قرأها علينا (أى رسالة المقرئ) مستعظماً صنع الشيخ وصنيعه، مادحاً معانيه وبديعه، متحدياً الفقير وصاحبه الشيخ وجيه الدين عبد الرحمن بن عيسى بن مرشد بالإنشاء على منوالها والإتيان بمثلها... .

وقد عارض الشيخان رسالة المقرئ مترادفين في الإنشاء مترادفين في العمل، والتزما في معارضتهما «السجع في النثر والكثرة في النظم؛ ولندرة هذا النوع من الكلام رأينا إثبات الرسالتين على هيئتي النثر والنظم فيهما .

وقد ذكر الثعالبي في ترجمة بديع الزمان من اليتيمة أنه «يوشح القصيدة الفريدة من قوله بالرسالة الشريفة من إنشائه؛ فيقرأ من النظم النثر ومن النثر النظم» وهو يذهب إلى أن البديع كان شعره في سهولة نثره، ونثره في جزالة^(١) شعره ومعانيه؛ فلعل المقرئ أو سواه ممن يكون اخترع هذا النوع قد تنبه له من هنا؛ لأن ذلك ممكن التحقيق.

ولم نعثر على شيء من بعد هاتين الرسالتين إلى اليوم.

(١) قلت: سبق تعريفها .

نوع من حل المنظوم

حل المنظوم نوع من الإنشاء يلتزمون فيه المعنى الشعرى لا يزيدون عليه شيئاً إلا ما هو من قبيله وفى سبيله، وقد يحلون الشعر بألفاظه وبيعض ألفاظه وبغير ألفاظه؛ ولكن الصفى ذكر من ذلك نوعاً غريباً لسنا نستطيع أن نزيد فى شرحه وتاريخه شيئاً على هذا الذى سننقله عنه، فهو بيان له؛ وأما بعد الصفى فلم نجد الأدباء يذكرون هذا النوع ولا يستعملونه.

قال: مما اقترحه على الشيخ الإمام العالم القدوة المحقق الفاضل الكامل زين الدين فتى شيخ العينية الموصلى حين وقف على بعض مقامات أنشأتها كالتوءمية... فقال أيده الله: إن من أصنع ما أنشأه الشيخ شمس الدين معد بن نصر الجندى فى مقاماته الزينية حل المنظوم الذى فى المقامة الثانية، وهو أنه عمد إلى ثمانية أبيات من الحماسة فجمع حروفها وبسطها رسالته ثم أعادها وجمعها أبياتاً على الوزن والروى من غير زيادة حرف ولا نقصان حرف. فاعتذرت له بأن الوقت يضيق عن المقام إلى حين إنشائها؛ فلما رحلت من فنائه وحضرت بعض أندية الأدب جرى ذكر الإنشاء فشرحت لهم الحكاية وما اقترحه الشيخ العلامة الفاضل زين الدين المذكور رحمه الله تعالى، فقالوا جميعاً هذه صنعة كبيرة، وهى غاية فى الإنشاء تحتاج إلى معرفة علم السياقة، لضبط الحروف والتصرف فى إبدالها، ونحن جميعاً نفتتح عليك ذلك، فإنه الغاية التى إن بلغتها لا يعجزك شئ من إنشاء المقامات، حيث قد سمعنا لك أشياء من ذلك؛ ولم أجد بدءاً من إجابة دعوتهم لارتفاع موانع الاعتذار؛ فقلت: قد ملكتم زمام التخيّر فاختراروا من الشعر ما تأمرون نشره؛ فقالوا: إن حد القصيدة سبعة أبيات؛ ولذلك سومح بعدها فى الإيطاء وعد ما دونها من الأخطاء، ونحن مقتصرون على السبعة الأول من فاتحة السبع الطوك، فقلت اسطروها ليسهل اعتبارها إذ تسبرونها، فسطروا هكذا:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل	بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها	لما نسجتها من جنوب وشمال
ترى بحر الأرام فى عرصاتها	وقيعانها كأنها حب فلفل

كأني غداة البين لما تحملوا
لدى سمرات الحى ناقف حنظل
وقوفاً بها صحبى على مطيعهم
يقولون لا تهلك أسمى وتحمل
وإن شفائى عبرة مُهَرَّاقَة
فهل عند رسم دارس من معول
كدأبك من أم الحويرث قبلها
وجارتها أم الرباب بمأسل

قال الشيخ: فقلت لهم: هذه الأبيات قد تبين تخييرها ولا يمكن تغييرها،
فاختاروا الرسالة فى أى معنى وعلى أى المقاصد تبنى، فقال أحدهم: تكون فى
مخدوم له، أثر بُعدى ومطل وعدى. والمعنى تعتب واذكرنى سالف ذنب، وأوثر
أن تخطب وده وتستنجز وعده، فكتبت:

«الكريم مرتجى؛ وإن كان بابيه مرتجياً؛ والندب يلتقى وإن كان بأسه يتقى؛
والسحب تؤمل بوارقها وإن رهبت صواعقها. ولحلم سيدنا أعظم من العتب
بسالف ذنب، فمأخى شرف الله بلثم كفوفها أفواه العباد، يغفر الخصية، ويوفر
العطية. والملوك مقرر عرف أنه رب حق، بل مالك رق؛ ومقتض من جوده
العميم، نجار وعده الكريم، بسالف كرمه المقيم؛ لا برح إحسانه شاملاً مدى
السنين. إن الله يحب المحسنين».

فلما سطورها ونظروها، وعدوا حروفها واعتبروها، فراوها وما قبلها كفتى
ميزان، عرية من الزيادة والنقصان، سألوا أن أجعل ربعها مأهولاً، وأعيدها سيرتها
الأولى، فأجبت إلى ما طلبوا، وأملت وكتبوا:

قفا نبك من أطلال ليلى فنسأل
دوارسها عن ركبها المتحمل
وننشد من أدراسها كل معلّم
محاه هبوب الراسيات ومجهل
ونأخذ عن أترابها من ترابها
صحيح مقال كالجمان المفصل
معانى هوى أقوى بها دأب بينهم
كدأبى من تبريح قلب مقلقل
عفت غير سبع من رواكد جثم
تحف بشفع من رواكض جفل
ورسم أوارى بحبل مديدها
للى سقاء حول نؤدى معطل
فرققاً بها رفقا وإن هى لم تبج
بلفظ ولا تأوى لسائل منزل

مَالَا يَسْتَحِيلُ بِالْإِنْعَكَاسِ

هذه تسمية الحريري لهذا النوع، ويسميه غيره المقلوب، والمستوى؛ وهو ما يُقرأ طرداً وعكساً على وجه واحد، وقد ورد منه في القرآن الكريم: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾^(١) و ﴿رَبِّكَ فَكْبَرُ﴾^(٢) ولكن الحريري تصنع له في المقامة السادسة عشرة حتى أوصله إلى السمط السباعي، فجاء به معقداً وأخرجه عن شرط الأدب إلى شرط الصنعة، وذلك قوله: «لذ بكل مؤمل إذا لم وملك بذل».

قال ابن حجة الحموى - وقد أورد هذه الكلمات ونفث في عقدها -: «وذكروا أن العلامة القاضي فتح الدين بن الشهيد صاحب ديوان الإنشاء الشريف بالشام المحروس وصل في تركيب هذا النوع إلى أكثر من هذه العدة، وأن المولى محمد ابن البارزى الجهنى صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك المحروسة الإسلامية وقف على ما نثره القاضي فتح الدين المشار إليه في هذا النوع قبل تيمورلنك وذكر أنه في غاية العقادة» وأبلغ ما جاء من هذا النوع في الشعر قول القاضي الأرجاني:

مودته تدوم لكل هول وهل كل مودته تدوم؟

ومن المستملح قول العماد الكاتب وقد مرَّ على القاضي الفاضل راكباً: «سِرُّ فَلَا كَبَاً بِكَ الْفَرَس» فأجابه الفاضل على الفور وقد فطن لقصده: «دام علا العماد» وهى بديهة عجيبة إذا لم يكونا قد فكرا فيها قبل ذلك. وقد نظم الحريري في مقامته تلك أبياتاً خمسة يقول فى أولها:

أسى أرملأ إذا عراً وارُع إذا المرءُ أساً

فغاية أهل هذه الصناعة بأنه «هرب إلى أبو القصير من العروض» ولذلك نظم الصفى أبياته التى أولها:

أَنْتَ ثَنَاءٌ نَاضِرٌ لَكَ إِنَّهُ هَنَا كُلُّ أَرْضٍ أَنْ أَنْتَ ثَنَاءٌ

وكأن الشعر كله خلا إلا من بيت الأرجاني، فهو فى هذه الصناعة الشعر

(٢) سورة المدثر: ٣.

(١) سورة الأنبياء: ٣٣.

كله .

وطبيعة اللغة قابلة لهذا النوع ولكن بمقدار، فإنك تجد في مفرداتها منه أشياء،
كلفظ: باب وسلس وتحت، وأمثالها؛ ثم تراه يتألف غير مقصود إليه بمقدار أيضاً،
كقولك: أرض خضروا، وهزم حمزه، ويلعب على، وحمار راح؛ وأمثال ذلك
مما لا يكبر على العامة أن يجيئوا به، ولكن الفرق بينهم وبين الخاصة أنه في
كلامهم صواب موجود غير مقصود، وفي أكثر ما يتكلف له الخاصة صواب
مقصود غير موجود!

الملاحن

سمى من اللحن الذى هو التعريض والإيماء، تقول: لحنن له لحناً إذا قلت له قولاً مهممه ويخفى على غيره، لأنك تميله بالتورية أو التعمية عن الواضح المفهوم. وسلاحنة الرجلين مفاطنة أحدهما للآخر باستخراج فحوى قوله وما فى نيته وصميره، وهو يشبه فى اللغات الأوربية ما يسمونه بالكتابة الخفية أو الكتابة السرية، وهو فنّ عندهم قديم، غير أن العرب لم يعرفوه إلا فى القول والإشارة، فكانوا يتكلمون فى ذلك بما يؤخذ على الرمز كما سيجىء، فضلاً عن أن فى لغتهم ألفاظاً تحتمل هذا النوع لدلائل اللفظ على معنيين، كأن تقول ما رأيته، أى ما ضربت رثته، وما كلمته أى ما جرحته، وهكذا؛ وقد ورد بعضها فى القرآن، كالضحك بمعنى الحياء؛ وألف ابن دريد فى هذه الألفاظ كتاباً سماه الملاحن، قال فيه هذا كتاب ألفناه ليفزع إليه المُجبر المضطهد على اليمين المكرّ عليها، فيعارض بما رسمناه ويضمّر خلاف ما يظهر ليسلم من عادية الظالم ويتخلص من جَنَفِ الغاشم.

وللفقهاء كلف بهذه الألفاظ، إذ تفتح لهم أبواباً كثيرة مما يعرفونه بالحلل الشرعية، ولهم فيها أَلغاز ومطارحات لا محل لبسطها هنا، وأهل اللغة يسمونها: فُتياً فُتية العرب. أو طيب العرب، أو مساجع العرب، وعليها بنى الحريرى المقامة الثانية والثلاثين

ومما ورد عن العرب من لحن القول ما رواه القالى فى أماليه عن ابن الأعرابى قال أسرت طيء رجلاً شاباً من العرب، فقدم أبوه وعمه ليفدياه، فاشتطوا عليهما فى الفداء، فأعطيا به عطية لم يرضوها، فقال أبوه: لا والذى جعل الفرقدين يمسيان ويصبحان على جبلّى طيء لا أزيدكم على ما أعطيتكم! ثم انصرف فقال الأب للعم: لقد ألقيتُ إلى ابنى كليمه لئن كان فيه خير لينجون؛ فما لبث أن نجا واضطرد قطعةً من إبلهم فكان أباه قال له: الزم الفرقدين على جبلّى طيء، فإنهما طالعان عليهما، وهما - أى هو وعمه - لا يغيبان عنه.

ويروون من مثل هذا أخباراً معدودة لا تدل على شيوعه فيهم ولا تواطؤهم عليه مما يقرب أن يكون به شبه علم عندهم كما فعل المتأخرون في اشتقاق المعنى منه - على ما ستعرفه - .

وأما مثل الإشارة من ذلك فما حكاه المدائني من أن رجلاً مرَّ بحىِّ الأحوص، فلما دنا من القوم حيث يرونه نزل عن راحلته فأتى شجرة فعلق عليها وطباً من لبن، ووضع فى بعض أغصانها حنظلة، ووضع صرة من تراب وصرة من شوك، ثم أتى راحلته فاستوى عليها وذهب.

فنظر الأحوص والقوم فى أمره فعَيَّ به، فقال: أرسلوا فى قيس بن زهير^(١)، فجاء، فقال له الأحوص: ألم تخبرنى أنه لا يرد عليك أمر إلا عرفت مأناه ما لم تر نواصى الخيل؟ قال: فما الخبر؟ فأعلموه، فقال: وضع الصبح لذى عينين، «فصار مثلاً يضرب فى وضوح الشيء» ثم قال: هذا رجل أسره جيش قاصد لكم، ثم أطلق بعد أن أخذت عليه العهود والمواثيق أن لا يُنذرکم فعرّض لكم بما فعل: أما الصرة من التراب فإنه يزعم أنه قد أتاكم عدد كثير، وأما الحنظلة فإنه يخبر أن بنى حنظلة غزّتكم، وأما الشوك فإنه يخبر أن لهم شوكة، وأما اللبن فهو دليل على قرب القوم أو بعدهم إن كان حُلواً أو حامضاً؛ فاستعد الأحوص. وورد الجيش كما ذكر قيس!

هذا عند العرب فى جاهليتها، وأما بعد الإسلام فكان مثل هذا قليلاً، كالذى روى من أن معاوية بن أبى سفيان مازح الأحنف بن قيس، فما روى مازحان أوفر منهما، فقال له: يا أحنف، ما الشيء الملفّف فى البجاد؟ فقال: السخينة يا أمير المؤمنين. أراد معاوية قول الشاعر^(٢):

(١) هو قيس بن زهير بن جذيمة العبسى، صاحب الحروب بين عبس وذيبيان بسبب الفرسين داحس والغبراء. كان فارساً شاعراً داهياً، يضرب به المثل فيقال: أدهى من قيس.

(٢) تروى هذه الأبيات ليزيد بن عمرو بن الصعق، وذكر الجاحظ أنها لأبى المهوش الأسدى، وفى شرح الكامل: ذكر ابن حبيب أنها لأبى المهوش الفقعسى، وذكر دعبيل أنها لأبى الهوس الأسدى. ولتعبير قرش بالسخينة وتميم بحب الطعام وشدة الشره - لكل ذلك أسباب ليس هذا موضع إيرادها (ص ١٤١ ج ٢: الخزانة الكبرى).

إذا ما مات ميتٌ من تميم فسرك أن يعيش فجىء بزاد
بخبز، أو بتمر، أو بسمنٍ أو الشيء الملفف في البجاد
تراه يطوّف الآفاق حوصاً ليأكل رأس لقمان بن عاد^(١)

والملفف في البجاد وطَبّ اللبن؛ وأراد الأحنف أن قرشياً كانت تُعيرُ بأكل
السخينة، وهى حساء من دقيق يُتخذ عند غلاء السعر وعجف المال وكلب الزمان.
وكان معاوية قرشياً والأحنف تميمياً.

ومثل هذا ما أورده الجاحظ في كتاب البيان^(٢): دخل رجل من محارب قيس
على عبد الله بن زيد الهلالي وهو عامل على أرمينية وقد بات في موضع غدير
قريب منه ضفادع، فقال عبد الله للمحاربى: ما تركتنا أشياخ محارب ننام في هذه
الليلة لشدة أصواتها! قال المحاربى: أصلح الله الأمير، إنها أضلّت برقعاً لها فهى
فى ابتغائه! أراد الهلالي قول الأخطل:

تَنقُ بلا شيءٍ شيوخُ محاربٍ وما خلّتها كانت تریشُ ولا تبرى
ضفادع فى ظلماء ليل نجّات فدل عليها صوتها حية البحر

وأراد المحاربى قول الشاعر:

لكلّ هلالٍ من اللؤم برقع ولا بن هلال برقع وقميص!

ثم فشت صنعة المعمى فتلاحنوا بالإشارة والتصحيف وغيرهما - كما ذكر-

ودخل أبو القاسم القطان على الوزير الزينبى يهنيه بالوزارة، فوقف بين يديه
ودعا له وأظهر الفرح ورقص؛ فلما خرج قال الوزير لبعض أهل سره: قبّح الله
هذا الشيخ، إنه يشير برقصه إلى قولهم: رقص للقرء فى دولته.

ولما فشت صنعة المعمى تلاحنوا ببعض أنواعها، ومن ذلك ما ذكره المقرئ
صاحب نفح الطيب فى الملاحنة بالتصحيف، من أن المعتمد مرّ مع وزيره ابن عمار
ببعض أرجاء أشيلية، فلقيتهما امرأة ذات حسن مفرط، فكشفت وجهها وتكلمت

(١) الكامل: ١٠٠/١.

(٢) البيان: ٢١٤/١.

بغير حياء، وكان ذلك بموضع الجباسين الذين يصنعون الجبس، والجيارين الذين يصنعون الجير بأشيبيلية، فالتفت المعتمد إلى موضع الجيارين وقال: يا ابن عمار، الجيارين! ففطن إلى مراده وقال في الحال: يا مولاي، والجباسين! فتحير الحاضرون في ذلك، فسألوا ابن عمار، فقال له المعتمد لا تبعها منهم إلا غالية! وذلك أن المعتمد صحف «الحيا: زين» بقوله الجيارين، إشارة إلى أن تلك المرأة لو كان عندها حياء لازدانت؛ فقال له: والجباسين، يريد به على التصحيف والخنا: شين» أى هى وإن كانت جميلة لكن الخنا شأنها.

والغاية التى لا يلحق شأوها ما حكاه بعض أهل البديع فى مبحث التصحيف عن بعض ملوك المغرب أنه طلب بنت أحد وزرائه فأبى ذلك، فأحضره الملك فى ديوانه فقال له: أندلسى، يعنى «أبذل شىء» فقال الوزير: أندلسى! يعنى «أبذل بيتى»، فقال الملك: أندلسى، يعنى «أبذل شىء» أى أن البيت أحقر شىء. فقال الوزير: أندلسى، يعنى «أبذل بنتى» فقال الملك: أندلسى، يعنى «أبذل نيتى» أى أرجع عن نيتى لعزلك وظلمك!

ويقال إنها حكاية مخترعة. ذكر ذلك الصفى فى ديوانه. ولكن اللحن الكتابى قليل فى المروى عنهم، وهو على غير قاعدة ولا تواطؤ بين المتلاحنين، ولذلك لم يعد أن يكون كالملفوظ به، ومنه ما روى عن صاحب أن أديبا رفع إليه كتاباً يطلب عملاً وفى آخره: إن رأى مولانا فعل إن شاء الله!

فرد إليه الكتاب، وتواتر الخبر بحصول التوقيع فيه، ولكن الرجل أقبل عليه يراجع فلم ير فيه توقيعاً حتى عرضه على أبى العباس الضبى فتفقد أحرفه حتى ظفر بألف وقع بها صاحب عند قوله (فعل إن شاء الله) فكانت بعد التوقيع (أفعل...) ونحو ذلك: ﴿إن الملائمة يأترون بك﴾^(١)...

وقد بسطنا جانباً من الكلام فى هذا توطئة للبحث فى الألفاظ والمعنى، لأنهما بسبيله، ولأن الملاحن فى هذه اللغة قليلة حتى إن ما لم نذكره منها لا يزيد على ما ذكرنا فيما نعلم، وبعضه يكاد يظهر أنه مصنوع، كهذا الخبر الذى يقولون فيه إن بعض الملوك عزم على قصد عدو له، فقدّم ربيثة يتجسس أحواله، فلما

(١) سورة القصص : ٢٠ .

صار إلى أرض العدو، شعروا به فقبضوا عليه وأمروه أن يكتب لصاحبه كتاباً يذكر له أنه وجد القوم ضعفاء ويطمعه فيهم ويزين له غزوهم، فكتب:

«أما بعد فقد أحطت علماً بالقوم، وأصبحت مستريحاً من السعى في تعرف أحوالهم وإنى قد استضعفتهم بالنسبة إليكم، وقد كنت أعهد من أخلاق الملك المهلة في الأمور والنظر في العاقبة، ولكن ليس هذا وقت النظر في العاقبة، فقد تحققت أنكم الفئة الغالبة بإذن الله، وقد رأيت من أحوال القوم ما يطيب به قلب الملك: نصحت فدع ربيك ودع مهلك والسلام».

فلما انتهى الكتاب إلى الملك قرأه على رجاله فقويت قلوبهم وصحت عزائمهم على الخروج، ثم إن الملك خلا بخاصته من الكبراء وأهل الرأي وقال: أريد أن تتأملوا هذا الكتاب، فإنني شعرت منه بأمر، وإنى غير سائر حتى أنظر في أمرى. فقال بعضهم: ما الذى لحظ الملك فى الكتاب؟ قال: إن فلاناً من الرجال ذوى الحصافة والرأى، وقد أنكرت ظاهر لفظه فتأملت فحواه فوجدت فى باطنه خلاف ما يؤهم الظاهر، وذلك فى قوله: «أصبحت مستريحاً من السعى» فيريد أنه محبوس، وقوله: «استضعفتهم بالنسبة إليكم» يريد أنهم ضعفنا لكثرتهم، وقوله «إنكم الفئة الغالبة بإذن الله» يشير إلى قوله تعالى: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(١) وقوله «رأيت من أحوال القوم ما يطيب به (قلب) الملك» فإننى تأملت ما بعده فوجدت أنه يريد بالقلب: العكس، لأن الجملة الآتية مما يوهم ذلك، فقلبت الجملة وهى قوله «نصحت فدع ربيك ودع مهلك» فإذا مقلوبها «كلهم عدو كبير. عد فتحصن» أهـ.

(١) سورة البقرة: ٢٤٩.

الألغاز والأحاجى والمعميات وغيرها

الألغاز :

هى جمع لغز، وأصله الحفرة المتوية يحفرها اليربوع والضب والفأر، لأن هذه الدواب تحفر جحرها مستقيماً إلى أسفل ثم تحفر فى جانب منه طريقاً وفى الجانب الآخر طريقاً، وكذلك فى الجانب الثالث والرابع، فإذا طلب بعضها البدوى بعصاه من جانب نفق من الجانب الآخر. ثم استعملوه فى الإتيان بالعبارة يدل ظاهرها على غير الموصوف بها ويدل باطنها عليه، وهى من قبيل الملاحن، وتشارك المعمى والأحاجى أيضاً من حيث التعمية فى جميعها وإيرادها على ذلك الوجه المقصود؛ إلا أن بينها فروقاً فى الاعتبار والاصطلاح عند المتأخرين - كما تعرف ذلك فيما نسوقه منها وما نذكره من تاريخها -.

أما الألغاز فقد قال فيها السيوطى: هى أنواع؛ ألغاز قصدها العرب، وألغاز قصدها أئمة اللغة، وأبيات لم تقصد العرب الإلغاز بها وإنما قالتها فصادف أن تكون ألغازاً. وهى نوعان: فإنها تارة يقع الإلغاز بها من حيث معانيها، وأكثر أبيات المعانى من هذا النوع، وقد ألف ابن قتيبة فى هذا النوع مجلداً حسناً، وكذلك ألف غيره؛ وإنما سموا هذا النوع أبيات المعانى لأنها تحتاج الى أن يُسأل عن معانيها؛ ولا تُفهم من أول وهلة؛ وتارة يقع الإلغاز بها من حيث اللفظ والتركيب والإعراب...

ثم أورد أمثلة من ذلك، كالذى أنشده ابن سلام فى كتاب الأضداد لأبى دؤاد الإيادى:

رُبَّ كلب رأيته فى وثاق جعل الكلب للأمير جمالا

رب ثور رأيت فى جحر نمل وقطاة تحمل الأثقالا

والكلب: الحلقة التى تكون فى السيف، والثور: ذكر النمل، والقطاة

[.....].

وكالذى أنشده الخليل لأبى مقدم الخزاعى:

وعجوز أتت تبيع دجاجا لم يفرخن قد رأيت عضالا
ثم عاد الدجاج من عجب الدهر فراريج صبية أطفالا
وقال: يعنى دجاجة الغزل، وهى الكبة أو ما يخرج عن المغزل، ويعنى
بالفراريج: الأقيية.

وكقول بعضهم من أبيات المعانى يصف نار القرى:

وشعثاء غبراء الفروع منيفة بها توصف الحسناء أو هى أجمل
دعوتُ بها أبناء ليل كأنهم وقد أبصروها مُعطشون قد أنهلوا^(١)
أنشدهما أبو عثمان الأشناندانى وقال: يصف ناراً جعلها شعثاء لتفرق
أعاليها، كأنها شعثاء الرأس، وغبراء يعنى غبرة الدخان، وقوله: بها توصف
الحسناء، فإن العرب تصف الجارية فتقول: كأنها شعلة نار! وقوله: دعوت بها
أبناء ليل، يعنى أضيافاً دعاهم بضوئها فلما رأوها كأنهم من السرور بها مُعطشون
قد أوردوا إبلهم.

وكذلك أورد السيوطى مما وقع به الإلغاز من حيث اللفظ والتركيب والإعراب
كقول بعضهم:

أقول لعبد الله لَمَّا سَقَاؤُنَا ونحن بوادى عبد شمس وهاشم
ومعناه: أقوال لعبد الله لما سَقَاؤُنَا وَهَى، أى ضعف، ونحن بهذا الوادى:
شَم، أى شَم البرق عسى يعقبه المطر، وقرينه هاشم لعبد شمس أبعدت فهم المرد،
وكتبتُ (وَهَا) بالالف للإلغاز.

(١) من أبلغ ما قيل فى وصف هذه النار وهو قريب مما نحن فيه، قول الفرزدق:

ومستمنح طاوى المصير كأنما يساوره من شدة الجوع أولق
دعوت بحمراء الفروع كأنها ذرا راية فى جانب الجو تخفق
وإنى سفية النار للمبتغى القرى وإنى حلیم الكلب للضيف يطرق
وكان الجاحظ يكثر التعجب والاستحسان من قوله: سفية النار وحليم الكلب.

ثم قال: وأما إلغاز أئمة اللغة فالأصل فيه ما قال أبو الطيب في كتاب مراتب النحويين عن الخليل، قال: رأيت أعرابياً يسأل أعرابياً عن البلصوص ما هو؟ فقال طائر، قال: فكيف تجمع؟ قال: البَلْنَصَى، قال الخليل: فلو ألغز رجلٌ فقال: ما البلصوص يتبع البَلْنَصَى كان لغزاً.

وأورد السيوطي من هذا النوع قصيدة ضمنها أبو منصور بن الربيع ألفاظاً من غريب اللغة وأحضرها أبا أسامة اللغوي حين نزل بمدينة واسط على جهة الامتحان لمعرفته، فكتب المسئول جوابها لوقته مقتضياً، وهو جواب مطول يدل على اتساع في الحفظ والرواية. وقد وقفت على قصيدة مثلها أوردتها الصلاح الكتبي في فوات الوفيات لضياء الدين القوصي المتوفى سنة ٥٩٩ وقال إنه وسمها بالؤلؤة المكنونة واليتيمة المصونة في الأسماء المنكرة ثم ذكر أن شهاب الدين القوصي سرد شرحها في معجمه عقب كل بيت، وهي قصيدة منكورة بما تحوى من اللفظ المنكر.

وقد ورد عن العرب الإلغاز بطريقة السؤال والجواب على النحو الذي ذهب إليه المتأخرون، مثل ما ذكره على بن ظافر في كتابه بدائع البدائع، وهو أن عبيد ابن الأبرص لقي امرأ القيس فقال له: كيف معرفتك بالأوابد؟ قال: ألقى ما أحبيت، فقال عبيد:

ما حَبَّةٌ مَيِّتَةٌ أَحْيَتْ بِمَيِّتِهَا درداد ما أنبت سنأ وأضراساً؟

فأجابه:

تلك الشعيرة تسقى في سنا بلها فأخرجت بعد طول المكث أكدا سا

إلى آخر المحاور في كتاب البدائع، وصفحة ٥٨ من كتاب المعنى.

وقد ابتدأ ولع المتأخرين بهذه الألغاز من القرن السابع - وكانت الحاجة بها قبل ذلك قليلة - وذهبوا فيها كل مذهب، حتى إن أبا الحسن بن الجياب المتوفى سنة ٧٤٩ رئيس كتاب الأندلس وأستاذ لسان الدين بن الخطيب قد أفرد لها في ديوان شعره باباً جاء فيه بأشياء بدیعة؛ ولعل هذا الباب من الشعر الذي سماه ابن أبي الأصبغ في كتابه «تحرير التحرير» عندما عد المناحي التي يقول فيها الشعراء، بباب السؤال والجواب؛ وبلغ من ولعهم بها أنها كانت ترد على دواوين الإنشاء من

الأقطار؛ وكانوا يجرون فيها على طريقة العرب، ويزيدون على ذلك الإشارة إلى الملمَّز به بالتصحييف والقلب والحذف والتبديل وما أشبهها مما هو من صناعة المعمرى، وجمَّلوها بالتورية فزادوها إبداعاً حتى صارت من زينة الشعر، كقول بعضهم فى القلم:

وذى خضوعٍ راعٍ ساجدٌ ودمعُه من جفنه جارى
مُواظِبُ «الخميس» لأوقاتها منقطعٌ فى خدمة البارى

وقال القاضى صدر الدين بن الأدمى فى كشتوان (كستبان):

ما رفيق وصاحبٌ لك تلقا ه معيناً على بلوغ المرام
هو للعين واضح وجلى وتراه فى غاية «الإيهام»

والأمثلة من أنواع الألغاز كثيرة فى كتب الأدب، ولكن من أبعدھا غاية وأبدعها آية لغز الشيخ زين بن العجمى وقد كتبه نثراً، وهو قوله:

سألتك أعزك الله عن سائل لا حظ له فى الصدقة... إلخ^(١).

ومن الألغاز نوع عجيب، وهو أن تلغز فى اسم ويأتى فى اللغز بما يطابق صورة أحرفه فى الرسم من الأشياء، وهو نادر جداً فى المأثور عنهم؛ ومنه أن الوليد الوقشى وأبا مروان بن عبد الملك بن سراج القرطبى اجتمعوا، وكانا فريدى عصرهما... إلخ^(٢).

أما ألغاز النحاة والفقهاء وأهل الفرائض ومن يتحلون بالحكم والفلسفة فأكثرها مشهور ولا حاجة إلى البحث فيها، لأن الفن أغلب عليها، ولسنا فى ذلك؛ غير أنا نذكر عجيبة منه لم يتفق مثلها فيما وقفنا عليه من ذلك عيناً أو أثراً، وتلك أن المولى شمس الدين الغفارى من علماء دولة السلطان بايزيد فى القرن الثامن وقفوا له على رسالة ضمنها عشرين قطعة منظومة، كل قطعة منها مسألة من فن مستقل، وقد غيّر فيها أسماء تلك الفنون بطريق الألغاز امتحاناً لفضلاء دهره، ولم يقدرُوا على تعيين فنونها فضلاً عن حل مسائلها. قال صاحب الشقائق

(١) خزائن الأدب : ص ٤٨٥ .

(٢) المعمرى والألغاز: ص ١٢٠ .

النعمانية: وشرح هذه الرسالة ابنه محمد شاه وعين أسماء الفنون وبين المناسبة فيما ذكره من الألغاز وحل مشكلات مسائلها. ووجه العجب فى ذلك مسفر فانظروا فيه . . .

الأحاجى :

هى جمع أحجية، وهى اسم من المحاجة، ويقال لها أدعية من المداعة.
قال فى الصحاح: ويقال: حجياك ما كذا وكذا؟ وهى لعبة وأغلوطة يتعاطاها الناس بينهم، قال أبو عبيد: هو نحو قولهم: أخرج ما فى يدى ولك كذا؛ وتقول أيضاً: أنا حجياك فى هذا الأمر، أى من يحاجيك. وقال فى تاج العروس: واحتجى: أصب ما حُوجى به، قال:

فناصيتى وراحتلى ورحلى ونسعا ناقتى لمن احتجاها

فالأحاجى على ذلك تشبه الأغاليط التى يسميها عامة مصر «بالفوازير» وهى بهذا المعنى أعم من الألغاز، وإن كان الأصل فى كلها واحداً.

وهذه الأحاجى غريزية فى الفطرة على ما يظهر لى، فإن الطفل الذى هو دليل الطبيعة الأولى فى الإنسان يسأل عن أشياء كثيرة بوصفها والإشارة إليها، فإذا سُئل هو بمثل ذلك كانت عنده أحاجى؛ ومما يؤيد ذلك ورود بعض الأحاجى فى أسفار العهد القديم كسفر القضاة، وشيء مما يماثلها فى الخرافات القديمة أيضاً (الميثولوجي) ويكون تقرير هذه المعانى وإخراجها مخرج الموضوعات النفسية مما عمله الحكماء ملحقاً بالنرد والشطرنج وأمثالهما.

وأقدم ما وصل إلينا من أحاجى العرب نوع كان يستعمل فى اختبار البداة وقوة العارضة، فيلقى السائل الكلمة المفردة والمسئول يُتمّها فى كل مرة حتى يحتبس لسانه أو يكل بيانه، كهذا الذى نقلوه عن هند بنت الحُسن وهى قديمة فى الجاهلية أدركت المتلمس أحد حكام العرب الذى يقال إنه أول من وصل الوصيلى وسيب السائبة - وهى امرأة ساجعة^(١) متبذلة كانت تحاجى الرجال، إلى أن مرَّ بها رجل فسأله المحاجة؛ فقال: كاد . . . فقالت: كاد العروس يكون الأمير، فقال:

(١) قلت: الساجع: القاصد فى الكلام وغيره والوجه المعتدل الحسن الخلقة كما فى القاموس .

كاد... قالت: كاد المتعل يكون راكباً، فقال: كاد... قالت: كاد البخيل يكون كلباً، وانصرف، فقالت له: أحاجيك، فقال: قولي، قالت: عجبت... قال: عجبت للسبخة لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها، فقالت: عجبت... قال: عجبت للحجارة لا يكبر صغیرها ولا يهرم كبيرها... ثم أفحمها بكلمة بذیئة فخرجت وتركت الحاجة.

ولكن الحریری المتوفى سنة ٥١٦ وضع نوعاً من المعى استعار له اسم الأحجية، وهو أول من اخترعه وسماه كذلك، وقد نظم منه فى المقامة السادسة والثلاثين عشرين أحجية، وقال: وضع الأحجية لامتحان الألعية، واستخراج الحیة الخفية، وشرطها أن تكون ذات مماثلة حقيقية وألفاظ معنوية ولطيفة أدبية فمتى نافى هذا النمط ضاهت السقط ولم تدخل السقط أهد.

وذلك النوع كلام مركب يستخرج منه لفظ بسيط لو جزئ انقسم إلى ما يعادل ذلك المركب فى أجزائه ويرادفها فى المعنى كقوله فى أسكوب^(١):

يا من تبوا ذروة فى الفضل فاقت كل ذروه

ما مثل قولك: أعط إبري حقاً يلوح بغير عروه؟

لأن (أعط) يرادفها (أس) من الأوس وهو الإعطاء والإبريق بغير عروة يرادفه الكوب.

وقول أبى الوفاء العرضى فى صهباء:

يا مفرداً فيما جمع وكاملاً فيما ابتدع

بين لنا أحجية حاصلها: اسكت رجع؟

وقد فلا المتأخرون مركبات اللغة التى يُستخرج منها مثل هذه الألفاظ وجمعوا من ذلك كلمات كثيرة، كقولهم: اطلب طريقاً، فى «سكسيل»؛ وتُراب مطر، فى «البراغيث» لأن البرى هو التراب، وقد أخذ بعض المعاصرين هذه الكلمة وجعلها

(١) قلت: الأسكوب: الإسكاف، أو القين كما فى القاموس.

هكذا «ابن عجب أمطرا» يريد: البراء بن عجب، وهو صحابي.

واقترار الأحاجي ما عرفت من هذا النمط خروج بها عما ليس له حد إلى ما يُحدّ، وبذلك تعسفوا بها في هذه البواد وركبوا من أمرها كما رأيت الثور بعد الجواد.

وقد ذكر عبد القادر البغدادي صاحب خزانة الأدب أن أجل التصانيف المؤلفة في الألغاز والأحاجي كتاب الإعجاز في الأحاجي والألغاز، تأليف أبي المعالي سعد الوراق الخطيري، قل: وهو كتاب تكل عن وصفه الألسن، جمع فيه ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين. أهـ.

المعمى:

قدّمنا أن هذا الفن هو الأصل من حيث الصنعة، وأن الملاحن والألغاز والأحاجي هي منه، بعضها أعان عليه، وبعضه أعان عليها؛ ونحن موردون هنا قولاً يشمل الجميع توفيةً للفائدة، وإنما الاتساع مادة الإشباع.

نقل البغدادي في خزانة الأدب عن صاحب الإعجاز في الأحاجي والألغاز في ذكر أسماء هذا الفن وعودها إلى معنى واحد، أن هذا الفن وأشباهه يسمّى المعايّة، والعويص، واللغز، والرمز، والمحاكاة، وأبيات المعاني، والملاحن، والمرموس، والتأويل، والكناية، والتعريض، والإشارة، والتوجيه، والمعمى، والممثل. والمعنى في الجميع واحد، وإنما اختلفت أسماؤه بحسب اختلاف وجوه اعتباراته؛ فإنك إذا اعتبرته من حيث هو مغطى عنك سميته معمى، مأخوذ من لفظ العمى، وهو تغطية البصر عن إدراك المعقول، وكل شيء تغطى عنك فهو عمى عليك، وإذا اعتبرته من حيث إنه ستر عنك ورُمس سميته مرموساً، مأخوذ من الرّمس، وهو القبر، كأنه قبر ودُفن ليخفى مكانه على ملتسمه؛ وقد صنّف بعض الناس في هذا كتاباً وسمّاه المرموس، وأكثره ركيك عامي؛ وإذا اعتبرته من حيث إن معناه يثول إليك سميته التأويل... إلخ^(١).

وقد ذكر جمال الدين بن نباتة في سرح العيون، المتوفى سنة ٧٦٨ أن المعمى

(١) خزانة الأدب الكبرى: ١١٦/٣.

سمى فى عصره: المترجم، وأن الخليل واضع العروض هو أول من استخرجه ونظر فيه، قال: وذلك أن بعض اليونان كتب بلغتهم كتاباً إلى الخليل فخلا به شهراً حتى فهمه، فقليل له فى ذلك فقال: علمت أنه لابدّ وأن يفتتح باسم الله تعالى، فبنيت على ذلك وقست وجعلته أصلاً ففتحته، ثم وضعت كتاب المعمى أهـ.

وهو خبر لا نراه محتملاً إلا أن يكون ذلك اليونانى مستعرباً وافتتح كتابه حقيقة باسم الله على الطريقة العربية، فلا يبقى ثمت إلا أن تُؤاتى الفطنة ويسعف الإلهام. ونظير ذلك ما فعله شامليون فى قراءة الخط الهيروغلىفى الذى كان على حجر رشيد بعد أن اعتمد ترجمة اليونانى فى المقابلة، وكان ذلك مبدأ لما بعده إلى اليوم.

واستمرّ فن المعمى بعد الخليل أمثلة متفرقة لا تُفرد بالتدوين ولا تتشعب فى المعالجة؛ حتى كان الجاحظ يقول: ليس المعمى بشيء؛ قد كان كيسان مستملئ أبى عبيدة يسمع خلاف ما يقال، ويكتب خلاف ما يسمع ويقرأ خلاف ما يكتب، وكان أعلم الناس باستخراج المعمى؛ وكان النظام على قدرته على أصناف العلوم لا يقدر على استخراج أخف ما يكون من المعمى.

وفى كلمة الجاحظ تحاملٌ بين على الخليل، وما كان النظام وهو ما هو ليتفرغ لشيء كالمعمى حتى يكون عجزه حطاً من الفن؛ ولا شك أن النظام كان عن سائر الفنون التى لم يزاولها أعجز منه عن المعمى.

وتجد شيئاً من تلك الأمثلة المتفرقة فى يتيمة الدهر للثعالبي، وقد ذكر فى ترجمة أبى أحمد بن أبى بكر الكاتب، أن أبا طلحة قسورة بن محمد كان من أولع الناس بالتصحيفات، فقال له أبو أحمد يوماً: إن أخرجت مصحفاً أسألك عنه وصلتك بمائة دينار، قال: أرجو أن لا أقصر عن إخراجه؛ فقال أبو أحمد «فى قشور هينم جمـ» فوقف حمار قسورة وتبلد طبعه، فقال: إن رأى الشيخ أن يمهلىنى يوماً فعل؛ فقال: أمهلتك سنة؛ فحال الحول ولم يقطع شعرة؛ فقال له أبو أحمد: هو اسمك: قسورة بن محمد، فازداد خجله وأسفه .

وبهذا تتبين أن المعنى لم يكن قد بلغ شيئاً مما انتهى إليه عند المتأخرين، وأن المعروفين به كانوا على قلتهم إنما يُعرفون بفرط الرغبة وشدة الولوع، لا كما يُعرف المتميز بالفن على وجه الإحاطة به والاختصاص فيه.

وما زال ذلك أمره حتى وقع إلى الأعاجم فدونوه واستنبطوا قواعده، وأنزلوه في رتبة بين الفنون والعلوم؛ وأول من فعل ذلك منهم شرف الدين على اليزدى الفارسي صاحب تاريخ ظفر نامه في الفتوحات التيمورية، وقد أطلقوا عليه لقب الواضح له، وتوفي سنة ٨٣٠ - قال قطب الدين المكي: وما زال فضلاء العجم يقتفون أثره ويوسعون دائرة الفن ويتعمقون فيه إلى أن ألف فيه المولى نور الدين عبد الرحمن الجامي المتوفى سنة ٨٩٧ صاحب شرح الكافية عشر مسائل؛ فدوّنت وشرحت، وكثر فيها التصنيف إلى أن نبغ في عصره المولى مير حسين النيسابوري المتوفى سنة ٩١٢ فأتى فيه بالسحر الحلال وفاق في تعمقه ودقة نظره سائر الأقران والأمثال؛ كتب فيه رسالة تكاد تبلغ حد الإعجاز... وارتفع شأن مير حسين بسبب علم المعنى مع تعمقه في سائر العقليات، فصار ملوك خراسان وأعيانهم يرسلون أولادهم إليه ليقروا رسالته عليه... وظهر بعدهما فائقون في المعنى في كل قطر بحيث لو جمعت تراجمهم لزادت على مجلد كبير.

وقطب الدين الموما إليه هو أول من ترجم طريقة المعنى عن الفارسية إلى العربية في رسالة سماها كنز الأسماء في كشف المعنى؛ وتلاه تلميذه عبد المعين بن أحمد الشهير بابن البكاء البلخي، فألف رسالة سماها الطراز الأسمى على كنز الأسماء.

وحد المعنى أنه قول يستخرج منه كلمة فأكثر بطريق الرمز والإيحاء بحيث يقبله الذوق السليم، ويشترط فيه أن يكون له في نفسه معنى وراء المعنى المقصود بالتعمية؛ وقال القطب في الفرق بينه وبين اللغز: إن الكلام إذا دل على اسم شيء من الأشياء بذكر صفات له تميزه عما عداه كان ذلك لغزاً، وإذا دل على اسم خاص بملاحظة كونه لفظاً بدلالة كرموزه سمي ذلك معنى؛ فالكلام الدال على بعض الأسماء يكون معنى من حيث إن مدلوله اسم من الأسماء بملاحظة الرمز على حروفه، ولغزاً من حيث إن مدلوله ذات من الذوات بملاحظة أوصافها؛ فعلى

هذا يكون قول القائل فى كمون:

يا أيها العطار أعرب لنا

عن اسم شىء قل فى سؤمكا

تنظره بالعين فى يقظة

كما ترى بالقلب فى: نومكا

يصلح أن يكون لغزاً بملاحظة دلالة على صفات الكمون، ويصلح أن يكون فى اصطلاحهم معمى باعتبار دلالة على اسمه بطريق الرمز أهـ.

ولاستخراج المعمى أعمال مدونة لا تتعلق بالجهة التاريخية منه ولا بالجهة العلمية، ولكنها تتعلق بالجهة العملية، وإذا أخذنا فى بسطها احتجنا أن نأتى بتأليف جديد فى هذا الفن؛ وهو ما لا يتسع له الغرض إلا إذا أحفينا^(١) فى الطلب، ولسنا نستطيع أن نحمل القلم على هذه السنة فى سائر الفنون من علم الأدب.

البنود والمستزاد:

هى جمع «بند» فارسية معربة، وقد ذكر فى التاج أنها تطلق على الألغاز والمعميات، على أن المراد بها هنا هذا النوع من السجع الذى بُنيت جملة على التوقيع وقسمت إلى أجزاء قصيرة من العروض تنتظم أوزاناً مختلفة فتكسبها شبهاً من الشعر وهى ليست منه.

وتلك صناعة فى النثر لا يُعرف مخترعها، ولكن الكلام كله لا يخلو من بعض جمل تتفق مع هذا النوع اتفاقاً قريباً أو بعيداً، ولا سيما بعض أسجاع العرب، وأنت تعرف ذلك إذا تتبعت واستقصيت.

ولا جرم أن كلمة البند المطلقة على هذه الصناعة تدل على واحد من أمرين: إما أنها ملحقة فى أصلها بالألغاز والمعميات، وإما أنها من صنعة أحد أدباء العجم، سواء احتذاها على مثال أو ابتدأها؛ وهذا أرجح الرأيين؛ لأنه لم يعرف من هذه الطريقة شىء قبل البنود الخمسة التى رصفها الشاعر المعروف بابن معتوق المتوفى سنة ١٠٨٧ وهى ملحقة بديوانه، وقد جعل الأول فى وصف الآيات

(١) قلت: أحفى فى الطلب: ألح فيه وجهه.

السماوية، والثاني في وصف الآيات الأرضية، والثالث يتخلص فيه إلى ذكر نعمة إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ ثم ينتهي في الرابع والخامس إلى مدح شخص مسمى، وهذه المعاني كما ترى من أغراض الشعر؛ فهي دليل على حقيقة الصنعة. ومن البند الأول قوله:

أيها الراقد في الظلمة، نبه طرف الفكرة، من رقدة الغفلة، وانظر أثر القدرة، واجلُ غَلَس^(١) الحيرة، في فجر سنَى الخبرة، وارنُ إلى الفلك الأطلس والعرش، وما فيه من النقش، وهذا الأفق الأدكن، في ذا الصنع المتقن، والسبع السماوات؛ ففي ذلك آيات، هدى تكشف عن صحة إثبات إله، كشفت قدرته عن غرر^(٢) الصبح، وأرخت طُرُرَ النجج^(٣) على نحر ضياه، فغدا يغسل من مبسمه الأشنب، في مضمضمتي نور سنه، لَعَس الغيب، واستبدلت الظلمة من عنبرها الأسود بالأشهب، واعتاضت من مفرقها الحالك بالأشيب.

ومما يعجب له أن ابن معتوق ختم جميع بنوده الخمسة بالراء المفتوحة، ولم يلتزم فيها غير ذلك مما يطرد في الجميع، فكان ختام الأول «سراً وجهاراً» والثاني «مساءً ونهاراً» والثالث «بهاراً ونضاراً» والرابع «عذاراً» والخامس «مزاراً» وقد خفي علينا وجه الحكمة في ذلك، إلا أن يكون من مقتضيات التوقيع، فتكون تلك تلك القوافي قرارات للنغم.

ولم يضرب على قالب ابن معتوق إلا القليل، كالأديب المسمى ابن خليفة البغدادي، وهو من أدباء القرن الثاني عشر، فقد عثر له بعضهم على بند من مثل ذلك أوله:

أيها اللائم في الحب، دع اللوم عن الصب، فلو كنت ترى الحواجب الزج^(٤)، فوق الأعين الدُّعج^(٥)... إلى أن يقول في ختامه: لو ترانا كل يدي لدى صاحبه العتب، ويسدى فرط شوق كامن أضمره القلب سحيراً، والتقى

(١) قلت: الغَلَسُ: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح.

(٢) قلت: الغَرَرُ: الخطر.

(٣) قلت: النُّججُ: النجج.

(٤) قلت: زَجَّ الحَاجِب (رَجَجًا): دَقَّ في طول وتقوس، الحواجب الزج: الطويلة المقوسة.

(٥) قلت: دعجت العين (دَعَجًا)، ودُعَجَة: اشتد سوادها وبياضها واتسعت.

قمصناً ثوب عفاف قط ما دُئس بالإثم سوى اللثم، لأصبحتَ من الغيرة فى حيرة، وأعلنتَ بحب الشادن الأهيف سرّاً وجهاراً.

قلت: وهذا عجيب أيضاً، فإن لم يكن ابن خلفه من ضعفاء المقلّدين الذين يسقطون بكلمة ويطيرون بكلمة، فإن الرأى المفتوحة أو أى قافية مطلقة، تكون شرطاً فى ختام هذه البنود، وهو غريب.

ولابد هنا أن نذكر نوعاً قريباً من البنود إلا أنه مستقل باسمه وصفاته، وهو النوع المعروف بالمستزاد، وأظن أن مأخذ البند منه، إلا أن الذى أخذه أطلق الوزن وهو فى المستزاد مقيد.

ولم يقع إلينا سبب هذه التسمية ولا أصلها، غير أنى وقفت فى الشقائق النعمانية فى ترجمة المولى حضربيك بن جلال الدين، وكان يلقب بجراب العلم، وهو من علماء السلطان محمد الفاتح، على منظومة منه، وهى:

يا من ملك الإنس بلطف الملكات، فى حسن صفات... إلخ^(١).

وكذلك أورد لأحمد باشا ابن المولى ولى الدين الحسينى المتوفى سنة ٩٠٢ قطعة أخرى فى معارضة هذه، وليس من عادة صاحب الشقائق أن يورد لمن يترجمهم شيئاً من مثل هذه المختارات؛ فحرصه على إيراد القطعة الأولى ومعارضتها، يدل على أن النوع غريبٌ عندهم.

المعجم والمهمّل :

تقدم فى مبحث الخط معنى الإعجام واشتقاقه وتاريخه، والمراد بالمعجم والمهمّل فيما سنأتى عليه الآن، هذا النوعُ من النثر والنظم الذى يلتزمون فيه إهمال بعض الأحرف وإعجام الأخرى؛ وأول من وضعه وبرّز فيه الحريرى صاحب المقامات، ولم يتكلفه أحد قبله فيما نعلم، وإن كان كثيراً ما يتفق فى منظوم الكلام ومنثوره، لكن على غير اطراد ولغير قصد، فالاطراد والقصد إذن هما معنى الاختراع فيه؛ وليس يخلو الكلام بتةً من أحرف مهملة وأخرى معجمة، لأن القسمين جماع مدته وقوام تركيبه.

(١) ابن خلكان: ١٥٤/١.

والذى يدل على أن الحريرى هو أول من قصد إلى هذا النمط، ما وطأ له به فى المقامة السادسة، إذ يقول عن لسان أبى زيد بعد أن تنقص القدماء لأنهم لم يُؤثر عنهم إلا لتقدم الموالد، لا لتقدم الصادر على الوارد: «وانى لأعرف الآن من إذا أنشأ وشى، وإذا عبّر حبر، وإن أسهب أذهب، وإذا أوجز أعجز، وإن بدّه شده، ومتى «اخترع خرع».

ثم ذكر أن إنشاء رسالة حروف إحدى كلمتيها يعمّها النقط، وحروف الأخرى غير معجمة «عُضْلَةُ الْعُقْدِ، وَمَحَكَّ الْمُتَقَدِّ» وأول هذه الرسالة: «الكَرَمُ ثَبَتَ اللَّهُ جَيْشَ سَعُودِكَ يَزِينُ، وَاللُّؤْمُ غَضَّ الدَّهْرُ جَفَنَ حَسُودِكَ يَشِينُ».

ثم عاد إلى ذلك فى المقامة السادسة والعشرين، فساق رسالة سماها الرقطاء، لأن أحد حروفها مهمل والآخر معجم، وأولها: «أَخْلَاقُ سَيِّدِنَا تُحَبُّ، وَبِعَقْوَتِهِ يُلَبِّ» إلا أنه اعتبر المدّ فى (لا) حركة، كما اعتبر التاء المربوطة فى الرسالة الأولى وما بعدها هاءً.

وكذلك ذكر فى المقامتين الثامنة والعشرين والتاسعة والعشرين خطبتين عربيتين عن الإعجام؛ ثم عاود الكرة فى المقامة السادسة والأربعين، فجاء بأبيات مهمة الأحراف سماها العواطل، وأبيات معجمة سماها العرائس، وأبيات كلمة منها مهمة وأخرى معجمة وسماها الأخياف.

فهذه المصطلحات التى أطلقها أسماء، وتقليبه هذا النوع على الأوجه المختلفة، والتوطئة التى استخرجناها من المقامة السادسة - كلها أدلة على أن الرجل واضع هذه الطريقة؛ لأنك لا تصيب هذه العناية فى مقاماته لغير هذا النوع مما عرف لمن قبله وإن كان له فيه زيادة، كالنوع الذى لا يستحيل بالانعكاس.

وقد زاد الصفى الحلى فى تقسيم نوع المعجم والمهمل فأتى بأبيات صدورها معجمة وأعجازها مهمة، ولم به الحريرى فى تقسيمه؛ ووضع بعض المتأخرين نوعاً جديداً سماه عاطل العاطل، واستخرج ذلك من أن بعض الحروف تكون مهمة ولكن أسماءها فى المنطق ليست كذلك، كالعين والميم؛ وبعضها تكون مهمة الاسم والمسمى، وهى ثمانية أحرف: الحاء، والذال، والراء، والصاد،

والطاء، واللام، والواو، والهاء؛ فنظم منها أبياتاً كأذئاب الضباب. وإنما مدار هذه الصناعة على أن تكون فى نسق الكلام لا فى نسق العقد، ولولا ذلك لجاء الناس منها بالطم والرم^(١)، أما أن يخرج إلى التعقيد ويؤخذ بها مأخذ الرقى والطلاسم، فلذلك اسم آخر؛ والخمر إذا فسدت صار اسمها خلا.

ومما أذكره بالإعجاب والاستحسان أن بعض علماء القرن الماضى، وهو العلامة الشيخ عبد الغنى الرافعى صادف من بعض الرؤساء فتوراً، ثم انقلب إغفالاً فإهمالاً، فعاتبه برسالة مهملة الأحرف ضمنها نظماً ونثراً، ووقع عليها بهذا التوقيع «داع محروم».

فكان إهمال أحرفها عتاباً فوق العتاب، وحظا من البلاغة لا يُعد فى سحر الألسنة ولكن فى سحر الألباب.

وقد وصل بعضهم بنوع المهمل إلى أن جعلوه كتباً فمنهم من فسر به قصيدة فى التصوف، ومنهم من فسر به القرآن الكريم؛ وما أقبح الفكاهة أن تكون جداً، والفكاهة فى بعض الطعام أن تكون كل الطعام، وكذلك فعلوا، ومثلهم فى هذه المضيعة كثير.

التائيم:

هذا نوع من الجناس اخترعه الحريرى وذكر منه أبياتاً فى المقامة السادسة والأربعين سماها الأبيات التائيم، لأنها مبنية على الألفاظ المزدوجة، فكأنها جمع متئم، وهى من النساء التى من عاداتها أن تلد توءمين، وهى خمسة أبيات، أولها:

زَيْتُ زَيْنَبُ بَقْدٍ يَقْدُ وتلاه وَيْلَاهُ نَهْدٌ يَهْدُ
جُنْدُهَا جَيْدُهَا وَظَرْفٌ وَطَرْفُ نَاعِسٌ بِحَدٍّ يَحْدُ

وأخص صفات هذا النوع أنك إذا أصبته عاطلاً من النقط مغفلاً من الضبط غمى عليك وجه قراءته فلا تتبين من ذلك شيئاً؛ وهو نفس الجناس الذى يسميه أهل البديع بالمصحف ويقولون فى حده: إنه ما تماثل ركناء خطأ واختلفا لفظاً

(١) قلت: الطم: بالكسو: الماء أو ماعلى وجهه أو ماساقه من غشاء. والرم: بالكسر: ما يحمل الماء أو ماعلى وجه الأرض من فئات الحشيش كما فى القاموس.

كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ. وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾^(١) إلا أن هذا النوع قد أضيف على التصحيف فيه التحريف باختلاف الحركة، فهو مصحّف مُحرف؛ ولم يثلوا له بغير قول الحريري.

وكننت وقفت على كلمات من هذا النوع لبعض الكتاب ولا أدري إذا كان متقدماً على الحريري أو هو متأخر عنه، فلا بد أن يكون أحدهما أخذ عن الآخر، وهذه عبارة ذلك الكاتب «غَرَّكَ عَزَّكَ فَصَارَ ذَلِكَ فَخْشٌ فَاحِشٌ فَعَلَّكَ فَعَلَّكَ بهذا تَهْدَا» ولكن ما لا شك فيه أن الحريري أول من نظم في هذا النوع ثم وطئوا عقبه فيه، وقد ذكر في كتاب الكثر المدفون المنسوب للسيوطي بعض أبيات ركيكة على تلك الطريقة أفسدها التحريف ولم تنسب هناك لأحد، ومنها:

دَلَّهَا دَلَّهَا فَضَنْتَ قَضِيبَ واعْتَدْتُ واعْتَدْتُ بَعْتَبٍ تَعِيبَ

ولم يذلل هذه الطريقة كالصفي الحلبي، فإنه جاء منها بأربعمائة فقرة نثراً وثمانين نظماً في عشرة أبيات، وضمَّن ذلك جميعه رسالته التي سماها التوءمية «وذكرت في ديوانه التوءمية خطأ» وقد أنشأها سنة ٧٠٠، وقال في سبب ذلك: إنه أنشأها حين جرى - بحضرة المولى السلطان الملك المنصور نجم الدين أبي الفتح ابن أرتق - ذكر أبيات الحريري وعجز المتأخرين عن هذه الصناعة نظماً ونثراً، قال: وكنت أوتر من قبل أن أعرفه طرفاً من صورة واقعتنا بالعراق التي أوجبت انتزاحي، وأعرض بطلب خدمة ببلدة مدة مقامي عندهم في «إنشاء بعض الرسائل المعجزة» فعندها أنشأت هذه الرسالة في تلك الصناعة وضممتها ذكر ذلك كله ولقب السلطان لزواله الشبهة عنها... أهـ.

وأول هذه الرسالة:

قَبْلَ قَبْلِ يَرَاكَ ثَرَاكَ عبد عند رَخَاكَ رَجَاكَ

ولا ينظر في هذا النوع إلا إلى محض الصنعة، فهو بعيد من التصفح والانتقاد فيما سوى ذلك؛ وما أرى الكاتب يحمل منه إلا على مثل مشتبك الأسنة في ساحة الأوراق، وهو إذا ظفر بعد ذلك كان الفتح الذي أقل ما يقال فيه

(١) سورة الشعراء: ٧٩، ٨٠.

إنه استغلاق.

وما دمنا في ذكر الصفي ومخترعاته، فإن لهذا الأديب كتاباً سماه الدر النفيس في أجناس التجنيس، اخترع فيه نوعاً مشكلاً، وذلك أن يجعل أركان التجنيس ثلاثة في صدر البيت وثلاثة في عجزه، وهو نوع لم يأت به غيره، لأنه ألفاظ معدودة، وقد نظم في ذلك أبياتاً مطلعها:

سَلْ سَلْسَلِ الرِّيقِ: لِمَ لَمْ يَرَوْ حَرَ ظَمًا بَلْ بَلْبَلِ لِقَلْبَ لَمَّا زَادَهُ أَلْمَا^(١)

(١) ديوان الحلي: ص ٣٩٩.

صناعات مختلفة

لسنا نزعم أننا بما أتينا على بيانه من هذه الصناعات قد استوفينا هذا البحث وتركناه فى حكم المفروغ منه، ولكننا إنما جئنا بأشياء استخرجناها من زوايا النسيان، ونفضنا عنها غبار القدم، وأحصيناها من صحف التاريخ إحصاء الحسنات والسيئات؛ وزوايا النسيان مظلمة، وغبار القدم متجحر، وصحف التاريخ لا تُعدّ؛ وما عسى أن يسمّى هذا العناء الناصب إلا بحثاً؛ بل ما عسى أن يكون البحث غير ذلك؛ فإذا كانت الأيام قد طوت بعض الصناعات فى صدور أصحابها، أو ذهبت النكبات بآثارهم، أو قطع الإهمال عرق التاريخ فى بعض هذه الآثار حتى أصبح لا يعرف أصله، ولا كيف نشأ وتقلب - فليس ذلك مما يلحق المؤرخ تبعة التقصير فيه؛ إذ هو إنما يستنطق الآثار، ويتعلق بالأخبار؛ فأما أن ينقب السماء ويدخل منها إلى الماضى ويبحث فيه عن الغيب ويحدث ويتكهن، فذلك شيء غير التاريخ.

ومن أجل هذا رأيت قلمى أصبح يطلب الوقوف بعد أن وصل إلى الصحيفة التى لا يجرى فيها إلا قلم الغيب. وسنشير فيما يلى إلى ما بقى من الصناعات التى انقطع دونها التاريخ وكانت دليلاً على غيرها مما انقطع عنا بتاريخه، إن كان ثمت من هذا شيء أو أشياء.

المشجر:

هو نوع من النظم يُجعل فى تفرعه على أمثال الشجرة - وسمّى مُشَجَّراً لاشتجار بعض كلماته ببعض، أى تداخلها، وكل ما تداخل بعض أجزائه فى بعض فقد تشاجر - وذلك أن يُنظم البيت الذى هو جذع القصيدة، ثم يُفرّع على كل كلمة منه تنمة له من نفس القافية التى نُظِمَ بها، وهكذا من جهتيه اليمنى واليسرى، حتى يخرج منه مثل الشجرة، وإنما يشترط فيه أن تكون القطع المكملة كلها من بحر البيت الذى هو جذع القصيدة، وأن تكون القوافى على روى قافيته أيضاً؛ وهو متأخر عن القرن الحادى عشر، إذ مر بك فى مبحث التشطير أن أدباء ذلك القرن كانوا يسمونه بالمشجر هذا النوع المعروف اليوم بالمطرز، ولا تحضرنا فى

ذلك أمثلة جيدة نرضاها للتمثيل .

ولعل أخذ هذه التسمية مما يسمونه بشجرة النسب؛ إذ هما متشابهان في الوضع متفقان على الجملة في الترتيب، وهذه الكلمة (شجرة النسب) كانت مستعملة في القرن الرابع وما بعده، بدليل وجود بعض كتب في الأنساب مُسمّاة بهذا الاسم (راجع فهرست المكتبة الخديوية).

غير أن لهذا النوع من الصناعة أصلاً قديماً؛ إذ عثر بعض أدباء البغداديين في كتاب نيل السعود في ترجمة الوزير داود، وهو مجموع خطي لم يذكر فيه اسم جامعه كتب سنة ١٢٣٢ ويحتوي بعض قصائد في مدح هذا الوزير، ثم منتخبات أخرى لشعراء مختلفين، ومنها بيت شعر منسوب لبديع الزمان الهمداني، وهو من نوع المشجر بعينه، إلا أنه يتفرّع من جهة واحدة لا من جهتين كما اصطلاح عليه المتأخرون^(١)

المقطع والموصل :

ومعنى الأول أن تكون كلمات المنظومة كلها منفصلة الأحرف رسماً، وهو بخلاف الثاني، فإن جميع أحرفه ينبغي أن تكون متصلة بعضها ببعض في كل كلمة؛ ولم نر من ذلك شيئاً لغير الصفي الحلي، فربما كان أول من خصصه بالنظم وربما كان متابعاً، وعلى أيهما فذلك من عبث الصناعة؛ ومثل الموصل قول الصفي :

إذا زار داري زورٌ ودود أودّ وأورده ورد ودي

وهي ثلاثة أبيات تدور في جملتها على هذه الأحرف لأن الحروف التي ترسم منفصلة معدودة؛ ومثال الثاني قوله :

سَلْ مُتْلَفَى عَطْفًا عَسَى يَتَعَطَّفُ فَلَقَدْ قَسَا قَلْبًا فَمَا يَتَلَطَّفُ

وجميعها سبعة أبيات، وكل ذلك في ديوانه .

(١) المجلد الثاني من المقتبس : ٣٨٦/٧ .

المصحفات :

هذا نوع يلحق بالصناعات، لأن المدار فيه على القصد والتعمل، فتجىء بالألفاظ توهم المدح، فإذا صُحِّفَتْ خرجت ذمّاً وقدحاً، كما تقول: هو كاتب أمين فإذا صَحَّفْتَه قلتَ هو كاذب أفين، مثلاً؛ فذلك كالهجو في معرض المدح الذى يعرفه البديعيون، وهو من مستخرجات ابن أبى الإصبع، ولكن ذلك فى الألفاظ بما يدل ظاهرها وباطنها باعتبار مواقعها فى الكلام لا غير.

وقد ذكر صاحب الشقائق ^(١) فى ترجمة المولى شمس الدين المتوفى فى حدود التسعمائة، وهو من أفراد علماء الموسيقى، أنه كان ينظم القصائد العربية والفارسية والتركية ويمدح بها الأكابر ويرسلها إليهم، وكل قصيدة إذا صَحِّفَتْ من أولها إلى آخرها يحصلُ منها هجو.

وقد ينظمون الأبيات إذا قرئت صدورها وأعجازها كانت مدحاً، فإذا أفردت الصدور خرجت منها أبيات فى الذم؛ وأبياتاً أخرى إذا قرئت معكوسة الألفاظ كانت هجاءً وهى فى طردها مديح.

ولم نعثر من نوع المصحفات على شىء من النظم، بل لم نهتد إلى أنه من الصناعات إلا بكلمة صاحب الشقائق التى أوردناها، وهو رجل كان لا يحفل بحياة التاريخ فأماته فى كتابه؛ لأنه قلما ترجم إلا الأسماء والصفات الجامدة، فكأن كتابه بعد عصره إنما يترجم الموتى للموتى، فإنه لم يذكر فى ترجمة شمس الدين - على أنه من أفراد الموسيقى ومن عجائب المصنِّعين - إلا أسطراً، وكذلك شأنه فى غيره، وأين من ذلك حقيقة التاريخ؟

(١) الشقائق النعمانية : ص ٣٢٨ .

تذييل

إلى هنا انتهيت من ترتيب ما وجدتُ بخط المؤلف رحمه الله من كتاب «تاريخ آداب العرب» وكان التدبير أن يكون بعد هذا الفصل فصول وأبواب، ولكنى لم أعثر بين ما خلف من أوراقه على غير ما قدّمت؛ فلعله وقف من تأليفه عند هذا الحدّ، أو لعلّ ورقات منه قد أبلاها القدم وبعثرها الإهمال؛ وقد انتهى تحقيقى إلى أن المؤلف - رحمه الله - قد نفّض يده من هذا البحث قبل وفاته بأكثر من ربع قرن، ثم لم يرجع إليه ولم ينظر فيه بعد ذلك.

وكان الفراغ منه فى مساء السبت ١٨ ربيع الآخر سنة ١٣٥٩ - ٢٥ من مايو سنة ١٩٤٠ بعد انتقال مؤلفه إلى جوار ربه بثلاث سنين وخمسة عشر يوماً. رحمه الله وأجزل ثوابه.

محمد سعيد العريان

الفهرس

الصفحة

الموضوع

٣	مقدمة الطبعة الأولى
	الباب الخامس
١١	** تاريخ الشعر العربي ومذاهبه
١٣	الأقوال في أولية الشعر العربي.
١٥	تحقيق هذه الأولية.
١٧	نشأة الشعر
١٨	الباعث على اختراع الشعر
٢١	أول من قصّد القصائد.
٢٢	الرجز والقصيد
٢٤	الشعر في القبائل
٢٦	بيوتات الشعر والمعرقون فيه جاهلية وإسلاماً.
٢٨	سيما الشعراء.
٣١	حالة الإنشاد.
٣٣	ألقاب الشعراء.
٣٦	المقلّون والمكثرون.
٤٠	الآرتمال والبديهة والروية.
٤٥	النوع وألقابه في الشعراء.
٤٨	الاختراع والاتباع.
٥٠	الاتباع وأنواعه.
٥٢	شياطين الشعراء.
٥٥	طبقات الشعراء.
٥٧	الشاعرات.
٦٦	تنوع الشعر العربي وفنونه.
٧٢	الهجاء.
٧٤	الهجاء في القبائل.
٨٠	الهجاء في الشعراء.
٨٢	مشاهير الهجّائين.
٨٥	المديح.
٩٠	شعر الكدية أو الشعر الساساني.

٩٢	 الفخر والحماسة.
٩٦	 الرثاء.
١٠١	 الغزل والنسيب.
١٠٨	 الغزل الوصفى.
١١٤	 الشعر الحكيمى.
١١٨	 الشعر الإلهى.
١٢٢	 الشعر الأخلاقى والمبادئ الاجتماعية.
١٢٥	 الشعر الهزلى.
١٣٠	 الشعر القصصى.
١٣٧	 الشعر العلمى.
١٤١	 الفنون المحدثّة من الشعر
١٤٢	 الموشح
١٤٣	 سبب اختراعه
١٤٥	 الموشح الملحون
١٤٦	 عرض أنواع الموشح
١٤٨	 نوايغ الوشاحين
١٤٩	 كتب التوشيح.
١٥٠	 الدوبيت
١٥٢	 الشعر العامى والمواليا
١٥٤	 الزجل
١٥٨	 فنون أخرى
١٥٨	 الأصمعيات والبدوى
١٥٨	 كان وكان والقوما
١٥٩	 الحماق
١٥٩	 العامى والغريب

الباب السادس

١٦١	 ** فى حقيقة القصائد المعلقة ودرس شعرائها
١٦٣	 السبع الطوال.
١٧٠	 امرؤ القيس.
١٧٢	 طويلة امرئ القيس
١٧٤	 شاعرية امرئ القيس وأسباب شهرته.

١٨٠	شعر امرئ القيس
١٨٢	استعاراته
١٨٥	تشبيهاته
١٩٠	تمة الانتقاد
١٩٤	المنازعة بين امرئ القيس وعلقمة
١٩٨	قصيدة امرئ القيس.
٢٠١	قصيدة علقمة بن عبدة.
٢٠٣	طرفة بن العبد.
٢٠٦	شعره
٢٠٨	مذاهبه في الشعر.
٢١٢	زهير بن أبي سلمى.
٢١٤	مختاراتها وسببها. شعره.
٢٢١	خشونة الشعر الجاهلي.

الباب السابع

٢٢٥	*** أدب الأندلس إلى سقوطها ومصرع العربية فيها
٢٢٧	الأدب الأندلسي.
٢٢٧	الأدب وتأثره بالتاريخ السياسي
٢٢٧	القسم الأول: الأندلس من العراق
٢٣١	عربية الأندلس
٢٣٣	أولية الأدب والعلوم.
٢٣٦	الأدب في القرن الثالث.
٢٣٩	الحضارة الأندلسية.
٢٤١	أدباء ملوك الأندلس
٢٤٢	مبلغ عنايتهم بالعلم والأدب.
٢٥٠	القرن الخامس وملوك الطوائف.
٢٥٣	عصر الوزراء.
٢٥٦	القرن السادس وما بعده.
٢٥٨	الأدب ودولة الموحدين
٢٦١	نكبة الفيلسوف ابن رشد
٢٦٤	بعد القرن السادس.
٢٦٦	الشعر الأندلسي والتلحين.

٢٦٨	الشعراء الفلاسفة.
٢٧١	أدبيات الأندلس.
٢٧٢	علوم الأندلسيين.
٢٧٣	العلوم الفلسفية.
٢٧٧	مقاومة الفلسفة العربية الطبيعية فى أوربا وانتشارها
٢٧٨	آخرة الفلسفة العربية.
٢٨٠	العلوم الأدبية
٢٨٢	كتاب سيويه عندهم
٢٨٣	علماء العربية والأدب
٢٨٥	المائة السادسة
٢٨٨	المائة السابعة
٢٨٩	نكت الأندلسيين
٢٨٩	المائة الثامنة
٢٩٠	كلمة فى تراجم هذا البحث.
٢٩٢	مصرع العربية فى الأندلس.
٢٩٤	اليهود بالأندلس وترجمة كتب الفلسفة
٢٩٦	ترجمة الفلسفة العربية فى أوربا.
٢٩٨	تنصر العربية
٢٩٩	ديوان التفتيش
٣٠٠	آخرة العربية.

الباب العاشر

٣٠٣	***التأليف وتاريخه عند العرب ونوادير الكتب العربية
٣٠٥	كتب الشعر
٣٠٥	الطبقات والتراجم
٣٠٨	كتب المختارات
٣١٠	الحماسة
٣١٢	مختارات أخرى.

الباب الحادى عشر

٣١٥	***الصناعات اللفظية التى أولع بها المتأخرون
٣١٧	الصناعات.
٣٢١	لزوم ما لا يلزم.

٣٢٣	 الشينية والسينية.
٣٢٥	 القوافي المشتركة.
٣٢٨	 القصائد المعرّاة.
٣٣٠	 محبوبك الطرفين.
٣٣٢	 ذوات القوافي.
٣٣٦	 القوافي الحسيّة.
٣٣٩	 التاريخ الشعري.
٣٤٥	 التخميس والتشطير وما إليهما.
٣٤٩	 ما يقرأ نظماً ونثراً.
٣٥١	 نوع من حل المنظوم.
٣٥٣	 ما لا يستحيل بالانعكاس.
٣٥٥	 الملاحن.
٣٦٠	 الألفاظ والأحاجي والمعميات وغيرها.
٣٦٠	 الألفاظ
٣٦٤	 الأحاجي
٣٦٦	 المعنى
٣٦٩	 البنود والمستزاد.
٣٧١	 المعجم والمهمّل
٣٧٣	 المتائيم.
٣٧٦	 صناعات مختلفة.
٣٧٦	 للشجر
٣٧٧	 المقطع والموصل
٣٧٨	 المصحفات.
٣٧٩	 تذييل.
٣٨٠	 النهرس